لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩١٤



فجر الإسلام

كتاب فى ثلاثة أجزاء يبحث عن الحالة العقلية والسياسية والأدبية
فى صدر الاسلام الى آخر الدولة الأموية

اشترك فى تأليفه : طه حسين ، واحمد أمين ، وعبد الحميد العبادى
اختص كل بكتابة جزء فى ناحية من هذه النواحى الثلاث

الجزء الأول
فى الحياة العقلية

تأليف
أحمد أمين
المدرس بكلية الآداب بالجامعة المصرية

مطبعة الاعتماد بشارع حسن الاكبر بمصر
١٣٤٧ — ١٩٢٨

الثمن عشرون صاغا







لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩١٤

فجر الإسلام

كتاب فى ثلاثة أجزاء يبحث عن الحالة العقلية والسياسية والأدبية
فى صدر الاسلام الى آخر الدولة الأموية

اشترك فى تأليفه : طه حسين ، واحمد أمين ، وعبد الحميد العبادى

اختص كل بكتابة جزء فى ناحية من هذه النواحى الثلاث

الجزء الأول
فى الحياة العقلية

تأليف

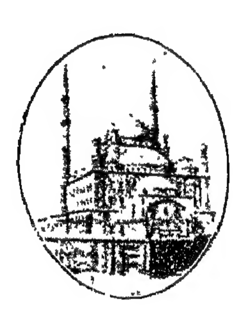
احمد امين

المدرس بكلية الآداب بالجامعة المصرية

مطبعة الاعتماد بشارع حسن الاكبر بمصر

١٣٤٧ — ١٩٢٨

الثمن عشرون صاغاً



الفهرس

صفحة

الباب الأول — العرب فى الجاهلية

الباب الثانى — الاسلام

صفحة

تأثير اليونان فى الأدب العربى

الباب الخامس — الحركة العلمية فى القرن الاول الهجرى وصفها ومراكزها

صفحة

صفحة



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الكتاب

للدكتور طه حسين

فى نفوس الناس الآن من الأدب العربى ودرسه صورة جديدة مخالفة لما كان فى نفوسهم منذ سنين ، ولكنها صورة غامضة على جدتها وطرافتها ، أو هى غامضة لجدتها وطرافتها ، فالناس جميعاً لا يطمئنون الآن الى ما كانوا يطمئنون اليه من أن الاديب يجب أن يروى طائفة جيدة من مختار المنثور والمنظوم ، وأن يلم بما يتصل بهذا المنثور والمنظوم من لغة وتاريخ وقصص ونسب لشرحه وتفسيره ونقده ليكون أديباً ، وانما هم يطلبون الى الأديب شيئاً آخر ، يطلبون اليه أن يكون مرآة صافية وضاءة أمينة لخير ما فى عصره ان كان أديباً منشئاً ، وأن يكون مرآة صافية وضاءة أمينة للادب الذى يريد درسه ان كان أديبا واصفا . وليس المختار من المنظوم والمنثور الا صوراً لالوان من حياة الافراد والجماعات فيها القوى وفيها الضعيف ، فيها الجيد وفيها الردىء ، فيها الرضى وفيها البغيض . والناس لا يريدون الآن أن يقنعوا بهذه الصور يحفظونها ويستظهرونها ويلقون عليها أبصارهم متعجلين لا يحققون ولا ينعمون ، وانما يريدون أن يتعرفوا ما وراء هذه الصور ويتعمقوا حقائقها ويعرفوا — الى أقصى حدود المعرفة — دقائق هذه الحياة النفسية التى اضطربت بها الأفراد والجماعات فانشأت ما أنشأت من نثر ونظم .

الناس يحسون ذلك ويشعرون به ، ثم يؤدون حسهم وشعورهم بهذه الشكوى

المتصلة من ضعف الأدب العربى وفساده ، وقصوره عن أن يثبت للآداب الأجنبية ، وبهذا الازدراء المتصل بالادباء وأساتذة الادب وما ينتج اولئك وهؤلاء من أدب انشائى أو وصفى ، وبانصراف كثير منهم عن الادب العربى قديمه وحديثه الى الأدب الاجنبى يفتنون به ، ويتهالكون عليه ، ويؤثرونه لا يعدلون به شيئاً .

ولكنك تسألهم ماذا يريدون من الأدب العربى ليقرأوه ويحبوه ، وماذا يريدون من الأديب العربى ليسمعوا له ويصغوا اليه ، فيجيبونك أجوبة غامضة ملتوية لا تكاد تحقق شيئاً مما يجدون فى أنفسهم الا أنهم يكرهون هذا الادب العربى ويتبرمون به ، ويرونه بعيداً كل البعد عن أن يرضى حاجات نفوسهم ، ويحقق ما لعقولهم من مطامع .

وقد أحس أساتذة الأدب أنفسهم نفور الناس من أدبهم وانصرافهم عنه منذ أول هذا القرن ، فجدوا فى أن يلائموا بين أدبهم وبين عقول الناس ، وحاولوا التجديد والاصلاح ، فنشأ فى مصر ما سموه تاريخ الادب . وتغير اسم الادب نفسه بعض الشىء فسمى فى الكتب والبرامج الرسمية هذا الاسم الجديد الغريب بعض الشىء : أدب اللغة ، أو آداب اللغة : ولكن أساتذة الادب لم يفهموا عن الناس شكواهم على وجهها ، فلم يتصوروا التجديد فى درس الادب على وجهه . وخيل اليهم أن التجديد فى درس الادب انما يكون اذا صيغت كتب الادب العربى صيغة كتب الادب الاجنبى ، وأرخ الادب العربى على نحو ما يؤرخ الادب الاجنبى ، فقسم الى عصور ، وترجم فى كل عصر لطائفة من الكتاب والشعراء النابهين ، وأشير — فى ايجاز — الى ما يسمونه المؤثرات الادبية أو العلمية التى تتميز بها العصور بعضها من بعض ، واستحدثت الفاظ جديدة هى فى حقيقة الأمر ترجمة لالفاظ أجنبية ، لا تدل فى أدبنا العربى على شىء ، وعلى هذا النحو نشأ فى مصر نوع من الادب جديد لا هو بالعربى القديم ، ولا هو بالاجنبى الحديث ، وانما هو شىء بين بين ، قصر عن ذاك ، ولم يبلغ هذا . وعشنا على هذا الادب حيناً . ولكن

شكوى الناس لم تنقطع ونفورهم من الادب العربى وانصرافهم الى الآداب الاجنبية لم يزدادا الا شدة والحاحا . وكان طبيعيا أن تتصل هذه الشكوى ، وكان طبيعيا أن يشتد هذا النفور والانصراف ، لان رقى الحياة العقلية فى مصر اطرد منذ أول هذا القرن . ولان اتصال هذه الحياة العقلية المصرية بالحياة الاوروبية اشتد واستوثقت عراه ، بينما لم يطرد رقى الادب ولم يتصل بالادب الاجنبى ، ولم يزد أساتذة الادب فى هذه الايام على ما وضعوه من صور جديدة فى أول القرن . فمضى الناس قدما وتخلف الادباء .

وقام بين الناس واساتذة الادب سور من اليأس عميق صفيق حال بينهم وبين ان يفهم بعضهم بعضا ، فأما الناس فاستيأس أكثرهم من الادب العربى، وأخذوا يروضون أنفسهم على الاستغناء عنه والاكتفاء بالآداب الاجنبية ، وأما اساتذة الادب فاستيأسوا من الناس واستيقنوا أن الحضارة الاجنبية قد أفسدت العقول والقلوب وعكفوا على أدبهم هذا المشوه يعيدونه ويبدئونه ، ثم يعيدونه ويبدئونه ويزجونه زجا فى نفوس الطلاب والتلاميذ لا يحفلون بما يتركون فى نفوس هؤلاء الطلاب والتلاميذ من أثر، ولا يحفلون بما يستبقون لهذا الادب العربى من حياة ، ومع ذلك فليس الادب العربى أقل حياة من الآداب الاجنبية مهما تكن ، وليس الادب العربى أقل صلاحا للبقـــاء واستحقاقا للعناية الخصبة والدرس المنتج من الآداب الاجنبية مهما تكن . وكل عيب الادب العربى أنه مجهول لا يحسنه أصحابه ولا يتعمقونه . وكل ما يحول بين الادب العربى وبين الحياة والخصب والنفع أن مناهج البحث عنه والاستقصاء له سيئة رديئة لم تنظم بعد ، ولم يتناولها الاصلاح فى مصر كما تناول اصلاح المناهج العلمية الاخرى ، فالناس يدرسون الطبيعة والكيمياء وغيرهما من العلوم التجريبية درسا صحيحا مستقيم المناهج كما تدرس فى أوروبا ، ولكنهم لم يوفقوا بعد الى هذا الحظ من الشجاعة الذى يكفى لان يتصور الادب كما تتصور العلوم، ولان يدرس الادب كما تدرس العلوم . ويقيننا ان لو تغير

تصور الناس للادب وتغيرت مناهجهم لاستقصائه والبحث عنه لتغير الادب نفسه ، ولكان درسه فى مصر منتجا قيما كما ان درس العلوم التجريبية فيها منتج قيم .

على هذا النحو من الاستعداد أقبل زملائى وأقبلت على درس الادب العربى فى الجامعة حين كلفنا هذا الدرس منذ سنين ، وكنا نحدث أنفسنا بأننا نحاول تجربة شاقة ، ان تفلح فقد استطعنا أن نحيى الادب العربى ونبعث فيه روحا جديداً يمكنه من النمو والنهوض والتسلط على عقول الناس وقلوبهم ، والتعبير عن أهوائهم ، وميولهم والاخذ بحظه من الحياة القوية الغنية بين الاداب القائمة ، وان لم تفلح فلم يضع الوقت ولم تذهب الجهود عبثا ، وانما هى محاولة يمكن الانصراف عنها الى محاولة أخرى ، وطريق يمكن العدول عنها الى طريق أخرى كما يفعل كل عالم مؤمن بعلمه ، جاد فى العناية به ، وكنا مؤمنين بالأدب العربى وكنا جادين فى العناية به ، وكنا مخلصين فى هذه التجربة ، لانحفل بما نجد فيها من مشقة ، ولا نفتر أمام مايعترضنا فيها من عقبة ، وكنا نجد فى هذه المشقات والعقاب وفى تذليلها والقدرة على اجتيازها لذة تدفعنا الى العمل وتحثنا على المضى فيه ، وكنا نجد من استعداد الطلاب وتفتح نفوسهم لهذا الأدب العربى ما يضاعف هذه اللذة ويشد من عزائمنا للمضى فيما نحن بسبيله ، وكنا كلما خطونا خطوة أحسسنا أن أقدامنا لا تزداد الا ثباتاً ، وأن الطريق تنبسط أمامنا مستقيمة واضحة الأعلام . ويخيل الينا أن قد قطعنا من هذه الطريق مرحلة يحسن أن نقف عندها بعض الشىء ، ويحسن أن نظهر الناس على ما وجدنا فيها .

على أننا لم نقطع هذه المرحلة فى سهولة أو يسر ، وانما وجدنا أمامنا طائفة ضخمة من الأنقاض بذلنا جهداً غير قليل فى إزالتها لتخلص الطريق لنا ، وتستقيم أمامنا ، وكثير من هذه الأنقاض كان فى نفوسنا ، فكم تركت فيها تربيتنا الأولى وكم ترك فيها تعليمنا الأول . وكم حفظنا من أشياء لم يكن لنا بد من أن نخلص منها ونتخفف من اثقالها وننبذها على شىء من الألم والحزن كان يخالج نفوسنا ، وأى شىء آلم

للنفس وأثقل عليها من هـذا الجهد الذى يفرق بينها وبين ما أحبت وألفت منذ عرفت البحث والتفكير ؟

وكثير من هـذه الأنقاض لم يكن فى نفوسنا ولـكنه كان فى نفوس الناس ، وكان فى الـكتب . ولم يكن جهدنا فى إزالة تلك الأنقاض الخارجية أقل من جهدنا فى ازالة تلك الانقاض الداخلية ، ان صح هذا التعبير .

ومهما يكن من شىء فقد يخيل الينا أن جهودنا لم تذهب عبثاً ولم تمض سدى وأنا نستطيع أن نظهر الناس من القرن الأول للهجرة على صورة جديدة ، الا نكن قد وفقنا الى اتقانها وتحديدها من جميع أقطارها فقد وفقنا الى أن نظهر منها المقدار الذى يمكن غيرنا من الوصول الى حيث لم نصل ، والانتهاء الى ما لم ننته اليه . والعلم لا يعرف الـكلمة الأخيرة فى مسألة من مسائله ، وانما حقائقه كلها إضافية موقوتة ، لها قيمتها حتى يتكشف البحث عما يزيل هـذه القيمة أو يغيرها . ونحن لا نزعم لصورتنا هاته التى نعرضها من القرن الأول للهجرة أنها الصورة الاخيرة ، وانما نزعم أنها الصورة التى انتهى اليها بحثنا على مابذلنا فيه من جهد ، وما اصطنعنا فيه من دقة ، وما تحرينا فيه من انصاف ، وقد يتكشف بحثنا وبحث غيرنا عما يغير هذه الصورة كلها أو بعضها . فان يكن ذلك فنحن أشد الناس به اغتباطاً وله ابتهاجاً . ذلك أنا لا نبغى الا الحق من حيث هو . والحق لم يوقف على فريق من الناس دون فريق ، ولم يقصر على عصر من عصور التاريخ دون عصر

ولـكن ما هذه الصورة التى نريد أن نعرضها على الناس والتى نتحدث عنها فى غموض وابهام ؟ كانت القاعدة التى اعتمدنا عليها فى البحث أن الادب العربى كغيره من الآداب بل كغيره من كل مايتصل بالحياة الانسانية ، بل كغيره من كل مايصلح موضوعاً للدرس فى هذا الـكون شىء لا ينبغى أن ينظر اليه على أنه منقطع الصلة عما حوله ، وانما هو جزء من كل ، وليس الى معرفة الجزء سبيل اذا لم يعرف الكل ، أو اذا لم يعرف مايحيط به من الاجزاء الاخرى على أقل تقدير ، واذن فلا ينبغى أن نقف

جهودنا على درس الشعر والنثر وحدهما وتعرف ما لهما من قيمة فنية ، وانما ينبغي أن يدرس الشعر والنثر من حيث هما مرآة لحياة الامة العربية فى طور من أطوارها ، واذن فلا بد من أن تعرف الامة العربية فى هذا الطور معرفة واسعة عميقة واضحة . تعرف فى حياتها الخاصة بينها وبين نفسها ، وتعرف فى حياتها الخارجية بينها وبين الامم التي اتصلت بها ، ولا بد من أن تعرف حياتها الخارجية والداخلية معرفة دقيقة مفصلة الى أبعد حد يمكن أن تصل اليه الدقة والتفصيل . وعلى هذا قسمنا بحثنا الى ثلاثة أقسام : الاول الحياة العقلية للامة العربية فى القرن الاول للهجرة ، الثانى الحياة السياسية لهذه الأمة العربية فى هذا القرن ، الثالث حياتها الادبية . وكل قسم من هذه الاقسام معقد شديد التعقيد ، ملتو كثير الالتواء : فلم تكن الامة العربية ابان القرن الاول للهجرة تحيا حياة عقلية يسيرة سهلة كما يظن الناس ، وانما كانت حياتها العقلية خلاصة معقدة لطائفة كثيرة من العناصر اشتبكت وتداخل بعضها فى بعض . حتى نشأ عنها هـذا المزاج الذى نراه أيام بنى أمية ، وما رأيك فى حياة عقلية للعرب تجد فيها أثر الحياة الجاهلية وهو كثير بعيد ، وتجد فيها أثر الاسلام وهو مركب غير بسيط ، وتجد فيها أثر المسيحية وفيها السامى واليونانى ، وتجد فيها أثر المجوسية الفارسية كما تجد فيها أثر الديانات الهندية على اختلافها ، وكما تجد فيها أثر الحضارات المختلفة لكل هذه الامم التى ذكرنا أسماءها

ولو اننا كنا نريد التمويه على الناس والعبث بالعقول لأشرنا الى هذا فى شيء من الايجاز اللبق ، مكتفين بالمثل والشاهد نرويه رواية ونثبته على علاته فى غير تحقيق ولا تمحيص ، ولكننا لم نرد تمويها ولا عبثاً ، وانما أردنا أن نرضى ضمائرنا أولا وحاجة الناس ثانياً ، فأخذنا أنفسنا أو بعبارة أصح أخذ زميلنا الأستاذ احمد امين نفسه بأن يحلل هذه الحياة العقلية العربية تحليلا ليس أقل دقة واستقصاء من تحليل صاحب الكيمياء فى معمله ، نعم وأخذ زميلنا نفسه بأن يرد هذه الحياة العقلية العربية ما استطاع الى عناصرها المختلفة المكونة لها ، وبأن يعرف الى أى حد

امتزجت هذه العناصر وتداخلت ، وما مقادير هذه العناصر فى هذا المزاج العام ، ما مقدار العنصر الجاهلى ، وما مقدار العنصر الفارسى، وما مقدار العنصر اليهودى، وما مقدار العنصر اليونانى ، وما طبيعة هذه العناصر نفسها ، وما العناصر المختلفة التى كونت كل واحد منها ، ثم بعد هذا كله ما المزاج العربى الذى خرج من تفاعل هذه العناصر المختلفة فظهر فى الآداب العربية كما نراه فى شعر الشعراء ، وخطب الخطباء ، وعلوم العلماء ، وأمثال الناس فى أحاديثهم العامة والخاصة

* * *

ولقد أحب أن أتحلل من هذه القيود التى يأخذ بها الانسان نفسه حينما يتحدث عن أثر من آثاره فيتكلف التواضع ويلتزم القصد فلا يتمدح ولا يثنى ، أريد أن أتحلل من هذه القيود لأشهد بأن زميلى « احمد امين » قد نهض بهذا العبء فى درس الحياة العقلية العربية كأحسن ما ينهض الرجل ذو الضمير العلمى الحى بعبء من الأعباء . نعم أريد أن أتحلل من هذه القيود فأشهد بأن زميلى «احمد امين» قد استطاع أن يكشف لنا ببحثه هذا عن رجل لم نكن نقدر أن نراه ، فقد كنا نعرف له كفايته ومقدرته كعالم أديب ، جد حتى تثقف بالثقافة الأجنبية الأوربية ، ولكنا لم نكن نقدر أن يكون قد أخذ من هذه الثقافة بأدق حظ وأقربه الى الاتقان والكمال ، فاحسن العلم بمناهجها والاستعمال لهذه المناهج ، كما أحسن العلم بمناهج القدماء فى الفقه وعلوم الدين ، والاستعمال لهذه المناهج . ولست أخفى أنى لم أكن أعرف حداً لهذا الدهش الذى كنت أجده حين أرى « احمد امين » يتصرف فى المسائل الأدبية والفلسفية واللغوية بقدم ثابتة ويد صناع وعقل يعرف كيف يفكر وكيف ينتقل من قضية الى قضية ، ومن مقدمة الى نتيجة ، وكيف يضع الاشياء بعد ذلك كله فى نصابها معتدلا أحسن اعتدال لا يعرف التقصير ولا يعرف الاسراف

نعم أريد أن أتحلل من هذه القيود وأن أثنى على احمد امين . ومهما أفعل من

ذلك فلن يكون ثنائى شيئاً الى جانب هذا الاثر الذى سيتركه فى نفوس الناس بحثه الذى أقدمه الى الجمهور سعيدا مغتبطا بأنه أول ما يقع فى أيدى النـاس من كتاب « فجر الاسلام »

أخذ احمد امين نفسه بما رأيت من مناهج البحث فى درس الحياة العقلية للامة العربية ابان القرن الاول للهجرة فانتهى الى نتيجتين كلتاهما قيمة حقاً : الاولى أنه أظهر هذه الحياة كما كانت ، معقدة ملتوية ولـكنها قوية أشد قوة ممكنة، خصبة أشد خصب ممكن ، بعيدة كل البعد عما كان يظن الناس من هذه السذاجة الغليظة الجافة

الثانية أنه وصل بين الثقافة الادبية والثقافة الدينية والفلسفية وصلا متيناً لن يتعرض منذ الآن لضعف أو وهن ، فقد كان الناس يعلمون أن للدين والفلسفة أثراً فى الشعر والنثر . ولـكنهم لم يكونوا يزيدون على هـذه القضية العامة . أما الآن فقد استطاع احمد امين أن يضع أيدينا على هذه الآثار القوية الخالدة التى يتركها الدين والفلسفة فى الادب ، وأصبح كتابه وسيلة قيمة الى أن تتصل الحياة الدينية الاسـلامية فى وضوح وجلاء وقوة الى نفوس الشبان الذين يدرسون الادب العربى فى الجامعة أو فى غيرها من معاهد العلم العالى . ومن ذا الذى كان يقدر أن سيصل شباننا الى تعمق الفقه والتفسير والحديث والتوحيد وأثرها كلها فى الادب العربى ؟ ان كان الشبان ليسمعون هذه الالفاظ فيأخذهم شىء من الوجوم والازدراء ، أما الآن فسيقرأون وسيشوقهم مايقرأون ، وسيحرصون الحرص كله على التزيد من البحث والانعام فى القراءة والدرس

وأنا زعيم وسعيد بأن الشبان سيكثرون من قراءة القرآن ، وسيكثرون النظر فى كتب الحديث ، وسينعمون البحث عن مسائل التوحيد . وليس هذا بالشىء اليسير لا بالقياس الى هذه العلوم نفسها ولا بالقياس الى الادب العربى الخالص ، سيستفيد الادب من هذا الـكتاب فائدة جديدة هى اشتداد الصلة بينه وبين هذه

الثقافات المختلفة . وستستفيد هذه الثقافات نفسها لانها ستبلغ بهذا الكتاب بيئات لم تكن تبلغها من قبل .

***

وليست الحياة السياسية للعرب أبان القرن الاول بأقل تعقيدا من الحياة العقلية فللعرب فى هذا القرن سياسة خارجية دقيقة عويصة . ولهم فى هذا القرن سياسة داخلية مشتبكة الاطراف متشعبة الانحاء ، وكلتا السياستين متأثرة بمؤثرات منها العربى ومنها الاجنبى ، منها ما كان قبل الاسلام ومنها ما طرأ بعد الاسلام . وليست حاجة هذه الحياة السياسية الى العناية والتحليل بأقل من حاجة الحياة العقلية . وسيرى الذين يقرأون كتاب الاستاذ عبد الحميد العبادى أن بلاءه فى هذا البحث خليق بما لبلاء صاحبه احمد امين من حمد وثناء

***

والحياة الادبية هى الخلاصة الفنية . وهى فى الوقت نفسه المرآة لكل ما اضطربت به الامة العربية فى حياتها العقلية والسياسية . وهى فى الوقت نفسه الخلاصة والمرآة لالوان أخرى من الحياة لا تمس السياسة ولا تمس التفكير العقلى الخالص . وهى كالحياة السياسية والعقلية محتاجة الى العناية والتحليل الدقيق وهى فى الوقت نفسه محتاجة الى نوع آخر من الدرس الفنى واللغوى . وأنا أرجو أن أنهض بعبء هذا البحث كما نهض صاحباى بعبء البحثين اللذين عالجاهما

ومهما يكن من شىء فنحن نقدم الى القراء كتاب « فجر الاسلام » راجين الا يفرغوا من قراءة أحد أقسامه حتى يظهر لهم قسمه الثانى ثم قسمه الثالث : راجين بنوع خاص أن يكون ظهور هذا الكتاب مؤرخاً لعصر جديد يدرس فيه الادب العربى هذا الدرس المفصل الدقيق الحر ، الذى لا يعرف مواربة ولا احتيالا ولا التواء ، والذى لا يقصد به الا الى العلم من حيث هو علم . والذى لا يحفل أصحابه الا بما يعنون به من البحث ، لا يعنيهم الثناء ، ولا يخيفهم

الهجاء ولا يكرهون (أستغفر الله ! بل هم يتمنون) النقد الصحيح البرىء.

وثلاثتنا متضامنون في هذا الكتاب على اختلاف أقسامه. قد استقل «احمد امين» بدرس الحياة العقلية، ولكنه قرأه معنا وأقررناه كما أقره فنحن شريكاه فيه على هذا النحو. واستقل «عبد الحميد العبادى» بدرس الحياة السياسية ولكنه قرأه علينا وأقررناه كما أقره فنحن شريكاه فيه على هذا النحو. واستقللت بدرس الحياة الادبية ولكننا قرأناه جميعاً وأقررناه جميعا «فنحن جميعا شركاء فيه على هذا النحو. وكل ماتتمناه الآن هو أن نوفق الى أن ندرس «ضحى الاسلام» بعد أن درسنا فجر الاسلام؟

طه حسين

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الجزء الاول

في الحيـــاة العـــقلية



الباب الأول

العرب فى الجاهلية

الفصل الأول

جزيرة العرب

ليست جزيرة العرب وحدها هى مسكن العرب ، فقد كانت لهم مساكن فيما حولها ، ولكن كانت الجزيرة مسكن أكثرهم ، وأهم مساكنهم ، فأضيفت اليهم

وهى اقليم فى الجنوب الغربى من آسيا ، يحد من الشمال ببادية الشام ، ومن الشرق بالخليج الفارسى وبحر عمان ، ومن الجنوب بالمحيط الهندى ، ومن الغرب بالبحر الأحمر

وهى أعلى ماتكون غرباً ، ثم تنحدر الى الشرق الا عند عمان ، وليس فيها أنهار دائمة الجريان ، ولكن أودية يجرى فيها الماء حيناً ويجف حيناً

أكبر جزء فيها صحراؤها فى وسطها ، وليست طبيعة هذه الصحراء متشابهة ، بل متنوعة أنواعاً ثلاثة ، (الأول) الصحراء المسماة بادية السَّمَاوَة ، وقريب فى مدلولها ما يسمى اليوم « صحراء النُّفود » (وهو اسم لم يكن يعرفه العرب) وهى فى الشمال ، تمتد نحو ١٤٠ ميلا من الشمال الى الجنوب و١٨٠ ميلا من الشرق الى الغرب ، ورمالها غالباً

وَعْسَاء [١]، ليس بها الا قليل من آبار وعيون ، والسير فيها شاق عسير ، لطبيعة أرضها ، ولأن الرياح تلعب برملها فتجعل منه كُثْباناً ووهاداً — تمطرها السماء شتاء فينبت فى بعض بقاعها نبات صحراوى ، وأزهار صغيرة مختلفة الألوان ، وأغلب سكانها بدو ، يرحلون عنها صيفاً الى التخوم لجدبها وقيظها ، ثم يأتون اليها شتاء لرعى ابلهم وشائهم

جُنوبى بادية السماوة ما يسمى الآن جبل شَمَّر ، وهو هلالى الشكل محدودب الى الجنوب ، مُنَاخه معتدل ، وأمطاره غزيرة ، وأعشابه كثيرة ، نثرت فيه جملة قرى و بلدان ، وهذا الجبل هو المعروف عند العرب بجبلى طيء وهما أجا وسَلْمى. سمى بشمر وهو فرع حديث من فروع طيء

(النوع الثانى) من الصحراء صحراء الجنوب ، وتتصل ببادية السماوة ، وهى تمتد شرقاً حتى تصل الى الخليج الفارسى ، وقد قدرت مساحتها بخمسين ألف ميل مربع ، وأرضها غالباً مستوية صلبة ، انتثرت حصباؤها ، وتموجت رمالها واذا نزل المطر فى موسمه ، أنبتت الأرض كلأ ، فيخرج البدو بابلهم وشائهم ونسائهم ، يقيمون فيها نحو ثلاثة أشهر ، ترعى ماشيتهم وهم يشربون من ألبانها ، فاذا جاء الصيف جف الزرع فعادوا الى مواطنهم ، ويغلب على هذا القسم أيضاً الجدب ، وفى قليل من بقاعه أشجار وغابات ونخيل ، وقد سمته العرب جملة أسماء ، فالجزء الذى بين شرقى اليمن وحضرموت يسمى صَيْهَدا ، والذى بين شمالى حضرموت وشرقيها يسمى الأحقاف ، والذى فى شمالى مَهْرة يسمى الدهناء ، ويسمى الآن جميعه بالرَّبع الخالى

(النوع الثالث) من الصحراء الحَرَّات ، والحرَّة — كما فى معجم ياقوت —

(١) الرمال الوعساء السهلة اللينة التى تغيب فيها الرجل عند السير

أرض ذات حجارة سود نَخِرة كأنها أحرقت بالنار » ، وهذه الحرات مقذوفات بركانية تبتدئ من شرقى حَوران وتمتد منتثرة الى المدينة ، وتقع المدينة نفسها بين حرتين ، وهى كثيرة فى جزيرة العرب عد منها ياقوت فى معجمه نحواً من ٢٩ حرة ، أشهرها حرَّةُ وَاقِم ، وهى التى تنسب اليها وقعة الحرة [1]

اذا نحن عدونا الصحراء وجدنا غربى جزيرة العرب يتألف من جزءين : الحجاز شمالا واليمن جنوبا . والحجاز يمتد من أيْلَة (العقبة) الى اليمن ، وسمى حجازاً — فيما يقولون — لأنه سلسلة جبال تفصل تِهَامة — وهى الأرض المنخفضة على طول شاطئ البحر الأحمر — عن نجد وهى الأرض المرتفعة شرقا ، والحجاز قطر فقير به كثير من الأودية ، تمتلئ بالسيل غِبَّ المطر ، وتسير مياهه صوب البحر ، ولكن مياهه ليست بالغزيرة ، ومناخه فى بعض بلاده معتدل كالطائف ، وفيما عدا ذلك حار شديد الحرارة ، وأغلب سكانه بدو رحَّل ، و بدوه فى أيامنا هذه يبلغون نحو خمسة أسداس السكان جميعا ، والسدس فقط قار فى القرى والمدن ، وأهمية الحجاز نشأت من وقوعه على الطريق التجارى الذى يربط اليمن ببلاد الشمال ، وقد رحل اليه قبل الاسلام اليهود ، وأنشئوا فيه مستعمرات فى خيبر والمدينة وغيرهما ،

وفى جنوبى الحجاز بلاد اليمن ، وهى تشمل الزاوية الغربية الجنوبية من الجزيرة ، قد عرفت قديماً بالخِصب والغنى ، وأشهر مدنها صنعاء ونجْران وعدَن ، وكان لسكان اليمن قديماً علاقات بالهند والشرق الأدنى

وفى شرقى اليمن صقع حضرموت ، وهو صقع كثير الجبال كثير الوديان ، و به مدن خربة عليها كتابات بالخط المسند

---

(١) وقد وضعت خريطة للحرات فى جزيرة العرب نشرت فى ألمانيا سنة ١٨٨٢

وفى شرقى حضرموت «ظَفَار»، وهى من قديم مصدر للتوابل والطيب وبخور المعابد ولا يزال — الى اليوم — يرسل منها الى الهند

وفى الزاوية الجنوبية الشرقية من الجزيرة عُمَان ، وهو قطر جبلى على شاطىء البحر ، وقد اشتهر سكانه قديما بالمهارة فى الملاحة — وفى الشمال الغربى من عمان قطر البحرين ويمتد الى حدود العراق

والجزء المرتفع الذى يمتد من جبال الحجاز ويسير شرقاً الى صحراء البحرين يسمى « نجدا » وهو مرتفَع فسيح ، فيه صحراوات وجبال ، نثرت فيه أراض صالحة للزراعة ، وهو أصح بلاد العرب وأجودها هواء

ومناخ جزيرة العرب — على العموم — حار شديد الحرارة ، يعتدل الليل فى أراضيها المرتفعة صيفاً ويتجمد ماؤها شتاء ، وأحسن هوائها الرياح الشرقية وتسمى الصَّبَا ، وكثيراً ما تغنى الشعراء بمدحها ، وعلى العكس من ذلك ريح السَّموم ، وأحسن أيامها أيام الربيع ، وهى التى تعقب موسم المطر فينبت الكلأ والعُشْب وترعى الابل والماشية

***

يسكن هذه الجزيرة العربُ ، وقد ذهب بعض الباحثين الى أن العرب ومن حولهم كانوا من أصل واحد ، ثم تحضر من حولهم وتخلفوا هم ، فقد تحضر سكان الفرات ، وتحضر وادى النيل ، وظل العرب تغلب عليهم البداوة لَمَّا حاصرتهم جبالهم وبحارهم

وسواء صح هذا أو لم يصح فقد تأخر العرب عما حولهم فى الحضارة ، وغلبت عليهم البداوة ، وعاش أكثرهم عيشة قبائل رُحَّل ، لا يقرون فى مكان ، ولا يتصلون بالأرض التى يسكنونها اتصالا وثيقاً كما يفعل الزراع ، بل هم يتربصون مواسم الغيث

فيخرجون بكل ما لهم من نساء وابل يتطلبون المرعى ، لا يبذلون جهداً عقلياً فى تنظيم بيئتهم الطبيعية كما يفعل أهل الحضر ، انما يعتمدون على ما تفعل الأرض والسماء ، فان أُمطروا رعوا ، والا ارتقبوا القدر ، وليس هذا النوع من المعيشة بالذى يرقى قومه ويسلمهم الى الحضارة ، انما يسلم الى الحضارة عيشة القرار واستخدام العقل فى تنظيم شؤون الحياة .

هذه العيشة البدوية هى التى كانت سائدة فى جزيرة العرب وان كان هناك أصقاع ممدنة كسكان اليمن

وهؤلاء البدو وأشباههم ينقسمون الى قبائل ، والقبيلة هى الوحدة التى انبنى عليها كل نظامهم الاجتماعى ، وهذه القبائل فى نزاع دائم ، وقد تتحالف القبيلة مع قبيلة أو قبائل أخرى للاغارة على حِلْف آخر أو لرد غارة أو نحو ذلك من الأغراض ، وقد تمر الأجيال وتنسى القبائل المتحدة أسماءها وشخصياتها وتنضم تحت اسم واحد هو اسم أقواها ، ثم قد يزعمون فيما بعد أنهم من أب واحد وأم واحدة

وقد عنى المؤرخون بنسب القبائل وتفرعها وألفوا فيها الكتب الكثيرة ولكن هذه الانساب فى مجموعها كانت ولا تزال مجالا للشك الكبير « سئل مالك رحمه الله عن الرجل برفع نسبه الى آدم فكره ذلك وقال من أين يعلم ذلك ؟ فقيل له فالى اسماعيل فانكر ذلك وقال ومن يخبره به ؟ »

واعتاد النسابون أن يقولوا أن عرب الشمال من نسل اسماعيل بن ابراهيم وعرب الجنوب من نسل يقْطان المسمى أيضاً قحْطان ، وترجع هذه العقيدة الى ما ورد فى التوراة فى سفر التكوين — ويسمى أهل الجنوب عادةً اليمنيين أو القحطانيين . وأهل الشمال العدنانيين أو النزاريين أو المَعَديين ، ولسنا الآن بصدد البحث فى صحة هذا التقسيم ، وكل الذى نريد أن نذكره أن هناك فوارق حقيقية

بين القسمين من وجوه

(الأول) ان القسم الجنوبى كان يعيش عيشة قرار ، وتغلب عليه الحضارة ، « لقد كانَ لسَبأٍ في مَسْكَنِهم آيةٌ جنَّتَان عنْ يَمِينٍ وشِمالٍ كُلُوا منْ رِزْقِ ربكمْ واشكرُوا لهُ بَلْدَةٌ طيِّبةٌ وربٌّ غفُورٌ » وأهل الشمال تغلب عليهم البداوة وعدم القرار

(الثانى) أنهم مختلفون أيضاً فى اللغة ، فلغة اليمن كانت تخالف لغة الحجاز فى أوضاعها وتصاريفها كما سنشير اليه بعد ، وكانت لغة اليمن أكثر اتصالا باللغة الحبشية والأكَّادية ، ولغة الحجاز أكثر اتصالا باللغة العبرية والنَّبطية

(الثالث) أنهم مختلفون فى درجة الثقافة العقلية تبعاً لما هم عليه من عيشة بدوية أو حضرية ، وتبعاً لاختلافهم فى اللغة والأمم المخالطة

ولسنا نعنى بما ذكرنا أن هذين القسمين كانا منفصلين تمام الانفصال ، وان كل قسم كان يسكن بلاده ولا يرحل عنها الى الآخر ، بل كان الأمر على عكس ذلك ، فهم يحدثوننا أن كثيراً من أهل اليمن قبل الاسلام رحلوا الى بلاد الحجاز ، وقليل من أهل الحجاز رحلوا الى اليمن ، فأما رحلة اليمن الى الحجاز فعللوها بانهيار سدّ مَأرِب فى اليمن وتفرق سكان البلاد الى أنحاء الجزيرة ، ويظن بعض المؤرخين أن من بين الأسباب التى بعثت على هذه الهجرة ما أصاب اليمن من السقوط والضعف التجارى بين القرن الثالث والرابع قبل الميلاد على أثر النشاط التجارى الذى قام به الرومانيون فى البحر الأحمر فى ذلك العهد ، فكان ذلك ضربة شديدة لتجارة اليمن ، وأما هجرة أهل الشمال الى الجنوب فقد يرجع الى كثرة نسل القبيلة وضيق موطنها بها فيضطرها ذلك الى الرحلة

على كل حال فقد ذكر النسابون أن التنقل بين القبائل كان من قبل الاسلام كثير الوقوع

وقد كان العداء مستحكما بين العدنانيين والقحطانيين من قديم حتى رووا أن كلا منهم اتخذ لنفسه شعاراً فى الحرب يخالف شعار الآخر ، فاتخذ المضريون العمائم الحُمْر والرايات الحمر ، واتخذ أهل اليمن العمائم الصفر والرايات الصفر ، قال الجوهرى سمعت بعض أهل العلم يفسر بذلك قول أبى تمام يصف الربيع

مُصْفَرَّةٌ مُحْمَرَّةٌ فكأنها عُصَبٌ تَيَمَّنُ فى الورى وتَمَضَّرُ

وأصل هذا العداء على ما يظهر هو ما بين البداوة والحضارة من نزاع طبيعى ، وكان توالى الحوادث والوقائع الحربية يزيد فى العداء ويقوى بينهم روح الشر ، ومن أوضح المُثُل على هذا ما كان من العداء الشديد بين أهل المدينة — الأوس والخزرج — وهم على ما يذكر النسابون يمنيون ، وأهل مكة وهم عدنانيون — وقد استمر هذا التنافس بينهم بعد الاسلام ، وكان بين القومين حزازات ومفاخرات ، وكل يدعى أنه أشرف نسباً ، وأعز نفراً ، وكان اليمنيون أحق بالفخر لما لهم من حضارة قديمة ، وملك راسخ ، فلما جاء النبى صلى الله عليه وسلم وهو عدنانى وكانت الخلافة فى قريش وهم عدنانيون رجحت كفة العدنانيين ، ويظهر أن اليمنيين أرادوا أن يعيدوا شيئاً من التوازن فى المفاضلة فسلكوا فى ذلك جملة طرق : منها أن رواتهم وقصاصهم لونوا تاريخهم القديم بلون زاهٍ جميل ، وزعموا أن قحطان ابنُ هود عليه السلام ، ومنها أنهم وصلوا نسبهم بالعدنانيين بطرق شتى كالذى ذهب اليه بعضهم من أن اسماعيل أبو العرب كلهم حتى قحطان — وربما كانوا هم الواضعين كذلك لنظرية تقسيم العرب الى عرب بائدة وهم قحطان وعاد وثمود وطَسْم الخ ويسمّون العرب العَرْباء أو العرب العاربة ، أما العدنانيون فعرب فى المنزلة الثانية فى العربية اذ يسمّون عربا مُتَعرِّبة ، وبعضهم يذهب الى تقسيم العرب الى عاربة وهم عاد وثمود وطسم الخ ويسمى قحطان عربا متعربة ، وعدنان عربا مستعربة ، أى انهم فى المنزلة

الثالثة فى العربية

يستمر النسابون فيقولون أن قحطان أبو اليمنيين جميعاً وأنه نَسَل شعبين عظيمين شعب كهلان وشعب حِمْيَر

فشعب كَهْلان تفرع منه فروع كثيرة أشهرها

(١) طيئ وهى تسكن الجبلين الشهيرين أجَا وسلمى وهما المعروفان الآن بجبل شَمَّروقد سكنتهما طَيئ من قبل الاسلام بقرون ، واشتهر ذكرها حتى كان السريان والفرس يسمون كل العرب طيئاً

(٢) هَمْدان ومَذْحِج ، وأغلبهم ظل يسكن اليمن ، والى مذحج ينتسب بنو الحارث الذين سكنوا الجنوب الشرقى للطائف، وبجِيلة التى كان لها أثر كبير فى فتوح العراق فى عهد عمر

(٣) عَامِلَة وَجُذَامُ وكانوا يسكنون بادية الشام ، والى جذام تنتسب لَخْم — التى أسست ملك الحيرة على الفرات ، وكِنْدَة التى حكمت حضرموت ومدت سلطانها على بنى أسد فى اليمامة ، والى اسرتهم المالكة ينتسب امرؤ القيس

(٤) الأزْد . وهم قبيلة قوية حكمت عمان ، ومنهم الغساسنة الذين أسسوا مملكتهم شرقى الشام ، ومنهم أيضاً خُزاعة التى تسلطت على مكة قبل قريش ، ومنهم كذلك سكان يثرب وهم قبيلتا الأوْس والخَزْرج

وأما شعب حِمْيَر فأشهر قبائله :

(١) قُضَاعة وكانت تسكن شمالى الحجاز (٢) وتَنُوخ وقد نزلوا قديماً شمالى الشام (٣) وكَلْب وكانوا يسكنون بادية الشام

(٤) وجُهَينة وعُذْرَة وقد نزلوا وادى إضَم بالحجاز ، وقدعرف العذريون برقة عواطفهم وطهارة عشقهم

كذلك يقسم النسابون عدنان الى فرعين كبيرين رَبيعة ومضر

فأما ربيعة فأشهر قبائلها (١) أسد وكانوا يسكنون شمالى وادى الرُّمة

(٢) ووائل وهى تنقسم الى بكر وتَغْلب ، وقد كانت بينهما حروب طويلة عقب قتل كُلَيب كادت تفنى القبيلتين جميعاً ، والى بكر بن وائل ينتسب بنو حنيفة اليَمَامَة

وأما مضر فأشهر قبائلها (١) قَيس وهى من الشهرة بحيث يطلق اسم قيس أحياناً على من عدا اليمنيين — والى قيس تنتسب هَوَازن وسُلَيم ، وكانا يسكنان الجزء الغربى من نجد — والى قيس أيضا تنتسب غَطَفَان ، وغطفان تنقسم الى القبيلتين الشهيرتين عَبْس وذُبْيان وكان العداء بينهما شديداً ، وأشهر حروبهما الحرب المعروفة بحرب دَاحِسٍ والْغَبْراء (٢) وتميم وكانت تسكن بادية البصرة (٣) وهُذَيل وكانت تسكن جبالا قريبة من مكة وقد اشتهر الهذليون بكثرة شعرهم وجودته (٤) وكِنَانة وهى تسكن جنوبى الحجاز ، ومنها قريش وهى التى كانت تسود هذا القسم

وقد كان بين ربيعة ومضر عداء شديد ظل قرونا طويلة أدى الى أن ربيعة غالبا كانت تتحالف مع اليمنيين لمقاتلة المضريين

هذه خلاصة لأشهر القبائل العربية ومواطنها ، وقد ذكرنا أن هذه الانساب مجال للشك ، ولكنها سواء صحت أولم تصح قد اعتنقها العرب ولاسيما متأخريهم ، و بنوا عليها عصبيتهم ، وانقسموا فى كل مملكة حلوها الى فرق وطوائف حسب ما اعتقدوا فى نسبهم ، واصبحت هذه العصبية مفتاحا نصل به الى معرفة كثير من أسباب الحوادث التاريخية ، وفهم كثير من الشعر والأدب ولا سيما الفخر والهجاء ، والاسلام جاء وكان قد تم اعتقاد العرب بانهم فى أنسابهم يرجعون الى أصول ثلاثة : ربيعة ومضر

واليمن، وأخذ الشعراء يتهاجون ويتفاخرون طبقاً لهذه العقيدة، واستغلها خلفاء بنى أمية ومن بعدهم فكانوا يضربون بعضاً ببعض مما لا محل لشرحه الآن

حالة العرب الاجتماعية — قدمنا أن العرب فى الجزيرة كانوا قسمين بدواً وحضراً، وان البدو كان هو القسم الغالب

فاما البدو فكانوا ولا يزالون يحتقرون الصناعة والزراعة والتجارة والملاحة ، انما يعيشون على ما تنتجه ماشيتهم ، يأكلون لحومها بعد علاج بسيط ، ويشربون ألبانها ، ويلبسون أصوافها ، ويتخذون منها مساكنهم ، واذا اشتد بهم الضيق أكلوا الضَّبَّ واليرْبُوع والوَبْر — وهم يعتمدون فى تغذية ماشيتهم على الطبيعة يخرجون بها فى مواسم المطر الى منابت الكلأ لترعى ، فاذا انتهى الموسم عادوا الى مواطنهم ينتظرون أن يحول الحول وينزل الغيث ، — واذا احتاجوا الى غير ما تنتجه ماشيتهم تعاملوا من طريق البدل ، فكانوا يستبدلون بالماشية ونتاجها ما يتطلبون من تمر ولباس

ونوع آخر اتخذوه أيضاً وسيلة من وسائل العيش وهو الغارة والسلب — يُغيرون على قبيلة معادية — وكثيراً ما تكون المعاداة — فيأخذون جمالهم ويَسْبون نساءهم وأولادهم ، وتتربص بهم القبيلة الأخرى ذلك فتفعل ما فعلوا — بل هم اذا لم يجدوا عدواً من غيرهم قاتلوا أنفسهم ، ولعل خير ما يمثل ذلك قول القَطامى

فمن تكن الحضارة أعجبته ... فأىَّ رجال بادية ترانا

ومن رْبط الجِحَاشَ فان فينا ... قنًا سُلُبا(١) وأفراساً حسانا

وكن اذا أغرْن على قَبِيل ... فَاعْوَزَهُن نَهْبٌ حيث كانا(٢)

(١) قنا جمع قناة وسلبا أى أطوال

(٢) القبيل الجمع من الناس

أغرن من الضِّباب على حلالٍ … وضَبَّة أنه مَن حان حانا(١)
وأحيانا على بكرٍ أخينا … اذا ما لم نجد الا أخانا

ومن أجل هذا كثيراً ما تضطر القبيلة التي ضعفت الى الاحتماء بقبيلة قوية تذود عنها ، ولكن قل أن يدوم حلفهم أو يطول ، بل سرعان ما ينتقض اجتماعهم وتنفصم وحدتهم ، فينقلب المتحالفون أعداء متحار بين

ليس في البدوي خلق يؤهله للتجارة ، فاذا اشترك فيها اقتصر عمله على أن يكون سائقاً أو هادياً للطريق أو حامياً من اغارة أمثاله

أفراد القبيلة متضامنون أشد ما يكون من تضامن ، ينصرون أخاهم ظالماً أو مظلوما ، يسعى بذمتهم أدناهم ، وهم يد على من سواهم

لا يسألون أخاهم حين يندُبهم … في النائبات على ما قال برهانا

اذا جنى أحدهم جناية حملتها قبيلته، واذا غنم غنيمة فهي للقبيلة ولرئيسها خيرها، واذا أبت قبيلة أن تحميه لجأ الى قبيلة أخرى ووالاها وحسب نفسه كأنه أحد أفرادها ، فوطنية البدوي وطنية قبلية لا وطنية شعبية ، وهذا الشعور بارتباطه بقبيلة يحميها وتحميه هو المسمى بالعَصَبية

والمعن في البداوة منهم ضعيف الايمان بدين ، قلَّ أن يؤمن الا بتقاليد قبيلته وما ورثه عن آبائه « الاعرابُ أشدُّ كفراً ونفاقاً وأجْدَرُ ألاَّ يَعلَمُوا حُدُودَ مَا أنْزَلَ اللهُ على رَسُوله ، واللهُ عليمٌ حَكيمٌ »

مَثله الأعلى في الأخلاق تركَّز فيما سماه « المروءة » ، تغنى بها في شعره وأدبه ، ومن الصعب أن تحدها حداً دقيقاً ولكن يصح أن تقول انها تعتمد على

(١) الضباب اسم قبيلة والحلال المجاور يقال حي حلال أي مجاور مقيم بالقرب منه، يقول أغرن على الحي المجاور لحيهم من قبيلتي ضباب وضبة — وقوله من حان حانا أي من جاء أجله فهو لا بد هالك

الشجاعة والكرم ، اما شجاعته فتتجلى فى كثرة من نازله وقاتله ، وفى مواقف دفاعه عن قبيلته ، وأكثر من هذا فى نجدته — وأما كرمه فيتجلى فى نحر الجَزور للضيف ، واغاثة البائس الفقير ، وفوق هـذا أن يعطى أكثر مما يأخذ ، وأن يَغْشى الوغى ويَعفّ عند المغنم »

دعاهم الكرم أن يأكلوا كثيراً ويشربوا النبيذ كثيراً ، ولكن بلاد البدو وأشباهها مجدبة قليلة الانتاج ، لا تسد حاجات الكريم ، فاتصلوا باهل الشام والعراق واليمن يستعينون بما يكتسبون على جدب أرضهم وقسوة أقليمهم

مرأتهم تشارك رجلهم فى شؤون الحياة ، فهى تحتطب وتجلب الماء ، وتحلب الماشية وتنسج المسكن والملبس ، وتخيط الثياب ، وهى — على الجملة — أقرب فى عقليتها الى عقلية الرجل ، ولكنها لا تُغْنى غَناء الرجل فى الحروب ، والحروب عندهم أساس لحياتهم ، فانحطت لذلك منزلة المرأة عن منزلة الرجل ، وكان فى بعض القبائل وَأد البنات . وكان فيهم من يقول الله فيه « واذا بُشّر أحَدُهم بالأنْثى ظَلّ وجهُهُ مُسْوَدًّا وهو كَظِيم يَتَوارَى مِنَ القوم مِنْ سُوء ما بُشّر به أيُمْسِكهُ على هُونٍ أمْ يَدُسُّهُ فى التُّرَابِ ألا ساء ما يحكمون »

***

أما الحضر من العرب فهم أرقى من ذلك كثيراً ، يسكنون المدن ويقرّون فيها ، ويعيشون على التجارة أو الزراعة ، وقد أسسوا قبل الاسلام ممالك ذات مدنية كاليمن ، والغساسنة فى الشام واللخميين فى العراق ، كما سنذكر ذلك فيما يلى

الفصل الثانى

اتصال العرب بمن جاورهم من الامم

شاع بين الناس أن العرب فى جاهليتها كانت أمة منعزلة عن العالم ، لا تتصل بغيرها أى اتصال ، وأن الصحراء من جانب والبحر من جانب حصراها وجعلاها منقطعة عمن حولها لا تتصل بهم فى مادة ولا تقتبس منهم أدبا ولا تهذيباً — والحق أن هذه فكرة خاطئة ، وان العرب كانوا على اتصال بمن حولهم ماديا وأدبياً وان كان هذا الاتصال أضعف مما كان بين الأمم المتحضرة لذلك العهد ، نظراً لموقعها الجغرافى ولحالتها الاجتماعية

وهذا الاتصال بين العرب وغيرهم كان من طرق عدة أهمها (١) التجارة (٢) انشاء المدن العربية المتاخمة لفارس والروم (٣) البعثات اليهودية والنصرانية التى كانت تتغلغل فى جزيرة العرب تدعو الى دينها وتنشر تعاليمها وسنذكر كلمة عن كل منها

التجارة — من قديم كانت جزيرة العرب طريقاً عظيما للتجارة ، فطوراً تنقل غلاتها الى الممالك الأخرى كالشام ومصر ، وأهم هذه الغلات البخور الذى يكثر فى الجنوب ولا سيما فى ظَفَار ، وطوراً تنقل غلات بعض الممالك الى البعض الآخر — ذلك لان طريق البحر لم يكن طريقا آمناً ، فالتجأ التجار الى البر يسلكونه ، ولكن طريق البر نفسه كان طويلا ، وكان خطراً ، لذلك أحاطوه بشئ من العناية ، كأن تخرج التجارة قوافل ، وان تسير القوافل فى أزمنة محدودة وفى طرق محدودة

وكان فى جزيرة العرب طريقان عظيمان للتجارة بين الشام والمحيط الهندى ، أحدهما يسير شمالا من حضرموت الى البحرين على الخليج الفارسى — ومن ثم الى صُور — والثانى يبدأ من حضرموت أيضاً ويسير محاذيا للبحر الاحمر متجنباً صحراء نجد وهجيرها ، ومتجنباً هضاب الشاطئ ووعورتها ، وعلى هذا الطريق الأخير تقع مكة فى المتنصف تقريباً بين اليمن وبَطْرَة

هذه الطرق التجارية أفادت العرب فائدة كبيرة ، وفتحت لهم بابا للرزق كبيراً ، فمنهم من كان يسكن المدن الواقعة على الطريق ويتاجر لنفسه ، ومنهم من كان يُستخدم فى التجارة كأن يكون سائقاً أو حارساً أو دليلاً

ومع ميل العربى للغزو والنهب ، وتهديده للممالك الممدنة على التخوم ، ومهاجمته لها من حين لآخر فان حبه للوفاء ، وشعوره بالشرف ، وتقديره للوعد الذى يصدر منه جعله يستطيع أن يتعامل مع من حوله من الأمم ، ويمهد الطريق لتجارة واسعة منظمة ، فكان كثير من القبائل يحمون القوافل من تعدى قبائل أخرى فى نظير جُعْل يأخذونه ، وكثيراً ما يردون الجعل اذا عدا عاد على قافلة فلم يستطيعوا رده وزاد فى نجاحها علمهم بالصحراء وسبلها ، ومواضع الأمن والخوف فيها وقدرتهم على تحمل القيظ وعناء السير

كانت التجارة قديما فى يد اليمنيين ، وكانوا هم العنصر الظاهر فيها ، فعلى يدهم كانت تنقل غلات حضرموت وظفار وواردات الهند الى الشام ومصر ، ثم انحط اليمنيون لأسباب أشرنا الى بعضها من قبل وحل محلهم فى القبض على ناصية التجارة عرب الحجاز ، وكان ذلك منذ القرن السادس للميلاد ، فكان هؤلاء الحجازيون يشترون السلع من اليمنيين والحبشيين ثم يبيعونها على حسابهم فى أسواق الشام ومصر ، وقليلا ما يبيعونها فى أسواق فارس ، لأن التجارة مع الفرس كانت

فى يد عرب الحيرة ، وجعل عرب الحجاز مكة قاعدة لتجارتهم ووضعوا الطريق تحت حمايتهم ، ووصل المكيون قبيل الاسلام — عند ما كان العداء بين الفرس والروم بالغاً منتهاه — الى درجة عظيمة فى التجارة ، وكان على تجارة مكة يعتمد الروم فى كثير من شؤنهم ، حتى فيما يترفهون به — كالحرير — وحتى يستظهر بعض مؤرخى الفرنج أنه كان فى مكة نفسها بيوت تجارية رومانية يستخدمها الرومانيون للشؤون التجارية للتجسس على أحوال العرب ، كذلك كان فيها أحابيش ينظرون فى مصالح قومهم التجارية (١)

كان أشهر من يسكن مكة قبيلة قريش ، وأبوها النضر بن كنانة ، فكل من كان من ولد النضر فهو قرشى ، وقد رأى بعضهم انها سميت قريشاً لاشتغالها بالتجارة ، ففى لسان العرب « وقيل سميت بذلك لانهم كانوا أهل تجارة ولم يكونوا أصحاب ضرع وزرع من قولهم فلان يتقرش المال أى يجمعه »

وقد ساعد قريشاً على بلوغ هذه المنزلة موقعها الجغرافى ، فقد ذكرنا أنها تقع فى منتصف الطريق ، وعين زمزم تستقى منها القوافل وتأخذ حاجتها من الماء ، ولأن قريشاً أهل الكعبة التى يدين العرب بعظمتها وتقديسها « لإيلافِ قُرَيش ايلافهمْ رحلةَ الشّتاءِ والصَّيفِ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذا الْبيت الَّذى أطْعَمهمْ مِنْ جُوعٍ وآمَنَهم مِنْ خَوْفٍ » قال الزّمَخْشَرى فى الكَشَّاف (كانت لقريش رحلتان ، يرحلون فى الشتاء الى اليمن ، وفى الصيف الى الشام ، فيمتارون ويتجرون ، وكانوا فى رحلتهم آمنين ، لأنهم أهل حرم الله وولاة بيته ، فلا يُتعرض لهم والناس غيرهم يُتَخَطفون ويُغار عليهم ، وقال تعالى « أوَ لمْ نُمكّنْ لَهمْ حَرَماً آمناً يُجْبَى الَيْه ثَمَرَاتُ كُل شئٍ رِزْقاً مِنْ لَدُنَّا ولكنَّ أكْثَرهمْ لا يعلمُونَ »

---

(١) أوليرى Arabia before mohammad

كان التجار يخرجون بتجارتهم قوافل عظيمة ، وقد رآها « سترابو » وشبه القافلة منها بجيش ، وذكر الطبرى أن قافلة من هذه القوافل بلغت خمسمائة والف بعير ، وقال ابن هشام فى غزوة بدر « ثم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سمع بأبي سفيان بن حرب مقبلا من الشام فى عير لقريش عظيمة فيها أموال لقريش وتجارة من تجاراتهم ، وفيها ثلاثون رجلا من قريش أو أربعون ، منهم مَخْرَمة بن نَوْفل وعمرو بن العاص وكانت هذه القوافل تخرج مع عظيم استعداد وكبير حَيْطَة ، تتقدمها الكشافة تتعرف مافى الطريق ، والهداة يهدون السبيل، والحراس يخفرون القافلة »

وقد كان عرب الحيرة يتعهدون بحماية قوافل التجارة الفارسية عند مرورها فى بلاد العرب فى نظير جُعْل كبير يأخذونه من الفرس ، ويروون أن الفرس مرة استكثروا هذا الجعل فأبوا دفعه فهاجم العرب قافلة فارسية وهزموا حُمَاتها ، وكان هذا اليوم أحد أيام العرب المشهورة ويسمى يومَ ذى قار ، وبه تغنى الشعراء ، وعدُّوه نصراً للعرب على الفرس

كانت القوافل التى تذهب من بلاد العرب الى الشام تنزل فى أسواق معينة عينتها لهم الحكومة الرومانية لتحصل منهم الضرائب المفروضة على « الصادرات » ولتراقب الأجانب الذين يقدمون بلادها — وكانت هذه القوافل أول ما تنزل فى البلاد الرومانية تنزل فى أيْلَةَ وهى المعروفة اليوم بالعقبة ، ومنها تذهب الى غَزَّة ، وهناك تتصل بتجار البحر الأبيض ، ومن غزة يذهب بعض التجار الى بُصْرى

وقد رووا أن النبى صلى الله عليه وسلم سافر فى هذه القوافل مرتين : مرة وسنه اثنتا عشرة سنة الى بصرى وأخرى وسنه خمس وعشرون

* * *

أترى أن هذه التجارة تقتصر على تبادل العروض والنقود ، ولا تتعداها الى الأمور المعنوية والأدبية ؟ لسنا نرى ذلك ، بل نرى أن العرب استفادوا فوق تجارتهم المادية شيئاً من مدنية الروم والفرس وأدبهم ، وهذا طبيعى ، فالرحلات الى الأمم المدنة تجعل دائماً تحت أعين الراحلين مدنية جديدة يقتبسون منها على قدر استعدادهم ، ولا يزال عرب اليمن والحجاز أنفسهم فى أيامنا هذه يستفيدون من زيارة مصر والشام ويأخذون من مدنيتهم وعلومهم ، بل لا نستطيع أن نصدق أن قافلة كبيرة كهذه تنتقل بتجارتها العظيمة لتتعامل مع أمة أجنبية من غير أن يكون فيها أفراد يعرفون لغة الذين يتعاملون معهم ويكونون واسطة للتفاهم بينهم — قد تقول انهم كانوا يعرفون اللغة الأجنبية كما يعرفها « التراجمة » اليوم ، وهؤلاء ليسوا أهلا لنقل مدنية ولا أدب ، فنقول قد يكون ذلك صحيحاً الى حدّ ما ، ولكن يجب ألا ننسى أن من بين الذين كانوا ينتقلون بالتجارة أعظم قريش ثروة وعقلا ، وقد رأينا فيما نقلنا أنه كان من بين رجال القافلة أبو سفيان ومَخْرَمة بن نوفل وعمرو بن العاص وهم سادة قومهم ، ومنهم من كان له يد فى ادارة شؤون الأمة فى الاسلام بعدُ ، فهم لا يقارنون بتراجمة اليوم ، وهم أكثر استعداداً لنقل مدنية بما يرون من نظام فى المعيشة ومبان ضخمة ومعابد ، وبما يرون من حكومة تشرف على الأسواق وتجبى الضرائب ونحو ذلك ، وبما يسمعون من قصص وأدب اذا فرغوا من تجارتهم وتنادموا ونقل من يعرف منهم اللغة حديثهم الى من لا يعرفها ، — نعم ان هذا لا يكون نقلا صادقا ولا ترجمة دقيقة ولا شبه دقيقة لتاريخ أو أدب ولا يستطيع أحد أن يدعى ذلك ، انما هذه النتف التاريخية والأدبية التى تنقل — وان كانت مشوهة — لا تخلو من أثر فى عقلية العرب — ودليلنا الآن على هذه الاستفادة ما أخذه العرب فى جاهليتهم من كلمات كثيرة فارسية وورومانية ومصرية وحبشية

نقلها هؤلاء التجار وأمثالهم وأدخلوها فى لغتهم ، وجعلوها جزءاً منها ، وأخضعوها لقوانينها ونطق بها القرآن ، وسنأتى على براهين أخرى فيما بعد

ب) **انشاء المدن العربية على التخوم** — اذا نحن نظرنا الى مصوّر آسيا وجدنا أن جزيرة العرب كانت تقع بين أعظم مدينتين فى العالم : فارس شرقا والرومان غربا ، وقد حاول الفرس والروم أن يخضعوا العرب لحكمهم اتقاء لغزوهم وسلبهم ، ولكنهم كانوا يعدلون عن ذلك لما يستلزمه فتح جزيرة صحراوية من ضحايا فى الأنفس والأموال ، ولأن طبيعة العيشة العربيـــة جعلتهم لا يخضعون لقوة واحدة اذا تغلب عليها المحارب خضعت له الأمة ، بل هناك عصابات وقوات متعددة لابد لاخضاع البلاد من الاستيلاء عليها جميعاً ، وليس ذلك باليسير — من أجل هذا رأى الفرس والروم أن خير وسـيلة لدفع شر العرب أن يساعدوا بعض القبائل المجاورة على أن يقروا على التخوم يزرعون ويتحضرون ، ثم يكونون رِدْءاً لهم يصدون غارة البدو الذين يغزون وينهبون ، فتكونت امارة الحيرة على تخوم الفرس ، وامارة الغساسنة على تخوم الرومان

امارة الحيرة — كان العرب قديماً على تخوم فارس من قبل انشاء امارة الحيرة فى تاريخ لا محل لسرده ، وفى عهد سابور الأول ملك الفرس (حول سنة ٢٤٠ م) أسس الفرس امارة الحيرة على نهر الفرات وأمّروا عليها عَمْرو بن عَدِىّ

وكان النظام المتبع أن عرب الحيرة يقدمون الطاعة لملك فارس وهو يولى عليهم أميراً من أنفسهم ، وعليهم أن يحموا فارس من كل مغير من نواحيهم ، والفرس مقابل ذلك يعفونهم من دفع الأِتاوة

وقد كان نظام الفرس اذ ذاك نظاما اقطاعياً ، يكاد يستقل كل وال بأمر مقاطعته ، ويستمر والياً عليها مدى حياته غالباً ، ويراعى الملك رغبة المقاطعة فيمن

يولّى عليها ، عكس النظام الرومانى فقد كان نظاما مركزيا

وفوق هذا كان عرب الحيرة أكثر استقلالا ، فهم لا يرتبطون بفارس الا بما توجبه المعاهدات عليهم ، وقد اعتاد ملك الفرس أن يُنصّب من قبيلة لَخْم (وهى قبيلة من أصل يمنى كما يذكر النسابون) واذا مات الأمير عيّن من يختاره من بيته

كان عرب الحيرة اذ ذاك فى رخاء يحسدهم عليه غيرهم من العرب لِخصب أرضهم ، وغنى أقليمهم ، وكانوا هم الصلة بين الفرس وعرب الجزيرة ، يحملون اليهم التجارة الفارسية ويبيعونها فى أسواقهم ، ويبشرون بالفرس ومدنيتهم وفى عهد يَزْدَجِرْد الأول (٣٩٩ — ٤٢٠ م) أرسل الملك أكبر أبنائه (بِهْرام) الى عرب الحيرة لينشأ بينهم ، ويتعلم الصيد وينعم بجودة الهواء ، وذلك فى عهد النّعمان الأول ، وكان بهْرام جُور هذا يعرف العربية كما يعرف اليونانية — وقد نازعه على الملك أخوه بعد وفاة يزدجرد فعاونه العرب وتعصبوا له ، فلما اعتلى عرشه لم ينس ما كان لعرب الحيرة من يد عليه فقربهم وأعلى شأنهم

ويظهر أن الحيرة بلغت شأوها أيام المنذر الثالث وكان معاصراً لِجُوسْتنيان ، حتى روى بعض المؤرخين أنه لما عقد الصلح بين الفرس والرومان سنة ٥٢٢ م كان من شروطه أن يدفع الرومان قدراً من المال لملك الفرس وللمنذر — وبعد ذلك بسنين أحس المنذر بضعف الفرس فتحالف مع الرومان ثم مال بعدُ الى الفرس فأسره الرومانيون ونفوه الى صِقِلّيّة

وبعده ولى النعمان الخامس زوج هند وهو الملقب بابى قابوس وصاحب النابغة الذبيانى، وقد غضب عليه كسرى ففر هاربا ثم لجأ اليه فحبسه حتى مات وكان ذلك حوالى سنة ٦٠٢ م، وبموته الغت الحكومة الفارسية نظام امارة اللّخْميّين وولت من قبلها حاكما فارسياً يخضع له أمراء العرب واستمر الحال على هذا حتى سنة ٦٣٣ م

حين فتحها خالد بن الوليد

كان عرب الحيرة أرقى عقلا ومدنية من عرب الجزيرة لتحضرهم ولمجاورتهم مدنية الفرس العظيمة ، واتصالهم بهم اتصالا وثيقاً ، وكان منهم من يعرف اللغة الفارسية ويجيدها، ففي ابن خلدون «أن عدىّ بن زيد (الحيرى) كان من تراجمة أبرويز، (ملك الفرس) وان أباه زيداً كان شاعراً خطيباً وقارئاً كتاب العرب والفرس[1]» .
ولا شك أن معرفة بعض هؤلاء الحيريين للغة الفرس كانت واسطة لنقل شئ من حضارتهم وآدابهم الى العرب

بل أن عرب الحيرة هؤلاء تسرب اليهم شيء من علوم اليونان وآدابهم ، ذلك أن الحكومة الفارسية فى عهد هُرْمز الأول أنشأت مستعمرات كونتها من أسرى الحرب الرومانيين وكان من بين هؤلاء الأسرى من ثُقف بالثقافة اليونانية ومنهم من كان يفوق الفرس فى الفن والهندسة والطب فاستخدموه فى مهام شؤونهم — ومن هؤلاء الأسرى من نزلوا الحيرة ، ويظن بعضهم أنهم هم منبع النصرانية فيها ، وعلى كل حال فقد كان فى الحيرة مبشرون بالنصرانية داعون اليها ، ولبى الدعوة منهم هند زوج النعمان الخامس ، وقد أنشأت ديراً سمى بدير هند كان الى عهد الطبرى

وقد كان لعرب الحيرة وأمرائهم وتاريخهم أثر كبير فى الأدب العربى والحياة العقلية للعرب عامة فأحاديث جَذيمة الأبرش وأساطير الزباء (وهما من الحيرة قبل انشاء الامارة التى ذكرناها) والخَوَرْنق والسَّدِير والتغنى بهما و بعظمهما والأقاصيص حول سِنِمَّار بانى الخورنق والأمثال التى ضربت فيه ويوما النعمان : يوم نعيمه ويوم بؤسه ، كل هذه وأمثالها شغلت جزءاً كبيراً من الأدب العربى وكلها

---

(١) تاريخ ابن خلدون جزء ٢

تتعلق بعرب الحيرة وحياتهم ، أضف الى ذلك ما ذكره « ابن رُسْتَه » فى « الأعلاق النفيسة » من ان أهل الحيرة علموا قريشاً الزندقة فى الجاهلية والكتابة فى صدر الاسلام

وكان أمراء الحيرة مقصداً لشعراء عرب الجزيرة ينفحونهم بالمال الكثير ليبشروا بهم بين البدو وفى أنحاء الجزيرة ، وديوان النابغة الذبيانى مملوء بالقصائد التى قيلت فى مدح النعمان والاعتذار اليه ونحو ذلك

الغساسنة — كوّن الغسانيون فى الشام امارة كالتى كونها اللخميون فى الحيرة ، ويذكر النسابون كذلك أن أصلهم من اليمن ، وقد امتد حكمهم تقريباً على مقاطعتى حَوْران والبلقاء ، ويظهر أنه لم يكن لهم مقر ملك ثابت ، فأحيانا يفهم من قول الشعراء أن جَوْلان والجابية عاصمتهم ، وأحيانا يذكرون جِلّق بالقرب من دمشق على انها هى العاصمة

وعلى العموم فتاريخ الغسانيين فى الشام من الأمور الغامضة فى تاريخ العرب ، واذا قارنا بين ما رواه المؤرخون عن أمراء الحيرة وما رووه عن الغسانيين وجدنا الأول واضحاً مفصلا والثانى ناقصاً متناقضاً ، فبينا حمزة الأصفهانى وأبو الفداء مثلا يعدان ملوك الغساسنة واحدا وثلاثين اذا بابن قتيبة والمسعودى يعدانهم عشرة أو أحد عشر ، كذلك يعد حمزة مدة ملك الحارث بن جَبَلة عشر سنين بينا مؤرخو الرومان المعاصرون يعدون ملكه ٤٠ سنة وهكذا ، بل اذا نحن قارنا بين ما رواه العرب عن الفرس وتاريخهم وما يتصل بهم عامة وما رووه عن الرومان وما يتصل بهم وجدنا أن ما ذكروه عن الاولين أدق وأقرب الى الصحة ، وما ذكروه عن الآخرين ناقصاً مضطرباً غير صحيح فى كثير من الأحيان ، ولعل السبب فى هذا ان الفرس أنفسهم دونوا ملكهم وملك الحيرة وعنهم أخذ مؤرخو العرب وان لم تصل

الينا الأصول التى نقلوا عنها ، وقد جاء فى تاريخ الطبرى ما نصه :

« وقد حدثت عن هشام بن محمد الكلبى أنه قال انى كنت أستخرج أخبار العرب وأنساب آل نصر بن ربيعة (الحيريين) ومبالغ أعمار من عمل منهم لآل كسرى وتاريخ نسبهم من بِيَع الحيرة وفيها ملكهم وأمورهم كلها [1] »

أما المؤرخون المعاصرون للغسانيين فكانوا يونانيين يكتبون باللغة اليونانية ، وكان العرب أقل اتصالا باليونانيين منهم بالفرس

أضف إلى ذلك أن من دخل فى الاسلام من موالى الفرس كانوا أكثر عدداً من الموالى اليونانيين ، وكان موالى الفرس يتعصبون لقومهم وأصلهم ويرون أن فى حفظ تاريخهم ونشره رفعة لشأنهم

وعلى كل حال فقد كان للغسانيين امارة بالشام ، وكان بينهم وبين امارة الحيرة عداء شديد ، وكثيراً ما وقعت بينهم الحروب الهائلة

وأهم أمراء الغسانيين وأول من يثق محققو المؤرخين بأمارتهم الحارث بن جَبَلَة وقد عينه الأمبراطور جوستنيان سنة ٥٢٩ م أميراً على جميع قبائل العرب فى سوريا ومنحه لقب فِيلارْكْ وبِطْرِيق Phylarch and Patricius وهو أعلى لقب بعد الامبراطور ، وكان الحارث نصرانيا على مذهب اليعاقبة ، وكان يعد حامياً من حماة كنيستها ، وقضى أكثر أيام حكمه فى محاربة المنذر الثالث أمير الحيرة ، وفى يونيه سنة ٥٥٤ م انتصر الحارث نصراً عظيما على المنذر فى قِنّسرين ، وربما كانت هذه الوقعة هى التى عرفت عند العرب بيوم حليمة والتى ورد فيها المثل المشهور «ما يوم حليمةَ بِسِرٍّ» وقد سافر الحارث هذا سنة ٥٦٣م الى القسطنطينية ليفاوض

---

(١) الطبرى جزء ٢ ص ٣٧

الامبراطور فى شؤون الحرب التى بينه و بين الحيرة ، وفى من يخلفه على كرسيه ومات سنة ٥٦٩ أو سنة ٥٧٠ م

وخلفه ابنه المنذر فغزا عرب الحيرة فانتصر عليهم فى وقعة « عَيْنُ أُبَاغ » ولم يكن الامبراطور جوستين الثانى وهو الذى خلف جوستنيان يميل اليه ، فحاول اغتياله فلم يفلح وعلم المنذر بمكيدته فثار وأبى محالفته وظل كذلك ثلاث سنين ، ثم هدد عربُ الحيرة تخوم الرومانيين فاضطروا لمصالحة المنذر والتعاقد معه فى سنة ٥٨٠م ، و بعد موت الامبراطور جوستين سافر المنذر بولديه الى القسطنطينية فاستقبلوا استقبالا حافلا وألبسه الامبراطور التاج ، ثم ساءت العلاقة بين الغساسنة والروم لأسباب يطول شرحها

ولما غزا الفرس الروم وأخذوا منهم أورشليم ودمشق (٦١٣ م ، ٦١٤ م) انحط شأن الغساسنة وضعف أمرهم ، ويذكر مؤرخو العرب «أن آخر ملوكهم هو جَبَلَة ابن الأيْهَم ، وان الاسلام جاء وهو على ملكه ، ولما فتح المسلمون الشام أسلم جَبَلَة ، واستشرف أهل المدينة لمقْدَمه حتى تطاول النساء من خدورهن لرؤيته ، لكرم وفادته ، وأحسن عمر نُزُلَه وأجلَّه بأرفع رتب المهاجرين ، ثم غلب عليه الشقاء ولطم رجلا من بنى فزَارة ، وطئ فضل أزاره وهو يسحبه فى الأرض ونابذه الى عمر فى القصاص فأخذته العزة بالاثم فقال له عمر لابد أن أقيده منك . . . . فهرب الى قيصر ولم يزل بالقسطنطينية حتى مات سنة ٢٠ هـ »(١)

وكان هؤلاء الغسانيون على ما يظهر أرقى عقلية حتى من عرب الحيرة ، لانهم كانوا أقرب اتصالا بالثقافة اليونانية والمدنية الرومانية ، وكان شعراء العرب يفدون اليهم فيحسنون وفادتهم ، فقد وفد عليهم فيما نعرف النابغة الذّبيانى والأعشى

---

(١) ابن خلدون ثانى

والمرقّش الأكبر وعلقمة الفَحْل وفيهم يقول حسان

لله در عصابة نادمتهم — يوما بجلّق فى الزمان الأول

كذلك الأدب العربى مملوء بالقصص والأساطير والأمثال التى قيلت فى هؤلاء الغساسنة ، كالذى ذكروا من حكاية امرئ القيس وايداعه مائة دِرع عند السموأل فطلبها ملك من ملوك غسان فأبى أن يعطيها اياه فذبح ابنه ، الى كثير من أمثال ذلك

ويروى لنا أبو الفرج فى الاغانى « أن حسان بن ثابت دُعى الى مأدبة سمع فيها غناء رائقة وصاحبتها ، فلما عاد الى بيته قال لقد أذكرتنى رائقة وصاحبتها أمراً ما سمعته أذناى بعد ليالى جاهليتنا مع جَبَلَة بن الأيهم ... لقد رأيت عَشْرَ قيَان : خمسٌ روميات يغنّين بالرومية بالبَرَابط ، وخمس يغنين غناء أهل الحيرة وكان (جَبلة) اذا جلس للشراب فرش تحته الآس والياسمين وأصناف الرياحين ، وضرب له العنبر والمسك فى صحاف الفضة والذهب ، وأوقد له العود المندّى ان كان شاتياً ، وان كان صائفا بُطِّن بالثلج ، وأُتى هو وأصحابه بكساء صيفية ينفصل[1] هو وأصحابه بها ، وفى الشتاء بفراء الفَنَك[2] وما أشبهه ، ولا والله ماجلست معه يوما قط الا وخلع علىّ ثيابه التى عليه فى ذلك اليوم وعلى غيرى من جلسائه ، هذا مع حلم عمن جهل وضحك وبذل من غير مسألة ، على حسن وجه ، وحسن حديث ، ما رأيت منه خنى قط ولا عربدة ونحن يومئذ على الشرك[3] » وهذه القصة ان صحت دلتنا على قدر من الحضارة والترف — عند الغسانيين — غير يسير

***

وهنا يستوقف نظرنا شئ يظهر لنا غريباً : ذلك انا نرى اللخميين فى الحيرة

---

(١) يمتاز (٢) الفنك دابة فروتها أطيب أنواع الفراء

(٣) أنظر الحكاية بطولها فى الاغانى جزء ١٦ ص ١٤

والغسانيين فى الشام عمّروا قرونا ، و بلغوا من المدنية شأواً بعيداً اذا قيس بحالة العرب فى الجزيرة ، وكان منهم من يخالط الفرس والروم ويتكلم بلغتهم ، ودينهم كان أرقى على العموم من دين غيرهم من العرب ، فهم إما نصارى أو مجوس — وهذا كله كان داعياً الى خصب الذهن ، وتفتق القريحة بالشعر ، وكان من المعقول أن تخرج بلادهم فحولا من الشعراء يفتحون فيه أبوابا جديدة ، ومعانى جديدة ، مع رشاقة فى اللفظ تتناسب مع حياتهم الحضرية ، ولكنا على غير المعقول لم نظفر منهم بشعر ذى خطر، فهم مثلا يحدثوننا عن عدىّ بن زيد الحيرى، وهو شاعر ضعيف كان الأصمعى وأبو عبيدة يقولان فيه « عدى بن زيد فى الشعراء بمنزلة سُهَيل فى النجوم يعارضها ولا يجرى معها » وقل أن يحدثونا بعد عن شاعر فحل ، وجامع « شعراء النصرانية فى الجاهلية » مع تلمسه كل وسيلة لعد الشاعر نصرانيا والاشادة بذكر كل شاعر نصرانى لم يذكر لنا شيئاً عن غسان ، ولم يحدثنا عن شاعر واحد غسانى — وكل الذى يرويه لنا الأدباء انما هو رحلة شعراء من الجزيرة — كالنابغة والأعشى وحسان — الى أمراء الحيرة وغسان . فما السر فى هذا ؟

قلبنا الأمر على وجوه مختلفة من النظر ، فقلنا لعل السر أن البادية هى منبع الشعر وهى التى تحرك نفس العربى وتُغَذّى خياله ، وتنطق لسانه ، يشعر فيها باستقلاله وعظمته ، لا ترهقه سلطة ، ولا يقيده قانون، تنبسط أمامه رقعة الأرض فينعم بمنظرها ، فيجيش صدره ، و ينطلق بالشعر لسانه ، فاذا تحضر ذَلّ ، وعقلت من لسانه قوانين المدنية وتقاليد الحضارة ، وحرم منظر الصحراء الجميل فحرم الشعر الجميل ، لهذا لم يك للعراقى شعر قيم ولا للغسانى شعر ما، ولكن رأينا أن هذا التعليل غير صحيح ، فما عهدنا أن الحضارة تميت الشعر ، فحضارة الفرس والروم وحضارة المسلمين فى الدولة الاموية والعباسية لم تضيق خيالهم ولم تعقل من لسانهم ، والحضارة اليوم فى أوروبا بعثت ،

على الشعر ولم تقف فى وجهه ، انما كل ما يصح أن يقال أن الحضارة تميت أنواعا من الشعر لا تعيش إلا فى البادية ، كما تحيي أنواعا من الشعر لاتعيش إلا فى نعيم الحضر

والتعليل الصحيح فى نظرنا أن هؤلاء الحيريين والغسانيين كان فيهم شعراء ولكن كانت لهم أيضاً لغة خاصة بهم ، غير لغة قريش التى سادت الحجاز ولم تستطع أن تسود الحيرة وغسان لبعد موطنهما ، ولأن الحيريين والغسانيين أرقى ممن حولهم من العرب ، فأنفوا أن يخضعوا للسان غير لسانهم ، وقد يستتبع ذلك أن تكون لهم فى الشعر أوزان خاصة تتفق مع لغتهم وعقليتهم ، فلما جاء الاسلام ونزل القرآن بلغة قريش أهمل الرواة ما كان خارجا عن هذه اللغة وقواعدها وأوزانها

ولا يطعن فى هذا الرأى ما يروى من شعر لعدى بن زيد ، وما يروى لنا من رحلة شعراء الجزيرة الى الحيرة وغسان وتفاهمهم ، فان عدى بن زيد كما يحدثنا الرواة له نسب فى عرب الجزيرة ، ورحلةُ الشعراء ليست اعتراضاً وجيهاً ، لأنا نرى أن لغة الحيرة والغسانيين مع اختلافها عن لغة الحجاز قريبة منها ، لاتفاق الأصل الذى تفرعت عنه لغات العرب ولهجاتها ، فليس ببعيد أن يكون للحيريين والغسانيين لغة خاصة وهم مع ذلك يستطيعون أن يفهموا لغة قريش اذا حدثوا بها

وذليلنا على صحة هذا الرأى أن النسابين كما ذكرنا يذهبون الى أن اللخميين والغسانيين من أصل يمنى ، وثقات المؤرخين قديما وحديثا يؤكدون أن لغة اليمن كانت غير لغة قريش ، وفى ذلك يقول ابن خلدون « ولقد كان اللسان المضرى مع اللسان الحميرى بهذه المثابة ، وتغيرت عند مضر كثير من موضوعات اللسان الحميرى وتصاريف كلماته ، تشهد بذلك الانْقال الموجودة لدينا ، خلافاً لمن يحمله القصور على أنهما لغة واحدة ، ويلتمس اجراء اللغة الحميرية على مقاييس اللغة المضرية وقوانينها ، كما يزعم بعضهم فى اشتقاق القَيْل فى اللسان الحميرى أنه من القول وكثير

من أشباه هذا ، وليس ذلك بصحيح ، ولغة حمير مغايرة للغة مضر فى الكثير من أوضاعها وتصاريفها وحركات اعرابها [1] »

فلو جارينا النسابين فيما قالوا فى أصل لخم وغسان كان الأمر فى اختلاف اللغتين واضحاً ، بل أكبر ظننا أن اللخميين والغسانيين كانوا نَبَطا لا يمنيين ولا عرباً خلصاً وأنه كان لهم شعرهم وآدابهم باللغة النبطية

ج — **اليهودية والنصرانية** : من عوامل نشر الثقافة الأجنبية فى جزيرة العرب انتشار اليهودية والنصرانية

اليهودية : انتشرت اليهودية فى جزيرة العرب قبل الاسلام بقرون ، وتكونت فيها مستعمرات يهودية ، وأشهرها يَثْرِب وهى التى سميت بعد بالمدينة ، ولكن مَنْ هم هؤلاء اليهود فى جزيرة العرب ؟ هل هم من عنصر يهودى أو هم عرب تهوّدوا ، واذا كان الأول فمن أين أتوا هل من فلسطين أو من غيرها ؟ اضطربت الأخبار فى ذلك ، ويظهر أن الصنفين كانا موجودين فى الجزيرة ، يهود نزحوا ، وعرب تهودوا فياقوت فى معجمه يذكر أن يهود يثرب عرب تهودوا ، ويقول صاحب الأغانى « انه لما ظهرت الروم على بنى اسرائيل جميعاً بالشام فوطئُوهم وقتلوهم ونكحوا نساءهم خرج بنو النَّضير وبنو قُرَيْظَة وبنو بَهْدَل هاربين منهم الى من بالحجاز لمَّا غلبتهم الروم على الشام »

وليس هنا موضع تحقيق ذلك ، وعلى كل حال فقد كان فى القرون الأولى للميلاد مستعمرات يهودية فى تَيْمَاء وفى فَدَك وفى خَيْبَر وفى وادى القُرى وفى يثرب وهى أهمها ، وكان يهود يثرب ثلاث قبائل بنى النَّضير وبنى قَيْنُقَاع وبنى قُرَيْظة

وقد اشتهر اليهود فى جزيرة العرب حيث حلوا بمهارتهم فى الزراعة كما اشتهروا

(١) المقدمة ص ٤٨٨

فى يثرب أيضاً بصناعاتهم المعدنية كالحدادة والصياغة وصنع الأسلحة

وقد كان بيثرب قبيلتا الأوْس والخَزْرَج نزحا اليها من اليمن — كما يذكر النسابون حوالى سنة ٣٠٠م بعد أن سبقهم اليهود الى استعمارها ، وكانت العلاقة بين اليهود والأوس والخزرج حسنة فى أول الأمر ثم ساءت قبل الهجرة لأسباب يختلف الباحثون فيها

كذلك عمل اليهود على نشر ديانتهم جنوبى الجزيرة حتى تهود كثير من قبائل اليمن ، ومن أشهر هؤلاء المتهودين ذو نُواس ، وقد اشتهر بتحمسه لليهودية واضطهاده لنصارى نَجْران وذكروا فى سبب ذلك « أن يهوديا كان بنجران عدا أهلها على ابنين له فقتلوهما ظلما ، فرفع أمره الى ذى نواس وتوسل اليه باليهودية واستنصره على أهل نجران وهم نصارى فحمى له ولدينه وغزاهم[١] »

ويظن بعض المؤرخين أن حركة ذى نُواس هذه كانت حركة وطنية ، ذلك أن نصارى نجران كانوا على ولاء مع الحبشة ، وكانت الحبشة تعد حامية النصرانية فى نجران وقد اتخذت النصرانية وسيلة للتدخل فى شؤون اليمن ، فأراد ذو نواس وقومه محو هذا النفوذ الحبشى ، ولذلك لما قتَل ذو نواس نصارى نجران استنجد بقيتهم بالحبشة فأنجدوهم وكانت بينهم حروب ، وكان عامُ الفيل مما لا محل لذكره هنا

نشر اليهود فى البلاد التى نزلوها فى جزيرة العرب تعاليم التوراة وما جاء فيها ، من تاريخ خلق الدنيا ومن بعث وحساب وميزان وجنة ونار ، ونشروا تفاسير المفسرين للتوراة وما أحاط بها من أساطير وخرافات كالتى أدخلها بعدُ من أسلم من اليهود مثل كَعْب الأحبار ووهب بن مُنَبِّه وأضرابهما — وكذلك كان لليهود أثر كبير فى اللغة العربية فقد أدخلوا عليها كلمات كثيرة لم يكن يعرفها العرب

(١) ابن خلدون جـ ٢

ومصطلحات دينية لم يكن لهم بها علم مثل جهنم والشيطان وابليس ونحو ذلك

أضف الى هذا أن اليهودية حلت بجزيرة العرب بعد أن تأثرت بالثقافة اليونانية تأثراً كبيراً، لانها ظلت قرونا تحت الحكم اليونانى الرومانى ولأنها كانت منتشرة فى الاسكندرية وعلى شواطئ البحر الأبيض حيث الثقافة اليونانية ، وكان من أحبار اليهود من تعلّم الفلسفة اليونانية ، وتأدب بآدابها ، فتسربت تلك الثقافة الى اليهودية كما تسرب اليها بعض مبادئ من القانون الرومانى

قال بُلْدْوِين فى كتابه معجم الفلسفة « ان الشرق والغرب اختلطا فى الاسكندرية وامتزجت آراء رومة واليونان والشام فى المدنية والعلوم والدين بآراء الشرق الأقصى فى ذلك ، فنشأت قضية جديدة عمل على ايجادها بحث الغرب والهام الشرق ، واتصل الدين بالفلسفة اتصالاً وثيقاً كان من نتائجه ظهور عقائد دينية لا هى من الفلسفة المحضة ولا من الدين الخالص ، بل أخذت بطرف من كل ، وجاء ذلك من عاملين : أحدهما ميل اليهود الى التوفيق بين معتقداتهم الدينية والعلم الغربى الذى كان متأثراً بالعلم اليونانى ، وثانيهما أن المفكرين الذين استمدوا آراءهم من الفلسفة اليونانية رأوا أن يوفقوا بين معتقداتهم الفلسفية والقضايا الدينية المحضة التى جاء بها المشارقة ، ومن أى الجهتين نظرنا رأينا أن النتيجة كانت فلسفة دينية لا هى فلسفة محضة ولا هى دين خالص » فلما انتقلت اليهودية الى العرب كانت تحمل فى ثناياها شيئا من ذلك

النصرانية : انقسمت النصرانية فى ذلك العهد الى جملة كنائس وان شئت فقل الى جملة فرق ، تسرب منها الى جزيرة العرب فرقتان كبيرتان . النساطرة واليعاقبة فكانت النسطورية منتشرة فى الحيرة ، واليعقوبية فى غسان وسائر قبائل الشام ، كذلك كانت هناك صوامع فى وادى القُرى

وأهم موطن للنصرانية فى جزيرة العرب كان « نَجْران » وكانت مدينة خصبة عامرة بالسكان ، تزرع وتصنع الأنسجة الحريرية ، وتتاجر فى الجلود وفى صنع الأسلحة ، وكانت احدى المدن التى تصنع الحُلَل اليمانية التى تغنى بها الشعراء ، وكانت قريبة من الطريق التجارى الذى يمتد الى الحيرة

وكان يتولى أمورها رؤساء ثلاثة : السيد والعاقب والأسْقُفّ ، ويظهر أن السيد كان اختصاصه كاختصاص رؤساء القبائل ، فهو رئيسهم فى الحرب ، وهو الذى يدير أمورهم الخارجية ، ويتولى أمور العلاقات بينهم وبين القبائل الأخرى ، والعاقب يتولى الأمور الداخلية الدنيوية ، والأسقف الأمور الدينية ، وهم الثلاثة يتشاورون فى المسائل الهامة ، قال ياقوت فى المعجم « ووفد على النبى صلى الله عليه وسلم وفد نجران وفيهم السيد واسمه وهب والعاقب واسمه عبدالمسيح والأسقف وهو أبو حارثة ، وأراد رسول الله صلى الله عليه وسلم مباهلتهم فامتنعوا وصالحوا النبى صلى الله عليه وسلم فكتب لهم كتاباً فلما وَلِيَ أبو بكر أنفذ ذلك لهم ، فلما ولى عمر أجلاهم واشترى منهم أموالهم »

وكان بنجران كعبة ، قال ياقوت « وكعبة نجران هذه — يقال — بِيعة بناها بنو عبد المدان بن الديان الحارثى على بناء الكعبة ، وعظموها مضاهاة للكعبة وسموها كعبة نجران وكان فيها أساقفة معتمُّون » ويستظهر بعض الباحثين أنها كانت كعبة للعرب تحج اليها قبل مجىء النصرانية ثم اتخذها النصارى بيعة بعد انتشار النصرانية فيها

وكان نصارى نجران — على ما يستظهر « أُوليرِى » على مذهب اليعاقبة — وهذا يعلل اتصالهم بالحبشة (لأنهم كانوا يعاقبة أيضا) أكثر من اتصالهم بالرومان

واشتهر بين العرب من رؤسائها قبل الاسلام قُسُّ بن ساعِدَة ويذكر أدباء

العرب أنه كان أسْقُفَّ نجران ، ويقطع « لامَانْس » — فى كتابه عن يزيد — ببطلان ذلك ويذكر أنه لم يكن له صلة بنجران

وقد أوقع ذونواس بأهل نجران وقتَّلهم كما ذكرنا ذلك عند الكلام على اليهودية ، ويروى بعض المؤرخين أنه نزل فى ذلك قوله تعالى « قُتِلَ أَصْحَابُ الأُخْدُودِ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُود . وما نَقَمُوا مِنْهُمْ الاَّ أن يُؤْمِنوا باللهِ الْعَزِيزِ الحميد » وذلك بعيد ، لأن كلا من اليهود والنصارى يؤمن بالله العزيز الحميد ، وقد استنجد النصارى بالحبشة فأنجدوهم ، وغزوا بلاد العرب سنة ٥٢٢ م ثم سنة ٥٢٥ م وهزموا ذا نواس ، وأنشأوا مستعمرة حبشية على شاطئ البحر الأحمر ، وحكموا تهامة واستمر حكمهم الى سنة ٥٧٥ م حيث غزا الفرس بلاد اليمن واحتلوها وطردوا الحبشة منها ، واستمرت النصرانية فى نجران الى عهد عمر فأجلاهم عنها وذهب أكثرهم الى العراق

وقد نشرت المسيحية تعاليمها بين العرب ، وأوجدت فيهم من يميل الى الرهبنة ويبنى الأديرة ، فهم يحدثوننا أن حنظلة الطائى فارق قومه ونَسَك ، وبنى ديراً بالقرب من شاطئ الفرات ، ويعرف هذا بدير حَنْظلة ، وترهب فيه حتى مات ، ويذكرون أن قُس بن ساعدة « كان يتقفَّر القفار ، ولا تكنه دار ، يتحسَّى بعض الطعام ، ويأنس بالوحوش والهوام » ، ويقولون أن أميَّة بن أبى الصَّلْت كان قد نظر فى الكتب وقرأها ولبس المسوح تعبداً ، ويذكرون أن عدى بن زيد نصح النعمان ملك الحيرة حتى حبب اليه النصرانية ثم وضع تاجه ، وخلع أطماره ولبس أمْسَاحَه فلزما عبادة الله فى الجبال حتى مات النعمان

وكان القسس والرهبان يردون أسواق العرب ، ويعظون ويبشرون ، ويذكرون البعث والحساب والجنة والنار وقد ورد فى القرآن كثير من الآيات تحكى أقوالهم وتفند

مذاهبهم ، مما يدل على انتشار هذه التعاليم بينهم

وكان من هؤلاء النصارى شعراء كقُسّ بن ساعدة وأُمَيَّـة بن أبى الصَّلْت وعدى بن زيد ، وهؤلاء لهم مسحة خاصة فى شعرهم ، عليها طابع الدين ، ومتأثرة بتعاليمه ، تُزَهِّدُ فى الدنيا وشؤونها ، وتدعو إلى النظر فى الكون والاعتبار بحوادثه ، وهذه الأشعار وان قلد أكثرها فقد أحكم تقليدها حتى ليدلنا تقليدها على منهاج أصلها

كذلك أدخلوا على اللغة العربيـة ألفاظاً وتراكيب لم تكن تعرفها العرب ، فهم يذكرون أن أمية بن أبى الصلت علّم العرب باسمك اللهم ، وقس أول من قال أما بعد ، وكان أمية يستعمل فى شعره ألفاظاً مجهولة لا تعرفها العرب كان يأخذها من الكتب القديمة فمنها قوله « قمر وَسَاهُورٌ يُسَلُّ ويُغْمَدَ » وكان يسمى الله « السِّلْطِيط » وسماه فى موضع آخر « التَّغْرُور » الخ

كانت النصرانية — فوق هذا — من قبل دخولها جزيرة العرب تحمل فى ثناياها شيئا من الثقافة اليونانية كما هو الشأن فى اليهودية ، فانها احدى الديانات التى ولدت فى الشرق وانتشرت فى الامبراطورية الرومانية — معهد الثقافة اليونانية — وكانت الأسكندرية هى المركز الجغرافى لمزج الدين بالفلسفة كما أشرنا الى ذلك من قبل ، وفى العصور المسيحية الأولى كان كثير من آباء الكنيسة فلاسفة قبل أن يكونوا رجال دين ، لأنهم رأوا من الضرورى أن يؤيدوا أنفسهم وعقائدهم أمام الوثنيين ، فلجئوا الى الفلسفة يستمدون منها التعليل والبرهان ، فتسربت الى النصرانية فلسفة أرسطو وافلاطون وغيرهما ، وقد امتاز الشرق بأن أنشئت فيه مدارس لاهوتية متأثرة بالفلسفة اليونانية تقليداً للاكاديميات اليونانية ، وأشهر ذلك مدرسة الاسكندرية التى كانت فى بدء القرن الثالث للميلاد ، وأنشأ مَلْكِيُون سنة ٢٧٠م مدرسة فى أنطاكية وأنشئت فى نَصِيبِين مدرسة أخرى سنة ٢٩٧م وهذه كانت تعلم اللغة السريانية واليونانية معاً

وكان النساطرة على الأخص أكثر الماما بعلوم اليونان . وقد ترجموا كثيراً من الكتب اللاهوتية والفلسفية عن اليونانية ، كما اشتهروا بالطب والعلوم الطبيعية ، وكان من رجال الدين النساطرة أطباء فى بلاط فارس ومنهم كثيرون انتشروا فى الحيرة ، ولعل هذا هو السبب فى أنه بعد ضعف شأن الحيرة وانتشار الاسلام فى هذه البقاع كان أول حامل للواء العلم فى الاسلام « البصرة والكوفة » لجوارهما الحيرة ، وكان أول كتب استخدمت لبث الثقافة اليونانية هى المكتوبة باللغة السريانية ، والتى خلفتها هذه المدارس النسطورية ، وعلى العموم فقد كان هؤلاء النساطرة هم الصلة بين اليونان والعرب

***

هذه الامور الثلاثة : التجارة والامارات على التخوم واليهودية والنصرانية كانت وسائل لتسرب المدنيات المجاورة الى العرب ونفوذ ثقافتها اليهم، قال الهَمْدانى فى كتابه الوَشْى المرقوم « لم يصل الى أحد خبر من أخبار العرب والعجم الا من العرب (كذا) وذلك لأن من سكن مكة أحاط بعلم العرب العاربة وأخبار أهل الكتاب ، وكانوا يدخلون البلاد للتجارات فيعرفون أخبار الناس ، وكذلك من سكن الحيرة وجاور الأعاجم علم أخبارهم وأيام حمير وسيرَها فى البلاد ، وكذلك من سكن الشام خبر بأخبار الروم و بنى اسرائيل واليونان ، ومن وقع بالبحرين وعمان فعنه أتت أخبار السِّند وفارس ، ومن سكن اليمن علم أخبار الأمم جميعاً لأنه كان فى ظل الملوك السيارة» ، ولكن لم تكن معرفتهم بذلك معرفة وافرة انما كانت تتسرب هذه المدنيات من مجرى ضيق ، وقد ينال التحريف ماينقلون من غيرهم، كالذى نراه فى بعض أمثال العرب المنقولة عن امثال سليمان ، وفى بعض القصص المنقولة عن الفرس والروم ، فلم يكن العرب يأخذون ممن حولهم علما منظما كما نأخذ نحن من المدنية

الغربية ، لأن هناك عوائق كانت تحول دون ذلك ، منها الحوائل الطبيعية ، بين العرب وغيرهم من بحار وجبال وصحراوات ، ومنها البعد الكبير بين العرب والفرس والروم من حيث الحالة الاجتماعية والدرجة العقلية ، وأكثر ما يكون اقتباس الحضارة والمدنية اذا تقاربت العقليتان ، ومنها انتشار الأمية بين العرب اذ ذاك حتى ندر أن تجد فيهم القارئ الكاتب ، انما كان المخالطون للفرس والروم ينقلون حكما أو قصصاً أو امثالا أو حوادث تاريخية مما يخف حمله على الناقل ، ومما يستطيع البدوى ومن فى حكمه أن يهضمه

ولعله ظهر لك مما ذكرنا أن قد كانت هناك صلة بين العرب وغيرهم من الأمم أثرت فى حياتهم المادية والأدبية ، وهو ما أردنا اثباته

الفصل الثالث

طبيعـة العقليـة العربيـة

تختلف الشعوب عقلياً ونفسياً اختـلافاً كبيراً ، فعقلية الانجليزى غير عقلية الفرنسى ، وهما غير عقلية المصرى وهكذا ، وهذه العقليات والنفسيات تختلف تبعاً لاختلاف البيئة الطبيعية والاجتماعية التى تحيط بالأمة ، فالشعوب تقف فى العالم على درجات متسلسلة الرقى ، وكل درجة لها مميزاتها العقلية والنفسية

وأفراد الأمة الواحدة وان اختلفوا فى المدارك والتربية والتعليم ونحو ذلك فأن بينهم جميعاً وحدة مشتركة ، وهذه الوحدة تدركها فى الملامح الجسمية حتى لتستطيع بعد قليل من المران أن تحكم بأن هذا انجليزى أو فرنسى أو مصرى ، وهناك وحدة عقلية بين أفراد الأمة الواحدة تشبه الوحدة الجسمية تماماً ، فما هذه الوحدة العقلية والنفسية للعرب؟ و بعبارة أخرى اذا اخترت عربياً ليكون نموذجا يمثـل العرب فى نفسيتهم فما تكون صفاته ؟ اختلفت آراء الباحثين فى هـذا اختلافا كبيراً ونحن نستعرض لك بعضها

(١) يقول بعض الشُّعُوبِيَّة فى العرب « لم تزل الأمم كلها من الأعاجم فى كل شق من الأرض لها ملوك تحميها ومدائن تَضُمُّها ، وأحكام تَدين بها ، وفلسفة تنتجها ، و بدائع تفتقّها فى الأدوات والصناعات ، مثل صنعة الديباج ولعبة الشطرنج . . . . ورُمَّانة القَبَّان ، ومثل فلسفة الروم فى ذات الخَلْق والقانون والأصْطِرْلاب ، ولم يكن للعرب مَلك يجمع سوادها ، ويضم قواصيها ، ويقمع ظالمها وينهى سفيهها ، ولا كان لها قط نتيجة فى صناعة ، ولا أثر فى فلسفة ، الا ما كان من الشعر ، وقد شاركتها

فيه العجم ، وذلك أن للروم أشعاراً عجيبة قائمة الاوزان والعروض الخ »[1]

(٢) ويقول الجاحظ فى الرد عليهم والمقارنة بين العرب وغيرهم « ان الهند لهم معان مدوّنة ، وكتب مجلدة ، لا تضاف الى رجل معروف ، ولا الى عالم موصوف وانما هى كتب متوارثة ، وآداب على وجه الدهر سائرة مذكورة ، ولليونان فلسفة ومنطق ، ولكن صاحب المنطق نفسه بكئ اللسان ولا موصوف بالبيان ، وفى الفرس خطباء الا أن كل كلام للفرس وكل معنى للعجم فانما هو عن طول فكرة ، وعن اجتهاد وخلوة ، وكل شىء للعرب فانما هو بديهة وارتجال ، وكأنه الهام ، وليست هناك معاناة ولا مكابدة ، ولا اجالة فكر ولا استعانة ، وانما هو أن يصرف وهمه الى الكلام فتأتيه المعانى ارسالا ، وتنثال عليه الألفاظ انثيالا ، وكانوا أميين لا يكتبون ومطبوعين لا يتكلفون ، وكان الكلام الجيد عندهم أظهر وأكثر ، وهم عليه أقدر وأقهر ، . . . وليس هم كمن حفظ علم غيره واحتذى على كلام من كان قبله ، فلم يحفظوا إلا ما علق بقلوبهم ، والتحم بصدورهم ، واتصل بعقولهم من غير تكلف ولا قصد ، ولا تحفظ ولا طلب »[2]

(٣) رأى ابن خلدون فى العرب — ولابن خلدون رأى فى العرب منثور فى مواضع عدة من تاريخه نلخصه فيما يلى بألفاظه :

يرى ابن خلدون أن حالة العرب حالة اجتماعية طبيعية ، يمر عليها الانسان فى نشوئه وارتقائه ، وعبر عن ذلك بقوله « إن جيلَ العرب فى الخلقة طبيعى » ويقول « انهم بطبيعة التوحش الذى هم فيه أهلُ انتهاب وعَبَث ، ينتهبون ما قدروا عليه من غير مغالبة ولا ركوب خطر ، ويفرون الى منتجعهم بالقفر ، والقبائلُ الممتنعة عليهم — بأوعار الجبال — بمنجاة من عبثهم وفسادهم ، وأما البسائط — متى

(١) العقد الفريد ج ٢ ص ٨٦ (٢) البيان والتبيين جزء ٣ ص ١٥ مختصراً

اقتدروا عليها بفقدان الحامية وضعف الدولة — فهى نَهْبٌ لهم ، يرددون عليها الغارة والنهب إلى أن يصبح أهلها مغلّبين لهم ثم يتعاورونهم باختلاف الأيدى وانحراف السياسة الى أن ينقرض عمرانهم (١)

وهم إذا تغلبوا على أوطان أسرع اليها الخراب ، لأنهم أمة وحشية ، فينقلون الحجر من المبانى ويخرّبونها لينصبوه أثافىّ للقِدْر ، ويخربون السقف ليُعمّروا به خيامهم ، ويتخذوا الاوتاد منه لبيوتهم ، وليس عندهم فى أخذ أموال الناس حد ينتهون اليه ، وليست لهم عناية بالأحكام وزجر الناس عن المفاسد ، انما همهم ما يأخذونه من أموال الناس نهباً أو مغرماً ، فاذا توصلوا الى ذلك أعرضوا عما بعده من تسديد أحوالهم والنظر فى مصالحهم ، وهم متنافسون فى الرياسة وقلّ أن يُسلم واحد منهم الامر لغيره ولو كان أباه أو أخاه أو كبير عشيرته الا فى الاقل ، فيتعدد الحكام منهم والامراء ، وتختلف الأيدى على الرعية فى الجباية والأحكام ، فيفسد العمران وينتقض ، وانظر الى ما ملكوه من الأوطان من لدن الخليقة كيف تقوّضَ عمرانه وأقْفر ساكنه ، فاليمن — قرارهم — خراب الا قليلا من الامصار ، وعراق العرب كذلك قد خرب عمرانه الذى كان للفرس أجمع والشام لهذا العهد كذلك (٢)

وهم أصعب الأمم انقياداً بعضهم لبعض للغلظة والأنفة وبعد الهمة والمنافسة فى الرياسة ، فقلما تجتمع أهواؤهم ، من أجل ذلك لا يحصل لهم الملك إلا بصبغة دينية من نبوة أو ولاية أو أثر عظيم من الدين على الجملة (٣)

والمباني التى يختطونها يسرع اليها الخراب ، لقلة مراعاتهم لحسن الاختيار فى اختطاط المدن ، فى المكان وطيب الهواء والمياه والمزارع والمراعى ، فانه بالتفاوت فى هذا

---

(١) ص ١٢٥ (٢) ص ١٢٦ (٣) ص ١٢٧

تتفاوت جودة المصر ورداءته ، والعرب بمعزل عن هذا ، وانما يراعون مراعى ابلهم خاصة، لايبالون بالماء طاب أوخبث، ولا قل أوكثر ، ولا يسألون عن زكاء المزارع والمنابت والأهوية ، وانظر لما اختطوا الكوفة والبصرة والقيروان كيف لم يراعوا فى اختطاطها إلا مراعى إبلهم وما يقرب من القفر ومسالك الظعن ، فكانت بعيدة عن الوضع الطبيعي للمدن ، ولم تكن لهم مادة تمد عمرانهم من بعدهم ، وكانت مواطنها غير طبيعية للقرار، ولم تكن فى وسط الأمم فيعمرها الناس، فلأول وهلة من انحلال أمرهم وذهاب عصبيتهم التى كانت سياجا لها أتى عليها الخراب والانحلال (١)

وهم أبعد الناس عن الصنائع ، لأنهم أعرق فى البدو وأبعد عن العمران الحضرى وما يدعو اليه من الصنائع وغيرها ، ولهذا نجد أوطان العرب وما ملكوه فى الاسلام قليل الصنائع بالجملة حتى تجلب اليه من قطر آخر » (٢)

وهم أبعد الناس عن العلوم لأن العلوم ذات ملكات ، محتاجة إلى التعليم ، فاندرجت فى جملة الصنائع ، والعرب أبعد الناس عنها كما قدمنا ، فصارت العلوم لذلك حضرية ، وبعد العرب عنها وعن سوقها ، والحضر لذلك العهد هم العجم أو من فى معناهم من الموالى ، ولذلك كان حملة العلم فى الاسلام أكثرهم العجم أو المستعجمون باللغة والمربى ، ولم يقم بحفظ العلم وتدوينه إلا الأعاجم » (٣)

وهم مع ذلك أسرع الناس قبولا للحق والهدى ، لسلامة طباعهم من عوج الملكات ، وبراءتها من ذميم الأخلاق ، إلا ما كان من خلق التوحش القريب المعاناة ، المتهيئ لقبول الخير (٤)

وهم أقرب إلى الشجاعة ، لأنهم قائمون بالمدافعة عن أنفسهم ، لا يكلونها الى سواهم ، ولا يثقون فيها بغيرهم ، فهم دائما يحملون السلاح ، ويتلفتون عن كل

---

(١) ص ٣٠٠ (٢) ص ٣٣٧ (٣) ص ٤٧٨ (٤) ص ١٢٧

جانب فى الطرق ، قد صار لهم البأس خلقاً والشجاعة سجية . ونجد المتوحشين من العرب أهل البدو أشد بأساً ممن تأخذه الاحكام [١]

وهم لم يزالوا موسومين بين الامم بالبيان فى الكلام والفصاحة فى النطق والذلاقة فى اللسان ، والبيان سمتهم بين الامم منذ كانوا » [٢]

(٤) ويقول «أوليرى» [٣] أن العربى الذى يعد مثلا أو نموذجا مادى ، ينظر الى الاشياء نظرة مادية وضيعة ، ولا يقوّمها إلا بحسب ما تنتج من نفع ، يتملك الطمع مشاعره ، وليس لديه مجال للخيال ولا للعواطف ، لا يميل كثيراً الى دين ، ولا يكترث بشىء إلا بقدر ما ينتجه من فائدة عملية ، يملؤه الشعور بكرامته الشخصية حتى ليثور على كل شكل من أشكال السلطة ، وحتى ليتوقع منه سيد قبيلته وقائده فى الحروب الحسد والبغض والخيانة من أول يوم اختير للسيادة عليه ولو كان صديقاً حميما له من قبل ، من أحسن اليه كان موضع نقمته لأن الاحسان يثير فيه شعوراً بالخضوع وضعف المنزلة وأن عليه واجباً لمن أحسن ، يقول لا مانس « ان العربى نموذج الديمقراطية » ولكنها ديمقراطية مبالغ فيها الى حد بعيد ، وان ثورته على كل سلطة تحاول أن تحدد من حريته ولو كانت فى مصلحته هى السر الذى يفسر لنا سلسلة الجرائم والخيانات التى شغلت أكبر جزء فى تاريخ العرب ، وجهل هذا السر هو الذى قاد الاوروبيين فى أيامنا هذه الى كثير من الاخطاء ، وحملهم كثيراً من الضحايا كان يمكنهم الاستغناء عنها ، وصعوبة قيادة العرب وعدم خضوعهم للسلطة هى التى تحول بينهم و بين سيرهم فى سبيل الحضارة الغربية ، ويبلغ حب العربى لحريته مبلغاً كبيراً حتى اذا حاولت أن تحدها أو تنقص من أطرافها هاج كأنه وحش فى قفص ، وثار ثورة جنونية لتحطيم أغلاله والعودة الى حريته —

---

(١) ص١٠٦ (٢) جـ٢ ص١٥ (٣) فى كتابه Arabia before Mohammad

ولكن العربي من ناحية أخرى مخلص ، مطيع لتقاليد قبيلته ، كريم ، يؤدى واجبات الضيافة والمحالفة فى الحروب كما يؤدى واجبات الصداقة مخلصاً فى أدائها حسب ما رسمه العرف ، . . . وعلى العموم فالذى يظهر لى أن هذه الصفات والخصائص أقرب أن تعد صفات وخصائص لهذا الطور من النشوء الاجتماعى عامة من أن تعد صفات خاصة لشعب معين ، حتى اذا قر العرب وعاشوا عيشة زراعية مثلا تعدلت هذه العقلية » انتهى مختصراً

(٥) وهناك غير هذا كثير من أقوال الكتاب فى كتب الادب تَنْسب للعرب كل فضيلة ، وتنفى عنها كل رذيلة ، كالذى ذكره الألوسى فى بلوغ الارب ، فقد قال بعد كلام طويل « والحاصل أن العرب لما كانوا أتم الناس عقولا وأحلاما ، وأطلقهم ألسنة ، وأوفرهم أفهاما ، استتبع ذلك لهم كل فضيلة ، وأورثهم كل منقبة جليلة »(١) ويقول ابن رشيق فى العمدة « العرب أفضل الامم ، وحكمتها أشرف الحِكَم ، الخ »

مناقشة هذه الآراء — لسنا نعتقد تقديس العرب ، ولا نعبأ بمثل هذا النوع من القول الذى يمجدهم ويصفهم بكل كمال ، وينزههم عن كل نقص ، لأن هذا النمط من القول ليس نمط البحث العلمى ، انما نعتقد أن العرب شعب ككل الشعوب ، له ميزاته وفيه عيوبه ، وهو خاضع لكل نقد علمى فى عقليته ونفسيته وآدابه وتاريخه ككل أمة أخرى ، فالقول الذى يمثله الرأى الخامس لا يستحق مناقشة ولا جدلا — كذلك يخطئ الشعوبية أصحاب القول الأول الذين كانوا يتطلبون من العرب فلسفة كفلسفة اليونان ، وقانونا كقانون الرومان ، أو أن يمهروا فى الصناعات كصناعة الديباج ، أو فى المخترعات كالاصْطِرْلاب ، فانه ان كان يقارن هذه الامم بالعرب فى جاهليتها كانت مقارنة خطأ ، لأن المقارنة انما تصح بين أمم فى طور واحد من الحضارة

(١) بلوغ الارب ص ١٤٤ ج ١

لا بين أمة متبدية وأخرى متحضرة ، ومثل هذه المقارنة كمقارنة بين عقل فى طفولته وعقل فى كهولته ، وكل أمة من هـذه الأمم كالفرس والروم مرت بدور بداوة لم يكن لها فيه فلسفة ولا مخترعات ، أما ان كان يقارن العرب بعد حضارتها فقد كان لها قانون وكان لها علم وان كان قليلا كما سيأتى — انما الذى يستحق البحث والمناقشة هو رأى ابن خلدون وأوليرى

أما رأى ابن خلدون فخلاصته أن العربى متوحش نهاب سلاب ، اذا أخضع مملكة أسرع اليها الخراب ، يصعب انقياده لرئيس ، لا يجيد صناعة ولا يحسن علما ولا عنده استعداد للاجادة فيهما ، سليم الطباع ، مستعد للخير شجاع

وخلاصة رأى الثانى أن العربى مادى ضيق الخيال ، جامد العواطف ، شديد الشعور بكرامته وحريته ، ثائر على كل سلطة ، كريم مخلص لتقاليد قبيلته

فهما متفقان فى وصف العرب بالمادية وثورتهم على كل سلطة ، أما الوصف الثانى فلا مجال للشك فيه ، وقد صدق « أوليرى » فى قوله أن هذه الصفة هى التى تفسر لنا الجرائم والخيانات التى شغلت أكبر جزء فى تاريخ العرب » أما المادية فكثير من المستشرقين يوافقون ابن خلدون وأوليرى على وصف العرب بها كالاستاذ « برون » فى كتاب «تاريخ الأدب عند الفرس» ويعنون بهذا الوصف انهم لا يقدّرون الا المادة والا الدرهم والدينار ، فاما المعنويات فلاقيمة لها فى نظرهم ، وحقاً انك لتدرك هذا المعنى بجلاء فى بعض سكان البادية اليوم ، ولكن هل هذا الوصف يصح أن يعمم فى عرب الجاهلية ؟ ذلك ما نشك فيه ، فانه لو صح ما يروى لنا فى كتب الادب من حكايات الكرم والوفاء ، وبذل النفس عن سماحة فى المحافظة على تقاليد القبيلة ، لتنافى تمام المنافاة مع المادية — لذلك يظهر لنا أن كلا من أوليرى وابن خلدون أخطأ فى تحديد « العربى » الذى يصفه ، فنحن نعتقد أن عربى

الجاهلية يخالف فى أمور كثيرة عربى الاسلام ، بل عربىُّ الجاهلية نفسه متحضراً غيره باديا ، ويدو اليوم يخالفون فى أمور كثيرة بدو الجاهلية ، وابن خلدون مع دقته فى بحثه لم يحدد بالضبط معنى العربى الذى يصفه ، وهذا ماجعله يضطرب فى قوله، فانك اذا قرأت قوله فى بعض المواضع تفهم أنه انما يريد العربى البدوى كالذى يهدم القصور ليستعمل حجارتها فى الأثافى وخشب سقفها فى الاوتاد ، فانما ذلك ينطبق على البدوى المعن فى البداوة لا العربى المتحضر فى الدولة الاموية أو العباسية ، ثم تراه يذكر العربى فى أنه لا يحسن اختيار مواقع البلاد ، كما فعل عند تخطيط البصرة والكوفة وهذا كما تعلم ليس هو العربى البدوى الممعن فى البداوة انما هو عربى صدر الاسلام الذى فتح فارس والروم ، وليس العربى الذى يخطط المدن هو الذى يهدم القصور لأثافيه — ثم هو يذكر أنه لا يحسن علما وأن الموالى هم السابقون فى هذا المضمار وهذا ليس عربى البدو ولا عربى صدر الاسلام انما هو عربى الدولة العباسية وآخر الأموية — وقد ناقض ابن خلدون نفسه إذ يقرر فى موضع آخر من مقدمته ما يفهم منه استعداد العربى بطبيعته للتحضر ، والاستفادة ممن يخالطه ويعاشره ، قال : « ومثل هذا وقع للعرب لما كان الفتح ، وملكوا فارس والروم ، واستخدموا بناتهم وأبناءهم ، ولم يكونوا لذلك العهد فى شئ من الحضارة ، فقد حكى أنه قُدم لهم المرقّق فكانوا يحسبونه رِقَاعا ، وعثروا على الكافور فى خزائن كِسرى فاستعملوه فى عجينهم مِلْحا ، وأمثال ذلك ، فلما استعبدوا أهل الدول قَبْلهم ، واستعملوهم فى مِهَنهم ، وحاجات منازلهم ، واختاروا منهم المهَرة فى أمثال ذلك والقَوَمَة عليه ، أفادوهم علاج ذلك والقيامَ على عمله والتفنن فيه ، فبلغوا الغاية فى ذلك وتطوروا بطور الحضارة ، واستجادوا المطاعم والمشارب والملابس والمبانى والاسلحة والفرش والآنية [1]

(١) مقدمة ص ١٤٤

فترى من هــذا أن ابن خلدون فى حكمه على العربى خلط بين العربى فى عصوره المختلفة ، وأصدر عليه أحكاما عامة ، مع أنه هو نفسه القائل بأن العربى يتغير بتغير البيئة

ثم يقول « أوليرى » « أن العربى ضعيف الخيال جامد العواطف » — أما ضعف الخيال فلعل منشأه أن الناظر فى شعر العرب لا يرى فيه أثراً للشعر القصصى ولا التمثيلى ، ولا يرى الملاحم الطويلة التى تشـيد بذكر مفاخر الأمة كأليإذة هوميروس وشاهنامة الفردوسى ، ثم هم فى عصورهم الحديثة ليس لهم خيال خصب فى تأليف الروايات ونحو ذلك ، ونحن مع اعتقادنا قصور العرب فى هذا النوع من القول نرى أن هذا الضرب أحد مظاهر الخيال لا مظهر الخيال كله، فالفخر والحماسة والغزل والوصف والتشبيه والمجاز كل هذا ونحوه مظهر من مظاهر الخيال ، والعرب قد أكثروا القول فيه كثرة استرعت الانظار وان كان الابتكار فيه قليلا

كذلك ما ملئ به شعر العربى من الغزل ، وبكاء الاطلال والديار ، وذكرى الأيام والحوادث ، وما وصف به شعوره ووجدانه ، وصوّر به التياعَه وهيامه ، لا يمكن أن يصدر عن عواطف جامدة

أما رأى الجاحظ فيتلخص فى أنه يسلم بقول الشعوبية فى أن ليس لهم علم ولا فلسفة ولا كتب موروثة ، ويرى أن العرب عُوضوا عن هذا بميزتين واضحتين : طلاقة اللسان وحضور البديهة ، والحق أنهما صفتان ظاهرتان فيهم، ويكفى أن تلقى نظرة على ما خلفوه من آدابهم لتعترف بما منحوا من لسان ذلق وبديهة حاضرة

* * *

ولعلك من هذه المناقشة تلمح رأينا فى العرب، فهم ليسوا فى جاهليتهم واسلامهم فى درجة واحدة من الرقى العقلى والخلقى فلنقتصر الآن على وصف العربى الجاهلى .

العربى عصبى المزاج ، سريع الغضب ، يهيج للشئ التافه ، ثم لايقف فى هياجه عند حد ، وهو أشد هياجا إذا جرحت كرامته ، أو انتهكت حرمة قبيلته ، واذا اهتاج أسرع إلى السيف واحتكم اليه ، حتى أفنتهم الحروب ، وحتى صارت الحروب نظامهم المألوف وحياتهم اليومية المعتادة

والمزاج العصبى يستتبع عادة ذكاء ، وفى الحق أن العربى ذكى ، يظهر ذكاؤه فى لغته، فكثيراً ما يعتمد على اللمحة الدالة والاشارة البعيدة ، كما يظهر فى حضور بديهته ، فما هو إلا أن يُفجأ بالأمر فيفجؤك بحسن الجواب ، ولكن ليس ذكاؤه من النوع الخالق المبتكر ، فهو يقلب المعنى الواحد على أشكال متعددة فيَبْهَرك تفننه فى القول أكثر مما يبهرك ابتكاره للمعنى ، وان شئت فقل ان لسانه أمهر من عقله

خياله محدود وغير متنوع ، فقلما يرسم له خياله عيشة خيرا من عيشته ، وحياة خيراً من حياته يسعى وراءها، لذلك لم يعرف « المثل الأعلى» لأنه وليد الخيال ، ولم يضع له فى لغته لفظة واحدة دالة عليه ، ولم يشر اليـه فيما نعرف من قوله ، وقلما يسبح خياله الشعرى فى عالم جديد يستقى منه معنى جديداً ، ولكنه فى دائرته الضيقة استطاع أن يذهب كل مذهب

أما ناحيتهم الخلقية فميل الى حرية قل أن يحدّها حدّ ، ولكن الذى فهموه من الحرية هى الحرية الشخصية لا الاجتماعيـة فهم لا يدينون بالطاعة لرئيس ولاحاكم ، تاريخهم فى الجاهلية — حتى وفى الاسلام — سلسلة حروب داخلية ، وعهد عمر بن الخطاب كان عصرهم الذهبى لأنه شغلهم عن حروبهم الداخلية بحروب خارجية ، ولأنه رضى الله عنه منح فهماً عميقاً ممتازاً لنفسية العرب

والعربى يحب المساواة ولكنها مساواة فى حدود القبيلة — وهو مع حبه للمساواة

كبير الاعتداد بقبيلته ثم بجنسه ، يشعر فى أعماق نفسه بأنه من دم ممتاز ، لم يؤمن بعظمة الفرس والروم مع ما له ولهم من جدب وخصب وفقر وغنى و بداوة وحضارة ، حتى اذا فتح بلادهم نظر اليهم نظرة السيّد الى المَسُود — هذا وصف موجز تجد تفصيله فى الفصل الآتى

من هذا الذى ذكرنا مما للعرب من عقلية طبيعية ، ومن ذلك الذى شرحنا من اتصال العرب بغيرهم من الأمم المتحضرة ، نبع ما لهم من حياة عقلية مظهرها اللغة والشعر والمثل والقصص

الفصل الرابع

الحياة العقلية للعرب فى الجاهلية

أشرنا فيما تقدم الى أن العرب فى جاهليتهم كان أكثرهم بدواً ، وأن طور البداوة طور اجتماعى طبيعى تمر به الأمم أثناء سيرها الى الحضارة ، ونزيد الآن أن هذا الطور الطبيعى له مظاهر عقلية طبيعية

ففى مثل هذا الطور الذى كانت تمر به العرب فى الجاهلية يتجلى ضعف التعليل ، أعنى عدم القدرة على فهم الارتباط بين العلة والمعلول والسبب والمسبب فهماً تاماً ، يمرض أحدهم ويألم من مرضه فيصفون له علاجا ، فيفهم نوعا ما من الارتباط بين الدواء والداء ، ولكن لا يفهمه فهم العقل الدقيق الذى يتفلسف ، يفهم أن عادة القبيلة أن تتناول هذا الدواء عند هذا الداء ، وهذا كل شىء فى نظره ، لهذا لا يرى عقله بأساً من أن يعتقد أن دم الرئيس يشفى الكَلَب ، أو أن سبب المرض روح شرير حل فيه فيداويه بما يطرد هذه الأرواح ، أوأنه اذا خيف على الرجل الجنون نجسوه بتعليق الأقذار وعظام الموتى الى كثير من أمثال ذلك ، ولا يستنكر شيئاً من ذلك ما دامت القبيلة تفعله ، لأن منشأ الاستنكار دقة النظر والقدرة على بحث المرض وأسبابه وعوارضه ، وما يزيل هذه العوارض ، وهذه درجة لا يصل اليها العقل فى طوره الأول

هذا الضعف فى التعليل هو الذى يشرح لنا ما ملئت به كتب الادب من خرافات وأساطير كانت تعتقدها العرب فى جاهليتها ، فهم يحدثوننا أن سد مأرِب

كان بين ثلاثة جبال تحصر ماء السيل والعيون ، وليس للماء مخرج إلا من جهة واحدة ، فسد الأوائل تلك الجهة بالحجارة الصلبة والرصاص ، فكانوا إذا أرادوا سقى زروعهم فتحوا من ذلك السد بقدر حاجتهم بأبواب محكمة ، وحركات مهندسة فيسقون حسب حاجتهم ، ثم يسدونه إذا أرادوا ، ثم يحدثوننا أن سبب خرابه جرذان حمر كن يحفرن السد الذى يليها بأنيابها ، فتقتلع الحجر الذى لا يستقله مائة رجل ثم تدفعه بمخاليب رجليها حتى تسد الوادى من الناحية التى تجمع فيها الماء ، ويفتح من ناحية السد ، — وقد عجزوا عن أن يفهموا أن ليس هناك ارتباط صحيح بين هذه الجرذان الخرافية وخراب السد ، وان السبب الصحيح اهمال تعهد السد حتى لم يعد يقوى على تحمل السيل .

وكالذى قالوا ان الذى بنى الخَوَرْنَق النعمان بن امرئ القيس ، بناه له رجل من الروم يقال له سِنِمّار ، فلما أتمه قال له سنمار انى أعلم موضع آجُرَّة لو زالت لسقط القصر كله ، فقال النعمان أيعرفها أحد غيرك ، قال لا ، قال لا جَرَم لأَدعَنَّها وما يعرفها أحد ، ثم أمر به فقذف من أعلى القصر الى أسفله فتقَطَّع ، فضربت به المثل[1] وقد صدقوا بهذه الخرافة مع استحالة تركيز القصر كله على آجرة واحدة — ويطول بنا القول لو عددنا ما ذكر فى كتب الأدب والتاريخ من هذا القبيل مما يتعلق بانظار العرب للحوادث ، وبخاصة الحوادث التى تتعلق بالقبائل البائدة كعاد وطَسْم وجَدِيس ، أو بالحوادث البعيدة التاريخ عن زمن الهجرة كجَذِيمَة والزَّبَّاء ، ونستخلص من هذا كله انهم لم يكونوا يحسنون تعليل الحوادث ، ولا يربطون المسببات بأسبابها ربطاً محكما ، ولم يكن هذا شأن العرب وحدهم بل شاركهم فيه غيرهم من الأمم فى طور مثل طورهم ، كاليونان ، وأصبحت هذه الأشياء وغيرها

(١) أنظر المعجم فى مادة مارب وامثال الميدانى

موضوعا لما يسمى « علم الميثولوجيا »

وهذا أيضاً يعلل لنا التجاءهم فى تعرف الحوادث الماضية والمستقبلة الى الكهانة والعرافة وزجر الطير والعيافة ، وهى أمور ليست منطقية فى تعرف العلة للمعلول والسبب للمسبب

نعم كل أمة فيها مخرفوها مهما رقيت ومهما تفلسفت ، ولكن كتب الأدب العربى تدلنا على أن هذه العقائد كانت عقائد الشعب عامة لا أفراد شواذ ، وأن الكهانة وأمثالها تكاد تكون نظاما مقرراً لكل قبيلة من قبائلهم

قد نجد فى بيت من الشعر الجاهلى أو فى مثل من أمثالهم أو قصة من قصصهم فكرة راقية ، وربطاً للاسباب بالمسببات ، ولكن حتى هذه يعوزها العمق فى التفكير ، كما يعوزها الشرح والتعليل — جاء فى سيرة ابن هشام « أن حيا من ثقيف فزعوا للرمى بالنجوم ، فجاءوا الى رجل منهم يقال له عمرو بن أمية أحد بنى علاج ، وكان أدهى العرب ، وأمكرها رأيا ، ، فقالوا له يا عمرو ألم تر ما حدث فى السماء من القذف بهذه النجوم ؟ قال بلى ، فانظروا فإن كانت معالمُ النجوم التى يهتدى بها فى البر والبحر ، وتُعرَف بها الانواء من الصيف والشتاء ، لما يصلح الناس فى معايشهم هى التى يرمى بها فهو والله طَىّ الدنيا وهلاك هذا الخلق الذى فيها ، وان كانت نجوما غيرها وهى ثابتة على حالها فهذا لأمر أراده الله بهذا الخلق فما هو ؟ »

ألست ترى معى دقة نظر عمرو هذا فى تفريقه بين نجوم يتوقف على بقائها نظام هذا العالم وأخرى ليست لها هذه القيمة وهى الشُهُب ، ولكن شيئاً من ذلك ليس الشرح الفلسفى للنجوم والشهب ، ولا التعليل الواضح الجلىّ للارتباط بين السبب والمسبب .

* * *

لاحظ بعض المستشرقين أن طبيعة العقل العربى لا تنظر الى الأشياء نظرة عامة شاملة ، وليس فى استطاعتها ذلك ، وقبله لاحظ هذا المعنى بعض المؤلفين الأقدمين من المسلمين ، فقد جاء فى « الملل والنحل » للشهرستانى عند الكلام على الحكماء « الصنف الثانى حكماء العرب وهم شِرْذِمة قليلة ، وأكثر حكمتهم فَلَتات الطبع وخَطَرات الفِكْر » وقال فى موضع آخر « ان العرب والهند يتقاربان على مذهب واحد . . . . والمقاربة بين الأمتين مقصورة على اعتبار خواص الأشياء ، والحكم بأحكام الماهيات ، والغالب عليهم الفطرة والطبع ، وأن الروم والعجم يتقاربان على مذهب واحد حيث كانت المقاربة مقصورة على اعتبار كيفية الأشياء ، والحكم بأحكام الطبائع ، والغالب عليهم الاكتساب والجَهْد »

فالعربى لم ينظر الى العالم نظرة عامة شاملة كما فعل اليونانى مثلا ، لقد ألقى اليونانى أول ما تفلسف نظرة عامة على العالم فساءل نفسه : كيف برز هذا العالم الى الوجود ؟ انى أرى هذا العالم جم التغير ، كثير التقلب ، أفليس وراء هذه التغيرات أساس واحد ثابت ؟ واذا كان فما هو ؟ آلماء أم الهواء أم النار ؟ وأرى العالم كله كالشىء الواحد يتصل بعضه ببعض وهو خاضع لقوانين ثابتة فما هذا النظام وكيف نشأ وممّ وجد ؟ هذه الأسئلة وأمثالها وجهها اليونانى الى نفسه فكانت أساس فلسفته ومبناها كلها النظرةُ الشاملة ، أما العربى فلم يتجه نظره هذا الاتجاه ، ولا بعد الاسلام ، بل كان يطوف فيما حوله فاذا رأى منظراً خاصاً أعجبه تحرك له ، وجاش صدره بالبيت أو الأبيات من الشعر أو الحكمة أو المثل فقال مثلا :

مَنَعَ البقاءَ تَقَلُّبُ الشَّمْسِ وَطُلُوعُهَا مِنْ حَيْثُ لا تُمْسِى
وطلوعُها بيضاءَ صافيةً وغروبُها صفراءَ كالوَرْسِ

---

(١) السيرة ص ١٣٦ من الروض الانف

تجْرِى على كَبِـد السَّماء كما يجرى حِمامُ الموت فى النفْسِ
اليومَ أعلمُ ما يجىءُ به ومضَى بفصْلِ قضائِهِ أمْسِ

فأما نظرة شاملة وتحليل دقيق لأسسه وعوارضه فذلك ما لا يتفق والعقل العربى

وفوق هذا هو إذا نظر إلى الشىء الواحد لا يستغرقه بفكره ، بل يقف فيه على مواطن خاصة تستثير عجبه ، فهو إذا وقف أمام شجرة لا ينظر اليها ككل ، إنما يستوقف نظره شىء خاص فيها ، كاستواء ساقها أو جمال أغصانها ، وإذا كان أمام بستان لا يحيطه بنظره ولا يلتقطه ذهنه كما تلتقطه « الفوتوغرافيا » إنما يكون كالنحلة ، يطير من زهرة إلى زهرة ، فيرتشف من كل رشفة

هذه الخاصة فى العقل العربى هى السر الذى يكشف لك ما ترى فى أدب العرب — حتى فى العصور الاسلامية — من نقص وما ترى فيه من جمال

فأما النقص فما تشعر به حين تقرأ قطعة أدبية — نظماً أو نثراً — من ضعف المنطق وعدم تسلسل الأفكار تسلسلاً دقيقاً ، وقلة ارتباط بعضها ببعض ارتباطاً وثيقاً ، حتى لو عمدت إلى القصيدة — وخاصة فى الشعر الجاهلى — فحذفت منها جملة أبيات ، أو قدمت متأخراً أو أخرت متقدماً ، لم يلحظ القارىء أو السامع ذلك وان كان أديباً ، ما لم يكن قد قرأها من قبل

وهذا النقص تلمحه فيما يكتب فى الموضوعات الأدبية ، فانت إذا قارنت بين ما يكتبه الجاحظ أو ابن عبد ربه أو العسكرى فى الخطابة أو الوصف وما يكتبه أرسطو فى ذلك رأيت الطبيعتين مختلفتين تمام التخالف ، فأرسطو يحلل الخطابة مثلا ويبين منزلتها من البلاغة ، وأقسام الخطابة ، وأجزاء الخطبة ، وكيف يتكون الخطيب الخ بنظر شامل بحيث تدرك للخطابة صورة كاملة ، أما كُتَّاب العرب فيكتبون جملا رشيقة ودرراً منثورة فى الخطابة لا يتكون منها شكل تام ، ويجب

أن تعنى — إذا أردت المقارنة الصحيحة — باستبعاد من تأثر طبعه وعقله بالفلسفة اليونانية كالسَّكَّاكى وأمثاله

وهذا النقص أيضاً تلمحه فى كتب الأدب لأنها تأثرت بطبيعة الأدب نفسه فاذا نظرت فى كتاب كالأغانى أو العقد الفريد أو البيان والتبيين أو الحيوان للجاحظ لا تجد موضوعا واحداً ألقيت عليه نظرة عامة دفعة واحدة ثم وضع فى مكان واحد ، ولكن هنا لمحة وهناك لمحة ، وتدخل من باب فيسلمك إلى باب آخر لأقل مناسبة ، حتى يَعْيَ الباحث إذا أراد أن يقف على كل ما كتب فى موضوع معين ، مع اعترافنا بما فى هذا التنقل من لذة وطَلَاوة

وهذا النوع من النظر هو الذى قَصّر نَفَس الشاعر العربى فلم يستطع أن يأتى بالقصائد القَصَصية الوافية ، ولا أن يضع المَلَاحِم الطويلة كالالياذة والأُوذِيسا

أما ما أفادهم هذا النوع من التفكير ، وخلع على آدابهم جمالا خاصاً ، فذلك أن هذا النظر لما انحصر فى شئ جزئى خاص جعلهم ينفذون الى باطنه فيأتون بالمعانى البديعة الدقيقة التى تتصل به ، كما جعلهم يتعاورون على الشئ الواحد فيأتون فيه بالمعانى المختلفة من وجوه مختلفة من غير إحاطة ولا شمول ، فامتلأ أدبهم بالحكم القصار الرائعة والأمثال الحكيمة ، وأتقنوا هذا النوع إلى حد بعيد ، غَنِيَ به عقلهم ، وانطلقت به ألسنتهم ، حتى لينهض الخطيب فيأتى بخطبته كلها من هذه الأمثال الجيدة القصيرة ، والحكم الموجزة الممتعة ، فكل جملةٍ معان كثيرة تركزت فى حَبّة ، أو بخار منتشر تَجَمَّع فى قطرة ، ولما جاء الاسلام تقدم هذا النوع من الأدب واقتبسوا كثيراً من حِكَم الفرس والهند والروم مما سنعرض له فى موضع آخر —

وعلى الجملة فالعقل اليونانى مثلا ان نظر إلى شئ نظر اليه ككل يبحثه ويحلله ، والعقل العربى يطوف حوله فيقع منه على درر مختلفة الأنواع لا ينظمها عقد

***

والآن وقد علمنا طبيعة نظر العربى ننظر : هل هـذا النوع من النظر طور طبيعى تمر به الأمم جميعاً أثناء سيرها إلى الكمال أو هو خاصة عقلية للجنس السامى ؟ ذلك أمر جدير بالبحث ، وليس لدينا مجال لبسط القول فيه ، ولكننا نقول إجمالا إننا أميل إلى القول بأنه طور طبيعى ، نشأ من البيئات الطبيعية والاجتماعية التى عاش فيها العرب ، وأن ما يسمى «الوراثة» ليس الا وراثة لنتائج هذه البيئات ، ولو كانت هناك أية أمة أخرى فى مثل بيئتهم لكان لها مثل عقليتهم ، وأكبر دليل على ذلك ما يقرره الباحثون من الشبه القوى فى الأخلاق والعقليات بين الأمم التى تعيش فى بيئات متشابهة أو متقاربة ، وإذ كان العرب سكان صحارى كان لهم شبه كبير بسكان الصحارى فى البقاع الأخرى من حيث العقل والخلق ، ولنشرح لك الآن العوامل التى عملت فى نفوس العرب

***

يعمل فى تكوين عقلية الشعوب عاملان قويان : البيئة الطبيعية ونعنى بها ما يحيط بالشعب طبيعياً من جبال وانهار وصحراء ونحو ذلك ، — والبيئة الاجتماعية ونعنى بها ما يحيط بالأمة من نُظُم اجتماعية كنظام حكومة ودين وأُسْرة ونحو ذلك ، وليس أحد العاملين وحده هو المؤثر فى العقلية ، لذلك كان خطأً ما ذهب اليه « هجِلْ » من انكار ما للبيئة الطبيعية من أثر فى العقل اليونانى ، والثقافة اليونانية ، مستدلا بأن الأتراك احتلوا أراضيهم وعاشوا فى بلادهم ولم تكن لهم ثقافتهم وعقليتهم ، ووجه الخطأ ان ذلك يكون صحيحاً لو كانت البيئة الطبيعية هى المؤثر الوحيد ، إذن لكان مثل العقل اليونانى يوجد حيث يوجد أقليمه ، وينعدم حيث ينعدم ، أما والعقل اليونانى نتيجة عاملين فوجود جزء العلة لا يستلزم وجود المعلول ، وقد حاول

علم الاجتماع توضيح ما لهذه العوامل من أثر فى الأمم المختلفة ، ونحن لا يعنينا هنا إلا تأثيرها فى العرب

فالعرب — كما أسلفنا — كانوا يسكنون بقعة صحراوية تصهرها الشمس ، ويقل فيها الماء ، ويجفُّ الهواء ، وهى أمور لم تسمح للنبات أن يكثر ، ولا للمزروعات أن تنمو ، إلا كلأً مبعثراً هنا وهناك ، وأنواعا من الأشجار والنبات مفرقة استطاعت أن تتحمل الصيف القائظ ، والجو الجاف ، فهزلت حيواناتهم ، ونحلت أجسامهم ، — وهى كذلك أضعفت فيها حركة المرور ، فلم يستطع السيرَ فيها إلا الجملُ ، فصعب على المدنيات المجاورة من فرس وروم أن تستعمر الجزيرة ، وتُفيض عليها من ثقافتها ، اللهم إلا ما تسرَّب منها فى مجار ضيقة معوجة عن طرق مختلفة بيناها قبل

وشئ آخر لا بد من النظر اليه وهو تأثير هذه الصحراء فى النفوس : ذلك أن الحياة فى الصحراء قليلة إذا قيست بحياة الحضر ، سواء فى ذلك حياة النبات أم الحيوان أم الانسان ، قد عُرّيت أرضها — غالباً — من آثار البشر ، فلا أبنية ضخمة ، ولا مزروعات واسعة ، ولا أشجار باسقة ، فابن الصحراء يقابل الطبيعة وجها لوجه ، لا شئ يحول دون التفاته اليها ، تطلع الشمس فلا ظل ، ويطلع القمر والنجوم فلا حائل ، تبعث الشمس أشعتها المحرقة القاسية فتصيب أعماق نخاعه ، ويسطع القمر فيرسل أشعته الفضية الوادعة فتبهر لبه ، وتتألق النجوم فى السماء فتملك عليه نفسَه ، وتعصف الرياح العاتية فتدمر كلّ ما أتت عليه — أمام هذه الطبيعة القوية ، والطبيعة الجميلة ، والطبيعة القاسية ، تهرع النفوس الحساسة الى رحمن رحيم ، والى بارئ مصوِّر ، والى حفيظ مُقيت — الى الله — ولعل هذا هو السر فى أن الديانات الثلاث التى يدين بها أكثر العالم — وهى اليهودية والنصرانية والاسلام

نبعت من صحراء سينا وفلسطين وصحراء العرب

الحق أن السكون المخيم على الصحراء يملأ النفوس المستعدة رَوْعة ، ويكسبها صفاء ، لا شئ فى الصحراء من صنع الانسان ، بل الكل من صنع الله ، لا يقع نظر الناظر الا على شمس تسطع ، ونجوم تناغى ، وقمر يحدث ، ورياح تلعب ، فى جو فسيح مفتوح ، هنالك يستولى على النفس الصافية حالة لا يفقهها ساكن المدن

للصحراء موسيقى ذات نغمة واحدة متكررة ، موسيقى عابسة قاسية ، رهيبة عظيمة ، فلا عجب أن ترى أهلها قد استولى عليهم نوع من انقباض النفس أو الكآبة أو الوجد، أو ماشئت فَسَمِّه ، ولا عجب أيضاً أن يتغنى شعراؤها بنوع واحد من القول ، ونغمة واحدة ، لأن الصحراء توقّع على نفوسهم صوتاً واحداً فيَشْعُرون — كما تلقَّوْا — شعراً واحداً كما سنبينه بعد

هم نتيجة أقليم طليق لا يصد هواءه بناء ، ولا يحجب شمسه غيم ، ولا يحبس أمطاره وسيوله سد ، كل شئ فيه حر على الفطرة ، فهم كذلك أحرار كأقليمهم ، لم يحبسهم زرع يتعهدونه ، ولا صناعة يعكفون عليها ، كذلك تحررت نفوسهم من قيود حكومة ونظام ، اللهم الا شيئين قيدا عقولهم ونفوسهم : قيد دينهم الوثنى وما يتطلبه من شعائر وتكاليف ، وقيد تقاليد القبيلة وما تستلزمه من واجبات شاقة ، وقد كانوا لتقاليد قبيلتهم أشد اخلاصاً ، وأقوى أيماناً

***

هذا النوع من البيئة حدّد نوع معيشتهم ، فهم رُحَّل يتطلبون الكلأ ، وهم فقراء ، ثروتهم فى كثرة ماشيتهم ، وهذه الثروة تحت رحمة الطبيعة ، فقد تنفق الماشية ، وينضب ماء الآبار ، ويقل المطر فيقل المرعى ويسوء العيش، وبحق سَمَّوا المطر غيثاً —وهذا النوع من البيئة أيضاً حدد نوع أخلاقهم وعقليتهم ، أليس البؤس

هو الذى جعل الكرم وإطعام الطعام وإيقاد النيران يهتدى بها الضيفان فى مقدمة الفضائل؟ أو ليس هذا الفقر هو الذى حبب اليهم الاغارة فأشادوا بذكر حمى القبيلة، وعيّروا من قصّر فى الدفاع عنها، واسترخصوا النفوس فى سبيل حمايتها، واذا كانت الحياة بين اغارة ودفع مغير، والسبل كلها غير آمنة، ولا حكومة تقتص من جانٍ أو تحمى طريقاً، أفليسوا اذن فى حاجة لأن يعُدّوا الشجاعة والوفاء والعفو من كبرى الفضائل؟ وهكذا قل فى عقليتهم، فالعدل والظلم والخير والشر وما يذم وما يمدح كله تابع لما تواضعوا عليه، وما تواضعوا عليه تابع لنوع معيشتهم —

وأنت اذا نظرت الى اللغة العربية والأدب العربى فى ذلك العهد رأيته نتيجة طبيعية لتلك الحياة، وصورة صادقة لهذه البيئة، فألفاظ اللغة مثلا فى منتهى السعة والدقة اذا كان الشئ الموضوع له اللفظ من ضروريات الحياة فى المعيشة البدوية، وهى قليلة غير دقيقة فيما ليس كذلك، فالابل هى عماد الحياة البدوية، هى خير مأكلهم ومشربهم وملبسهم ومركبهم — فحياة العرب فى الصحراء تكاد تكون مستحيلة لولا فضل الجمل، من أجل هذا ملئت اللغة العربية بالأبل فلم يترك العرب صغيرة ولا كبيرة مما يتعلق بها الا وضعوا لها اللفظ أو الألفاظ، فوضعوا الألفاظ لها ولحَمْلها ونِتاجها، ووضعوا الأسماء لأَسْنانها (أعمارها) وحَلْبها، ورضاعها وفطامها، ونعوتها فى طولها وقصرها، وسمنها وهزالها، وأصواتها وأوبارها، وعلَفها واجترارها، ورعيها وبروكها، وأبوالها وحركة أذنابها، وأنواع سيرها ورياضتها، والرِّحال وما فيها، وكل ما يُشَد عليها، وقيودِها ونزع قيودها، وسِماتها وعيوبها، وجرَبها وامراضها، وأدوائها الخ ولم يقتصروا على اللفظ الواحد للمسمى الواحد بل وضعوا له الأسماء المتعددة — فاذا أنت انتقلت من الجمل الى السفينة رأيت اللغة العربية فى غاية القصور، فهم لم يوفوها حقها كما وفوا حق الجمل، ولم يصفوا كل أجزائها، ولم

يضعوا أسماء لكل نوع من أنواعها ، نعم هناك ألفاظ تتعلق بذلك ولكنها لا تكاد تذكر اذا قيست بالألفاظ الموضوعة للابل وشؤونها ، بل انك اذا فحصت الألفاظ المستعملة فى السفن ومتعلقاتها وجدت كثيراً منها معربا غير عربى ، كالسَّيابجة واليَماسِرة والأَنْجَر ، وكثير منها لا نشك فى أنه وضع بعد العصر الجاهلى

هذا مثل واضح وهناك أمثلة عديدة من هذا القبيل ، فالأرض الصحراوية بما فيها من رمال ومرتفعات ومنخفضات ، وما فيها من كلأ وأعشاب وحشرات وهوام ، كل ذلك وصفه العرب ، ووضعوا له الأسامى المختلفة ، فالأرض الصُّلبة والغليظة والمستوية ، والواسعة والمطمئنة ، والمجدبة والمخصبة ، والهضاب والوديان ، قد شرح كل نوع منها ووضع له اسم وأسماء ، أما البحار وما حوته من أنواع الأسماك والأصداف والأمواج ، ومختلف المياه ، فليست اللغة غنية فيها ، الى كثير من هذه الأمثلة ، وحسبك دليلا على هذا انك اذا نظرت فى كتاب كالمخصّص لابن سِيدَه — ومِيزَته أنه يجمع الكلمات المتعلقة بموضوع واحد فى موضع واحد — أمكنك أن تقارن هذه المقارنة بوضوح ، فقد استغرق فيه الكلام على الابل وما يتعلق بها ١٧٦ صفحة كبيرة عدا ما ذكر متفرقا فى مواضع أخرى منه ، على حين أن السفينة استغرقت منه أقل من سبع صفحات ، وبعبارة أخرى أن الكلام على الابل أخذ نحو جزء من أجزاء الكتاب السبعة عشر ، فانت اذا قلت أن ما ورد فى كلام العرب مما يتعلق بالابل جزءاً من سبعة عشر جزءاً من مجموع اللغة العربية لم تكن بعيداً عن الحقيقة ، وهى نسبة جدُّ كبيرة ولكنه الجمل عماد الحياة العربية البدوية

هذا فى المحسات ، وانك تجد مثله فى المعنويات ، فكلمات السرور واللهو واللعب والمزاح أقل من كلمات البؤس والقتال والفاقة والحزن والويل ، ألم ترهم تفننوا فى الداهية فصاروا يخترعون لها من الأسماء ما أتعب اللغويين ؟ حتى جمع حَمْزَة

من أسمائها ما يزيد على أربعمائة ، وحتى قالوا أن كثرة أسماء الدواهى من الدواهى ، ذلك لأن طبيعة البيئة تستدعى ذلك ، فهى بيئة شقاء وفقر ، لا بيئة رخاء ونعيم

وان أنت نظرت الى الأدب العربى فى الجاهليــة رأيت هذا بعينه ، فكم استغرق الجمل والناقة من الشعر وخيال الشاعر ؟ وكم استغرق وصف الأرض سهلها وحزْنها ؟ وكذلك انما كان يمدح الشعراء ممدوحهم ، ويرثّون ميتهم بالأخلاق الفاشية لعهدهم ، من كرم وشجاعة ، وكان للبُطُولة ووصف عاطفة الحماســة والتمدح بشن الغارة ورد العدو المنزلة العالية — وكذلك قل فى تشابيههم وأمثالهم ، فكلها منتزعة من نوع معيشتهم وصورة صادقة لحياتهم

***

ومظاهر الحياة العقلية فى الجاهلية هى اللغة والشعر والأمثال والقصص وهى فقط مظاهر عقلهم ، أما العلم والفلسفة فلا أثر لهما عندهم ، لأن الطور الاجتماعى الذى أبناه لا يسمح لهم بعلم ولا فلسفة — نعم كان عندهم معرفة بالأنســاب ، ومعرفة بالأنْواء والسماء ، ومعرفة بشئ من الأخبار ، ومعرفة بشئ من الطب ، ولكن من الخطأ البَيّن أن تسمى هذه الأشــياء علما ، كما يفعل الألوسى وغيره فيقول ومن علومهم علم الطب ، وعلم الأنواء ، وعلم السماء ثم يشيدون بذكر ذلك حتى يوهموك أنه كان عندهم علم منظم بأصول وقواعد ، فأن ما كان عندهم من هذا القبيل لا يتعدى معلومات أولية وملاحظات بسيطة ، لا يصح أن تسمى علما ولا شبه علم ، أما القواعد والبحث المنظم الذى يسمى علما فلا عهد للعرب الجاهليين به ، وأصدق تعبير عن ذلك ما قاله ابن خلدون فى مقدمته عند كلامه على علم الطب قال :

« وللبادية من أهل العمران طب يبنونه فى غالب الأمر على تجربة قاصرة على بعض الأشخاص ، متوارثة عن مشايخ الحى وعجائزه ، وربما يصح منه البعض ، الا

أنه ليس على قانون طبيعي ، ولا على موافقة المزاج ، وكان عند العرب من هذا الطب كثير ، وكان فيهم أطباء معروفون كالحارث بن كَلَدة وغيره »[1] ومثل هذا يقال فيما ورد عنهم من الكلام في الأنواء والسماء ، فهي معلومات بنيت على تجربة ناقصة ، تصيب حيناً وتخطئ أحيانا ، ويتناقله الناشئون عن آبائهم ، كذلك لا أثر للمذاهب الفلسفية عندهم لما بينا من قبل ، ولا تعتدّ بقول الذين يبحثون عن أبيات من الشعر الجاهلي وردت فيها خطرات فلسفية فيزعمون أنها مذاهب فلسفية فاذا قال الأعشى

اسْتَأْثَرَ اللهُ بِالْوَفَاءِ وَبِالْعَدْ ... لِ وَوَلَّى الْمَلَامَةَ الرَّجُلَا

قالوا انه مذهب فلسفي يراد به رفع التَّبِعة عن الانسان ، وكذلك قالوا في مثل قول الآخر.

حَيَاةٌ ثُمَّ مَوْتٌ ثُمَّ بَعْثٌ ... حَدِيثُ خُرَافَةٍ يا أُمَّ عَمْرِو

وقول زُهير

رَأَيْتُ الْمَنَايَا خَبْطَ عَشْوَاءَ مَنْ تُصِبْ ... تُمِتْهُ وَمَنْ تُخْطِئْ يُعَمَّرْ فَيَهْرَمِ

فان هناك فرقاً كبيراً بين مذهب فلسفي وخطرة فلسفية ، فالمذهب الفلسفي نتيجة البحث المنظم ، وهو يتطلب توضيحاً للرأي ، وبرهنة عليه ، ونقضاً للمخالفين وهكذا ، وهذه منزلة لم يصل اليها العرب في الجاهلية ، أما الخطرة الفلسفية فدون ذلك ، لانها لا تتطلب الا التفات الذهن الى معنى يتعلق بأصول الكون ، من غير بحث منظم وتدليل وتفنيد ، وهذه درجة وصل اليها العرب

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٤١٢

الفصل الخامس

مظاهر الحياة العقلية

سنتكلم كلمة عن كل مظهر من مظاهر الحياة العقلية وهى اللغة والشعر والمثل والقصص ، لا من حيث جماله الفنى وأسلوبه البلاغى فهذا لا علاقة له بموضوعنا ، ولكن من حيث دلالته على العقل

وقبل ذلك يجب أن نقف قليلا لنبين رأينا فى حجية هذه الأمور ، ذلك لأن الشك قد يُطَوِّح بكل هـذه المظاهر ، أليس الشعر الجاهلى ظل غير مكتوب نحو قرنين ، وظلت تتناقله الرواة شفاها ، ونحن نعلم ما فى هذا من تعرض للخطأ والتغيير؟ ثم ، أليس هناك دواع تحمل رواة الشعر وغيرهم على الانتحال من دينية وسياسية وجنسية ، وقد بين النقاد الثقات أن كثيراً من الشعر الجاهلى موضوع مختلق ، فكيف بعدُ يصح أن يعتمد عليـه فى تعرف الحياة العقلية ؟ وقل مثل ذلك فى سائر المظاهر

فنقول : ان أحداً لم ينكر الشعر الجاهلى كله جملة ، بل الباحثون فيه منهم من يبالغ فى الشك ، ومنهم من يبالغ فى اليقين ، ومنهم من يقتصد ، ومذهبنا نحن أن نسلك فى الشعر الجاهلى مسلكنا فى سائر ما يروى من الحوادث التاريخية وما يروى من أحاديث ، ففى هذه الأشياء نمتحنها من ناحيتين : من ناحية السَّنَد أعنى الرواة الذين رووا الحادثة أو الحديث ، ومن ناحية المَتْن أعنى القول المنقول نفسه ، فاذا كانت الناحيتان صحيحتين وجب علينا أن نصدق ما قيل حتى يظهر وجه للنقد

جديد ، فلنفعل كذلك فى الشعر ، فاذا كان الراوى كاذبا أو ليس بثقة لم نعتمد على ما روى ، وكذلك اذا قام برهان على ضعف المتن كأن يتشبب الشاعر بموضع ثبت تاريخياً أنه لم يذهب اليه ولم يكن به علاقة ، أو نحو ذلك ، فاذا لم يكن شىء من هذين صح الاستدلال بالشعر المروى ، فالثقات مثلا ضعفّوا ما يرويه ابن اسحاق من الشعر ، وطعنوا فى حمّاد الراوية وخَلَفٍ الأحمر فلنـدع ما يرويه هؤلاء ما لم يشاركهم غيرهم من الثقات فى روايته ، ولكنهم وثقوا أبا عمرو بن العلاء ، والأصْمَعِىّ وأمثالها فلنأخذ بما رووا ما لم يقم دليل من ضعف المتن على كذبه — ولعله يسلم لنا بعد ذلك جملة صالحة نستطيع أن نتبين منها الحياة العقلية

على أن هناك وجهاً آخر للنظر ، وهو أن الشعر المزيف يصح أن يكون ممثلا للحياة العقلية الجاهلية متى كان المزيِّف عالماً بفنون الشعر ، خبيراً بأساليبه ، فمثلا يقول ابن سلّام فى خلف الأحمر « أجمع أصحابنا أنه كان أفرس الناس ببيت شعر وأصدقه لسانا » ويعنى بالفراسة فى الشعر العلم به والبصر فيه ، فاذا وضع خلف قصيدة فقد كان يُلَبِّس فيها على الناس وينحو نحو الجاهليين ، ويقلدهم فى مهارة وحذق ، حتى ليصعب على الناقد أن يفرِّق بين قوله وقول الجاهلى ، فلا علينا بعدُ اذا استفدنا من علم خلف بأمور الجاهلية ، أليس اذا حدثك خلف عن شؤون الجاهلية وهو الخبير بها كان لقوله قيمة كبرى ؟ فهو كذلك إذا وضع شعراً يمثل الحياة الجاهلية

(٢) اللغـــة

تدل اللغة على الحياة العقلية من ناحية أن لغة كل أمة فى كل عصر مظهر من مظاهر عقلها ، فلم تخلق اللغة دفعة واحدة ويأخذها الخلف عن السلف كاملة ، انما

يَخْلُق الناس فى أول أمرهم ألفاظاً على قدر حاجاتهم ، فاذا ظهرت أشياء جديدة خلقوا لها ألفاظاً جديدة ، واذا اندثرت أشياء قد تندثر ألفاظها ، وهكذا اللغة فى حياة وموت مستمرين ، وكذلك الاشتقاقات والتعبيرات فهى أيضاً تنمو وترتقى تبعاً لرقى الأمة — هذا ما ليس فيه مجال للشك ، واذا كان هذا أمكننا اذا حصرنا معجم اللغة الذى تستعمله الأمة فى عصر من العصور — أن نعرف الأشياء المادية التى كانت تعرفها والتى لا تعرفها ، والكلمات المعنوية التى تعرفها والتى لا تعرفها ، اللهم الا اذا كانت المعاجم أثرية كمعاجم اللغة العربية التى نستعملها نحن اليوم فانها لا تدل علينا ، لأنهـا ليست معاجمنا ، ولم تسر معنا ولم تمثل عصرنا ، ولذلك يخرج عليها كتابنا وشعراؤنا ، وانما كانت معاجم صحيحة للعصر العباسى أو نحوه ، أما معاجم كل أمة حية الآن فهى دليل عليها ، فاذا أمسكت معجما منذ مائة عام للأمة الفرنسية ولم تجد كلمة للتلغراف والتليفون فمعنى ذلك أن الأمة لا تعرفها ، واذا لم تجد كلمة تدل على معنى من المعانى دلك على أنهم لم ينتبهوا الى هذا المعنى وهكذا

فنستطيع اذن اذا حصرنا الكلمات العربية المستعملة فى الجاهلية أن نعرف ماذا كانوا يعرفون عن الماديات وماذا كانوا يجهلون ، وماذا كانوا يعرفون من المعانى والعواطف والملكات النفسية ، وماذا كانوا يجهلون ، فاذا لم تجد مثلا كلمة ملكة أو عاطفة أو شعور فى اللغة الجاهلية دل ذلك على أنهم لم ينتبهوا الى تلك المعانى فلم يضعوا لها ألفاظاً ، وهذا وأمثاله يحدد لنا مقدار رقيهم العقلى ، ولكن مع الأسف لم يوضع معجم كهذا ، وهل نستطيع ذلك ؟ — انه يقف فى سبيلنا جملة عقبات

(الأولى) أن أكثر الشعر والنثر الجاهليين قد ضاع ، قال أبو عمرو بن العلاء « ما انتهى اليكم مما قالته العرب الا أقلّه ، ولو جاءكم وافراً لجاءكم علم وشعر كثير » فمن أجل هذا نستطيع أن نثبت ولا نستطيع أن ننفى ، نستطيع اذا صح عندنا

بيت من الشعر الجاهلى أن نقول أن ألفاظه ومعانيه تعرفها العرب ، ولكن لا نستطيع اذا لم نجد أن نقول أن العرب لا تعرف هذا اللفظ ولا هذا المعنى ، و بذلك ينهدم جزء كبير من مظهر الحياة العقلية

(الثانية) أن العرب فى الجاهلية كانوا يعيشون قبائل ، وهذه القبائل تختلف فيما بينها — كثرة وقلة فى اللغة وفى اللهجة ، فقد تستعمل قبيلة كلمة ولا تستعملها القبيلة الأخرى أو تستعمل غيرها ، فقد روى « أن أبا هريرة لما قدم من دَوْسٍ عام خَيْبَرَ لقى النبى صلى الله عليه وسلم وقد وقعت من يده السكين ، فقال له ناولنى السكين ، فالتفت أبو هريرة يَمْنَةً ويَسْرة ولم يفهم ما المراد باللفظ ، فكرر له القول ثانية وثالثة ، ثم قال آلمدية تريد ؟ وأشار اليها فقيل له نعم ، فقال أو تسمى عندكم السكين ؟ ثم قال والله لم أكن سمعتها الا يومئذ » وهذه اللغات بدأ توحيدها قبل الاسلام واستمر هذا العمل فى الاسلام ، فقد تكون قبيلة استعملت كلمة لم تستعملها الأخرى أو استعملت غيرها ، خصوصاً وأن بعض البيئات الطبيعية والاجتماعية لقبيلة قد تخالف ما للقبيلة الأخرى ، فقبيلة على الساحل وأخرى فى جبل وثالثة فى سهل وهكذا ، فاذن لا يصح لنا اذا عثرنا على كلمة فى شعر شاعر أن نستدل بها على الحياة العقلية للعرب أجمعين

(الثالثة) أن كثيراً من الألفاظ العربية خُلق فى العصر الاسلامى ، قال ابن جِنّى فى الخصائص « ان العربى اذا قويت فصاحته ، وسمت طبيعته ، تصرفَ وارتجل ما لم يُسبَق اليه ، فقد حكى عن رُؤْبة وأبيه أنهما كانا يرتجلان ألفاظاً لم يسمعاها ولا سُبقا اليها » وهناك ألفاظ تغيرت معانيها فى الاسلام كأن يكون المعنى عاما فى الجاهلية وخصص فى الاسلام كالصلاة والزكاة والحج والبيع والمزارعة ونحو ذلك ، بل أن اللفظ الواحد قد يتغير مدلوله فى عقل السامع بانتقاله من طور الى طور

فى الحضارة ، فلفظ الكرسى والمائدة والخوان والمطبخ والكانون والملهى له مدلول فى ذهن البدوى غير مدلوله فى ذهن الحضرى ، فالكرسى فى ذهن البدوى أبسط شكل يطلق عليه اسم كرسى ، وفى ذهن الحضرى أشكال مختلفة من الكراسى لم يكن يتخيلها البدوى — ان شئت فانظر الى ما نفهمه نحن الآن من مؤتمر وصحافة وجريدة ومطبعة وما كان يفهمه البدوى فى الجاهلية من هذه الألفاظ ، بل ومايفهمه العربى فى العصر العباسى منها — فما معجم الألفاظ للجاهليين قبل الاسلام وهبك عثرت عليها فما مدلولها بالدقة عندهم ؟ ذلك مطلب عسير المنال

قد تقول : ان فى القرآن غناء عن ذلك ، فقد نزل بلغة العرب وفهمه العرب وقت نزوله ، ونصه لا يحتمل الشك ، فنستطيع أن نتعرف منه لغة الجاهليين ، فنقول ، صحيح ان القرآن نزل بلغة العرب ، ونصه لا يحتمل الشك ، وهو يفيدنا فى تعرف كثير من حياة الجاهلية العقلية فيما يحكى من أقوال المعاندين ، وفيما يصور من حياتهم الاجتماعية والاقتصادية ، ولكن ألفاظه وتعبيراته ومعانيه لا تمثل لغة الجاهليين بأكملها ، لأن القرآن استعمل ألفاظاً لم يكن يستعملها الجاهليون ، وخصص ألفاظاً لمعان لم يكن يخصصها الجاهليون ، واستعمل استعارات ومجازات خارجة عن الدائرة التى كان يستعملها الجاهليون ، وله أسلوب أخاذ كان بعيداً عن أسلوب الجاهليين وله معان كذلك ، قال السيوطى فى المزهر « قال ابن خالويه ان لفظ الجاهلية اسم حدث فى الاسلام للزمن الذى كان قبل البعثة ، والمنافق اسم اسلامى لم يعرف فى الجاهلية ، وقال ابن الأعرابى لم يسمع قط فى كلام الجاهلية ولا فى شعرهم فاسق » الخ فلا تستطيع بعد ذلك أن تقول أن معجم القرآن ومعانيه وأمثاله تمثل الحياة العقلية من الناحية اللغوية

وبعدُ فمع كل هذه العقبات نرى أن ما يسلم من شعر ومثل صحيحين يدلنا

— نوعا ما — على حياتهم العقلية ، كما يدلنا كُمّ ثوب عثر عليه على طول الثوب نفسه وسعته ، على اختلاف فى الصعوبة بين الماديات والمعنويات.

وهذا الباقى يدلنا على غنى معجم اللغة قبيل الاسلام وخاصة فيما يتصل بنوع معيشتهم ، وقد عبّر عن ذلك الأستاذ « نُولْدَكِه » خير تعبير اذ يقول « انا ليتملكنا الاعجاب بغنى معجم اللغة العربية القديم ، اذا ذكرنا مقدار بساطة الحياة العربية وشؤونها ، وتوحد مناظر بلادهم واطرادها اطراداً يدعو الى السآمة والملل ، وهذا يستتبع حتما ضيق دائرة التفكير ، ولكنهم فى داخل هذه الدائرة الضيقة وضعوا لكل تغير — وان قل — كلمة تدل عليه — ويجب أن نقر بأن معاجم اللغة العربية قد تضخمت كثيراً بكلمات استعملها الشعراء وصفاً لأشياء فذكرها اللغويون على أنها أسماء لتلك الأشياء ، فمثلا اذا أطلق شاعر كلمة « الهَيْصَم » على الأسد من الهَصْم وهو الكسر ، وأطلق عليه آخر « الهَرّاس » من الهَرْس وهو الدق وضع أصحاب المعاجم الكلمتين على أنهما اسمان مرادفان للاسد ، وقد أدخل باب الهجاء — على الأخص — فى اللغة وفى الأدب العربى — وهو باب ذهب أكثر ما قيل فيه — تعبيرات كثيرة صاغها قائلوها فى صورة مبتكرة وأحيانا غريبة — وقد انتقص اللغويون — على ما يظهر — كلمات وردت فى بعض الاشعار على قلة ، ولم تكن مستعملة الا فى قبائل معينة — ولكن رغما عن هذا كله يجب أن نعترف بأن معجم اللغة العربية غنِيٌّ غِنًى رائعاً ، وسيبقى دائما مرجعاً هاماً لتوضيح ما غمض من التعبيرات فى جميع اللغات السامية الأخرى.

وليست اللغة العربية غنية بكلماتها فحسب ، بل بقواعد نحوها وصرفها أيضاً ، فجموع التكسير وأحيانا أسماء الأفعال كثيرة كثرة زائدة عن الحاجة » اه باختصار ونحن نوافقه فى غنى اللغة العربية غنى مفرطاً فى الحدود التى ذكرناها من قبل وهى

الحدود التى رسمتها لهم بيئتهم ، فهم أغنياء فى الجمل وما اليه ، والصحراء وما فيها ، والفاظ العواطف المحدودة التى تجيش فى صدورهم — ولكن ليست غنية فيما خرج عن هذه الحدود كالبحروعالمه ، ولا بأنواع الترف التى ينعم بها المنغمسون فى الحضارة ، يعرفون القبيلة وما تفرع منها ويضعون لكلٍّ اسما لأن نظام القبيلة نظامهم ، ولكن لا يعرفون نظام الحكومات ولا أنواع الدواوين فلم يضعوا لها بالضرورة اسما ، فلما عرفوا معنى الديوان أخذوا اسمه عمن يعرفه وهكذا ، ولم يكن يتطلب منهم فى الجاهلية أن يضعوا كلمات لما لم يمس حياتهم — فذلك محال — وحسب الأمة فضلا أن تسمى ماتشعر به الاسم والاسماء ، ولكن حسبها مذلة أن تتحضر وتتسع حياتها من جميع نواحيها ثم لا تريد الا أن تبقى — من حيث اللغة — فى حدود الدائرة الضيقة التى رسمها لهم آباؤهم الأولون

كذلك مما لا شك فيه أن اللغة العربية غنية باشتقاقها وتصريف كلماتها ، فوضع صيغة فعلية لكل زمن ، والمشتقات العديدة للدلالة على أنواع مختلفة من المعانى والأشخاص ، كل هذا يشعرنا شعوراً تاماً بغنى اللغة وصلاحيتها للبقاء

وللغة دلالة أخرى على الحياة العقلية من حيث ما تستخدم فيه اللغة من شعر ومثل وقصص وسيتجلى ذلك فى الفصول التالية

(ب) الشـــعر

يذهب بعض الباحثين[1] الى أن الشعراء فى الجاهلية كانوا « هم أهل المعرفة » يعنون بذلك أن طبقة الشعراء فى الجاهلية كانوا أعلم أهل زمانهم ، وليسوا يعنون بالضرورة أى نوع من أنواع العلم المنظم . انما يعنون انهم أعلم بما يتطلبه نوع معيشتهم كمعرفة الأنساب ومثالب القبيلة ومناقبها — وقد يساعد على هذا الرأى اشتقاق المادة فشعَرَ فى الأصل معناها علِمَ تقول شعَرت به علمت ، وليت شعرى ما صنع فلان أى ليت علمى محيط بما صنع « وما يُشْعِرُكُمْ أنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لا يُؤْمِنُونَ » ما يدريكم . وشعر بكذا فطن كما فى اللسان ، فالمادة كلها معناها العلم أو المعرفة ، وعليه فيكون الشاعر معناه العالِمُ ، والشعراء العلماء ، ثم خصصوا الشعر بهذا الضرب من القول ، قال فى اللسان « والشعر منظوم القول ، غلَبَ عليه لشرفه بالوزن والقافية وان كان كل علم شعراً من حيث غلب الفقه على علم الشرع » اه ور بما ساعد على هذا أيضاً ما جاء فيه «قال الأزهَرى الشعر القريض المحدود بعلامات لا يجاوزها ، والجمع أشعار، وقائله شاعر لأنه يَشْعُرُ ما لا يشعر غيره أى يعلم » اه ولكن يرى بعض المستشرقين أن كلمة شعر مأخوذة من اللغة العبرية ، ففيها « شيرْ » بمعنى التَّرتيلة أو التَّسبيحة القدسية ، ويرجحون ذلك بأنه لم يرد فى اللغة العربية شَعَرَ بمعنى ألَّف البيت أو القصيدة ، وكل ما فيها شعر بمعنى قال الشعر ، وفرقٌ بينهما

وبعد ، فهل حق أن الشعراء أعلم الطبقات فى الجاهلية ؟ نحن نشك فى هــذا

(١) كالاستاذ بوور فى كتابه « تاريخ الفلسفة فى الاسلام »

كثيراً ، لانا نرى أنه كان فى الجاهلية طبقةأخرى هى طبقة الحُكام ، وهؤلاء كانوا يحكمون بين الناس اذا تشاجروا فى الفضل والنسب وغير ذلك ، وكان لكل قبيلة حاكم أو أكثر واشتهر منهم كثيرون كأكْثَم بن صَيْفِيّ وحاجب بن زُرارة والأقْرَع بن حابس وعامر بن الظَّرِب ، وما روى عنهم فى كتب الأدب من أقوالهم وأحكامهم يدلنا على أنهم أرقى عقلية وأصدق رأيا من الشعراء ، وان كان الشعراء أوسع خيالا وأكثر فى القول افتنانا .

نعم ان الشعراء كانوا من أرقى الطبقات عقلا ، بدليل ما صدر عنهم من شعر ، وبدليل أحاديث مبعثرة نراها تدل على اعتداد الشعراء بأنفسهم من ناحية الرقى العقلى ، كالذى جاء فى سيرة ابن هشام من أن الطُّفَيْلَ الدَّوْسِيّ قدم مكة ورسول الله بها ، فحَذَّره رجال من قريش من سماع النبي حتى لا يتأثر بقوله ، قال الطُّفَيْل : فما زالوا بى حتى أجمعت ألا أسمع منه شيئاً . ثم قلت فى نفسى : واثُكْلَ أمى ! والله انى رجل لبيب شاعر ما يخفى علىّ الحسن من القبيح فما يمنعنى من أن أسمع من هذا الرجل ما يقول ؟ فان كان الذى يأتى به حسناً قبلته وان كان قبيحاً تركته » .

أضف الى ذلك انا نجد أكثر الشعراء فى الجاهلية من أكرم الناس على قومهم ، لأن موقف الشاعر فى قبيلته كان التغنى بمناقبها ، ورثاء موتاها ، وهجاء أعدائها ، وقلّ أن تجد فى أول أمرهم من كان صعلوكا يتخذ الشعر حرفة كما فعل الحُطَيْئَةُ بعدُ .

ومع هذا فانا نرى أن الشعراء كانوا من أرقى طبقاتهم عقلا ولكن ليسوا أرقاهم

***

دلالة الشعر على الحياة العقلية — قديما قالوا « ان الشعر ديوان العرب » يعنون بذلك أنه سجلّ سُجِّلت فيه أخلاقهم وعاداتهم ، ودياناتهم وعقليتهم ، وان

شئت فقل انهم سجّلوا فيه أنفسهم ، وقديما انتفع الأدباء بشعر العرب فى الجاهلية فاستنتجوا منه بعض أيامهم وحروبهم ، وعرفوا منه أخلاقهم التى يمدحونها والتى يهجونها ، واستدلوا به على جزيرة العرب وما فيها من بلاد وجبال وسهول ووديان ونبات وحيوان ، وما كانوا يعتقدون فى الجن ، وما كانوا يعتقدون فى الاصنام والخرافات ، وألفوا فى ذلك جميعه الكتب المختلفة

وكانت الطريقة المثلى للانتفاع بهذا « الديوان » أن يعنى العلماء بجمع ما صح عندهم من الشعر الجاهلى مع نقد السَّنَدِ والمَتْن ، وابعاد ما لم يصح ، كما فعل المُحَدِّثون فى الحديث ، فليس لدينا مجموعة من الشعر الجاهلى ذُكِرَ سَنَدُها ، وعُنى ببيان رجالها عناية تامة ، كالذى عندنا من صحيح البخارى ومسلم وغيرهما ، وكان يجب أن يعنى بالشعر الجاهلى هذه العناية متى عددناه « ديوانا » تسجل فيه الحوادث والعادات ، ونظرنا اليه كأنه وثائق تاريخية ، ولكن يظهر أن هذا النظر الى الشعر الجاهلى لم يكن سائداً عند الرواة والأدباء ، انما كان السائد عندهم أو عند أكثرهم النظر اليه كمادة لتعليم اللغة ، أو كأنه طُرْفة ومَلْهًى ومادة لحسن المحاضرة فلم يكن يعنى به هذه العناية التى بذلت فى الحديث ، ولم ير من يتعمد الكذب فيه أن يتبوأ مقعده من النار — نعم أن بعض الأدباء سار فى الأدب سيره فى الحديث فكان يروى الخبر مُعَنْعَناً ، ووضع بعضهم مصطلحات لرواية الأدب على نمط مصطلح الحديث ، ولكن يظهر لنا أنها كلها محاولات أولية لم تنضج ولم يسيروا فيها الى النهاية

كذلك أكثر ما روى لنا قد عنى فيه بالمختارات أكبر عناية ، وهم فى هذا ينظرون نظرة الأديب لا نظرة المؤرخ ، فالقصيدة التى لم يُحْكَم نَسْجُها ، ولم تهذَّب ألفاظُها ولم يصح وَزْنها قد يعجب بها المؤرخ أكثر من اعجابه بالقصيدة الكاملة

من جميع نواحيها ، ويرى فيها دلالة على الحياة العقلية أكثر من قصيدة راقية ، ولعل هذا هو السبب فى أنا مع اعتقادنا فى أن الشعر كان خاضعاً للنشوء والارتقاء قلَّ أن نرى فيما يُروى لنا منه المحاولات الأولية التى بدأ بها الشعراء شعرهم ثم تدرجوا منها الى ما وصل الينا من الرقى ، ذلك أن الأديب لم يكن يروقه ذلك فيهمله ، أو يستضعف وزنه فيصلحه ، وبذلك يضيع كثير من معالم التاريخ

***

لو كان عندنا هذه المجموعة التى لا يقصد فيها الى الاختيار ، ولكن يقصد فيها الى الصحة لكان لنا مادة صادقة للدلالة على أشياء كثيرة منها الحياة العقلية

ومع هذا فما لدينا يمثل بعض الشىء وان لم يكن وافياً — كما ذكرنا من قبل — وأشهر المجموعات التى لدينا مما نسب الى الجاهليين — عدا دواوين الشعراء — المعلقات السبع ويغلب على الظن أن جامعها حمَّاد الراوية و (٢) المُفَضَّليَّات وجامعها المفضَّل الضَّبِّى وتشتمل على نحو ١٢٨ قصيدة ، (٣) ديوان الحماسة لأبى تمام وفيه مقطعات كثيرة صغيرة من الشعر الجاهلى ، (٤) ومثله حماسة البحترى ، (٥) وفى كتاب الأغانى والشعر والشعراء لابن قتيبة أشعار ومقطعات كثيرة للجاهليين ، (٦) ومختارات ابن الشجرى ، (٧) وجمهرة أشعار العرب لمن يسمى أبا زيد القرشى

والشعر الذى وصل الينا عن الجاهلية لم يعدُ تاريخ أقدمه ١٥٠ سنة قبل البعثة — ونظرة عامة اليه تدلنا على أنه ليس متنوع الموضوعات كثيراً ، ولا غزير المعانى فما روى لنا من القصائد موسيقاه واحدة ، يوقع على نغمة واحدة ، والتشابيه والاستعارات تكرر غالباً فى أكثر القصائد — قلة فى الابتكار وقلة فى التنوع — ولنستعرض كثيراً منها فماذا نرى ؟

يتخيل الشاعر أنه راحل على جمل ومعه صاحب أو أكثر ، وقد يعرض له

فى طريقه أثر أحبة رحلوا فيستوقف صحبه ويبكى معهم على رسم دارهم ، ويذكر أياما هنيئة قضاها معهم وأن العيش بعدهم لا يُحْتَمل ، ثم يصف محبوبته اجمالا أو تفصيلا ويخرج من هذا الى وصف ناقته أو فرسه ، ويقارنها بالوعل أو النعامة أو الغزال ، وقد يطفر من ذلك الى وصف الصيد ومنظره ومنازلته — وبعد هذا كله يتعرض للموضوع الذى من أجله أنشأ القصيدة، فيتمدح بشجاعته أو يتغنى بفعال قبيلته، أو يعدد محاسن ممدوحه ويصف كرمه، أو يفتخر بموقعة انتصر فيها قومه، أو يهجو قبيلة عدت على قبيلته ، أو يحمل قومه على الأخذ بالثأر أو يرثى راحلا ، وهذه — تقريباً — كل الموضوعات التى قيل فيها الشعر الجاهلى — وهى موضوعات كما ترى محدودة ضيقة ، هى ظل حياة الصحراء . وصورة صادقة لعيشة البداوة ، والحق أنهم فى البيان واللعب بالألفاظ كانوا أقدر منهم على الابتكار وغزارة المعنى ، فترى المعنى الواحد قد توارد عليه الشعراء فصاغوه فى قوالب متعددة تستدعى الاعجاب ، ولكن لا يستدعى أعجابنا خلقهم للمعانى وابتكارهم للموضوعات ، وقد عبّر عنترة عن ذلك بقوله :

هل غَادَرَ الشُّعَرَاءُ مِنْ مُتَرَدَّمِ ... أمْ هَلْ عَرَفْتَ الدَّارَ بَعْدَ تَوَهُّمِ

وزهير إذ يقول :

مَا أرانَا نَقُولُ الاَّ مُعَاراً ... أو مُعَاداً مِنْ لَفْظِنَا مكْرُورَا

ولكن ما أنصفوا ، فقد غادر الشعراء كثيراً ، والناس من قديم يشعرون ولا يزال مجال القول ذا سعة ، ولا يزال الخيال الخصب ينتج ويجدّد ، ويخلق موضوعات لم تكن ، ومعانى لم يسبق بها — ولكن ضيقوا على أنفسهم أو قل ضيقت عليهم بيئتهم فلم يجدوا إلا أن يقولوا معاداً أو معاراً

اللهم إلا أبياتا قليلة مبعثرة تشعر فيها بمعنى جديد ، وترى فيها أثر الابتكار

واضحاً ، والا شعراء نادرين كانت لهم مناح خاصــة ، وشخصية واضحة ، وتسمع لقولهم نغمة جديدة ، كالذى تراه فى زُهَيْر ، فقد عنى باخلاقيــة قومه وعبر عنها تعبيراً صادقاً .

كذلك تشعر حين تقرأ الشعر الجاهلى غالباً أن شخصية الشاعر اندمجت فى قبيلته حتى كأنه لم يشعر لنفسه بوجود خاص ، وانك لتتبين هذا بجلاء فى معلقة عمرو بن كلثوم ، وقل أن تعثر على شعر ظهرت فيه شخصية الشاعر ووصف ما يشعر به وجدانه ، وأظهر فيه أنه يحس لنفسه بوجود مستقل عن قبيلته .

ولما انتشرت اليهودية والنصرانيــة بين العرب ظهرت نغمة دينية جديدة ، تراها فى مثل شعر عدى بن زيد فى الحيرة ثم فى أمية بن أبى الصلت فى الطائف

وخلاصة القول أن الشعر الجاهلى لا يدلنا على خيال واسع متنوع ولا على غزارة فى وصف المشاعر والوجدان بقدر ما يدلنا على مهارة فى التعبير وحسن بيان فى القول

(ح) الامثـــال

يقول علماء اللغة العربية أن كلمة المَثَل مأخوذة من قولك هـذا مَثَل الشيء ومِثْلُه كما تقول شَبَهُه وشِبْهُه ، لأن الأصل فيه التشبيه ، ثم جعلت كل حكمة سائرة مثلا ، ويرى غيرهم أن الكلمة مأخوذة عن العبرية ففيها كلمة « مَشَل » تدل على هذا المعنى وأوسع منه ، فهم يطلقونها على الحكمة السائرة وعلى الحكاية القصيرة ذات المغزى وعلى الاساطير

وعلى كل حال فسنبحث فى الأمثال فقط من ناحية دلالتها العقلية ، فمن أمثال الأمة نستطيع أن نتفهم الدرجة التى وصلت اليها ، ونستطيع أن نعرف كثيراً من أخلاقها وعاداتها

وللأمثال من هذه الناحية مِيزَةٌ على الشعر ، ذلك أن الشعر تعبير طبقة من الناس يُعَدّون فى مستوٍ أرقى من مستوى العامة ، فالشعراء يعبرون عن شؤون القبيلة التى ارتسمت فى أذهانهم الراقية نوعا من الرقى ، وهم يعبرون بألفاظ مصقولة صقلا يستوجبه الشعر ، أما الأمثال فكثيراً ما تنبع من أفراد الشعب نفسه ، وتعبر عن عقلية العامة ، ولذلك تجد كثيراً منها غير مصقول ، أعنى أنه لم يُتخير لها ألفاظ الأدباء ولا العقلاء الراقين ، مثل قولهم « أوَّلُ ما أطْلَعَ ضبٌّ ذَنَبَه » وقولهم « أم قُبَيْسٍ وأبو قُبَيْسٍ كلاهُمَا يَخْلِطُ خَلْطَ الحَيْس » وربما كان هذا هو السبب فى أن بعض الأمثال العربية يفهم معناها اجمالا لا تفصيلا ، قال أبو هلال العسكرى فى كتابه جمهرة الأمثال فى شرح « بِعَيْنٍ مَّا أرَيَنَّكَ » « ان معناه « أعْجِلْ » وهو

من الكلام الذى قد عرف معناه سماعا من غير أن يدل عليه لفظه ، وهذا يدل على أن لغة العرب لم ترد علينا بكمالها ، وان فيها أشياء لم تعرفها العلماء » اهـ وأنا أرى أنه يدلنا أيضاً على أن ما وصل الينا من الشعر والخطابة ونحو ذلك هى لغة الأدباء المصقولة لا لغة الشعب والعامة ، ولم يصل الينا من لغة العامة الا بعض الأمثال .

ولست أعنى أن كل الأمثال ساقطة التعبير ، غير مصقولة الألفاظ ، ولكن أعنى انها تمثل الشعب بأجمعه ، فقد ينبع المثل من طبقة راقية فيكون راقياً مصقولا ، وقد ينبع من العامة فلا يكون كذلك ، أما الشعر فلا ينبع الا من طبقة الشعراء ، وهم عادة أرقى من الشعب ، وهم ان فات بعضهم رقى المعنى فلن يفوته صقل اللفظ ، ومن أجل هذا عبر بعضهم عن المَثَل بأنه « صوت الشَّعب » ، ومن أجل هذا أيضاً كانت دلالة الأمثال على لغة الشعب أصدق من دلالة الشعر

رأى الباحثون فى الأمثال أن هناك نوعا منها يكاد يكون شائعاً بين الشعوب كلها ، ونوعا آخر تختلف فيه الأمة عن الأخرى ، فالنوع الأول موضوع البحث : كيف اتفقت الأمم فى هذه الأمثال وخصوصاً فى اللغات ذات الأصل الواحد كاللغات السامية ، ففيها أمثلة متقاربة ، وفى بعض الأمثال العربيـة مشابهة قريبة لأمثال سليمان ، لا تختلف عنها الا فى صوغها فى القالب العربى وتحويرها تحويراً طفيفاً لتتفق والذوق العربى — والنوع الثانى موضع البحث : لم كان كذلك فى هذه الامة وكان غير ذلك فى الأمة الأخرى ، فالأمة الزراعية لها أمثال مشتقة من زراعتها ، والتجارية لها أمثال مشتقة من تجارتها وهكذا وانك لتستطيع أن تطبق ذلك على العرب باستعراضك أمثالهم ، فقد أكثروا من الأمثال المتعلقة بالابل وشؤونها ، فقالوا « استَنْوَقَ الجَمَلُ » و « انما يَجْزِى الفَتَى لَيْسَ الجَمَلْ » و « أَغُدَّةٌ كَغُدَّةِ البَعِير » وهكذا أمثالهم فى اللبن والجَزور ، وان أنت استعرضت

أمثال قريش رأيت فيها ما يدل على أنهم قبيلة تجارية كقولهم « لا فى العير ولا فى النفير » ونحو ذلك

وقد عاق عن الاستفادة من الأمثال العربية من هذه الناحية أمران ، (الأول) اختلاط الأمثال الجاهلية بأمثال الاسلام اختلاطا كبيراً حتى ليصعب التفريق بينهما ، وهذه أول خطوة يجب التحقق منها قبل الاستدلال بالأمثال على الحياة العقلية — وقد رووا أن « علاقة الكلابى » جمع الأمثال فى عهد يزيد بن معاوية وقد كان هذا يفيدنا كثيراً لو وصل الينا، اذ لا يكون قد ذكر فيه الا أمثال الجاهلية وصدر الاسلام ، ولكنه لم يصل

نعم أن هناك دلائل تدلنا أحيانا على مصدر المثل ، من طرق عدة

(١) أن هناك عدة أمثال قيلت فى حوادث تاريخية كجزاء سنمار ، ومواعيد عرقوب ، ولا فى العير ولا فى النفير ، وتسمع بالمعيدى خير من أن تراه ، وهذه دلالة صحيحة متى ثبتت صحة الحادثة التاريخية التى قيل فيها المثل .

(٢) الاستدلال من حياة الجاهلية الاجتماعية على أن المثل جاهلى ، كالذى قالوا فى « أنصر أخاك ظالماً أو مظلوماً » فان ذلك هو الخلق الجاهلى لا الاسلامى

(٣) ان كثيراً من الأمثال قد نص المؤلفون على قائليها عند ذكر مضرب المثل ، فهم فى كثير من الأحيان يذكرون القصة التى قيل فيها المثل ، فنستدل بذلك — ولو على وجه التقريب — على زمنه ، ولكنا نشك فى كثير من هذا لأن القصة فى كثير من الأحيان يبدو عليها أثر الصنعة ، وانها عملت فرشاً ينطبق عليه المثل ، بدليل أن المؤلفين كثيراً ما يذكرون قصصاً مختلفة متباينة لمضرب المثل الواحد — أضف الى ذلك أن أكثر الأمثال فى الأمم المختلفة يصعب تعيين قائليها ، حتى الامثال قريبة العهد ، لان الامثال ليست الا جملا قصيرة ، نتيجة

تجارب طويلة ، وهى عند ما تقال لا تكون مثلا ، وانما يجعلها مثلا شيوعها بعد ، لموافقتها لذوق الجمهور ، ويغلب عندئذ أن يكون قد نسى قائلوها

(الأمر الثانى) من وجوه الصعوبة أن أكثر جامعى الأمثال رتبوها على حسب حروف الهجاء ، فجعلوا ما أوله الف ، ثم ما أوله باء وهكذا ، ولم نر فيما نعلم أحداً رتبها على حسب أصولها الاجتماعية كأن يجمع الأمثال التى تتعلق بالغنى والفقر ، وبالعمر وأطواره ، وبالزواج والأسرة ، وبالعمل والتجارة ، وبالحظ وما اليه ، وبالأصدقاء والجيران ، وبالمرأة وأخلاقها ، وبالصحة والمرض ، الى نحو ذلك ، ولو فعلوا ذلك — كما فعل بعض مؤلفى الفرنج فى أمثالهم — لافادونا فائدة كبرى من ناحية موضوعنا

***

وقد شاع بين العرب فى الجاهلية ذكر لقمان ، واتخذوه شخصية هى مثال الحكمة ، ينسبون اليه من الأمثال كثيراً مما لم يعرف قائله ، وسميت فى القرآن سورة باسمه ، وزعم بعض الأدباء أن هناك لقمانين : لقمان الحكيم ، ولقمان عاد ، وان لكل ورد أمثالا ، فقالوا عن الثانى ورد « إحْدَى حُظَيَّاتِ لقمان » و « آكَلُ من لقمان » ورووا للاول حكما كثيرة ، ويظهر أن حكمه كانت متداولة بين العرب لدرجة كبيرة ، ذكر ابن هشام فى السيرة « أن سُوَيْد بن صامت قدم مكة حاجاً أو مُعْتمِرا ، وكان سويد انما يسميه قومه فيهم الكامل لجَلَدِه وشرفه ونسبه ، . . . فتصدى له رسول الله صلى الله عليه وسلم حين سمع به ، فدعاه الى الله والى الاسلام فقال له سويد فلعل الذى معك مثل الذى معى ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم وما الذى معك ؟ قال : مَجَلَّةُ لقمان ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم اعرضها علىّ فعرضها عليه ، فقال له ان هذا لكلام حسن ، والذى معى أفضل

من هذا ، قرآن أنزله الله على هو هدى ونور ، فتلا عليه رسول الله القرآن ودعاه الى الاسلام فلم يبعد منه ، وقال ان هذا لقول حسن الخ » (١)

ولكن من لقمان هذا ؟ ما هُوِيَّتُه ؟ وما قومه ؟ وأية مدنية تمثلها حكمته ؟ وفى أى عصر كان ؟ لم يصل العلم الى تحقيق ذلك بعد ، وقد اضطربت الأقوال فيه اضطرابا كبيراً ، فقيل كان نوبياً من أهل أيْلَة ، وقيل كان حَبَشياً ، وقيل كان أسود من سودان مصر ، وزعم وهب بن مُنبِّه أنه يهودى ، وأنه ابن أخت داود عليه السلام وقيل ابن خالته وكان فى زمنه ، وفى تفسير البيضاوى « أنه لقمان بن باعورا من أولاد آزر بن أخت أيوب أو خالته ، وعاش حتى أدرك داود وأخذ منه العلم » ، ويقول ياقوت فى معجمه فى مادة طبرية « وفى شرقى بحيرة طبرية قبر لقمان الحكيم وابنه ، وله فى اليمن قبر والله أعلم بالصحيح منهما » اه ويروى بعضهم حديثاً عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « سادة السودان أربعة لقمان ، والنَّجاشي و بلال ، ومَهْجَع » وظاهر أن كلمة السودان لا يراد بها السودان بالمعنى الذى نصطلح عليه الآن إنما يراد بها الجنس الاسود

وعلى كل حال فالذى نستنتجه من هذا انهم مجمعون على أنه ليس عربيا ، وأنه أدخل على العرب حكمة أمة أخرى ، ويرجح بعضهم أنها العبرية ، ويزعمون أن كلمة لقمان تعريب من العرب لكلمة بَلْعَمْ ، وبَلْعَمُ بْنُ باعورا يهودى معروف ، وقد ذكر الامام مالك فى موطئه كثيراً من حكمه ، وجمعت له جملة أمثال قصصية فى كتاب اسمه « أمثال لقمان » ويدل ضعف أسلوبه ، ونزول عبارته ، وكثرة الخطأ النحوى والصرفى فيه ، على أنه موضوع من عهد قريب ، ولم يرد ذكر هذا الكتاب فى كتب الأدب العربى القديمة فيما نعلم ، ورأى بعض الباحثين وجوه شبه

---

(١) سيرة ابن هشام ص ٢٦٥ ج ١ من شرح الروض الانف والمجلة معناها الصحيفة

بين بعض الأمثال المنسوبة للقمان ، وقصص « إيزُوبْ » اليونانية ، وأخذوا يفترضون الفروض فى منشأ ذلك مما ليس هذا محله

و بعد فان نحن نظرنا الى أمثال العرب التى نسبت الى الجاهليين وجدنا بعضها سخيفاً ، يستخرج منك ابتسامة الاستهزاء ، كالذى ذكرنا من قبل من أقوال ساقطة التعبير ، و بعضها قبيح اللفظ فى فحش ، وبعضها نظرات للحياة متناقضة مثل «سمِّن كلبك يأ كلك» و «سمِّن كلبك يَتْبَعْكَ» وكثير منها نتيجة تجربة صادقة ، ونظر هادئ حكيم مثل و « أخو الظَّلْمَاءِ أعشَى بِلَيْل» و « ان من الحُسْنِ شِقْوة » و« أم الصقر مِقْلَاتٌ نَزُور » و« تجوع الحرة ولا تأكل بثدييها » و « التمرة الى التمرة تمر » و « الثَّكْلَى تحب الثكلى » و « الحرب مأيَمَة » و« بئس العوضُ مِنْ جَمَلٍ قيدُه » و « بَيْنَهُمْ داء الضرائر » و « ترى الفتيان كالنَّخْلِ ، وما يدريك ما الدَّخْل » الخ الخ

والعرب حقاً أجادوا فى هذا النوع من الأدب ، وخلفوا لنا ما يدل على عقليتهم أكثر مما يدلنا الشعر والقصص ، ويظهر أن سبب ذلك أنه يوافق مزاجهم العقلى ، وهو النظر الجزئى الموضعى لا الكلى الشامل ، لأن المثل لا يستدعى احاطة بالعالم وشؤونه ، ولا يتطلب خيالا واسعاً ولا بحثاً عميقاً ، انما يتطلب تجربة محلية فى شأن من شؤون الحياة

تدلنا الأمثال على حياة العرب الاجتماعية التى أجملناها من قبل ، فنظرة الى مجموعة الأمثال التى قيلت فى المرأة تدل على انحطاط منزلتها فى نظرهم ، والتى قيلت فى الحياة الاقتصادية تدل على فقر البلاد واجدابها ، ويطول بنا القول لو عرضنا لك كل الأمثال التى قيلت فى كل باب وما يستنتج منها ، ولكنا نحيلك فى ذلك على أمثال المَيْدانى وجَمْهرة الأمثال لأبى هلال العسكرى وأمثال المفضل الضبى

بعد أن أبنا لك وجهة نظرنا فى كيفية بحثها

وهناك نوعان آخران يلحقان بالأمثال ولهما قيمة كبيرة فى الدلالة على الحياة العقلية ، ولكن يظهر أن المؤلفين لم يُعْنَوا بهما العناية الكافية فلم يجمعوهما ويرتبوهما كما فعلوا فى الأمثال ، انما تراهما منثورين مبعثرين فى الكتب وهما

(الأول) الأحاجى أو الألغاز كالذى زعموا أنه اجتمع يوما عَبِيدُ بْنُ الأَبْرَص وامرؤ القيس ، فقال له عبيد : كيف معرِفَتُكَ بالأوابد ؟ فقال : قل ما شئت تجدنى كما أحببت : قال عَبِيد

ماحية ميتة قامت بميتتها درداء ما أنبتت نابا وأضراسا

فقال امرؤ القيس

تلك الشعيرة تُسْقَى فى سنابلها قد أخرجت بعد طول المكث أكداسا

فقال عبيد :

ما السود والبيض والأسماء واحدة لا يستطيع لهن الناس تمساسا

فقال امرؤ القيس :

تلك السحاب اذا الرحمن أنشأها روّى بها من محول الأرض أيباسا

الى اخر القصة ، وهى طويلة

وكالذى زعموا أن امرأ القيس آلى على نفسه ألا يتزوج امرأة حتى يسألها عن ثمانية وأربعة واثنين ، فجعل يخطب النساء فاذا سألهن عن هذا قلن له أربعة عشر ، فبينما هو يسير اذا هو برجل يحمل ابنة له صغيرة كأنها البدر ليلة تمه فأعجبته ، فقال لها ياجارية ما ثمانية وأربعة واثنان فقالت أما ثمانية فأطْبَاء الكلبة ، وأما أربعة فأخلاَفُ الناقة ، وأما اثنان فثديا المرأة ، فخطبها من أبيها الخ

ولم نسق هذين المثلين لاعتقادنا بصحتهما فان أثر الصنعة الاسلامية واضح فى

قوله : تلك السحاب اذا الرحمن أنشأها وفى قوله بعد

تلك الموازين والرحمن أرسلها رب البرية بين الناس مقياسا

هذا فضلا عن ضَعْفِ الشعر وإسفافه . وانما سقناهما للدلالة على ما نريد من الألغاز والأحاجى ، وترى كثيراً منها قد نثر فى كتب الأدب كأمالى القالى والحيوان للجاحظ والمثل السائر لابن الأثير وأمثال الميدانى لو جمع وامتحن ورتب لدلنا عن ناحية خاصة من نواحى الخيال

(الثانى) قصص الحيوانات كالذى زعموا أن النعامة ذهبت تطلب قرنين ، فرجعت بلا أذنين ، وفى ذلك يقول بشار

طَالَبتها قلبى فَرَاغَتَ به وأمْسَكت قَلْبى مَعَ الدَّيْن

فَكُنْتُ كالهِقل[1] غدا يبتغى قَرْنا فَلَمْ يَرْجِعْ بِأُذْنَيْنِ

وزعموا أنه لذلك يسمى بالظَّليم — وكالذى زعموا أن الغراب ذهب يتعلم مشية القطاة فلم يتعلمها ونسى مشيته فلذلك صار يحجل — وأن الضفدع كان بلا ذَنَب لأن الضب سلبه اياه

وكانوا يقولون أن الهدهد لما ماتت أمه أراد أن يبرها فجعلها على رأسه يطلب موضعاً ، فبقيت فى رأسه ، فالقُنْزُعة التى فى رأسه هى قبرها ، وانما انتنت ريحها لذلك[2] وزعموا أن الهَدِيلَ فرخ كان على عهد نوح عليه السلام فصاده جارح فما من حمامة إلا وهى تبكيه وتدعوه فلا يجيبها قال بعضهم :

وما مَن تهتفين به لنصر بأسرع جابَةً لك من هَدِيل

وقولنا فى هذا النوع كقولنا فى سابقه

(١) الهقل الفتى من النعام

(٢) الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ٢٨٠ طبع أوروبا

(ى) القصص

كان للعرب قصص . وهو باب كبير من أبواب أدبهم ، وفيه دلالة كبيرة على عقليتهم ، وهذا القصص فى الجاهلية أنواع ، منها

أيام العرب : وهى تدور حول الوقائع الحربية التى وقعت فى الجاهلية بين القبائل ، كيوم داحسٍ والغَبْراء ، ويوم الفِجار ، و يوم الـكُلاب ، أو بين بعض العرب وأمم أخرى كيوم ذى قار وكان بين بنى شيبان والفرس ، وانتصر فيه العرب — وكانت هذه القصص موضوع العرب فى سمرهم فى جاهليتهم وفى اسلامهم « قيل لبعض أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ما كنتم تتحدثون به اذا خلوتم فى مجالسكم ؟ قال كنا نتناشد الشعر ، ونتحدث باخبار جاهليتنا » وترى هذه الايام وأخبارها مجموعة فى العقد الفريد وأمثال الميدانى — وقد زاد القصاص فى بعضها وشوهوا بعض حقائقها ، كالذى تراه فى أخبارهم التى حكوها فى موت الزَّبَّاء ، اذا قارنت بين ما قصوه وما ذكره ثقات المؤرخين عن زنوبيا Zenobia ، فخبر الزَّبَّاء المروى فى الكتب العربية عن هشام بن محمد الكلبى رواية خيالية موضوعة لا تتفق والتاريخ ، ولسنا ندرى هل أفسدها العرب فى جاهليتهم أو أفسدها رواة الأدب فى الاسلام

(أحاديث الهوى) وهذا كثير فى كتب الأدب ، كالذى رووا من قصة المُنَخَّل اليَشْكُرِى والمُتَجَرِّدَة زوج النعمان وما كان بينهما من علاقة وما قيل فى ذلك من قصص وما روى من أشعار (١)

(٣) وهناك نوع من قصص العرب أخذوه من أمم أخرى وصاغوه فى قالب

(١) أنظر الاغانى جزء ١٨ ص ١٥٤

يتفق وذوقهم ، كقصة شَريك مع المنذر وأنه أتاه فى يوم بؤسه رجل يقال له حنظلة فأراد قتله فطلب منه أن يؤجله سنة ، فقال ومن يكفلك ؟ فكفله شريك بن عمرو فلما كان من القابل جلس فى مجلسه ينتظر حنظلة فلم يأت ، فأمر بشريك فقُربَ ليقتله فلم يشعر إلا براكب قد طلع عليه فتأملوه فاذا هو حنظلة ، فلما رآه المنذر عجب من وفائهما وكرمهما فأطلقهما ، وأبطل تلك السُّنَّة [1] الخ ، فان لهذه القصة أصلا يونانياً معروفا — وكقصة أنه كان لرجل من بنى ضَبَّة فى الجاهلية بنون سبعة فخرجوا بأكلب لهم يقتنصون فأووا الى غار ، فهوت عليهم صخرة فأتت عليهم جميعاً ، فلما استراث أبوهم أخبارهم اقتفر آثارهم حتى انتهى الى الغار ، فانقطع عنه الأثر ، فأيقن بالشر فرجع وأنشد شعراً [2] فان لها شبهاً بقصة من قصص المسيحية الأولى .

وقد عرفت العرب فى الجاهلية قصصاً كثيرة عن الفرس وكانوا يروونها ويتسامرون بها ، جاء فى سيرة ابن هشام أن النَّضْر بن الحارث كان من شياطين قريش ، وممن كان يؤذى رسول الله صلى الله عليه وسلم ويَنْصِبُ له العداوة ، وكان قد قدم الحِيرَة وتعلم بها أحاديث ملوك الفرس وأحاديث رُستَم واسفِنْدْيار ، فكان إذا جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم مجلساً فذكر بالله ، وحذر قومه ما أصاب من قبلهم من الأمم من نقمة الله خَلَفَه فى مجلسه اذا قام ، ثم قال : أنَا والله يا معشر قريش أحسن حديثاً منه ، فهلم الى فأنا أحدثكم أحسن من حديثه ، ثم يحدثهم عن ملوك فارس ورستم واسفنديار ، ثم يقول بماذا محمد أحسن حديثاً منى ؟ قال ابن هشام وهو الذى قال فيما بلغنى « سأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ الله » [3]

***

ولعله بعد الذى ذكرنا من علاقات العرب بمن حولهم من الفرس والروم تجاريا

---

(١) الاغانى جزء ١٩ ص ٨٧ (٢) أمالى القالى جزء ١ ص ٦١

(٣) ابن هشام جزء ١ ص ١٩٠ من الروض الأنف

وسياسياً ودينياً ، وما ذكرناه عن لقمان من أنه حبشي أو يهودي أو مصري ، ومن اجماعهم بأنه ليس بعربي، وما كان من شبه بين أمثال سليمان والأمثال العربية، وما أشرنا اليه من وجوه الشبه بين بعض قصصهم وقصص الأمم الأخرى ، وما كانوا يتحدثون به من أقاصيص الفرس — يتضح لك أن العرب لم يكونوا — كما يفهم كثير من الناس — مستقلين عن غيرهم من الأمم استقلالا تاماً ، لا في وسائلهم الاقتصادية ولا السياسية ولا الأدبيــة ، فلما جاء الاسلام كان الاتصال أتم ، وأثر الامتزاج أكبر كما سيتضح ان شاء الله

مصادر هذا الباب

ذكرنا في ثنايا البحث كثيراً من الكتب التي رجعنا اليها ونزيد عليها أننا استفدنا أيضاً كثيرا من الكتب الآتية :

(١) دائرة المعارف الاســلامية في مادة « عرب » و « حمير » و « كهلان » وغير ذلك من مواد أخرى مفرقة

(٢) كتاب « العرب قبل الاسلام » Arabia before Mohammad تأليف O'leary

(٣) دائرة المعارف البريطانية في مادة اللغات السامية

(٤) سبائك الذهب في معرفة قبائل العرب

(٥) أمثال الميداني وأبي هلال العسكري والمفضل الضبي

الباب الثانى

الاسـلام

الفصل الأول

بين الجاهلية والاسـلام

كان للاسلام أثران كبيران فى عقلية العرب من ناحيتين مختلفتين ، (الأولى) ناحية مباشرة وهى تعاليمه التى أتى بها مخالفاً عقائد العرب (الثانية) ناحية غير مباشرة وهى أن الاسلام مكّن العرب من فتح فارس ومستعمرات الروم ، وهما أمتان عظيمتان تحملان أرقى مدنية فى ذلك العهد ، فكان من أثر الفتح وضع البلاد وما فيها من نظم وعلم وفلسفة تحت أعين العرب ، فتسربت مدنيتهما الى المسلمين ، وتأثرت بهما عقليتهم — وسنتكلم كلمة عن كلتا الناحيتين

لفظ الاسلام ومعناه — اذا تتبعنا مادة س ل م ونشوء كلمة الاسلام رأينا أن معنى السلام المسالمة ، وضد المسالمة الحرب والخصام ، جاء فى القرآن « وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْناً وإِذَا خَاطَبَهُمُ الجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَاماً » ولعل هذه الآية هى المفتاح الذى نصل به الى معرفة السبب فى تسمية العهد الذى قبل محمد صلى الله عليه وسلم جاهلية ، وعهده إسلاماً ، والجاهلية ليست من الجهل الذى هو ضد العلم ، ولكن من الجهل الذى هو السفه والغضب والأَنَفَة ، جاء فى حديث الافك

« ولكن اجْتَهَلَتْهُ الحَمِيَّةُ » أى حملته الأنفة والغضب على الجهل ، وفى الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأبى ذَرٍّ وقد عير رجلا بأمه « انك امرؤ فيكَ جاهلية » أى فيك روح الجاهلية ، وقريب من هذا المعنى استعمالهم استجهله الشئ أى استخفه ، ومنه قوله — وقاك الهوى واسْتَجْهَلَتك المنازل — وفى معلقة عمرو ابن كلثوم

أَلَاَ لاَ يَجْهَلَنْ أَحَدٌ عَلَيْنَـا فَنَجْهَلَ فَوْقَ جَهْلِ الْجَاهِلِينَا

فترى من هذا كله أن كلمة الجاهلية تدل على الخفة والأنفة والحمية والمفاخرة ، وهى أمور أوضح ما كانت فى حياة العرب قبل الاسلام، فسمى العصر الجاهلية ، ويقابل هذه المعانى هدوء النفس والتواضع والاعتداد بالعمل الصالح لا بالنسب وهى كلها نزعة سلام ، فمعنى الآية كما فى الطبرى « أن عباد الله هم الذين يمشون على الأرض بالحلم لا يجهلون على من جهل عليهم »

ثم انتقلت الكلمة الى معنى آخر قريب من هذا وهو استعمال أسلم المشتق من السلام بمعنى الخضوع والانقياد لَمَّا كان الخضوع أدعى الى السَّلام ، وفى هذا المعنى جاءت الآية «وأَنِيبُوا إِلى رَبِّـكُمْ وأَسْلِمُوا له» «فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لله» — وقد أطلقها القرآن بهذا المعنى أحيانا على المؤمنين والكافرين جميعاً لأنهم خاضعون لله ، ومنقادون له بحكم خلقتهم ، رضوا أو كرهوا ، تسرى عليهم قوانين العالم ولا يستطيعون الخروج عليها « وله أَسْلَمَ مَنْ فى السموات والأرض طَوْعاً وكَرْهاً واليه يُرْجَعُون » فكل من فى السموات والأرض مسلم بهذا المعنى، أى خاضع لأمر الله ، مطيع لما وَضع فى العالم من قوانين

ثم قصرت فى الاستعمال على من أسلم وجهه لله طوعاً ، فكأن المسلم هو الذى رضى بطاعة الله فاجتمعت له الطاعة الطبيعية والطاعة بالارادة، وقريب من هذا المعنى

قوله تعالى « فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً ، فِطْرَةَ اللهِ الَّتِى فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ، لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ، ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ، ولَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لايَعْلَمُونَ » وبهذا المعنى تطلق كلمة «مسلم» على كل من خضع لله وأطاع أى نبى من الأنبياء ، فأتباع ابراهيم وموسى وعيسى ومحمد مسلمون « قالَتْ يَأَيُّهَا الْمَلأُ إِنِّى أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ أَلاَّ تَعْلُوا عَلَىَّ وأْتُونِى مُسْلِمِينَ » « وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِىَّ إِنَّ اللهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ » وفى سورة يوسف «تَوَفَّنِى مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِى بِالصَّالِحِينَ » « فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِى إِلَى اللهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللهِ آمَنَّا بِاللهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ »

ثم خصت فى الاستعمال بالدين الذى أتى به محمد صلى الله عليه وسلم ، وبهذا المعنى ورد قوله تعالى « الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ الاسْلاَمَ دِيناً » « وَمَنْ يَبْتَغِ غيرَ الاسْلاَمِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ »

فهذا الاسلام عماده الخضوع لله والانقياد له ، ولعل هذا الاسم أنسب اسم للرد على العقلية الجاهلية ، عقلية الأنفة والحمية

***

تعاليم الاسلام : اذا نظرنا الى أصول الاسلام وجدناها تنقسم الى قسمين : عقائد وأعمال ، وقد تضمن أهمَّ النوعين قوله تعالى « ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ ومَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ »

ونحن نفصل ما جاء فيها بعض التفصيل فنقول

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

العقائد ، أهم أصل من أصول الاسلام الاعتقاد بالله ، والاعتقاد بالله يكاد يكون عاماً بين الشعوب ، فلا تكاد تخلو أمة مبتدية أو متحضرة من اعتقاد بآله ، ولكن فكرة الألوهية وأوصاف الآله تختلف اختلافاً كبيراً بين الأمم ، والاسلام يصف الله بأوصاف نلخصها مما ورد فى القرآن فهو ليس إله قبيلة ولا إله أمة العرب وحدهم ، ولا إله الناس وحدهم ، بل هو إله كل شئ « رَبُّ الْعَالَمِينَ » وكل شئ فى الوجود مخلوق له ، وخاضع لأمره « لله مَا فى السَّموَاتِ ومَا فى الأرض » « هُوَ الَّذِى خَلَقَ لَكُمْ مَا فِى الأَرْضِ جَمِيعاً » « الَّذِى خَلَقَ السَّموَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا » « الله رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمْ الأَوَّلِين »

وكل شئ من مظاهر الكون فعنه صدر « الله الَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ » « وأَلْقَى فِى الأَرْضِ رَوَاسِىَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ » « الله الَّذِى رَفَعَ السَّموَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا » « وَهُوَ الَّذِى يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِ » « وَالله جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ بِسَاطاً » « والله جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً » « والله أَنْبَتَكُمْ مِنْ الأَرْضِ نَبَاتاً »

قد أحاط علمه بكل شئ ، وأحاطت قدرته بكل شئ ، « وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِى الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا ولا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إلاَّ فِى كِتَابٍ مُبِينٍ» « إِنَّ الله بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ » « إِنَّ الله عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُور » « والله عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ » « إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِىُّ الْعَزِيزُ »

وهو إله واحد ، فليس هناك إله للخير وإله للشر ، وليس هناك إله للجمال وآله للرياح ، وليس هناك من يشاركه فى ألوهيته « فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ الله » « ومَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ إِلَه واحِدٌ » « وَقَالَ الله لا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ »

« واعْبُدُوا اللهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً »

ليس لأى مخلوق ولا لأية طائفة سلطان على الناس فى عقائدهم ، ولا أية صفة من صفات الربوبية « اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللهِ » حتى الرسول نفسه ليس إلا مبلغاً « فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ » وعلى الجملة فالله واحد بأتم معانى الوحدانية ، وأبسط أشكالها ، وليس يرضى الاسلام عن أى نوع من التعدد ، ولا أى رمز يشعر بالتعدد

قد اختار أفراداً من خلقه واتصل بهم بما يسمى « الْوَحْى » ومن هؤلاء ابراهيم وموسى وعيسى ومحمد وغيرهم « إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ ، وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَرُونَ وَسُلَيْمَانَ » والغرض من هذا الوحى تعليم الرسول للناس ما يعلمه الله له ، لهدايتهم الى الخير « وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ » « رسلاً مبشرين ومنذرين لِئَلاَّ يكون للناس على الله حُجَّةٌ بعد الرُّسُلِ » وهذا الوحى لم يكن عن طريق تجسد الله، انما هو من طريق روحى لم نعلمه حق العلم « وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلاَّ وَحْياً أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ » « وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِى مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُوراً نَهْدِى بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا »

وأصول الأديان السماوية كلها واحدة وكلها تدعو الى توحيد الله وعدم الشرك به ، ثم دخل بعض تعاليمها التغيير والتبديل « وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُوحِى إِلَيْهِمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ » « وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ »

وهناك وراء هذه الحياة حياة أخرى ، ويومها يوم القيامة واليوم الآخر ويوم

الحساب ويوم الدين « ثُمَّ إِنَّكُمْ لَمَيِّتُونَ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ تُبْعَثُونَ » وهذا اليوم هو يوم المثوبة على العمل الصالح ، والعقوبة على العمل السيء ، وكل عمل أتاه الانسان يسجل عليه ثم يقدمله يوم القيامة « وَكُلَّ إِنْسانٍ أَلْزَمْناهُ طائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ كِتاباً يَلْقاهُ مَنْشُوراً اقْرَأْ كِتابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً » « يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتاتاً لِيُرَوْا أَعْمالَهُمْ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ » وقد جعل للمثوبة والعقوبة داران : دار المثوبة وهي الجنة ودار العقوبة وهي النار ، وقد جعل في الجنة نوعان من الثواب نوع من اللذائذ الجسمية « وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ كُلَّما رُزِقُوا مِنْها مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقاً قالُوا هذَا الَّذِي رُزِقْنا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشابِهاً وَلَهُمْ فِيها أَزْواجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيها خالِدُونَ » ونوع روحي وهو رضا الله والقرب منه « يا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلى رَبِّكِ راضِيَةً مَرْضِيَّةً » « وَرِضْوانٌ مِنَ اللهِ أَكْبَرُ — وكذلك دار العقوبة نار حامية وسخط من الله وغضبه

ووراء هذا العالم المادي عالم آخر روحي ، وفيه نوعان من الأرواح ، نوع خيّر يطيع الله ما أمره ويجذب نفوس الناس الى الخير ويسمى الملائكة ، ونوع شرير يستغوي النفوس الى الشر ويسمى الشياطين

الأعمال : هناك أعمال يجب على المسلم أداؤها ، وهي أساسية كالعقائد ، وهي الصلاة ، ويقصد بها أن تكون مظهراً من مظاهر الاخلاص لله وتعبيراً دينياً يشرح عاطفة الاجلال له « وَأَقِمِ الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهى عَنِ الْفَحْشاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ » — والزكاة — وهي أن يؤخذ من مال الغني للفقير وللصالح العام ، وقد أكد القرآن هذين الفرضين أكثر من توكيده سواهما وقرنهما ببعض في

أكثر المواضع — ثم صوم رمضان وحج البيت من استطاع اليه سبيلا

الأخلاق — فى القرآن من الأخلاق نوعان نوع هو تعليم لآداب اللياقة «وإذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا» «لَا تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا» ونوع آخر هو أسمى ما تدعو اليه الأخلاق : وفاء بالوعد . وصبر فى الشدائد ، وعدل مع من أحببت أو كرهتَ ، وعفو عند المقدرة ، وعفة من غير غلو «وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ» «إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ» «خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ» «قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ» «قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ»

هدم الاسلام الوحدة القبيلية ، والوحدة الجنسية ، وكره التفاضل بشرف القبيلة أو شرف الجنس، وعلّم ان معتنقى الاسلام كلهم كتلة واحدة ، لا تفاضل بين أفرادها الا بطاعة الله وتنفيذ أمره «إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ» «انَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتقَاكُمْ» وفى الحديث «لَيْسَ مِنَّا مَنْ دَعَا إِلَى عَصَبِيَّةٍ أَوْ قَاتَلَ عَصَبِيَّةً»

حتّم الطاعة لله والطاعة للرسول والطاعة لأولى الأمر فى الأمة ما أطاع ولىّ الأمر أوامر الله «وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم» وفى الحديث «لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق»

«أثر هذه التعاليم فى العرب» لا شك أن هذه التعاليم رفعت المستوى العقلى للعرب الى درجة كبرى ، فهذه الصفات التى وصف الاسلام بها الله نقلتهم من عبادة

أصنام وأوثان ، وما يقتضيه ذلك من انحطاط فى النظر واسفاف فى الفكر ، الى عبادة إله وراء المادة « لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ » ، كان الاله عند أكثرهم إله قبيلة وان اتسع سلطانه فاله قبائل ، أو إله العرب ، فأبانه الاسلام إله العالمين ومدبر الكون ، وبيده كل شئ ، وعالما بكل شئ ، فاستطاع العربى بهذه التعاليم أن يرْقَى الى فهم إله لا مادة له واسع السلطان واسع العلم — وأفهمهم الاسلام أن دينهم خير الأديان ، وأن العالم حولهم فى ضـلال ، وأن نبيهم هادى الناس ، جميعاً وأنهم ورثته فى هداية الأمم ، فكان ذلك من البواعث على غزو هذه الأمم يدعونهم الى دينهم ، ويبشرونهم به ، فمن دخل فيه كان كأحدهم — وكان لعقيدة اليوم الآخر ودار الجزاء والجنة والنار أثر عظيم فى بيع كثير منهم نفوسهم فى سبيل نشر الدعوة « إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ »

كان للاسـلام أثر كبير فى تغيير قيمة الأشياء والأخلاق فى نظر العرب ، فارتفعت قيمة أشياء وانخفضت قيمة أخرى ، وأصبحت مقومات الحياة فى نظرهم غيرها بالامس — وقد لاقى النبى صلى الله عليه وسلم صعوبات كبرى فى نقلهم من عقليتهم الجاهلية الى عقليتهم الاسلامية ، تجدها مبسوطة فى كتب السيرة ، كما احتمل المسلمون السابقون من العذاب كثيراً فعن ابن عباس « والله انــ كان المشركون ليضربون أحدهم ويجيعونه ويعطشونه حتى ما يقدر على أن يستوى جالساً من شدة الضر الذى نزل به حتى يعطيهم ما سألوه من الفتنة وحتى يقولوا له آللات والعزى الهك من دون الله فيقول نعم » الخ حتى اضطر كثير منهم بعد خمس

سنوات من الدعوة أن يهاجروا الى قطر نصرانى وهو الحبشة يلجئون اليه ، فهاجر نحو مائة ممن أسلم وتركوا النبى صلى الله عليه وسلم فى مكة مع عدد قليل من أصحابه ، ولم ينتشر الاسلام وبعبارة أخرى لم تنتشر العقلية الجديدة الا بعد الهجرة الى المدينة وانهزام قريش حربياً — وحقاً أن هذا النزاع بين النبى صلى الله عليه وسلم وقريش أولا ثم بين المدنيين والمكيين ثانياً ثم بين من دخلوا من العرب فى الاسلام ومن لم يدخلوا انما هو نزاع بين عقليتين، عقلية وثنية تباح فيها اللذائذ ، وتمنح فيها الحرية الى حد بعيد ، وتقدر فيها الأخلاق تقديراً خاصاً، وعقلية أخرى موحدة تداس فيها الأصنام دوساً ، وتمتهن بكل أنواع الامتهان ، وتكسر من غير هوادة ، ولا تباح فيها اللذائذ الا بمقدار وتدفع فيها الضرائب ليصرف منها للفقراء وللصالح العام، وتقيد فيها الحرية بجملة قيود : عبادات فى أوقات خاصة،واحترام ملكية ، واحترام نفوس، وتقلب فيها قيمة الأخلاق قلباً ، فالانتقام والأخذ بالثار لم يعد خير الخصال، وهلم جرا ، وقد عبر خير تعبير عن الفرق بين الحالتين ما روى أن جعفر بن أبى طالب — وكان أحد الذين هاجروا الى الحبشة — قال للنجاشى وقد سألهم عن حالهم « كنا قوماً أهل جاهلية نعبد الأصنام، ونأكل الميتة ، ونأتى الفواحش،ونقطع الأرحام ونسىء الجوار ، ويأكل القوى منا الضعيف، فكنا على ذلك حتى بعث الله الينا رسولا منا نعرف نسبه وصدقه، وأمانته وعفافه، فدعانا الى الله لنوحده ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والاوثان ، وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة ، وصلة الرحم وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش وقول الزور، وأكل مال اليتيم ، وقذف المحصنة ، وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئاً، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام فصدقناه وآمنا به... فعدا علينا قومنا فعذبونا وفتنونا عن ديننا ليردونا الى عبادة الأوثان من عبادة الله تعالى ، وأن نستحل ما كنا نستحل

من الخبائث ، فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا الى بلادنا »[١]

وهذه القصة وان كان يغلب على الظن انها موضوعة بدليل أن الصيام ورد فيها وهو لم يشرع الا بعد الهجرة الى الحبشة ، و بغير ذلك من الأدلة فهى تمثل النزاع بين العقليتين أصدق تمثيل .

وقد عقد الأستاذ « جُوْلد زِيهِرْ » فصلا فى نقط النزاع بين الاسلام والفضائل عند العرب فى الجاهلية عَنْوَنَهُ « بالدين والمروءة » وهو يتلخص فى أن الاسلام رسم للحياة مثلا أعلى غير المثل الأعلى للحياة فى الجاهلية ، وهذان المثلان لا يتشابهان وكثيراً ما يتناقضان ، فالشجاعة الشخصية ، والشهامة التى لا حد لها ، والكرم الى حد الاسراف ، والاخلاص التام للقبيلة ، والقسوة فى الانتقام ، والأخذ بالثار ممن اعتدى عليه أو على قريب له أو على قبيلته بقول أو فعل ، هذه هى أصول الفضائل عند العرب الوثنيين فى الجاهلية — أما فى الاسلام فالخضوع لله والانقياد لأمره والصبر ، واخضاع منافع الشخص ومنافع قبيلته لأوامر الدين ، والقناعة وعدم التفاخر والتكاثر وتجنب الكبر والعظمة ، هى المثل الأعلى للانسان فى الحياة »

وان شئت أن تقارن بين مارسمه الاسلام من مثل أعلى فى الحياة وما رسمته الجاهلية من ذلك فاقرأ قوله تعالى

« لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ

(١) سيرة ابن هشام باختصار

البَأْس أُولئكَ الذين صدقوا وأُولئكَ هُمُ المتَّقون »

ثم اقرأ ماجاء فى معلقة طرَفة

اذا القوم قالوا منْ فتًى؟ خِلْتُ أَننى عُنيتُ فلَم أَكْسَلْ ولم أَتبَلَّدِ

أَحَلْتُ عليها بالقطيع فأَجْذَمَتْ وقد خَبَّ آل الأمعز المتوقِّدِ (١)

فذَالَتْ كَمَا ذَالَتْ وليدةُ معشرٍ تُرِى ربَّها أذيال سَحْلٍ ممدَّدِ (٢)

ولَسْتُ بحلاّل التـلاع مخافةً ولكن متى يسترفِدِ القوم أرفِدِ (٣)

وان تبغِنى فى حَلقةِ اليوم تَلْقنى وان تقْتنصنى فى الحوانيت تَصْطَدِ (٤)

متى تأتِنِى أَصبَحْكَ كأساً رَوِيَّةً وان كُنْتَ عَنْهَا ذا غنًى فاغْنَ وَازْدَدِ

وَانْ تَلْتَقِ القَوْمُ الجَميعُ تُلاقِنى الى ذِرْوةِ البَيْتِ الرفيعِ المُصَمَّدِ

نَداماى بيضٌ كالنجوم وقَيْنَةٌ تروح علينا بين بُردٍ ومُجْسَدِ (٥)

الى أن يقول

فلَوْلاَ ثلاَثٌ هُنَّ منْ عيشَةِ الفَتَى وجَدِّكَ لم أحفِلْ متى قام عُوَّدى

فَمِنهُنَّ سَبْقِى العَاذلاَتِ بِشَرْبَةٍ كُمَيْتٍ متى ما تُعْلَ بالماء تُزْبدِ

وَتَقْصيرُ يَوْمِ الدَّجْنِ وَالدَّجْنُ مُعْجِبٌ ببَهْكَنَةٍ تَحْتَ الخِبَاء المعمَّدِ (٦)

---

(١) أحلت وثبت والقطيع السوط وأجذمت أسرعت وخب ارتفع والآل السراب وقيل ما كان منه أول النهار ، والامعز الارض الغليظة التى فيها حصى والمتوقد المشتعل يقول وثبت على ناقتى بالسوط فأسرعت وقد ارتفع آل هذه الصحراء

(٢) ذالت تبخترت ، والوليدة الفتية، والسحل الثوب من القطن ، يقول أن ناقته تتبختر فى مشيتها كالفتاة تمشى أمام سيدها تتبختر وتجر أذيالها

(٣) التلاع هنا الاراضى المنخفضة وكنى بحلال التلاع عن البخيل لانه يسير حيث لايراه أحد

(٤) يريد بحلقة القوم مجلس اشرافهم وبالحوانيت بيوت الخمارين

(٥) الندامى الاصحاب على الخمر والقينة الجارية والبرد الابيض والمجسد المصبوغ بالجساد وهو الزعفران

(٦) الدجن الغيم ، والبهكنة الحسناء الخلق

كأن البُرِينَ والدَّماليج علِّقَتْ على عُشَرٍ أو خِرْوَعٍ لم يُخَضَّدِ (١)

وكَرِّى اذا نادَى المُضَافُ مُحَنَّباً كَسِيدِ الغَضَاذى السَّوْرَةِ المتورِّدِ (٢)

وهكذا المثل الأعلى للحياة الجاهلية ، فخر بالنَّجْدة ، وفخر بالكرم ، وفخر بمجالسة عِلْيَةِ القوم وفى حانات الخمر ، وتمتع بالشراب حوله الندامى والقِيان ، وهذا كل شئ فى الحياة

***

وبعد فالى أى حد تأثر العرب بالاسلام ؟ وهل امحت تعاليم الجاهلية ونزعات الجاهلية بمجرد دخولهم فى الاسلام ؟ الحق أن ليس كذلك ، وتاريخ الأديان والآراء يأبى ذلك كل الاباء ، فالنزاع بين القديم والجديد ، والدين الموروث والحديث يستمر طويلا ، ويحل الجديد محل القديم تدريجاً وقل أن يتلاشى بتاتا ، وهذا ما كان بين الجاهلية والاسلام ، فقد كانت النزعات الجاهلية تظهر من حين الى حين وتحارب نزعات الاسلام ، وظل الشأن كذلك أمداً بعيداً ، ولنقص طرفاً من مظاهر هذا النزاع

جاء الاسلام يدعو الى محو التعصب للقبيلة ، والتعصب للجنس ، ويدعو الى أن الناس جميعاً سواء « إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ » وفى الحديث « المؤمنون اخوة ، تتكافأ دماؤهم ، ويسعى بذمتهم أدناهم ، وهم يد على من سواهم » وخطب النبى صلى الله عليه وسلم فى خطبة الوَداع « أيها الناس ان الله تعالى أذهب عنكم نَخْوة الجاهلية وفخرها بالآباء ، كلكم لآدم ، وآدم من تراب ، ليس لعربى على عجمى فضل إلا بالتقوى » وروى « مسلم » أن النبى صلى الله عليه وسلم قال :

---

(١) البرين الخلاخيل والخروع كل نبات قصيف ريان ولم يخضد لم يكسر

(٢) المضاف الملجأ والمحنب المنحنى من الهزال والسيد الذئب والغضا نوع من الشجر والسورة الوثبة والمتورد الوارد

« من قاتل تحت رايةٍ عِمِّيَّةٍ[1] يغضب لعصبية أو يدعو الى عصبية أو ينصر عصبية فقتل قتل قِتْلَةً جاهلية » وآخى رسول الله بين المهاجرين والانصار بعد ما كان بين المكيين والمدنيين من عداء

ومع كل هذه التعاليم لم تمت نزعة العصبية ، وكانت تظهر بقوة اذا بدا ما يهيجها : انظر الى ما روى فى غزوة بنى المُصْطَلِق أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج فى جماعة من المهاجرين والانصار ، فكَسَعَ[2] رجل من المهاجرين رجلا من الأنصار فكان بينهما قتال ، الى أن صرخ يامعشر الأنصار ، وصرخ المهاجر يامعشر المهاجرين ، فبلغ ذلك النبىّ صلى الله عليه وسلم فقال ما لكم ولدعوة الجاهلية ؟ فقالوا كسع رجل من المهاجرين رجلا من الانصار فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم دعوها فانها منتنة ، فقال عبد الله بن أبَىّ بن سلول « لَئِنْ رَجَعْنا إلى المدينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأعَزُّ مِنْها الأذَلَّ » [3]

أفلست ترى أن نزاعا تافهاً لسبب تافه هيج النفوس ودعاهم الى النزعة الجاهلية وتذكر العصبية المكية والمدنية

ولما ولى الأمويون الخلافة عادت العصبية الى حالها كما كانت فى الجاهلية ، وكان بينهم وبين بنى هاشم فى الاسلام كالذى كان بينهم فى الجاهلية ، فخر الأمويون بالدهاء والحلم ، وكثرة الخطباء والشعراء ، ورد عليهم بنو هاشم يكاثرونهم فى ذلك ، وكان جدالهم ومفاخرتهم صورة صادقة للمنافرة فى الجاهلية[4] وعاد النزاع فى الاسلام بين القحطانية والعدنانية ، فكان فى كل قطر عداء وحروب بين النوعين ، واتخذوا

---

(١) العمية الضلالة
(٢) كسع الرجل ضربه بيده على ظهره أو نحو ذلك
(٣) تفسير الطبرى جزء ٢٨ ص ٧٣
(٤) أنظر ما افتخر به كل فى شرح ابن أبى الحديد جزء ٣ ص ٤٧٦ وما بعدها

فى كل صقع أسامى مختلفة ، ففى خراسان كانت الحرب بين الأَزْدِ وتَميم ، والأولون يمنيون والآخرون عدنانيون ، وفى الشام كانت الحرب بين كَلْب وقَيْس ، والأولون يمنيون والآخرون عدنانيون ، ومثل ذلك فى الاندلس ، ومثل ذلك فى العراق ، حكى ابن أبى الحديد أن أهل الكوفة فى آخر عهد علىّ كانوا قبائل ، فكان الرجل يخرج من منازل قبيلته فيمر بمنازل قبيلة أخرى فينادى باسم قبيلته : يا للنَّخَع أو يا لكِندة فيتألب عليه فتيان القبيلة التى مر بها فينادون : يا لتميم ويا لربيعة ، ويقبلون الى ذلك الصائح فيضربونه ، فيمضى الى قبيلته فيستصرخها فتسل السيوف وتثور الفتنة (١) ويطول بنا القول لو أنا شرحنا ما كان من حروب بين القبائل يرجع أصلها الى العصبية الجاهلية .

وأنت اذا نظرت الى الشعراء فى بنى أمية وجدت فيهم هذا المعنى واضحا جلياً فالشعراء انحازوا الى قبائل ثم أخذوا يُشيدون بذكر قبائلهم ، ويهجون غيرهم ، شأن شعراء الجاهلية ، ولعل أصدق مثل لذلك ما ترى فى هجاء جرير والفرزدق والأخطل .

ليست ناحية العصبية هى وحدها ما يظهر لنا فى عهد الاسلام من نزعات جاهلية فهناك نزعات أخرى لا تقل عنها وضوحاً

من ذلك حروب الردة ، وذلك أن كثيراً من قبائل العرب عدوا دفع الزكاة للخليفة ضريبة عليهم ومذلة لهم ، ونظروا اليها نظرهم الى قبيلة تتسلط على أخرى وتضرب عليها الاتاوة ، فانتهزوا موت رسول الله صلى الله عليه وسلم وعبروا عن شعورهم الجاهلى برفض دفعها لأبى بكر ، وفى هذا يقول قُرَّةُ بنُ هُبَيْرة لعمرو بن العاص « يا هذا ان العرب لا تطيب لكم نفساً بالاتاوة ، فان أعفيتموها من أخذ أموالها

---

(١) جزء ٣

فتسمع لكم وتطيع ، وان أبيتم فلا تجتمع عليكم » وقد عجزوا عن أن ينظروا الى الزكاة كجزء من المال يؤخذ للصرف فى الصالح العام ، وهو ما يرمى اليه الاسلام

أضف الى ذلك أن بعض المسلمين وخاصة من سكان البادية كانوا ينزعون فى معيشتهم الاجتماعية النزعة الجاهلية من مهاجاة وحَمِيَّة وشراب ونحو ذلك . روى أن عمر بن الخطاب حبس الْحُطَيْئَة لأنه كان يقول الهُجْرْ و يمدح الناس ويذمهم بما ليس فيهم، ثم أطلقه، فلما ولّى ناداه فرجع ، فقال عمر كأنى بك ياحطيئة عند فتى من قريش قد بسط لك نُمْرُقة [1] وكسر لك أخرى ثم قال غننا يا حطيئة : فطفقت تغنيه بأعراض النـاس ، قال زيد بن أسلَمَ ، ثم رأيت الحطيئة يوما بعد ذلك عند عبيد الله بن عمر قد بسط له نمرقة وكسر له أخرى ثم قال تغنينا يا حطيئة وهو يغنيه ، فقلت يا حطيئة أما تذكر قول عمر ؟ ففزع وقال رحم الله ذلك المرء ، أما لو كان حياً ما فعلنا هذا

بل كثير من شبان بنى أمية و بعض شباب بنى هاشم كانوا يعيشون عيشة هى الى الجاهلية أقرب منها الى الاسلام ، شراب وصيْدوغزل ، كيزيد بن معاوية وصحبه فقد حكى المسعودى « أنه كان صاحب طرب وجوارح وكلاب (للصيد) ومنادمة على الشراب ، وفى أيامه ظهر الغناء بمكة والمدينة ، واستعملت الملاهى واظهر الناس شرب الشراب — وغلب على أصحاب يزيد وعماله ما كان يفعله »

ان شئت فاقرأ سيرة الوليد بن عقبة الأموى وهو أخو عثمان بن عفان لأمه ، وكان من فتيان قريش وشعرائهم وشجعانهم وأجوادهم ، وولى الكوفة لعثمان ، تر حياة لم يؤثر فيها الاسلام كثيرا ، يتهتك فى الشراب ، ويتخذ بيته ملجأ للمُرّاق من أهل العراق ، الى غير ذلك من كرم جاهلى وعصبية جاهلية [2]

---

(١) النمرقة الوسادة

(٢) اقرأ سيرته فى الجزء الرابع من الاغانى والسادس من كتاب الاصابة لابن حجر

بجانب هذا ترى قوما صبغهم الاسلام صبغة جديدة حتى انقطعت الصلة بينهم جاهليين وبينهم مسلمين، كالذى ترى فى سيرة أبى بكر وعمر وكثير من الصحابة، ورع وزهد وتواضع والتزام شديد لأوامر الدين ، وحياة لا تستطيع أن ترى فيها مأخذاً جاهلياً ينافى الاسلام ، وتجد فى خطبهم وكتبهم وأقوالهم أثر الاسلام بَيِّناً ، حتى كأنهم خلقوا فى الاسلام خلقاً جديداً

الحق أن النزاع بين النفسية الاسلامية والنزعات الاسلامية والنفسية الجاهلية والنزعات الجاهلية كان شديداً وكان عهده طويلا، وان الاسلام لم يصبغ العرب صبغة واحدة على السواء، بل أن خير من تأثر به هم السابقون الأولون من المهاجرين والانصار، أولئك وصل الدين الى أعماق نفوسهم ، وأخلصوا له وأنفذوا أوامره، فأما من أسلموا يوم الفتح — أو بعده — وظلوا على كفرهم وعنادهم حتى رأوا النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه ينتصر فلم يسعهم إلا الاسلام فهؤلاء كان دين كثير منهم رقيقاً «لا يَسْتوى مِنكم مَن أنفقَ مِنْ قَبْلِ الفَتح وقاتلَ ، أُولئك أعظَم درجةً منَ الذين أنفقوا منْ بعدُ وقاتَلوا وكُلاً وَعَدَ اللهُ الحُسْنَى» — وبحق قسم المؤرخون الصحابة الى طبقات حسب مراتبهم أوصلها بعضهم الى اثنتى عشر طبقة آخرهم من أسلم يوم الفتح [1]

كذلك كان سكان المدن والقرى بل من دخل فى الاسلام بعدُ من الأمم الأخرى أكثر تديناً وأعرف بأحكام الاسلام من كثير من سكان البادية ، جلس اعرابى الى زَيْد بن صَوْحان وهو يحدث أصحابه ، وكانت يده قد أصيبت يوم نَهاوَنْد فقال والله ان حديثك ليعجبنى وأن يدك لتَريبنى (يريد أنه يخشى أن تكون قد قطعت فى سرقة) فقال زيد وما يَريبك من يدى ؟ انها الشمال ، فقال الاعرابى والله ما أدرى أليمين يقطعون أم الشمال فقال زيد بن صوحان صدق الله «الأَعْرابُ

(١) أنظر تاريخ أبى الفداء ج ١ ص ١٦٣ وقد زاد عليها طبقة وهم الصبيان

أَشَدُّ كُفْراً وَنِفَاقاً وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ » ويقول الطبرى فى تفسير هذه الآية « الاعراب (وهم من نزلوا البادية) أشد جحوداً لتوحيد الله وأشد نفاقاً من أهل الحضر فى القرى والامصار ، وانما وصفهم جل ثناؤه بذلك لجفائهم وقسوة قلوبهم وقلة مشاهدتهم لأهل الخير ، فهم لذلك أقسى قلوباً وأقل علماً بحقوق الله »

فكثير من هؤلاء الاعراب كانت معرفتهم بالاسلام سطحية : كانوا يعكفون على الشراب ، ويتبعون تقاليد قبائلهم الجاهلية ، ويعقدون ألويتهم ، ويحاربون القبائل المعادية لهم فى الاسلام كما كانوا يفعلون قبل الاسلام ، فأما الاسلام الحق والعقلية المسلمة فكانت أظهر فى المدن وخاصة فيمن أسلموا قبل الفتح ، وكانت كذلك فيمن أخلص للدين من أهل المدن التى فتحها المسلمون

اذن كان فى العصور الاولى للاسلام نزعات جاهلية ونزعات اسلامية كانتا تسيران جنباً الى جنب ، والذى يظهر لنا أن النزعة الجاهلية أثرت فى الأدب الأموى وخاصة الشعر أكبر أثر ، فالمعانى الجاهلية والهجاء الجاهلى والفخر الجاهلى والحمية الجاهلية كلها واضحة أجلى وضوح فى الشعر الأموى ، فأما النزعة الاسلامية فظهرت فى العلوم الشرعية ، فقد أقبل المسلمون على القرآن يتدارسونه ، والحديث يجمعونه ، ويستمدون منهما الأحكام ، ويستخرجون المواعظ ، وهذا هو موضوعنا وهو ما سنبينه بعد ، وسنذكر عند الكلام على الحركة العلمية أثر الاسلام فى العلم

الفصل الثاني

الفتح الاسلامى ، وعملية المزج بين الامم

ستجد الكلام على الفتح الاسلامى مفصلا فى القسم الخاص بالحياة السياسية من كتابنا ، وانما نعرض هنا فى مسألة الفتح لما كان له اتصال بحياة المسلمين العقلية والدينية ، وبعبارة أخرى لما كان له تأثير فى العلم أو فى الدين من طريق مباشر أو غير مباشر

توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يتعد الاسلام جزيرة العرب ، وكان قد بدأ بدعوة الأمم المجاورة ومناوشتها ، ثم تتابعت الفتوح بعدُ ، ففتح العراق وكان يسكنه بعض قبائل عربية من ربيعة ومضر ، وبعض من الفرس ، عدا سكان البلاد الأصليين ، وكان منهم نصارى ومنهم مَزْدِكيّة وزَرَادُشْتية ، وانشأ العرب مدينتى البصرة والكوفة ، أمر عمر بن الخطاب بانشائهما « لما رأى أن مناخ المدائن والقادسية لم يوافق مزاج العرب ، فأمر أن يُرْتاد موضع لا يفصله عن جزيرة العرب بر ولا بحر » ، وكان الغرض منهما أن يكونا معسكرين يشم منهما العرب هواء الصحراء ، ويتجنبون بهما وخم المدن ، فانشئت البصرة نحو سنة ١٥ ه والكوفة سنة ١٧ ه سنة ٦٣٨ م

وفتحت فارس ، وكان يسكنها الفرس وقليل من اليهود و بعض الروم « الرومانيين » الذين أسروا فى الحروب الفارسية الرومانية

وفتح الشام ، وكان — قديما — قد تداولت عليه الأمم المختلفة ، والمدنيات

المختلفة من فينيقيين وأموريين وكنعانيين ، وغزاه فراعنة مصر واليونان والرومان وعرب غسان ، وأخيراً كان أقليما رومانياً يتثقف بثقافة الرومانيين ، ويتدين بالنصرانية دينهم ، ففتحه الاسلام وقد ورث كثيراً من مدنيات الأمم الغابرة

وكان يسكن هذه البلاد عند الفتح السوريون — أهل البلاد — والأرمن واليهود وبعض من (الروم) الرومان وبعض قبائل عربية ، وكان من أشهر هذه القبائل غسان ولَخْم وجُذَام وكَلْب وقُضاعة وطائفه من تَغْلب ، وكانوا فى القسم الجنوبى من الشام أكثر منهم فى القسم الشمالى ، بحكم الجوار لبلادهم ، وكان هؤلاء العرب يتكلمون لغة هى مزيج من الآرامية والعربية ، وكانوا يعدون أنفسهم شاميين لا تربطهم بعرب الحجاز الا العلاقات التجارية ، وقد وقفوا بجانب الرومان فى محاربة المسلمين عند الفتح »[1]

وفتحت مصر مهد المدنية القديمة ، والوارثة لحضارة قدماء المصريين واليونان والرومان ، وبها الاسكندرية مجمع المذاهب الفلسفية والطوائف الدينية وملتقى الآراء الشرقية والغربية — وكان يسكنها المصريون ومزيج من أمم أخرى كاليهود والرومان ، وفتحت بلاد المغرب من برقة وتونس والجزائر ومَرَّاكُش الى مضيق جبل طارق وكانت كذلك فى يد الرومان

وفى عهد الوليد بن عبد الملك فتحت السِّنْد وبُخَارى وخوارزم وسَمَرْقَنْد الى كاشْغَر ، وفتحت كذلك الاندلس ولكن لم يظهر أثر فتحها فى عصرنا الذى اخترناه لبحثنا

سبَّب فتح العرب لهذه الممالك عملية مزج قوية بين الأمة الفاتحة والأمم المفتوحة ، مزج فى الدم ومزج فى النظم الاجتماعية ، ومزج فى الآراء العقلية ، ومزج

(١) دائرة المعارف الاسلامية فى مادة الشام

فى العقائد الدينية ، وقد عمل على هذا المزج جملة أمور أهمها :

(١) تعاليم الاسلام فى الفتح (٢) دخول كثير من أهل البلاد المفتوحة فى الاسلام (٣) الاختلاط بين العرب وغيرهم فى سكنى البلاد ، وسنقول كلمة مختصرة عن كل منها

تعاليم الاسلام فى الفتح : تقضى تعاليم الاسلام بأنه اذا أراد المسلمون غزو بلد وجب عليهم — أولا — أن يدعو أهله الى الدخول فى الاسلام ، فان أسلموا كانوا هم وسائر المسلمين سواء ، جاء فى الحديث « امرْتُ أن أقاتِل الناس حتى يقولوا لا اله الا الله فاذا قالوها عَصَموا منى دماءهم وأموالهم الا بحقها ، وحسابهم على الله » وان لم يُسْلِموا دعوهم الى أن يُسَلِّموا بلادهم للمسلمين يحكمونها ، ويَبْقوا على دينهم إن شاءوا ، ويدفعوا الجزية [1] فان قبلوا ذلك كان لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم ، وكانوا فى ذمة المسلمين يحمونهم ويدافعون عنهم ، ومن أجل هذا يسمون « أهل الذِّمَّة » [2] — وان لم يقبلوا الاسلام ولا الدخول تحت حكمه ودفع الجزية أعلنت عليهم الحرب وقوتلوا ، وفى أثناء القتال يحل للمسلمين أن يقتلوا المحارب أو من يعين على الحرب ، فأما المرأة والطفل والشيخ الفانى والأعمى والمقعد ونحوهم فلا يجوز قتلهم ، ما لم يكن أحدهم ذا رأى فى الحرب يُؤَلِّب على المسلمين ، كما فعل رسول الله بدُرَيْد بن الصِّمَّة فقد قتله يوم حُنَيْن وهو شيخ كبير ضرير لأنه كان

---

(١) يراد بالجزية ضريبة على الرأس يدفعها غير العرب الوثنيين من نصارى ويهود ومجوس وصابئة يدفعها الرجال فقط لا النساء ولا الصبيان ولا من فى حكمهم ، وتدفع نقداً أو متاعا كثياب ونحوه . وقد كانت الجزية المعتادة ديناراً عن كل شخص فى السنة أو ١٢ درهما ثم صار هذا بعد هو الحد الادنى فكانوا يأخذون دينارين أو ٢٤ درهما وأحيانا على الغنى ٤ دنانير واذا لم يدفع الجزية جوزى بالحبس — أما الضريبة على الارض فتسمى الخراج

(٢) هذا فى غير عبدة الاوثان من العرب أو المرتدين عن الاسلام فهؤلاء لا تقبل منهم الجزية بل يخيرون بين الاسلام والقتال فقط

يدبر لقومه و يؤلبهم على المسلمين — وان طلب المحاربون صلحاً أثناء الحرب أجيبوا اليه متى رأى الامام ذلك « وان جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فاجْنَحْ لها » ووجب اذ ذاك تنفيذ الشروط حسب ما تعاقدوا ، وان لم يكن صلح وانتصر المسلمون وفتح البلد فهناك أسرى حرب ، وهناك أهل البلد المفتوح الذين لم يكونوا فى الجيش المحارب ، فأما الأسرى فانا نجد أنه ورد فيهم فى القرآن « حتَّى إذا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فشُدُّوا الوثاق فإمَّا مَنًّا بَعْدُ وإما فِداءً » وهى تدل على أن ليس للامام فى الاسرى الا أن يمن عليهم و يطلقهم ، أو يأخذ منهم مالاً فدية لهم ، أو يفتدى الرجل المحارب بالرجل المسلم — ولكنا نجد من ناحية أخرى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يفعل أحد هذين الأمرين أحيانا ، وكان يقتل الأسير أحيانا ، و يسترق أحيانا ، ففى يوم بدر قتل عُقْبَةَ بن أبى مُعَيْط وقد أُتى به أسيراً ، وقتل بنى قُرَيْظة وقد نزلوا على حكم سعد ، وفادى بجماعة من المسلمين أسارى المشركين الذين أسروا ببدر ، ومنَّ على ثُمامة بن أُثال الحنفى وهو أسير فى يده ، واسترق ذرارى بنى قُريظة ، واسترق نساء هوازن وذراريهم — كل هذا جعل أئمة الفقهاء يختلفون فى حكم الأسرى ، والذى يظهر لى أن هذه الأمور الأربعة متروكة للامام يتصرف فى كل حالة حسب ما يحيط بها من ظروف مشدِّدة أو مخففة — رَوَى رجل من أهل الشام ممن كان يحرس عمر بن عبد العزيز قال ما رأيت عمر رحمه الله قتل أسيراً إلا واحداً من الترك ، كان جىء بأسارى من الترك فأمر بهم أن يُسْتَرَقوا فقال رجل ممن جاء بهم يا أمير المؤمنين لو كنت رأيت هذا — يشير الى أحدهم — وهو يقتل المسلمين لكثر بكاؤك عليهم ، فقال عمر فدونك فاقتله ، فقام اليه فقتله (١)

وأما أهل البلد المفتوح غير المحاربين فالامام مخير بين استرقاقهم وتركهم

---

(١) تفسير الطبرى ج ٢٦ ص ٢٧

أحراراً يدفعون الجزية ، ولكن عمر — واليه المرجع فى كثير من هذه المسائل — ترك أهل سواد العراق أحراراً ، وفرض على كل شخص من الموسرين فى العام ثمانية وأربعين درهما وعلى غير الموسرين أربعة وعشرين (١)

واذا استُرِق الاسرى أو أهل البلد المفتوح وزعت توزيع الغنائم ، فتُخَمَّس ، ومعنى التخميس أن يعطى خمسها لليتامى والمساكين وابن السبيل ، وأربعة الأخماس تعطى للغانمين ، للراجل سهم وللفارس سهمان

فترى من هذا أن الفتح الاسلامى كان يستتبع رقا ، وهذا الرق هو الذى كان له الأثر الاكبر فى عملية المزج ، ولهذا كان لا بد فيه من كلمة خاصة

كان الرق نظاما شائعاً فى العالم ، وكل ما كانت تختلف فيه الأمم حسن معاملة الرقيق أو سوءها ، فكان اليهود يَستَرِقون ، وقد أمرت الديانة اليهودية بحسن معاملة الرقيق ، وحددت زمن الاسترقاق بسبع سنين يصبح الرقيق بعدها حراً ، واستَرَق اليونان فى تاريخ يطول شرحه ، واسترق الرومان ، وقد منح القانون الرومانى للمالك الحق فى اماتة عبده أو استحيائه ، وجعله مستبداً غير مسئول عن تصرفه فى عبده ، وكثر الرقيق فى عهدهم حتى ذكر بعض مؤرخيهم أن الأرقاء فى الممالك الرومانية يبلغون فى العدد ثلاثة أمثال الاحرار ، وأخذت أحوال الارقاء تتعدل من حيث المعاملة ومن حيث القانون من القرن الثانى للمسيح

وكان العرب فى جاهليتهم يغزو بعضهم بعضاً ، ويستولون على رجال بعضهم ونسائهم فيكونون أرقاء ، وكان لهم أسواق يباع فيه الرقيق ، جاء فى « أُسْدِ الْغَابَة » أن زيد بن حارثة مولى رسول الله كان من قُضاعة ، وأمه من طيء ، أصابه سباء فى الجاهلية لأن أمه خرجت تزور قومها « بنى مَعْن » فأغارت عليهم خيل « بنى القَيْن

(١) أنظر فى هذا المبسوط والام وفتح القدير وتاريخ الطبرى

ابن جَشْر » فأخذوا زيداً فقدموا به سوق عُكاظ ، فاشتراه حَكيم بن حِزَام لعمته خديجة بنت خُوَيْلد ، وهى وهبته لرسول الله فأعتقه » الى آخر ما ذكره

وفى الحديث عن علىّ رضى لله عنه قال « خرج عُبْدان الى رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الحُدَيْبية قبل الصلح ، فكتب اليهم مواليهم يقولون يا محمد والله ما خرجوا اليك رغبة فى دينك ، وانما هربوا من الرق ، فقال ناس رُدَّهم اليهم ، فغضب صلى الله عليه وسلم من ذلك . . . وأبى أن يردهم » (١) — وكان هؤلاء الارقاء فى الجاهلية وعلى عهد رسول الله منهم عرب كما بينا ، ومنهم غير ذلك سود وبيض ، وكان هؤلاء البيض من الممالك التى حول جزيرة العرب ، وكثير من الصحابة جرى عليهم الرق كبِلال وكان حبشياً ، وسلمان وكان فارسياً ، وصُهَيب وكان يلقب بالرومى « لأن الروم أسرته من الأَيْلة ونشأ بالروم» الخ وأهدى رسول الله حسان بن ثابت « سيرين » وكانت أمه قبطية فولدت عبد الرحمن بن حسان »

وقد اتبع نظام الاسترقاق فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم فكان من أسر فى الغزوات يجوز استرقاقه ، كالذى كان فى غزوة بنى المُصْطَلِق ، جاء فى سيرة ابن هشام « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أصاب منهم (من بنى المصطلق وهم عرب من خزاعة) سَبْياً كثيراً فشا قَسْمُهُ فى المسلمين

ولما انتشر الاسلام لم يعدْ يقبل من العربى الا الاسلام أو القتال ، فأصبح غير محل للاسترقاق ، حتى لو وقع أسيراً فأما أن يسلم واما أن يُقْتل

ولما كثرت الفتوح كثر الاسترقاق من الأمم المفتوحة كثرة هائلة ، ووُزِّع المسترَقون رجالا ونساء وذرارى على العرب الفاتحين ، حتى يروى المسعودى أن الزبير بن العوام كان له ألف عبد وألف أمة

(١) أخرجه أبو داود والترمذى

وهذا الرقيق يعد مملوكا للسيد كالمتاع له الحق فى بيعه وهبته واذا كان أَمَة جاز للسيد أن يستمتع بها .

ولا يقيد الملك بعدد ، فيصح أن يكون للرجل عدد كبير من العبيد ، كما يصح أن يكون فى بيته عدد من الأماء ، واذا ولدت الأَمَة من سيدها فالولد ابنه وتسمى هى «أم ولد» له ، وتبقى ملكا له بعد ولادتها يستمتع بها ، ولكن لايجوز له أن يبيعها أو يهبها ، واذا مات عنها فهى حرة .

وقد أوجب الاسلام حسن معاملة الرقيق ، وحبب الى المالك العتق ، وجعله كفارة عن كثير من الجرائم .

وللمالك أن يعتق عبده أو أمته أى أن يرد له حريته ولكن تبقى هناك صلة بين المعتِق والمعتَق وهذه الصلة تسمى « الوَلاء » ويظل المعتَق يُنْسَب الى من أعتقه فيقولون زيد بن حارثة مولى رسول الله أى عتيقه وان كانت أنثى فهى مولاته والجمع مَوالٍ ، واذا كان المعتِق من قبيلة فقد ينسبون المولى الى هذه القبيلة فيقولون مولى بنى هاشم ، أو مولى ثقيف ، وأحيانا يعبرون عن ذلك بقولهم الهاشمى بالولاء ، أو الأموى بالولاء وهكذا ، ويظهر أثر هذه الصلة فيما اذا مات المعتَق من غير وارث فان المعتِق يرثه .

وهناك نوع آخر من الولاء ليس سببه العتق وانما سببه أن يسلم رجل على يد رجل آخر ويتعاقد معه فيكون ولاؤه له [١]

---

(١) هذه المعانى التى ذكرناها هى المعانى الدقيقة لكلمة مولى ، وقد يطلق بمعنى أوسع من ذلك ، فكثير من كتب الادب والتاريخ فى كثير من المواضع تطلق كلمة الموالى على كل من دخل فى الاسلام من غير العرب سواء استرق أو لم يسترق ، بل ورد هذا الاستعمال نفسه فى كتب الفقه أيضاً ، جاء فى الزيلعى « وسمى العجم موالى لان بلادهم فتحت عنوة بأيدى العرب ، وكان للعرب استرقاقهم فاذا تركوهم أحراراً فكأنهم أعتقوهم ، والموالى هم المعتقون » .

هذا هو نظام الولاء من الوجهة القانونية ، أما تاريخياً فيظهر أن الولاء لم يكن له هذا المعنى عند العرب فى الجاهليــة وانما كان يطلق « موالى الرجل » على خلفائه وعلى ورثته من بنى عمه واخوته وسائر عصبته ، جاء فى تفسير الطبرى « قال ابن زيد فى قوله تعالى « ولكلٍّ جعَلنا مواليَ » قال الموالى العصبة ، هم كانوا فى الجاهلية الموالى ، فلما دخلت العجم على العرب لم يجدوا لهم اسما فقال تبارك وتعالى « فإن لم تعلَمُوا آباءهُمْ فإخْوَانُكُمْ فِى الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ » فسموا الموالى ، قال والمولى اليوم موليان : مولى يرث ويورث ، فهؤلاء ذوو الأرحام ، ومولى يورَث ولا يرث فهؤلاء العَتاقة » فظاهر من قوله أن اطلاق الموالى على هذه الأعاجم معنى مستحدث فى الاسلام ، والظاهر أنه استعمل فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم بهذا المعنى ، فقد كانوا يطلقون على زيد بن حارثة مولى رسول الله ، ووردت أحاديث كثيرة فى هذا المعنى مثل « نهى رسول الله عن بيع الوَلاء » « والولاء لُحْمَةٌ كلُحْمَةِ النسب » الخ فلما كثر الرق والعتق كثر استعمال الموالى بمعنى المعتَقين — وقد تأثر الموالى بالعصبية العربية ، فكان موالى كل قبيلة ينتسبون اليها ، ويحاربون معها ، ويُستخدَمون فى شؤونها ، ومع أن الاسلام يدعو الى أن المسلمين كلهم سواء فقد كان العرب وخاصة فى الدوله الأموية ينظرون اليهم نظرة فيها شئ من الازدراء ، مما أدى الى كراهية الموالى للامويين وتكوين عصبية لهم ، جاء فى تاريخ الطبرى فى ثورة المختار « التقى أشراف الناس بالكوفة فأَرجَفوا بالمختار ، وأخذوا يقولون : والله لقد تأمّر علينا هذا الرجل بغير رضا منا ، ولقد أدنى موالينا ، فحملهم على الدواب وأطعمهم فيئنا ، ولقد عصتنا عبيدنا ، فحَرَب [1] بذلك أيتامنا وأراملنا . . . ثم قال أنهم بعثوا اليه شَبَث بن رِبْعِيّ فقال له عمدت الى موالينا وهم فىء أفاءه الله علينا وهذه

---

(١) حربه سلبه ماله

البلادَ جميعا ، فأعتقنا رقابهم ، نأمل الأجر فى ذلك والثواب والشكر ، فلم ترض لهم بذلك حتى جعلتهم شركاء فى فيئنا » الخ ولعل هذه القصة أصدق ما يرينا نظرة العربى اذ ذاك الى مواليه ، وقد روى ابن عبد ربه فى العقد الفريد أن معاوية قال انى رأيت هذه الحمراء (يعنى الموالى من الفرس والروم) قد كثرت . . . وكأنى أنظر الى وثبة منهم على العرب والسلطان ، فقد رأيتُ أن أقتل شطراً ، وأدع شطراً لاقامة السوق وعمارة الطريق . . . ثم عدل عن ذلك (١)

***

هذا النظام الذى ذكرت من رق وولاء كان له أكبر الأثر فى الحياة العقلية ، فكثير من رجال البلاد المفتوحة ونسائهم وزعوا — كأنهم غنائم — على الجيش العربى ، فكان لكل جندى تقريبا عبيد وإماء يستخدمهم فى حوائجه ، ويستولد الاماء ان شاء ، فنتج من هذا أن البيت العربى دخلت فيه عناصر أخرى فارسية أو رومانية أو سورية أو مصرية أو بربرية ، فلم يعد البيت العربى بيتاً عربياً بل بيتاً مختلطاً ورب البيت هو العربى — أضف الى هذا أن هؤلاء الأماكن يلدن أولاداً يحملون الدمين معاً ، الدم العربى من جهة الأب والدم الأجنبى من جهة الأم ، وكان عدد هذا النوع كثيراً لكثرة الفتوح التى فتحها المسلمون فى عهد عمر ومن بعده ، وكثير من هذه البلاد فتحت عنوة فكان أهلها وغزاتها عرضة للاسر والسبى ، حتى أكبر الاسر وأعظمها جاها ، ذكر « الزمخشرى » فى كتابه « ربيع الأبرار » « أن الصحابة رضى الله عنهم لما أتوا المدينة بسبى فارس فى خلافة عمر بن الخطاب كان فيهم ثلاث بنات ليَزْدَجِرْد (ملك الفرس) فباعوا السبايا ، وأمر عمر ببيع بنات يزدجرد أيضاً فقال له علىّ بن أبى طالب : أن بنات الملوك لا يعاملن معاملة غيرهن من بنات

---

(١) العقد الفريد جزء ٢ ص ٩٠

السَّرُوقة ، فقال كيف الطريق الى العمل معهن ؟ قال يُقَوَّمن ، ومهما بلغ ثمنهن قام به من يختارهن ، فقُوِّمْن ، فأخذهن على بن أبى طالب ، فدفع واحدة لعبد الله بن عمر ، وأخرى لولده الحسين ، وأخرى لمحمد بن أبى بكر الصديق ، فأولد عبد الله ولده سالماً ، وأولد الحسين زين العابدين ، وأولد محمد ولده القاسم ، فهؤلاء الثلاثة بنو خالة وأمهاتهم بنات يزدجرد » ويشك بعض الباحثين فى نسبة هؤلاء البنات الى يزدجرد ، ولكن يظهر أن ليس هناك شك فى أنهن من خِيرة بنات الفرس ، جاء فى كتاب الكامل للمبرد « وكان أهل المدينة يكرهون اتخاذ أمهات الأولاد ، حتى نشأ فيهم على بن الحسين والقاسم بن محمد وسالم بن عبد الله ، ففاقوا أهل المدينة فقهاً وورعا فرغب الناس فى السَّرارى »

هؤلاء الأرقاء والموالى أنتجوا فى الجيل الثانى لعهد الفتح عدداً عديداً ، منهم من يعد من سادات التابعين وخير المسلمين ، ومن حملة لواء العلم فى الاسلام ، وسنبين ذلك عند الكلام على الحركة العلمية

دخول البلاد المفتوحة فى الاسلام : هذا هو العامل الثانى من عوامل المزج ، فقد دخل فى الاسلام كثير من أهل البلاد المفتوحة ، وامتزجوا بالعرب كأنهم منهم ، جاء فى فتوح البلدان للبَلاذُرى « أن أبرَويز كان وجه الى الدَّيلَم فأُتِىَ بأربعة آلاف ، وكانوا خَدَمه وخاصته ، ثم كانوا على تلك المنزلة بعده ، وشهدوا القادسية مع رُستَم ، فلما قتل وانهزم المجوس اعتزلوا ، وقالوا ما نحن كهؤلاء ، ولا لنا ملجأ ، وأثَرُنا عندهم غير جميل ، والرأى لنا أن ندخل معهم فى دينهم ، فنَعَزّ بهم ، فاعتزلوا فقال سعد ما لهؤلاء ؟ فأتاهم المغيرة بن شُعْبة فسألهم عن أمرهم ، فأخبروه بخبرهم ، وقالوا ندخل فى دينكم ، فرجع الى سعد فأخبره فأمَّنهم ، فأسلموا وشهدوا فتح المدائن مع سعد ، وشهدوا فتح جَلُولاء ، ثم تحولوا فنزلوا الكوفة مع

المسلمين »[١] الى كثير من أمثال ذلك ، وقد كان الباعث للناس على الدخول فى الاسلام مختلفا ، فمنهم من دخل فيه مؤمناً بحسن مبادئه وصدقها ، وساعد على ذلك بساطة العقيدة الاسلامية وسهولة فهمها ، ومنهم من دخل فيه فراراً من الجزية ، إذا علمت أن من رضى أن يبقى على دينه تضرب عليه الجزية ، فاذا أسلم رفعت عنه ، حتى لقد هال بعض الأمراء دخول الناس فى الاسلام فراراً من الجزية وكتب عُمَّال الحجاج اليه « أن الخراج قد انكسر وأن أهل الذمة قد أسلموا ولحقوا بالأمصار » فأخذ الحجاج منهم الجزية مع اسلامهم ، وجعل قراء البصرة يبكون لما يرون[٢] — ومنهم من كان يسلم فراراً مما يشعر به من المهانة ، فالاسلام هو دين الحكام والولاة ورجال الدولة ، وهو الدين الذى يعتز به من انتسب اليه وغيره من الأديان كان مكروهاً ممقوتاً فى الدولة ، وأن أبيح لمعتنقيه أن يأتوا بشعائره ، أضف الى ذلك أن بعض الولاة لم يكن يرعى تعاليم الدين وتسامحه فى الذميين ، فكان يسومهم سوء العذاب ، فاضطروا أن يفروا من دينهم الى الاسلام

الاختلاط فى السكنى : هذا هو العامل الثالث فى الامتزاج — بعد الفتح صارت البلاد مسكونة بالفاتحين والمفتوحين جميعاً ، واشتركوا فى الحركة الاجتماعية والاقتصادية ، يقول « وِلْهَوْسِنْ Wellhausen » أن أكثر من نصف سكان الكوفة كانوا من الموالى ، وكان هؤلاء الموالى يحتكرون الحرف والصناعة والتجارة ، وكان أكثرهم فُرْساً فى جنسهم وفى لغتهم ، جاءوا الكوفة أسرى حرب ثم دخلوا فى الاسلام ثم أعتقهم مالكوهم العربُ ، فكانوا موالى لهم ، و بذلك صاروا أحراراً ، ولكنهم ظلوا فى حاجة الى حماية سادتهم ، فهم حاشية العرب وأتباعهم فى السلم والحرب » وكذلك سائر البلاد أصبح فيها العنصر العربى والعنصر الأجنبى ممتزجين

---

(١) فتوح البلدان ص ٢٨٠ طبع أوروبا (٢) ابن الاثير جزء ٤ ص ١٧٩

تمام الامتزاج ، فى فارس والشام ومصر والمغرب ، حتى جزيرة العرب نفسها لم تعد جزيرة العرب ، بل صارت جزيرة المسلمين جميعاً ، فقد كانت « المدينة » مقر الخلافة فى عهد الفتوح الكبرى — عهد عمر — فكان يقصدها الرسل وذوو الحاجات من الأمم الأخرى . ويأتى اليها الأسرى ، لأن تعاليم عمر كانت تقضى ألا توزع الغنائم والسبى فى البلاد المفتوحة ، انما يؤتى بها الى مقر الخلافة ثم توزع ، فامتلأت المدينة وما حولها بالعناصر غير العربية ، وكانت مكيدة قتل عمر مدبرة من بعض سكانها من الفرس ، ومنفذها أبو لؤلؤة الفارسى ، أضف الى هذا أن مكة والمدينة كانتا مقصد الحجاج والزائرين من الداخلين فى الاسلام من بقاع الأرض — وهذا جعل جزيرة العرب شائعة بين المسلمين ، تختلط فيها العناصر المختلفة ، وشأنها فى ذلك شأن الممالك الأخرى المفتوحة ، وليس من فارق الا أن العنصر العربى فى جزيرة العرب أكثر والعنصر الاجنبى فى الممالك المفتوحة أعظم

***

كل هذه العوامل التى ذكرناها كان لها أثرها فى الامتزاج ، فالعادات الفارسية والرومانية امتزجت بالعادات العربيـة ، وقانون الفرس والقانون الرومانى امتزج بالأحكام التى أوضحها القرآن والسنة ، وحِكَم الفرس وفلسفة الروم امتزجت بِحِكَم العرب ، ونمط الحُكم الفارسى ونمط الحُكْم الرومانى امتزج بنمط الحُكْم العربى ، وبالأجمال كل مرافق الحياة والنظم السياسية والاجتماعية والطبائع العقلية تأثرت تأثراً كبيراً بهذا الامتزاج

واذ كانت هذه الأمم المفتوحة أرقى من العرب مدنية وحضارة وأقوى نظما اجتماعية كان من الطبيعى أن تسود مدنيتهم وحضارتهم ونظمهم ، واذ كان العرب هم العنصر القوى الفاتح عدلوا هذه النظم بما يتفق وعقليتهم ، فسادت فى البلاد المفتوحة

النُّظُم التى كانت متبعة من قبل الفتح ، كنظام الدواوين ونحوه ، وأُقِرّ على ما كان عليه حتى لغة الدواوين نفسها ظلت باللغة الأصلية الى عهد عبد الملك بن مروان ، وليس موضوعنا هنا هذه النظم الاجتماعية والسياسية وانما موضوعنا « الحياة العقلية » وكان شأنها شأن النظم ، فهذا الامتزاج كان لِقَاحا بين العقل العربى والعقل الأجنبى أنتج بعد قليل من الزمان

دخل كثير من هؤلاء المغلوبين فى الاسلام ولهم حكمة وأمثال وشعر وأدب ، و بعضهم لهم علوم مدونة وكتب مطولة ، قد مرنوا على تدوين العلوم والبحث العلمى فلما استقروا فى الاسلام واطمأنوا اليه أخذوا هم وأبناؤهم يطبقون منهاجهم العلمى الذى ألفوه وألفه آباؤهم كما سنوضحه بعد

حتى العقيدة الاسلامية لم تخل من تأثر بهذا الامتزاج . أتظن أن الفارسى أو السورى النصرانى أو الرومانى أو القبطى اذا دخل فى الاسلام انمحت منه كل العقائد التى ورثها من آبائه وأجداده قرونا ، وفهم الاسلام كما يريد الاسلام من تعاليمه ؟ كلا . لا يمكن أن يكون ذلك وعلم النفس يأباه كل الاباء ، فللفارسى صورة للاله غير صورة النصرانى الرومانى وهما غير صورة النصرانى المصرى وللالفاظ المستعملة فى الديانات كجهنم والجنة وابليس والملائكة والآخرة والنبى ونحو ذلك معان عند كل من هؤلاء تخالف المعانى التى يتصورها الآخر ، فلا تظن أن هؤلاء الذين دخلوا فى الاسلام من الأمم الأخرى فهموه بحذافيره كما فهمه العربى ، حتى المخلصون منهم فى اعتناقهم الاسلام . انما فهمه كل قوم مشوبا بكثير من تقاليدهم الدينية القديمة وفهموا ألفاظه قريبة من الألفاظ التى كانت تستعمل فى دياناتهم ، والشواهد على ذلك كثيرة كالذى رواه الأزدى فى كتابه فتوح الشام من أن رجلا من مسلمى الشام تصالح مع آخر على أن يرعى له غنمه فى نظير أن يهبه زوجته تبيت عنده ، وقد

دعاهما عمر بن الخطاب فأقرا بأن ليس عندهما علم بحرمة ذلك ، وكالذى ذكره ابن عبد ربه فى العقد الفريد من تشدد الموالى فى الدين تشدداً لا يعرفه عرب البادية — وقد ظهر تأثير هؤلاء القوم فى أواخر القرن الأول للهجرة بظهور المذاهب المختلفة كما سنبين ذلك إن شاء الله — ولعل هذا المعنى هو الذى أخاف عمر بن الخطاب عند الفتح ، فقد روى أبو حنيفة الدِّينَوَرِى فى كتابه الأخبار الطوال « أن المسلمين أصابوا يوم جلولاء غنيمة لم يغنموا مثلها قط ، وسبوا سبياً كثيراً من بنات أحرار فارس ، فذكروا أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان يقول اللهم إنى أعوذ بك من أولاد سبايا الجلوليات ، فأدرك أبناؤهن قتال صفين » نعم انه استعاذ بالله وحُقَّ له أن يستعيذ منهم ومن كل الموالى ونسلهم ، فقد كانت لهم عصبية سياسية غير العصبية العربية وضدها ، ولها تقاليد دينية لابد أن ينزعوا اليها ويخالفوا بهذه النزعة الاسلامَ العربى فى بساطته

***

الحق أن الامتزاج كان قوياً شديداً ، وأن الموالى وأشباههم كان لهم أثر فى كل مرافق الحياة ، وانه كانت هناك حروب فى المسائل الاجتماعية كالحروب البدنية بين الجنود ، ولكن لم يُعْنَ المؤرخون بتفصيلها وهى أولى بالعناية ، فقد كانت حرب بين الاسلام والديانات الأخرى ، وكانت حرب بين اللغة العربية واللغات الأخرى ، وكانت حرب بين الآمال العربية وآمال الأمم الأخرى ، وكانت حرب بين النظم الاجتماعية العربية البسيطة وبين النظم الاجتماعية الفارسية والرومية ، ولئن كانت الحروب البدنية قد انتهت تقريباً بفتوح أبى بكر وعمر وعثمان ، فان الحروب الأخرى ظلت قائمة

(١) العقد جزء ٢ ص ٩١
(٢) العقد جزء ٢ ص ٩٠

بعد ذلك طويلا ، وأصبحت المملكة الاسلامية مجالا فسيحاً لهذه الحروب تتنازع فيها الآمال ، ففرس يحنون الى مملكتهم القديمة و يعتقدون أنهم أرقى من العرب ، وروم كذلك، والمغرب ومصر يودون الاستقلال، كما أن النظم السياسية فيها متضاربة ، فرس لهم نظام خاص وروم لهم نظام مغاير ، وقانون رومانى كان يسود المستعمرات الرومانية ، وقانون فارسى كان يسود المملكة الفارسية ، واسـلام يستمد منه قانون يوافقهما أحيانا و يخالفهما أحيانا ، وفرس مجوس ظلوا مجوساً ، وفرس أسلموا ، وروم نصارى ، وروم أسلموا ، ومصريون نصارى ، ومصريون أسلموا ، ويهود فى هذه البلاد ظلوا يهوداً ، ويهود أسلموا ، ولغة عربية وفارسية وقبطية ويونانية وعبرية — كل هذه النزعات واللهجات كانت فى حروب مستمرة ، وكانت المملكة الاسلامية كلها هى موطن القتال ، ولم يصلنا مع الاسف من وقائعها إلا النزر اليسير ، فلم تعد الأمة الاسلامية أمة عربية ، لغتها واحدة ، ودينها واحد ، وخيالها واحد ، كما كان الشأن فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ، بل كانت الأمة الاسلامية جملة أمم وجملة نزعات وجملة لغات تتحارب ، وكانت الحرب سِجَالا ، فقد ينتصر الفرس وقد ينتصر العرب وقد ينتصر الروم

والحق أن العرب وان انخذلوا فى النظم السياسية والاجتماعية وما اليها من فلسفة وعلوم ونحو ذلك فقد انتصروا فى شيئين عظيمين : اللغة والدين ، فأما لغتهم فقد سادت هذه الممالك جميعها ، وانهزمت أمامها اللغات الأصلية للبلاد ، وصارت هى لغة السـياسة وهى لغة العلم ، وظل هذا الانتصار حليف العرب فى أكثر هذه الممالك الى اليوم ، وكذلك الدين، فقد ساد هذه الأقطار واعتنقوه وقل من بقى من سكان هذه البلاد على دينه الأصلى — ومع انتصار هذين المرفقين — اللغة والدين — فقد تأثر كل منهما أثناء هذه الحروب ، فاللغة لم تعد سليقة وفشا فيها اللحن ، حتى

احتاجت الى قوانين تضبطها ، قال أبو عبيدة « مر عبد الله بن الأهتم بقوم من الموالى وهم يتذاكرون النحو ، فقال : لئن أصلحتموه انكم لأول من أفسده ، قال أبوعبيدة ليته سمع لحن صفْوان وخاقان ومُؤمّل بن خاقان »[1] وكذلك غلبت على اللغة كلمات أعجمية وتراكيب أعجمية وخيال أعجمى ومعان أعجمية ، وقل مثل ذلك فى الدين فهو وان انتصر فقد تأثر ، فتفرق المسلمون فرقا ، ووضعت المذاهب المختلفة ، وشرح القرآن نفسه بما ورد فى الكتب الأخرى من أقاصيص بدء الخليقة وما الى ذلك ، وظلت هذه الفرق تتجادل بالقول أحيانا و بالسيف أحيانا

والآن نريد أن نتعرض بشىء من التفصيل لبيان ما يتصل بموضوعنا من هذه الحركات وهى الحركة العقلية — بأوسع معانيها من علم ودين — لقد كان للفرس دين وكان لهم حكمة ، وكان لهم عقلية ، وكان للروم دين وعلم وعقلية ، وقد أثر هذان العاملان أثراً كبيراً فى الأمة الاسلامية فلنشرحهما ونبين أثرهما

---

(١) العقد الفريد جزء ٢

مصادر هذا الباب

اعتمدنا فى الفصل الاول من هذا الباب على :

(١) القرآن

(٢) تاريخ الطبرى جزء ٢ ، ٣

(٣) Spirit of Islam للسيد أمير على

(٤) Literary History of Persia للاستاذ برون

عدا ما ذكرناه من الكتب أثناء البحث

وفى الفصل الثانى على

(١) كثير من كتب الفقه أهمها الام للامام الشافعى والمبسوط للسرخسى وفتح القدير فى باب السير ، والاحكام السلطانية

(٢) دائرة المعارف الاسلامية فى مادة عبد

(٣) فتوح البلدان للبلاذرى

(٤) الاخبار الطوال للدينورى

عدا ما أشرنا اليه فى ثنايا الفصل من الكتب

الباب الثالث

الفرس وأثرهم

الفصل الأول

دين الفرس

ضاع استقلال فارس بالفتح الاسلامى كما أسلفنا ، وأصبحت ولاية إسلامية ، ووقع كثير من الفرس فى أيدى العرب أسرى ، واسترق بعضهم ، ووزع على العرب ودخل كثير من الفرس فى الاسلام ، وتعلم كثير منهم العربية ، حتى كان منهم فى الجيل الثانى من يتكلم العربيـة كأحد أبنائها ، ولكنهم رغم هذا كله لم يصبحوا فى جملتهم كالعرب فى عقيدتهم ، ولا كالعرب فى مطامعهم وطموحهم ونزعاتهم ، ولا كالعرب فى عقليتهم ، بل اعتنقوا الاسلام فصبغوه بصبغتهم الفارسية ولم يتجردوا من كل عقائد الدين القديم وتقاليده ، ففهموا الاسلام بالقدر الذى يسمح به دين قديم اعتنقه قومه أجيالا ونشأ فيه ناشئهم وشب عليه ، كذلك تعلم كثير منهم العربية ولكن لم يترك خياله الفارسى ، ولم ينس ما كان لقومه من شعر ومثل وحكمة — كان من أثر ذلك طبيعياً أن تدخل تعاليم فى الاســلام جديدة ، ونزعات دينية جديدة ، ظهر أثرها فيما بعد ، وأظهرها فى الاسلام التشيع والتصوف — وكان من أثر ذلك أيضاً طبيعياً أن يغمر الأدب العربى بالحـكم الفارسية والقصص الفارسية والخيال الفارسى اذن كان للفرس دين ذو أثر ، وأدب ذو أثر ، فلندرس باختصار دينهم وأدبهم

لنستطيع بعد أن نفهم أثر ذلك، ولسنا ندرس دينهم منذ نشأتهم، ولا نعرض لأصل أدبهم وتدرجه فى الرقى، فذلك ما لا يهمنا كثيراً، انما نتعرض لدينهم وطرف من أدبهم فى الدولة الساسانية التى حكمت الفرس قبل الاسلام، واستمروا فى الحكم من سنة ٢٢٦ م الى سنة ٦٥١ م حين تسلمها العرب من أيديهم وحكموها بولاتهم، فهذه الدولة الساسانية هى التى كان لها الأثر المباشر فى المسلمين من الناحية الدينية والأدبية جميعاً

دين الفرس: اشتهر الفرس — والجنس الآرى عامة — بأنهم ميالون الى عبادة المظاهر الطبيعية، فالسماء الصافية، والضوء والنار والهواء، والماء ينزل من السماء، جذبت أنظارهم، وجعلتهم يعبدونها على أنها كائنات إلهية، حتى سموا الشمس «عين الله» والضوء «ابن الله» كما أن الظلمة والجدب ونحوهما كائنات إلهية شريرة ملعونة

ومن أول أمرهم وقفوا الانسان أمام آلهة الخير يستمد منهم المعونة، ويصلى لهم، ويسبح بحمدهم، ويقدم الضحايا اليهم

ورأوا أن آلهة الخير فى نزاع دائم مع آلهة الشر، وأعمال الانسان من صلاة ونحوها تعين آلهة الخير فى منازلتها آلهة الشر، واتخذوا النار رمزاً للضوء وبعبارة أخرى رمزاً لآلهة الخير، يشعلونها فى معابدهم، وينفحونها بأمدادهم، حتى تقوى على آلهة الشر وتنتصر عليها، وقد كانت هذه النار منبعاً عندهم لخيال شعرى خصب

زرادشت (Zoroaster) ثم جاء بعدُ زَرَادُشْت — نبى الفرس فدعا الى تعاليم جديدة أسست على الديانة القديمة بعد اصلاحها

وقد كان وجود زرادشت نفسه موضع شك عند كثيرين، وموضوع جدل طويل بين النافين والمثبتين، واختلف المثبتون فى تاريخ وجوده على أقوال تتردد

بين سنة ٦٠٠٠ قبل الميلاد ، و ٦٠٠ ق م ، وقد الف الأستاذ جاكْسُن Jackson كتابا قيما فى حيـاته [١] كان له أثر كبير فى ترجيح كفة المثبتين لوجوده ، وقد وصل فى بحثه الى أن زرادشت شخص تاريخى لا خرافى ، وانه كان من قبيلة ميدْيا (فى الجزء الغربى الشمالى من فارس) ، وأنه ظهر أمره نحو منتصف القرن السابع قبل الميلاد ، ومات نحو سنة ٥٨٣ ق م بعد أن عمر ٧٧ سنة ، وان موطنه كان أذَرَبيجان ولكن أول نجاح ناله كان فى بَلْخ ، وعلى أثر دخول الملك « يُشْتاسْب » [٢] فى دينه ، وان دينه انتشر من بلخ الى فارس كلها

ومع هذا فلا تزال بعض هذه النتائج التى وصل اليها جاكسن مجالا للبحث

ويروى أهل دينه كثيراً عما صحب ولادته من المعجزات وخوارق العـادات والاشارات ، وانه انقطع منذ صباه الى التفكير ، ومال الى العزلة ، وأنه فى أثنـاء ذلك رأى سبع رؤًى ، ثم أعلن رسالته فكان يقول أنه رسول الله بعثه ليزيل ما علق بالدين من الضلال ، وليهدى الى الحق ، وقد ظل يدعو الناس سنين طوالا فلم يستجب لدعوته الا القليل ، فأوحى اليه أن يهاجر الى بلخ ، فنشر دعوته فى بلاط الملك ، فاستجاب له أولا أبناء الوزير ثم الملكة نفسها ، وقاومه رجال البلاط وجادلوه ولكنه انتصر عليهم بدخول الملك نفسه — وهو يُشْتاسْب — فى دينه وقد تحمس الملك لهذا الدين الجديد فتتابع الناس للدخول فيه أفواجا

تعاليمه : نلاحظ فيما ذكرنا أن الفرس قبل زرادشت بنوا دينهم على أساسين (١) أن لهذا العالم قانونا يسير عليه وأن له ظواهر طبيعية ثابتة (٢) وأن هناك نزاعا وتصادما بين القوى المختلفة ، بين النور والظلمة ، والخصب والجدب ، الخ فجاءت

---

(١) اسمه Life of Zoroaster

(٢) ورد اسمه فى الشهنامة جشتاسب

تعاليم زرادشت مبنية على هذين الأساسين أيضاً إلا أن من قبله كانوا يعبدون الأرواح الخيّرة وهى كثيرة ، فوحدها زرادشت فى إله واحد هو « أَهُورَامَزْدَا » وكذلك فعل فى قوى الشر فحصرها فى شئ واحد سمى « دْرُوج أَهْرِمَن » وبذلك كانت عنده قوتان فقط : قوة الخير وقوة الشر

ولزرادشت كتاب مقدس يسمى « وِستَا » Avesta وعليه شرح يسمى « وِسْتَازَنْد » قال المسعودى « واسم هذا الكتاب « ألايسْتا » واذا عرب أثبتت فيه قاف فقيل « الايستاق »[1] وعدد سوره احدى وعشرون سورة تقع كل سورة فى مائتى ورقة .. وأنه كتب باللغة الفارسية الأولى، وأن أحداً اليوم لا يعرف معنى تلك اللغة ، وانما نقل لهم الى هذه الفارسية شئ من السور فى أيديهم يقرءونها فى صلواتهم ، فى بعضها الخبر عن مبتدأ العالم ومنتهاه وفى بعضها مواعظ » اه مختصراً

وأصل الوستا ومؤلفو سوره لا يزال موضع جدال بين الباحثين ، كما هو الشأن فى زَرادشت نفسه ، ويقول « البَرْسِيُّون » « أن الوستا كان فى عهد الدولة الساسانية مؤلفاً من احدى وعشرين سورة لم يبق منها فى عهدنا الاسورة كاملة و بعض آيات من سور مختلفة » وهذا الذى وصل الينا لا يحتوى الا على مقطعات فى الشعائر الدينية ، وفى قوانين للمعابد الزرادشتية

وقد عاملهم المسلمون فى الفتح معاملة أهل الكتاب وعدوا كتابهم كأنه كتاب منزل وجرى عمر على ذلك لمَّا رُوى له الحديث « سُنُّوا بهم سُنَّة أهل الكتاب الخ »

والمشهور من تعاليمه أنه كان يقول أن للعالم أصلين أو إلهين — أصل الخير وهو « أهُورا » أو « أهورا مَزْدَا » وأصل الشر وهو « أَهْرِمَنْ »[2] وهما فى نزاع دائم

---

(١) هكذا ورد بالياء والظاهر أن الياء فى ايستاق تصحيف وصوابه باء لانه فى اللغة الفارسية تنقل الفاء باء عادة فيكون صواب كتابته الابستاق

(٢) يسمى أيضاً إله الخير يزدان وفى ذلك يقول ابى العلاء المعرى

ولكل من هذين الاصلين قدرة الخلق ، فاصل الخير هو النور وقد خلق كل ما هو حسن وخير ونافع ، فخلق النظام وخلق الحق وخلق النور وكلب الحراسة والديك ونحو ذلك من الحيوانات النافعة ، والواجب على المؤمن العناية بها — وأصل الشر هو الظلمة وقد خلق كل ما هو شر فى العالم ، فخلق الحيوانات المفترسة والحيات والأفاعى والحشرات والهوام ، وعلى المؤمن قتلها — والحرب بين هذين الروحين سجال ولكن الفوز النهائى لروح الخير — والناس فى الحرب ينحازون الى الروحين فمنهم من ينصر « أهورا » ومنهم من ينصر « أهرمن » وليس الروحان يباشران الحرب بأنفسهما بل بمخلوقاتهما

وكان الانسان موضع نزاع بين الروحين ، لأنه مخلوق مزدا ، ولكنه خلقه حر الارادة ، فكان فى الامكان أن يخضع للقوى الشريرة ، والانسان فى حياته تتجاذبه القوتان ، فان هو اعتنق ديناً حقاً ، وعمل عملا صالحاً ، وطهر بدنه ونفسه فقد أخزى روح الشر ، ونصر روح الخير ، واستحق الثواب من « مزدا » ، والا قوّى روح الشر ، واسخط عليه « مزدا »

كذلك من أهم مبادئه أن أشرف عمل للانسان الزراعة والعناية بالماشية فحبب الى الناس أن يزرعوا وان يعيشوا مع ماشيتهم ، وان يجدّوا ويعملوا ، حتى حرم على أتباعه الصوم لأنه يضعفهم عن العمل ، وهو يريدهم أقوياء عاملين

وعلّم أن الماء والهواء والنار والتراب عناصر طاهرة يجب ألا تنجس ، وكان من مظاهر هذا تقديس النار واتخاذها رمزاً ، وتحريم تنجيس الماء الجارى وتحريم دفن الموتى فى الارض ونحو ذلك

قال أناس — باطل زعمهم فراقبوا الله ولا تزعمن —
فكر يزدان على غرة فصيغ من تفكيره اهرمن

وللانسان حياتان : حياة أولى فى الدنيا ، وحياة أخرى بعد الموت ، ونصيبه فى حياته الآخرة نتيجة لأعماله فى حياته الأولى — قد أحصيت أعماله فى كتاب وعدت سيئاته ديونا عليه ، وفى الأيام الثلاثة التى تعقب الموت تُحَلِّقُ نفس الانسان فوق جسده وتنعم أو تشقى تبعاً لأعماله ، ومن أجل هذا تقام الشعائر الدينية فى هذه الأيام ايناساً للنفس — وعند الحساب تمر النفس على صراط ممدود على شَفِير جهنم ، وهو للمؤمن عريض سهل المجاز ، وللكافر أحد من الشعرة ، فمن آمن وعمل صالحاً جاز الصراط بسلام ، ولقى « أَهورا » فأحسن لقاءه وأنزله منزلا كريماً ، والا سقط فى الجحيم وصار عبداً لأهْرِمَن — وان تعادلت سيئاته وحسناته ذهب الروح الى الاعراف الى يوم الفصل

وقد غيّب على الانسان فى حياته الدنيا ما أعد له بعد موته ، ولم يعلم الخير من الشر ، فكان من رحمة الله أن أرسل رسولا يهدى به الناس ، وفى الأساطير الزرادشتية أن النبوة نزلت أولا على جَمْشِيد ملك الفرس ولكن لم يستطع حملها فحملها زرادشت ، فكان الله يكلمه وينزل عليه الوحى

ويعلم زرادشت أن يوم القيامة قريب ، وأن نهاية هذه الحياة ليست بعيدة ، وسيستجمع « مزدا » قوته ويضرب إلَه الشر ضربة قاضية ، ويعذبه بالجحيم هو ومن أطاعه

فلسفة — بجانب هذه التعاليم الدينية نرى للديانة الزرادشتية ابحاثا فيما وراء المادة ، ولكن لم يكن بحثهم فيها شاملا كالذى كان عند اليونان ولكن كان بحثاً جزئياً مفرقا — كذلك نرى لهم فى هذا خاصية تشبه التى كانت للعرب بعد الاسلام وهى امتزاج أبحاثهم فيما وراء المادة بالدين والتوفيق بينهما ، ولم يبحثوا فيها بحثاً مستقلا كما فعل اليونان مثلا

فمن أبحاثهم الفلسفية بحثهم فى النفس ، فالديانة الزرادشتية ترى أن نفس الانسان

قد خلقها الله بعد أن لم تكن ، وتستطيع أن تنال الحياة الأبدية السعيدة اذا حاربت الشرور فى العالم الأرضى ، وقد منحها الله حرية الارادة فهى تستطيع أن تختار الخير أو الشر — وللنفس الانسانية قوى مختلفة (١) الضمير أو الوجدان (٢) القوة الحيوية (٣) القوة العقلية (٤) القوة الروحية (٥) القوة الواقية الخ

و بعدُ فهل دين زرادشت ثَنْوِىّ يرى أن العالم يحكمه آلهان إله الخير وإله الشر وان لكل إله ذاتا مستقلة ؟ أو هو موحد يرى أن العالم يحكمه إله واحد وأن مافى العالم من خير وشر وما فيه من قوتين متنازعتين ليستا إلا مظهرين أو أثرين لاله واحد ؟ اختلف الباحثون فى الاجابة على هذا السؤال : فيرى كثيرون أنه ثنوى كما يدل عليه ظاهر كلامه وقد ذهب الى هذا الرأى بعض كتّاب الفرنج ومنهم من كتب فى دائرة المعارف البريطانية مادة زرادشت ، ومنهم من يرى أنه موحد والى ذلك ذهب الشهرستانى والقَلْقَشَنْدى فى صبح الأعشى وغيرهما ، ويقول الأستاذ هُوجْ Haug « أن زرادشت كان من الناحية اللاهوتية موحداً ، ومن الناحية الفلسفية ثنويا » ولعله يريد من قوله هذا أنه من ناحية العقيدة الدينية كان يرى أن للعالم إلهاً واحداً ، ولكن إذا تعرض لشرح فلسفة العالم وما فيه من خير وشر يتطاحنان وما الى ذلك فهو ثنوى يرى أن فى العالم قوتين.

***

والديانة الزرادشتية كانت هى الديانة السائدة فى فارس وما حولها فى عهد الكيانيِّين Achaemenian ، فلما انتصر الاسكندر سنة ٣٣١ ق م . كان ذلك ضربة لهذه الأسرة ولديانتها ، ثم انتعشت فى عهد الأسرة الساسانية التى بدأت حكمها سنة ٢٢٦م وظلت هى ديانة الفرس الى الفتح الاسلامى فاعتنق كثير منهم الاسلام ، وفر بعضهم أولا الى جزائر فى الخليج الفارسى ثم الى الهند ، ولا تزال منهم طائفة فى

بمباى يسمّون بالفَرْسيين Parsees يتمسكون بهذا الدين الى اليوم — وبقيت طائفة فى فارس تستمسك بدينها بعد الفتح ، واستمرت معابد النار قائمة فى كل ولاية من ولايات فارس تقريباً فى القرون الثلاثة الأولى بعد الفتح (١)

***

ولعلك من قراءة مذهبهم تشعر بما كان لهم من أثر كبير فى المسلمين ، وسيتضح ذلك تمام الوضوح عند الكلام على المذاهب الدينية ، الا أنه يصح لنا أن نذكر هنا اجمالا أن عقيدة العامة من المسلمين فى الصراط بهذا النمط الذى يحكيه زرادشت ، وفى الاعراف على هذا الوجه ، وتحليق الروح على الجسد ، واقامة الشعائر لذلك ثلاثة أيام ، كل هذه عقائد تشبه مشابهة تامة ما فى الديانة الزرادشتية ، وقول المعتزلة فى الجبر والاختيار وقول الصوفية فى أقسام النفس كله مأخوذ عن هذه الديانة ، وسنعرض لهذا الموضوع فى موضعه ان شاء الله

مانى والمانوية (٢) — من أشهر المذاهب الدينية التى كثر أتباعها المَانَوِيّة وقد ولد مانى — مؤسسها — حسبما يقول البَيْرُونِى فى كتابه « الآثار الباقية » سنة

---

(١) وفى نهاية القرن الثامن الميلادى أسلم ساسان أمير بلخ وكان زرادشتياً ، وأسس مملكة اسلامية هى الدولة السامانية وفى سنة ٨٧٣ م دخل جمع كبير من أهل الديلم الزرادشتيين فى الاسلام على يد ناصر الحق أبى محمد ، وفى سنة ٩١٢ م دعا الحسن بن على من الاسرة العلوية — التى كانت تحكم الشاطىء الجنوبى لبحر قزوين — أهل الديلم وطبرستان الى الاسلام فأجاب أكثرهم وكان بعضهم وثنيين وبعضهم زرادشتيين ، وفى سنة ١٠٠٣ م = ٣٩٤ هـ دخل الشاعر المشهور مهيار الديلمى فى الاسلام على يد الشريف الرضى وكان من عبدة النار وقبله فى أوائل القرن الثامن للميلاد خرج من الزرادشتية الى الاسلام عبد الله بن المقفع — وقد بقى بعض الزرادشتيين فى فارس الى اليوم وقد قدر بعضهم عبدة النار فيها من عهد قريب بنحو ٨٥٠٠

(٢) يلاحظ أنهم تارة ينسبون الى مانى منانية وتارة ينسبون اليه مانوية وهذه الاخيرة هى التى استعملها المتنبى اذ يقول

وكم لظلام الليل عندك من يد تخبر أن المانوية تكذب

٢١٥ أو سنة ٢١٦م ، وعاش مذهبه رغم ما لقى من اضطهاد الى القرن الثالث عشر الميلادى ، وكان له أتباع كثيرون فى آسيا وفى أوروبا ، وكان له أثر كبير فى الآراء الدينية ، وكانت تعاليمه مزيجا من الديانة النصرانية والزرادشتية وهى — كما يقول الأستاذ « بْرَوُن » « أن تُعَدّ زرادشتية مُنَصَّرة أقرب من أن تعد نصرانية مُزَرْدَشَة » — وقد كتبت عنه مصادر عربية وأخرى أوروبية ، وقد وثّق الأستاذ برون المصادر العربية وقال انها أقرب الى الصحة — وأهم المصادر العربية فى هذا « الفِصَل فى الملل والنحل لابن حزم وَالمَلل والنِّحَل للشهرستانى وفهرست ابن النديم وتاريخ اليعقوبى والآثار الباقية للبيرونى وسَرْح العيون لابن نُبَاتة

وخلاصة مذهبه أن العالم كما قال زرادشت نشأ عن أصلين : وهما النور والظلمة، وعن النور نشأ كل خير، وعن الظلمة نشأ كل شر ، والنور لايقدر على الشر ، والظلمة لاتقدر على الخير ، وما يصدر عن الانسان من خير فمصدره آله الخير ، ومايصدر من شر فمصدره إله الشر، فان هو نظر نظرة رحمة فتلك النظرة من الخير والنور ، ومتى نظر نظرة قسوة فتلك النظرة من الشر والظلمة ، وكذلك جميع الحواس — وقد امتزج الخير والشر فى هذا العالم امتزاجاً تاماً ، وقد أطال هو وأصحابه فى كيفية هذا الامتزاج بما يشبه الخرافات

وهو فى هذا لا يخرج كثيراً عن تعاليم زرادشت — كما ترى — ولكن يخالفه بعد فى أمر جوهرى: وهو أن زرادشت كان يرى أن هذا العالم الحاضر عالم خير، لما فيه من مظاهر نصرة الخير على الشر ، فى حين أن مانى يرى أن نفس الامتزاج شر يجب الخلاص منه ، وزرادشت يرى أن يعيش الانسان عيشة طبيعية فيتزوج و ينسل و يعنى بزرعه ونسله وماشيته و يقوى بدنه ولا يصوم، وأنه بهذه المعيشة ينصر إله الخير على إله الشر ، أما مانى فنزع منزعا آخر هو أشبه ما يكون بالرهبنة — وقد كان

مانى — كما يقولون — راهباً بحرّان ، فرأى أن امتزاج النور بالظلمة فى هذا العالم شر ، ومن أجل هذا حرّم النكاح حتى يستعجل الفناء ، ودعا الى الزهد وشرع الصيام سبعة أيام أبداً فى كل شهر ، وفرض صلوات كثيرة ، يقوم الرجل فيمسح بالماء ويستقبل الشمس قائماً ثم يقوم ويسجد وهكذا ، اثنتا عشرة سجدة ، يقول فى كل سجدة منها دعاء — ونهى أصحابه عن ذبح الحيوان لما فيه من ايلام ، وأقر بنبوة عيسى وزرادشت وقال أنه (مانى) النبى الذى بشر به عيسى

وقد ذكروا أن هُرْمُز ملك الفرس اعتنق مذهبه وأيده ، وأنه دخل فى دينه كثير من الناس ، فلما مات هرمز وخلفه بِهْرَام الأول لم يرتح الى تعاليمه وقتله وشرد أصحابه ، ولكن لم تمت تعاليمه ، وكان لدينه أئمة يتعاقبون ، وكان مركز الامام أولا فى بابل ثم تحول الى سَمَرْقَنْد وقد قال ابن النديم « انه لما انتشر أمر الفرس وقوى أمر العرب عادوا الى هذه البلاد ، ولا سيما فى فتنة الفرس ، وفى أيام ملوك بنى أمية ، فأن خالد بن عبد الله القَسْرِى كان يُعْنَى بهم ، وآخر ما انجلوا فى أيام المقتدر ، فانهم لحقوا بخراسان خوفاً على نفوسهم ، ومن بقى منهم ستر أمره ، وقد قلوا فى المواضع الاسلامية ، فأما مدينة السلام فكنت أعرف منهم أيام معز الدولة نحو ثلثمائة ، وأما فى وقتنا هذا فليس بالحضرة منهم خمسة أنفس ، ثم عد بعضاً من رؤسائهم الذين يظهرون الاسلام ويبطنون الزندقة ، فعد منهم الجَعْد بن دِرْهَم ، وكان مؤدباً لمروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية . وكان خالد بن عبد الله القسرى يرمى بالزندقة ، وصالح ابن عَبْدِ القُدُّوس وبَشَّار بن بُرْد وسَلْم الخاسر ، وقال « قيل أن البرامكة بأسرها الا محمد بن خالد بن بَرْمَك كانت تُرْمى بالزندقة ، وقرأت بخط بعض أهل المذهب ان المأمون كان منهم وكذب فى ذلك ، وقد أصبحت رياستهم الآن فى سمرقند »

وكذلك انتشرت فى أوروبا الى فرنسا الجنوبية ، وقد ذكروا أن سانت

أوغسطين St Augustine ظل مانويا عهداً طويلا قبل أن يعتنق النصرانية

وكان للمانوية حركة أدبية فى التأليف ، وأثاروا كثيراً من المسائل جادلوا فيها من يوم نشأتهم ، فقد حكوا أن موبذ مُوبِذان (قاضى القضاة) ناظر مانى فقال الموبذ أنت الذى تقول بتحريم النكاح لتستعجل فناء العالم ؟ فقال مانى واجب أن يعان النور على خلاصه بقطع النسل ، فقال الموبِذ فمن الحق الواجب أن يعجّل لك هذا الخلاص الذى تدعو اليه ، وتعان على ابطال هـذا الامتزاج المذموم ، فبُهت مانى فأمر بِهْرام به فقتل — كذلك حكوا أن المأمون ناظر أحد المانوية فقال هل ندم مسىء على اساءته ؟ قال بلى ، قد ندم كثير ، قال فخبرنى عن الندم على الاساءة اساءة هو أم احسان ؟ قال احسان ، قال فالذى ندم هو الذى أساء ؟ قال نعم . قال فأرى صاحب الخير هو صاحب الشر ، وقد بطل قولكم أن الذى ينظر نظر الوعيد غير الذى ينظر نظر الرحمة ، قال فأزعم أن الذى أساء غير الذى ندم ، قال فندم على شىء كان من غيره أو على شىء كان منه ؟ فقطعه بهذه الحجة

وقد شغلت تعاليمهم جزءاً غير قليل من علم الكلام عند المسلمين ، يذكرون آرائهم ويُعْنَوْن بالرد عليها ، فضلا عن أن هؤلاء المانوية أثاروا مسائل كثيرة كالبحث فى المعاد هل هو بالاجسام أو بالارواح أخذ المسلمون يتجادلون فيها وينحازون الى طوائف

وهنا مسألتان جديرتان بالبحث

(الاولى) لم اضطهدت المانوية قبل الاسلام وفى الاسلام ؟

وقد أشرنا الى الجواب عنهـا فيما تقدم ، فالذى دعا بهرام الى قتله هو وأصحابه الناحية العملية ، فقد كان زرادشت يدعو الى العمل وكان فى تعاليمه مؤيداً للقومية والنزعة الحربية ، مما يتفق وميول فارس اذ ذاك ، وعلى العكس من ذلك تعاليم

مانى ، فهى أميل الى الزهد والرغبة عن ملاذّ الحياة واستعجال الفناء وهى — ولا شك — فى منتهى الخطورة لمملكة حربية كفارس ، ويؤيد هذا ما جاء فى الآثار الباقية « ان بهرام قال — ان هذا خرج داعياً الى تخريب العالم فالواجب أن نبدأ بتخريب نفسه قبل أن يتهيأ له شىء من مراده » — أضف الى ذلك أنهم فوق تعاليمهم هذه كانوا على ما يظهر جادّين فى الدعوة الى مذهبهم يتسترون بالاسلام أو النصرانية ليتسنى لهم الدعوة ، ويكونوا بمأمن من الاضطهاد

المسألة (الثانية) أنا نرى كلمة الزندقة كثيراً ما يوصف بها اتباع مانى فهل هى خاصة بهم ؟

الظاهر من عبارات ابن النديم أن الزنادقة كلمة تطلق على أصحاب مانى ومعتنقى مذهبه ، وليست كلمة عامة تطلق على كل كافر أو ملحد ، ونرى الخياط المعتزلى فى كتابه « الانتصار » يستعملها للدلالة على فرقة خاصة قرينةٍ لليهود والنصارى ، فيقول مثلا « قال ابن الراوندى : وزعم ثُمامة أن أكثر اليهود والنصارى والمجوس والزنادقة والدهرية يصيرون فى القيامة ترابا ولايدخلون الجنة الخ » وقد استعمل الخياط هذه الكلمة فى كتابه نحو خمس مرات كلها فى مثل هذا التعبير

ويقول ابن قتيبة فى كتابه « المعارف » عند كلامه على أديان العرب فى الجاهلية « كانت النصرانية فى ربيعة وغسان وبعض قُضاعة ، وكانت اليهودية فى حِميَر وبنى كِنانة وبنى الحارث بن كعب وكِنْدة ، وكانت المجوسية فى تَميم منهم زُرارة وحاجِبُ بن زُرارة ، ومنهم الأَقْرَعُ بن حابِس ، كان مجوسياً ، وكانت الزندقة فى قريش ، أخذوها من الحيرة » وظاهر من تعبيره هذا أن الزندقة التى يعنيها دين خاص من دين الفرس بدليل قوله أنهم أخذوها من الحيرة ، والحيرة كانت تحت حكم الفرس كما علمت ، وقريب من هذا ماقاله الجوهرى فى الصحاح « الزنديق

من الثَّنوية وهو معرّب ، والجمع الزنادقة ، وقد تزندق والاسم الزندقة » فظاهر من هذا أن الزندقة مذهب خاص كاليهودية والنصرانية ، وان استعماله فى معنى الالحاد على العموم انما هو معنى حدث بعد . جاء فى لسان العرب « الزنديق القائل ببقاء الدهر فارسى معرب زَنْدَ كَر أى يقول ببقاء الدهر ، وقال احمد بن يحيي ليس فى كلام العرب زنديق ، فاذا أرادت العرب معنى ما تقوله العامة قالوا مُلحِدٌ ودَهرِى » ولكن هل هو يطلق على كل الثَّنوية أو على مذهب خاص من الثنوية كالمانوية فقط ؟ الظاهر من كلام ابن قتيبة أنه يطلق على مذهب خاص بدليل أنه قابلها فى كلامه بالمجوسى ، فذكر أن تميما تمجست ، وقريشاً تزندقت ، ولو كان يريد من الزندقة الثنوية على العموم لما كان هناك معنى للمقابلة ، ويؤيده ما فى الصحاح « الزنديق من الثنوية » ولم يقل « الزنادقة الثنوية » ولكن هل يطلق اللفظ على المانوية فقط ؟ حكى الألوسى عن ابن الكمال « أنه يطلق على المزدكية ، وأن مزدك ألف كتابا اسمه زند وان المزدكية غير المانوية » وهذا خطأ فأن مزدك لم يضع زنداً وانما هو شرح كتاب الأوستا لزرادشت

ويقول بعضهم أن زنديق فى الأصل معناها بالفارسية الذى يتّبع زَنْد ثم أطلق على المانوية لأنهم كانوا يأخذون زند وغيره من الكتب المقدسة ويشرحونها على مذهبهم بطريقة التأويل ، ويقول الأستاذ « بيفان » انا نرى من كلام الفهرست والبيرونى أن المانوية يطلقون كلمة « السَّمَّاعين » على من لم يرقَوْا الى الدرجة العليا من المانوية ولم يلتزموا أن يؤدوا كل الواجبات التى تفرضها الديانة من رهبانية وزهد الخ ويقابلهم « الصِّدِّيقون » وهم الراقون الملتزمون بأداء تلك الواجبات ، يفضلون الفقر على الغنى ، ويزهدون فى العالم وشؤونه ، وكلمة صديق عربية ولها أصل آرامى وهو صديقى Saddiqai ، وقد أخذها الفارسية فحوروها الى زنديق

فوضعوا ند nd موضع dd كما قالوا شَنْباذ Shanbath فى سبَّاذ Sabbath[١] وعلى قوله تكون الكلمة وضعت لطائفة خاصة من المانوية ثم استعملت فى المانوية جميعا ، ثم استعملت فى الألحاد على العموم كالذى روى عن أبى يوسف أنه قال ثلاثة لا يسلمون من ثلاثة ، من طلب النجوم لم يسلم من الزندقة ومن طلب الكيمياء لم يسلم من الفقر ، ومن طلب غرائب الحديث لم يسلم من الكذب[٢]

(حـ) مزدك — حول نحو سنة ٤٨٧ م ظهر فى فارس مَزْدك ويقول الطبرى أنه من أهل نَيْسَابُور ودعا الى مذهب ثنوى جديد ، فكان يقول أيضاً بالنور والظلمة ، ولكن أكبر ما امتاز به تعاليمه « الاشتراكية » ، فكان يرى أن الناس وُلدوا سواء فليعيشوا سواء ، وأهم ما تجب فيه المساواة المال والنساء ، قال الشهرستانى « وكان مزدك ينهى الناس عن المخالفة والمباغضة والقتال ، ولما كان أكثر ذلك انما يقع بسبب النساء والأموال، فأحل النساء وأباح الأموال ، وجعل الناس شركة فيها كاشتراكهم فى الماء والنار والكلأ » وقال الطبرى « قال مزدك وأصحابه إن الله انما جعل الأرزاق فى الأرض ليقسمها العباد بينهم بالتآسى ، ولكن الناس تظالموا فيها ، وزعموا انهم يأخذون للفقراء من الأغنياء ، ويَرُدون من المكثرين على المقلين ، وان من كان عنده فضل من الأموال والنساء والأمتعة فليس هو بأولى به من غيره ، فافترص السِّفْلة ذلك واغتنموه ، وكاتفوا مزدك وأصحابه وشايعوهم، فابتُلى الناس بهم ، وقوى أمرهم ، حتى كانوا يدخلون على الرجل فى داره فيغلبونه على منزله ونسائه وأمواله ، وحملوا « قُبَاذ » على تزيين ذلك وتوعدوه بخلعه ، فلم يلبثوا إلا قليلا حتى صاروا لا يعرف الرجل منهم ولده ، ولا المولود أباه ، ولا يملك الرجل شيئاً مما يتسع به » وقال فى موضع آخر « وكان مما أمر به الناس وزينه لهم وحثهم عليه التآسى فى

(١) أنظر براون (٢) العقد الفريد جزء ١ ص ١٩٩

أموالهم وأهليهم ، وذكر أن ذلك من البر الذى يرضاه الله ويثيب عليه أحسن الثواب ، وأنه لو لم يكن الذى أمرهم به وحثهم عليه من الدين كان مكرمة فى الفعال ورضى فى التفاوض الخ [١]

فترى من هذا أن تعاليمه اشتراكية من أسبق الاشتراكيات فى العالم ، ويقول الأستاذ « نولْدْكِه » « ان الذى يميز مزدك عن الاشتراكية الحديثة ما لتعاليمه من الصبغة الدينية » — وكانت له تعاليم روحية أخرى، فقد كان يعلّم القناعة والزهد وحرمة الحيوان فلا يذبح

وقد اعتنق مذهبه آلاف من الناس ولكن قباذ نكل به وبقومه ، ودبر لهم مذبحة سنة ٥٢٣ م كاد يستأصلهم بها

ومع هذا فقد ظل قوم يتبعون مذهبه حتى الى ما بعد الاسلام ، وذكر الاصْطَخْرى وابن حَوْقل أن سكان بعض قرى كِرْمان كانوا يعتنقون المزدكية طول عهد الدولة الأموية

ونلمح وجه شبه بين رأى أبى ذَرٍّ الغِفارى وبين رأى مَزْدَك فى الناحية المالية فقط ، فالطبرى يحدثنا أن أبا ذر « قام بالشام وجعل يقول : يامعشر الأغنياء ، واسُوا الفقراء ، بشر الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله بمكاوٍ من نار تكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم ، فما زال حتى ولع الفقراء بمثل ذلك وأوجبوه على الأغنياء ، وحتى شكا الأغنياء ما يلقون من الناس » ثم بعث به معاوية الى عثمان بن عفان بالمدينة حتى لا يُفْسد عليه أهل الشام ، ولما سأله عثمان : ما لأهل الشام يشكون ذَرَبك ؟ قال لا ينبغى للاغنياء أن يقتنوا مالا . فترى من هذا أن رأيه قريب جداً من رأى مزدك فى الأموال . ولكن من أين أتاه هذا

---

(١) أنظر تاريخ الطبرى جزء ٢ ص ٨٨ وما بعدها

الرأى ؟ يحدثنا الطبرى أيضاً عن جواب هذا السؤال فيقول : أن ابن السوداء لقى أبا ذر فأوعز اليه بذلك ، وأن ابن السوداء هذا أتى أبا الدرداء وعُبَادَة ابن الصامت فلما يسمعا لقوله وأخذه عبادة الى معاوية وقال له هذا والله الذى بعث عليك أبا ذر[١] — ونحن نعلم أن ابن السوداء هذا لقب يلقب به عبد الله بن سبأ ، وكان يهوديا من صنعاء أظهر الاسلام فى عهد عثمان ، وأنه حاول أن يفسد على المسلمين دينهم وبث فى البلاد عقائد كثيرة ضارة قد نعرض لها فيما بعد ، وكان قد طوّف فى بلاد كثيرة ، فى الحجاز والبصرة والكوفة والشام ومصر — فمن المحتمل القريب أن يكون قد تلقى هذه الفكرة من مزدكية العراق أو اليمن واعتنقها أبو ذر حَسَن النية فى اعتقادها ، وصبغها بصبغة الزهد التى كانت تجنح اليها نفسه ، فقد كان من أتقى الناس وأورعهم وأزهدهم فى الدنيا وكان من الشخصيات المحبوبة التى أثرت فى الصوفية

* * *

ومما يتصل بعقائد الفرس الدينية وكان له أثر فى بعض المسلمين أنهم كانوا ينظرون الى ملوكهم كأنهم كائنات إلهية اصطفاهم الله للحكم بين الناس ، وخصهم بالسيادة وأيدهم بروح منه ، فهم ظل الله فى أرضه ، أقامهم على مصالح عباده ، وليس للناس قِبَلهم حقوق ، وللملوك على الناس السمع والطاعة — وهو معنى يشبه ما عرف فى أوربا بنظرية « الحق الالهى — Divine right » وسادت فيها فى القرنين السادس عشر والسابع عشر ، ويقول الأستاذ « بْرَوُن » « لم تعتنق نظرية الحق الالهى بقوة كما اعتنقت فى فارس فى عهد الملوك الساسانية » وقد كان الاكاسرة يزعمون أن لهم الحق وحدهم أن يلبسوا تاج الملك بما يجرى فى عروقهم من دم إلهى — ويستدل الأستاذ « نولدكه » على اعتناق الفرس لهذه النظرية بحكاية وردت فى كتاب

---

(١) أنظر الطبرى جزء ٥ ص ٦٦ وما بعدها

الأخبار الطوال « وهى أن « بهرام جوبين » (ولم يكن من بيت الملك ، وقد طلب الملك وحارب كسرى برويز فهزمه كسرى فهرب) مر فى طريقه بقرية ، فنزلها فى أصحاب له ، ونزلوا فى بيت عجوز ، فأخرجوا طعاماً لهم فتعشوا ، وأطعموا فضلته العجوز ثم أخرجوا شراباً ، فقال بهرام للعجوز : أما عندك شيء نشرب فيه ؟ قالت عندى قرعة صغيرة ، فأتتهم بها فَجَبُّوا رأسها وجعلوا يشربون فيها ، ثم أخرجوا نُقْلا ، وقالوا للعجوز : أما عندك شيء يجعل عليه النقل ؟ فأتتهم بِمنْسَف[1] فألقوا فيه ذلك النقل ، فأمر بهرام فسقيت العجوز ، ثم قال لها : ما عندك من الخبر أيتها العجوز ؟ قالت الخبر عندى أن كسرى أقبل بجيش من الروم فحارب بهرام فغلبه واسترد منه ملكه ، قال فما قولك فى بهرام ؟ قالت : جاهل احمق يدّعى الملك وليس من أهل بيت المملكة ؟ قال بهرام : فمن أجل ذلك يشرب فى القرع ، و يتنقل من المنسف ، فجرى مثلا فى العجم يتمثلون به » اهـ

وهو استدلال ليس بالقوى فيما نرى ، فان كل أسرة مالكة متى استمرت فى الحكم أجيالا أكسبها ذلك الحق فى الملك عند عامة الناس فى كل أمة وان لم يقدسوا ملوكها

وربما كان خيراً من هذا فى تأييد هذا الرأى ما جاء فى كتاب « التاج » من أن ملوك آل ساسان لم يُكَنِّها أحد من رعاياها قط ، ولا سماها فى شعر ولا خطبة ولا تقريظ ولا غيره ، وانما حدث هذا فى ملوك الحيرة »[2]

فالظاهر من هذا أن هؤلاء الملوك ترفعوا ورفعهم الشعب حتى لم يكن من الأدب أن يجرى على لسانهم اسمه ولا كنيته حتى ولا فى الشعر

***

---

(١) المنسف كمنبر الغربال الكبير (٢) التاج ص ٨٣

هذه مذاهب الفرس الدينية ، وقد ذابت فى المملكة الاسلامية بعد الفتح ، وكثير منهم أسلموا ولم يتجردوا من كل عقائدهم التى توارثوها أجيالا ، و بمرور الزمان صبغوا آراءهم القديمة بصبغة اسلامية ، فنظرة الشيعة فى علىّ وأبنائه هى نظرة آبائهم الأولين فى الملوك الساسانيين ، وثَنَوية الفرس كانوا منبعاً يستقى منه « الرافضة » فى الاسلام ، فحرك ذلك المعتزلة لدفع حجج الرافضة وأمثالهم ، أضف الى ذلك أن تعاليم زرادشت ومانى ومزدك كانت تظهر من حين لآخر بين المسلمين فى أشكال شتى فى أواخر الدولة الأموية والدولة العباسية ، واضطر المسلمون أن يجادلوهم ويدفعوا حججهم ويؤيدوا دينهم بالمنطق والبرهان — وكانت اثارة هذه المسائل أحيانا تقسم المسلمين أنفسهم الى فرق فينحازون الى مذاهب ويتجادلون فيما بينهم ، مما أدى الى نشأة علم الكلام فى الاسلام كما سنبينه بعد

الفصل الثاني

الادب الفارسى

كانت لغة الفرس فى عهد الدولة الساسانيـة هى اللغة الفَهْلَوِيَّة ، « وزَنْد » الذى هو شرح للأَوِسْتا مكتوب بهذه اللغة — وكان لهذا الكتاب الدينى أثر فى حفظها — ولكن لم يصل الى عصرنا هذا كثير من ثروة الفرس الأدبية الفهلوية التى كانت منتشرة فى الدولة الساسانية وصدر الاسلام ، والسبب فى ذلك أن دين الاسلام ظفر بدين زرادشت وحل محله ، كما حلت اللغة العربيـة والحروف العربية محل اللغة الفهلوية والحروف الفهلوية ، فذهاب الحكومة الفارسية ودينها ، وحكمها بالعرب ، وتحولها من مملكة الى ولايات اسـلامية ، ودخول كثير من الفرس فى الاسلام ، واضطرارهم الى تعرف اللغة العربية ، للدين أو للدنيا أو لهما معاً ، وازدراء المسلمين لبيوت النيران التى هى شعائر الثنوية ، كل هذا عرض الديانة الفارسية واللغة الفهلوية للاضمحلال ثم الفناء

ومع هذا فقد وصلت الينا بقية قليلة من اللغة الفهلوية ، فهناك أحجار صخرية عليها نقوش فهلوية تتضمن أسماء ملوك ونبذا من تاريخ حياتهم ، يرجع عهدها الى أوائل الملوك الساسانيين — وهناك كتب فهلوية فرّ بها الْبَرْسيُّون الى الهند عند الفتح الاسلامى كما أسلفنا ، وأكثرها دينى وهذا هو السر فى بقائها فى يدهم

وكذلك بقى من غير الكتب الدينية قطعة كبيرة من قانون فارس فى عهد

الدولة الساسانية ، تتضمن الكلام على الأحوال الشخصية كالزواج وعلى الملكية وعلى الرق وغيرذلك ، وكتاب في صناعة تحرير المراسلات وما يحسن في بدئها وفي ختامها ، وآداب المراسلات الرسمية ، ومعجم للغة الفهلوية القديمة ، وتاريخ خيالى للشطرنج ، وسير لبعض ملوك الفرس

ولم يصل الينا شيء من شعر الدولة الساسانية على عظمة كثير من ملوكها وحاجتهم الى من يتغنى بمدائحهم ، فهل اكتفى الفن بتعبيراته بالحفر والنقش والبناء والغناء ، أو عبّر أيضاً بالشعر ولكن عدا عليه الشعر العربى فقتله ؟ نحن الى الثانى أميل

ومع قلة ما وصل الينا من الأدب الفارسى فالظاهر أنه وصل الى المسلمين فى العصور الأولى الاسلامية كتب كثيرة فارسية ، فكثيراً ما يقول ابن قُتَيْبة فى كتابه عيون الأخبار « وفى كتب العجم كذا » و (قرأت فى كتاب « إبْرَوِيز » الى ابنه « شيرَوِيه » وهو فى حبسه » وكثيراً ما ينقل صاحب كتاب التاج فى أخلاق الملوك عن الفرس وآدابهم وكتبهم

وقد أثر الأدب الفارسى فى الأدب العربى من وجوه :

(الأول) أن كثيراً ممن دخلوا الاسلام اضطروا — كما أسلفنا — الى تعلم اللغة العربية ، وسرعان ما ظهر منهم ومن نسلهم شعراء ، وقد ظهر منهم فى الدولة الأموية عدد ليس بالقليل ، من أشهرهم « زِيادٌ الأَعْجَم » وأصله ومولده ومنشؤه بأَصْبِهان ثم انتقل الى خُراسان ولم يزل بها حتى مات [1] وكان شاعراً جزل الشعر وسمى الأعجم لهذا الذى ذكره فى الأغانى وهو أنه كان يجرى على لغة أهل بلاده ، ولم يكن يطاوعه لسانه أن ينطق بالحروف العربية ، فكان يقول « ما كنت تسنأ » فى « ما كنت تصنع » — واذ كان يقول الشعر عن تعلم لا عن سليقة فقد

---

(١) هناك رأى آخر يخالف فى كونه أعجمياً وانظر الاقوال فى ذلك وترجمته فى جزء ١٤ ص ٩٩ وما بعدها من الاغانى



فإمّا يَقْتُلُوكِ طَلَبْتُ ثأراً   لَهُ نَبَأٌ لِأَنَّكِ فِي جِوَارِى

وذكروا أن حبيب بن الْمُهَلَّب لما سمع هذا الشعر قتل حمامته فاستعدى زياد عليه المهلبَ فحكم له بدية جارته ، أفلست ترى معى أن هذا الشعور [١] على هذا النحو جديد ، لم أعرفه للعرب قبلُ ، ولعل عليه مسحة مانوية من حماية الحيوان

وقد أسلفنا أن ابن يسار واخوته كانوا شعوبيين يقول أبو الفرج فى اسماعيل ابن يسار « أنه كان مبتلًى بالعصبية للعجم والفخر بهم ، فكان لا يزال مضروباً محروماً مطروداً » فخليق بمثل هذه الأسرة أن تتعصب أيضاً للادب الفارسى كما كانت تنزع النزعة الفارسية فمن قول اسماعيل يفخر على العرب

رُبَّ خالٍ مُتَوَّجٍ لِي وَعَمٍّ   ماجدٍ مُجْتَدًى كَرِيمِ النِّصَابِ

إِنَّما سُمِّيَ الْفَوارِسُ بِالْفُرْ   سِ مُضاهاةَ رِفْعَةِ الأَنْسَابِ

فاتْرُكِي الْفَخْرَ يا أُمامُ عَلَيْنَا   واتْرُكِي الْجَوْرَ وانْطِقِي بالصَّوابِ

واسأَلِي — إِنْ جَهِلْتِ — عَنَّا وَعَنكم   كَيْفَ كُنَّا فِي سالِفِ الأَحْقَابِ

اذ نُرَبِّي بَنَاتِنَا وتَدُسُّو   نَ سِفَاهاً بَنَاتِكُمْ فِي التُّرابِ

ولاسماعيل هذا قصيدة طويلة لطيفة تقرأ فيها روح القصص الفارسى ، وجودة التسلسل المنطقى مطلعها

كَلْثَمُ أَنْتِ الْهَمُّ يا كَلْثَمُ   وَأَنْتُمُو دائِي الَّذِي أَكْتُمُ

أَكاتِمُ النَّاسَ هَوًى شَفَّنِي   وَبَعْضُ كِتْمانِ الْهَوَى أَحْزَمُ

قَدْ لُمْتِنِي ظُلْماً بِلاَ ظِنَّةٍ   وَأَنْتِ فِيما بَيْنَنا أَلْوَمُ

---

(١) لست أعنى الشعور بحماية الحيوان لانه فى جواره اذ يظهر ان هذا كان عند العرب فى الجاهلية ولكن أعنى تجسيم هذا المعنى حتى يستعدى الوالى يطلب الدية.

فإمَّا يَقْتُلُوكِ طَلَبْتُ ثَأْراً لَهُ نَبَأٌ لِأَنَّكِ فِي جِوَارِى

وذكروا أن حبيب بن المُهَلَّب لما سمع هذا الشعر قتل حمامته فاستعدى زياد عليه المهلبَ فحكم له بدية جارته ، أفلست ترى معى أن هذا الشعور [1] على هذا النحو جديد ، لم أعرفه للعرب قبلُ ، ولعل عليه مسحة مانوية من حماية الحيوان

وقد أسلفنا أن ابن يسار واخوته كانوا شعوبيين يقول أبو الفرج فى اسماعيل ابن يسار « أنه كان مبتلًى بالعصبية للعجم والفخر بهم ، فكان لا يزال مضروباً محروماً مطروداً » فخليق بمثل هذه الأسرة أن تتعصب أيضاً للادب الفارسى كما كانت تنزع النزعة الفارسية فمن قول اسماعيل يفخر على العرب

رُبَّ خالٍ مُتَوَّجٍ لِي وَعَمٍّ ماجدٍ مُجْتَدًى كَرِيم النِّصَابِ

إِنَّما سُمِّيَ الفَوارِسُ بالفُرْ سِ مُضاهاةَ رِفعَةِ الأَنْسَابِ

فاتْرُكِى الفَخْرَ يا أُمامُ عَلَيْنَا واتْرُكِى الجَوْر وانْطِقِى بالصَّوابِ

واسأَلِى — إِنْ جَهِلْتِ — عَنَّا وَعنكم كَيْفَ كُنَّا فِي سالِفِ الأَحْقَابِ

اذ نُرَبِّى بَنَاتِنَا وتَدُسُّو نَ سِفَاهاً بَنَاتِكُمْ فِي التُّرابِ

ولاسماعيل هذا قصيدة طويلة لطيفة تقرأ فيها روح القصص الفارسى ، وجودة التسلسل المنطقى مطلعها

كَلْثَمُ أَنْتِ الهَمُّ يا كَلْثَمُ وأَنْتُمُو دَائِى الَّذِى أَكْتُمُ

أُكاتِمُ النَّاسَ هَوًى شَفَّنِى وَبَعْضُ كِتْمانِ الهَوَى أَحْزَمُ

قَدْ لُمْتِنِى ظُلْماً بِلاَ ظِنَّةٍ وأَنْتِ فيما بَيْنَنَا أَلْوَمُ

---

(١) لست أعنى الشعور بحماية الحيوان لانه فى جواره اذ يظهر ان هذا كان عند العرب فى الجاهلية ولكن أعنى تجسيم هذا المعنى حتى يستعدى الوالى يطلب الدية.

وفيها يقول :

لَا تَتْرُكِينِي هكذا مَيِّتاً لا أُمْنَحُ الوُدَّ ولا أُصْرَمُ
أَوْفِي بِمَا قُلْتِ وَلَا تَنْـدَمِي انَّ الوَفِيَّ القَوْلِ لا ينـدمُ

ثم يقول :

أَخافتُ المَشْيَ حِذَارَ العِدَى واللَّيْلُ دَاجٍ حالِكٌ مُظْلِمُ
وَدُونَ ماحاوَلْتُ إِذْ زُرْتُكُمْ أَخوكِ والخَالُ معاً والحَمُ
وَلَيْسَ الاَّ اللهُ لِي صاحبٌ إِلَيكُمُ والصَّارِمُ اللَّهْذَمُ
حتَّى دَخَلْتُ البَيْتَ فاسْتَذْرفَتْ مِنْ شَفَقٍ عَيْناكِ لِي تَسْجِمُ
ثُمَّ انْجَلَى الحزْنُ وَرَوْعاتُهُ وَغُيِّبَ الكاشحُ والمُبْرِمُ

الى آخر الأبيات [1] ولأبراهيم أخيه كذلك شعر يعتز فيه بالعجم ويفخر به على العرب

أضف الى هذا أن كثيراً من الشعراء والأدباء من العرب كانوا ينزلون فارس أو العراق ويخالطون أهلهم ، ويرون مدنيتهم ، فيكون لها الأثر فى شاعريتهم ، فكان ينزل العراق الطِّرِمَّاح والكُمَيْت وأبو النَّجْم الراجز وجرير والفرَزْدَق ، وكان ينزل خراسان نَهارُ بْن توسعة وثابت قُطْنة وابن مُفَرِّغ الحِمْيرى والمغيرة بن حَبْناء وغيرهم ، ولا يخفى ما للبيئة من تأثير فى النفس والخيال

(الثانى) الوجه الثانى من وجوه تأثير الأدب الفارسى الناحية اللغوية ، فقد علمت أن العرب فى جاهليتها كانت غنية فى شؤون الحياة البدوية وما يتصل بها ، فلما فتحوا فارس وكثيراً من بلاد الروم رأوا من أدوات الزينة والترف ما لم يكونوا

---

(١) تجد هذه القصيدة فى الاغانى جزء ٤ ص ١٢١ و١٢٢

قد رأوا ، ورأوا من الحرف الدقيقة والفنون الجميلة ما لم يعهدوه ، كما رأوا من تنظيم الحكومة وتدوين الدواوين ما لم يكن يخطر لهم على بال ، — فاصطروا أن يقتبسوا من الأمم المفتوحة ألفاظاً يدخلونها فى لغتهم ، وكانت اللغة الفارسية أقرب منبع يستمدون منه ما يحتاجون اليـه ، فأخذوا منهم الكوز والجرة والابريق والطَّشْت والخِوان والطبق والقصعة والخز والديباج والسندس والياقوت والفيروز والبلور والكعك والفالوذج واللوزينج والفلفل والزنجبيل والقرفة والنرجس والنسرين والسوسن والمسـك والعنبر والكافور والصندل والقرنفل والبستان والارجوان والقرمز والسراويل والاستبرق والتنور والجوز واللوز والدولاب والميزاب والزئبق والباشق والجاموس والطيلسان والمغنطيس والمارستان والصك وصنجة الميزان والصولجان والكوسج ونوافج المسك والفرسخ والبند وهو العلم الكبير والزمرد والآجر والجوهر والسكر والطنبور [1] الخ ونظرة عامة الى هذه الأسماء تريك أن العرب اضطروا الى أخذ كلمات فارسية فى كل مرفق من مرافق الحياة ، ولا بد أن يكونوا قد أخذوا منهم تراكيب للجمل جديدة ومعانى جديدة وخيالا جديداً ، ولكن من العسير تعيين ما أخذوه من هذا النوع بالدقة لأن المعانى والخيال وما اليهما مما يُسْرَق وقل أن يضبط ، ولم تسجِّل أمة معانيها وخيالاتها كما تسجل ألفاظها

(الثالث) الحِكَم — كان للفرس أثر كبير فى الأخلاق الاسلامية والآداب من ناحية حِكَمهم ، ذلك أن الأخلاق الاسـلامية تأثرت بثلاثة مؤثرات أولها التعاليم الدينية كالتى وردت فى القرآن « يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِين » « اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى » « لا تَظْلِمُونَ وَلاَ تُظْلَمُونَ » « يَأَيُّهَا

---

(١) أنظر فقه اللغة للثعالبي والمزهر للسيوطى والمخصص فى الطعوم وآلات الغناء

الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ » الى كثير من أمثال ذلك ، وكالتى وردت فى الأحاديث « أَحِبَّ لأخيكَ كما تُحِبُّ لِنَفْسِك » وكما روى من تعاليم الديانات السابقة كالتوراة والانجيل وأمثال سليمان ونحو ذلك ، — ثانيها — فلسفة اليونان وذلك بما نقل منها فى العصر العباسى ، ومن الأمثلة على ذلك ما تقرؤه فى كتاب ابن مسكويه من شرح نظرية أرسطو فى أن كل فضيلة وسط بين رذيلتين ، ومن نظرية أفلاطون فى أسس الفضائل الأربعة وهى الحكمة والعفة والشجاعة والعدل ونحو ذلك — ثالثها — وهو الذى يهمنا هنا — نوع من الحكم والجمل القصيرة تصاغ صوغ الأمثال ، أو حكايات تنقل فيها أخبار الملوك ووزرائهم ووعاظهم والحكماء فى زمنهم وما جرى على ألسنتهم ، وهذا النوع غمر كتب الأدب ، وتأثرت به الأخلاق فى الاسلام أكثر من تأثرها بالفلسفة اليونانية ، ذلك لأنه أقرب الى العقل العربى ، فقد أبنت لك قبل أن العقل العربى لا يميل كثيراً الى البحث المنظم المفصل ، ويفضل أن تركَّز تجارب السنين الطويلة فى الكلمات القصيرة. وتؤلف من ذلك جمل، كل جملة فى معنى خاص ، فكلمة فى الشجاعة وكلمة فى الكرم وثالثة فى الوفاء، فأما أن تذكر الشجاعة وتفصل وينظر اليها من جميع نواحيها وفى الأسباب الباعثة عليها ونحو ذلك فهذا بعيد عن الذوق العربى والعقل العربى وهو بالعقل اليونانى أشبه — من أجل هذا لما عثر العربى على هذا النوع من الحكم أعجب به ونقله وأضافه الى ما كان له فى الجاهلية ، وكان للفرس فى ذلك الشئ الكثير ، اما مبتكر من عند أنفسهم ، أو منقول من الهند عن طريقهم ، وأوضح مثل لذلك الأدب الصغير والأدب الكبير لابن المقفع الفارسى ، هذا فى العصر العباسى ، وقبله فى العصر الأموى كانت هذه الحكم تنقل ويتداولها العلماء ويتأدب بها الناس كما ترى فى كثير من كلمات الحسن البصرى الفارسى ، وتجد كثيراً منها فى كتاب عيون الأخبار لابن قتيبة وسراج

الملوك للطرطوشى والتاج والعقد الفريد

ومما يلاحظ هنا أن الذوق العربى فى هذا النوع من الحكم يشبه مشابهة تامة الذوق الفارسى ، فالحكم التى تنسب لأكثم بن صَيْفِىّ فى الجاهليـة والامام على فى الاسلام والتى تنسب لسادات العرب كالأحْنَف بن قيس ورَوْح بن زِنْبَاع تشبه فى قوالبها وصيغها واتجاه النظر فيها ما يروى فى كتب الأدب عن بُزُرْجِمهْر وإبْرَويز وموبذ موبذان ونحوهم حتى لقد عقد ابن عبد ربه فصـلا فى كتابه العقد الفريد تحت عنوان « أمثال أكثم بن صيفى و بزرجمهر » ولم يبين ما لكل منهما فكان من الصعب التمييز فى أكثرها بين ما هو لأكثم وما هو لبزرجمهر [1]

والآن أقص عليك نموذجا صغيراً من هذه الحكم الفارسية :

(١) قال بزرجمهر « اذا اشتبه عليك أمران فلم تدر فى أيهما الصواب فانظر أقربهما الى هواك فاجتنبه »

(٢) كتب إبرويز الى ابنه شيرويه « اجعل عقوبتك على اليسير من الخيانة كعقوبتك على الكثير منها ، فاذا لم يُطمَع منك فى الصغير لم يُجترأ عليك فى الكبير . وأبرد البريد فى الدرهم ينقص من الخراج ، ولا تعاقبن على شئ كعقوبتك على كسْره ، ولا ترْزُقَنّ على شئ كرزقك على أرجائه ، واجعل أعظم رزقك فيه وأحسن ثوابك عليه حقن دَم المزْجِى وتوفيرَ ماله من غير أن يعلم انك أحمدت أمره حين عفّ واعتصمَ من أن يهلك »

(٣) قال كسرى ليوشت المغنى وقد قتل فهلوذ (فى رواية الأغانى فهليذ) حين فاقهُ وكان تلميذه « كنت أستريح منه اليك ومنك اليه فأذهبَ شطر تمتعى حسدُك ونغَلُ صـدرك » ثم أمر أن يلقى تحت أرجل الفيلة فقال « أيها الملك اذا

(١) العقد الفريد جزء ١ ص ٣٣١

قتلتُ أنا شطر طربك وأبطلته وقتلت أنت شطره الآخر وأبطلته أليست تكون جنايتك على طربك كجنايتى عليه ؟ قال كسرى دعوه ما دله على هذا الكلام الا ما جُعِلَ له من طول المدة »

(٤) قال كسرى « احذروا صولة الكريم اذا جاع واللئيم اذا شبع »

(٥) قال أَرْدِشيرُ بن بَابَك، ان للآذان مجة وللقلوب مللا ففرقوا بين الحكمتين

(٦) « فى سير العجم أن رجلا وشى برجل الى الاسكندر فقال أتحب أن نَقْبَل منه عليك ومنك عليه ؟ قال لا ، قال فكُفَّ الشرَّ يكف عنك الشر »

الى كثير من أمثال ذلك شحنت بها كتب الأدب

(الرابع) هناك أمر آخر فارسى كان له أثر كبير فى حياة الأدب العربى ذلك هو الغناء فالظاهر أن العرب أخذوا كثيراً من النغمات الفارسية ووقعوا عليها شعرهم العربى ، قال أبو الفرج فى كتابه الأغانى

سعيد بن مِسْجَح . . . مولى بنى جُمَح . . . مَكِّىّ اسود مغن متقدم من فحول المغنين وأكابرهم ، وأول من صنع الغناء منهم ، ونقل غناء الفرس الى غناء العرب ثم رحل الى الشام وأخذ ألحان الروم والبربطية والاسطوخوسية وانقلب الى فارس، فأخذ بها غناء كثيرا وتعلم الضرب ثم قدم الى الحجاز ، وقد أخذ محاسن تلك النغم، وألقى منها ما استقبحه من النبرات والنغم التى هى موجودة فى نغم غناء الفرس والروم خارجة عن غناء العرب ، وغنّى على هذا المذهب فكان أولَ من أثبت ذلك ولحنه وتبعه الناس بعده »

وحكى رواية أخرى « وهى أن ابن مِسْجَح مر بالفرس وهم يبنون المسجد الحرام فسمع غناءهم بالفارسية فقلبه فى شعر عربى —

أَلِمْ عَلَى طَلَلٍ عَفَا مُتَقَادِمِ — الابيات

وحكى أن مولى ابن مِسْجح سمعه يتغنى ، فسأله أنى لك هذا ؟ قال سمعت هذه الاعاجم تتغنى بالفارسية فثقفتها وقلبتها فى هذا الشعر قال له فأنت حر لوجه الله فلزم مولاه وكثر أدبه ، واتسع فى غنائه ومهر بمكة »

وفى رواية ثالثة عن صفوان الجُمَحِيّ عن أبيه قال « أول من نقل الغناء الفارسى الى الغناء العربى سعيد بن مسجح مولى بنى مخزوم — وذلك أن معاوية بن أبى سفيان لما بنى دوره . . . جعل لها بنائين فُرْساً من العراق فكانوا يبنونها بالجص والآجر ، وكان سعيد بن مسجح يأتيهم فيسمع من غنائهم على بنيانهم ، فما استحسن من ألحانهم أخذه ونقله الى الشعر العربى ثم صاغ على نحو ذلك »(١)

وذكر فى موضع آخر « أن ابن مُحْرِز كان أبوه من سَدَنة الكعبة ، أصله من الفرس ، وكان أصفر أجنى طويلا — وكان يسكن المدينة مرة ومكة مرة ، فاذا أتى المدينة أقام بها ثلاثة أشهر يتعلم الضرب من عَزَّة المَيْلاء ، ثم يرجع الى مكة فيقيم بها ثلاثة أشهر ، ثم يَشْخَص الى فارس فيتعلم ألحان الفرس ، ثم صار الى الشام فتعلم ألحان الروم وأخذ غناءهم ، فأسقط من ذلك مالا يستحسن من نَغَم الفريقين ، وأخذ محاسنها فمزج بعضها ببعض ، وألف منها الأغانى التى صنعها فى أشعار العرب ، فأتى بما لم يسمع بمثله ، وكان يقال له صَنَّاج العرب وهو أول من غنى بزوج من الشعر وعمل ذلك بعده المغنون اقتداء به ، وكان يقول الأفراد لا تتم بها الألحان وذكر أنه أول ما أخذ الغناء أخذه عن ابن مسجح »(٢)

« وقال ابن خُرْدَاذَبَه كان عبد الله بن عامر اشترى اماء نائحات ، وأتى بهن الى المدينة ، فكان لهن يوم فى الجمعة يلعبن فيه ، وسمع الناس منهن ثم قدم رجل فارسى يعرف بنَشِيط فغنى ، فأُعْجِبَ عبد الله بن جعفر به ، فقال له « سائب

---

(١) الاغانى جزء ٣ ص ٨١ وما بعدها (٢) الاغانى جزء ١ ص ١٤٥

خَاثِرٍ » (وهو مولًى أيضاً من فىء كسرى) أنا أصنع لك مثل غناء هذا الفارسى وقد صنع — لِمَنِ الدِّيَارُ رُسُومُهَا قَفْرُ — قال ابن الكلبى وهو أول صوت غنّى فى الاسلام من الغناء العربى »[1]

ترى من هذا كيف كان للفرس أثر كبير فى النغمات العربية وفى التوقيع ، وليس هذا يهمنا كثيراً الآن لأنه ألصق بالفن ، ولكن الذى يهمنا فوق هذا أن العرب نقلوا أيضاً عن الفرس صورة مجالس الغناء ، والاجتماع لسماعه ، فكانت — عدا أنها مجالس للغناء — مجالس للأدب ، يُصَفّى لها الشعر و يُرَقَّق حتى يتفق والذوق الموسيقى ، أضف الى هذا ما كانت تستتبعه هذه المجالس من محاضرات أدبيـة ، وقَصَص جميل ، وفكاهات رائقة ، وتَنَادُر ممتع ، وتسابق بين الشعراء والادباء للظهور فيها ، ونيل الحظوة وناهيك بما كان لهذه المنتديات الأدبية من فضل على الأدب ، ومباراة فى تهذيبه وتجديده

ودليلنـا على نقل هذه المجالس عن الفرس ومحاكاة العرب لهم ما ذكره صاحب التاج (أخلاق الملوك) من حديث طويل نقتصر منه على ما يهمنا ، فقد عقد باباً سماه باب المنادمة قال فيه « ولنبدأ بملوك الأعاجم اذ كانوا هم الأُوَلَ فى ذلك ، وعنهم أخذنا قوانين المُلك والمملكة ، وترتيب الخاصة والعامة ، وسياسة الرعية وإلزام كل طبقة حظها ، والاقتصار على جَديلتها (شاكلتها) » ثم ذكر ما كان يفعله ملوك العجم مع الندماء من تقسيمهم الى طبقات ومراتب ، ومجلس كل طبقة من هؤلاء — وقال « وكانت ملوك الأعاجم من لدن أَرْدشير بن بَابَك الى يَزْدَجِرْد تحتجب عن الندماء بستارة ، فكان يكون بينه و بين أول الطبقات عشرون ذراعاً ، لأن الستار من المَلِك على عشرة أذرع ، والستار من الطبقة الأولى على عشرة أذرع

[1] الاغانى جزء ٧ ص ١٧٩

وكان يأتيهم الأمر من الملك بما يفعلون وما يغنون » ثم قال

« قلت لاسحاق بن ابراهيم : هل كانت الخلفاء من بنى أمية تظهر للندماء والمغنيين قال « أما معاوية ومروان وعبد الملك وسليمان وهشام ومروان بن محمد فكان بينهم وبين الندماء ستارة ، وكان لا يظهر أحد من الندماء على ما يفعله الخليفة اذا طرب للمغنى والتذه ، حتى ينقلب ويمشى ويحرك كتفيه ويرقص ويتجرد حيث لا يراه الا خواص جواريه ، الا أنه كان اذا ارتفع من خلف الستارة صوت أو نعير طرب ، أو رقص أو حركة بزفير تجاوز المقدار ، قال صاحب الستارة حسبك يا جارية كفى . انتهى . أقصرى . يوهم الندماء أن الفاعل لذلك بعض الجوارى ، فأما الباقون من خلفاء بنى أمية فلم يكونوا يتحاشون أن يرقصوا و يتجردوا ويحضروا عراة بحضرة الندماء والمغنين »[1] وقد ذكر بعدُ مجالس الخلفاء العباسيين مما ليس من موضوعنا

اذن كان للخلفاء مجالس للغناء واللهو ، وثبت أن هذه المجالس أخذت عن الفرس ، وأنت اذا قرأت فى كتاب الأغانى رأيت أن الولاة وعظماء الدولة كانت لهم كذلك مجالس هى صورة مصغرة لمجالس الخلفاء ، بل تفوقها فى حرية القائلين والمغنين والسامعين ، واطلاق كل منهم القول على سجيته — وأترك لك تقدير ما لهذا من تأثير فى الأدب والفن

(الخامس) يظهر لنا أنه فى أواخر عهد الدولة الأموية حوَّلَ الفرس الكتابة العربية الى نمط آخر لم يكن يعرفه العرب ، وهو نوع الكتابة التى اشتهر بها عبد الحميد الكاتب ومدرسته ، فقد كان عبد الحميد كاتبَ مروان بن محمد آخر ملوك بنى أمية ويقول صاحب العقد « أنه كتب لعبد الملك بن مروان وليزيد ثم لم يزل كاتباً لخلفاء

---

(١) التاج ص ٣١ وما بعدها

بنى أمية حتى انقضت دولتهم » ويقول ابن خلكان « انه كان فى الكتابة وفى كل فن من العلم والأدب اماماً . . وعنه أخذ المترسّلون ، ولطريقته لزموا ، ولآثاره اقتفوا . . . وهو أول من أطال الرسائل واستعمل التحميدات فى فصول الكتب فاستعمل الناس ذلك بعده »[١] وقال الشَّرِيشى فى شرح المقامات « انه أول من فَتَق أكمام البلاغة ، وأسهل طرقها ، وفك رقاب الشعر » ووصيته للكتاب — ان صحت — تدلنا على أنه كان الآخذ بزمامهم والراسم لهم طريقهم

ودليلنا على أن منحاه فى الكتابة ذو صبغة فارسية ما حكاه ابن خلكان « من أن عبد الحميد من الموالى وأصله من الأنْبَار »[٢] وحكى أيضاً « أنه أخذ الكتاب عن سالم مولى هشام بن عبد الملك » وأصرح من هذا فى الدلالة ما حكاه أبو هلال العسكرى فى كتابه « ديوان المعانى »[٣] قال « فمن تعلم البلاغة بلغة من اللغات ثم انتقل الى لغة أخرى أمكنه فيها من صنعة الكلام ما أمكنه فى الأولى ، وكان عبد الحميد الكاتب استخرج أمثلة الكتابة — التى رسمها — من اللسان الفارسى فحولها الى اللسان العربى — ويدلك على هذا أيضاً أن تراجم خطب الفرس ورسائلهم هى على نمط خطب العرب ورسائلها ، وللفرس أمثال مثل أمثال العرب معنى وصنعة وربما كان اللفظ الفارسى فى بعضها أفصح من اللفظ العربى » اهـ ثم ذكر أمثالا بنصها الفارسى وما يقابلها فى اللغة العربية وفاضل بينها

فلعلك تقرأ معى فى هذا أن الأدب الفارسى صبغ الأدب العربى صبغة جديدة ، وربما كان أدق من ذلك أن تقول أنهما « تفاعلا »

***

---

(١) ابن خلكان جزء ١ ص ٤٣٥

(٢) الانبار مدينة على الشاطىء الايسر للفرات فى الشمال الشرقى من العراق

(٣) من نسخة خطية بدار الكتب

هذا مختصر للنواحى التى كان لها أثر للفرس فى حياة العرب الأدبية ، أما أثرهم فى تدوين العلوم وما نبغ منهم من علماء فى الفروع المختلفة فسنعرض له فى موضع آخر

مصادر هذا الباب

اعتمدنا فى الفصل الاول — عدا ما ذكر من الكتب العربية أثناء البحث على :

1 Browne, A Literary History of Persia

2 Sykes, A History of Persia

3 Levy, Persian Literatiure

4 Iqbal, The Development of Metaphysics in Persia

(٥) دائرة المعارف البريطانية فى مادة Zoroaster ومانى ومزدك

(٦) Every man. Encyclopaedia

وفى الفصل الثانى اعتمدنا على ما ذكرنا من الكتب العربية أثناء البحث

الباب الرابع

التأثير اليونانى ـ الرومانى

الفصل الأول

النصرانية

فتح المسلمون البلاد وهى مملوءة بالنصارى فى مصر و بلاد المغرب والاندلس والشام ومصر ، وكانت النصرانية عند الفتح منقسمة الى جملة طوائف ، أشهرها فى الشرق ثلاثة : اليَعَاقبة — وكانت منتشرة فى مصر والنو بة والحبشة ، والنساطرة[1] وكانت منتشرة فى الموصل والعراق وفارس و — المَلْكَانيّة — وكانت منتشرة فى بلاد المغرب وصقلية والأندلس والشام — وكان بين هذه المذاهب جدال فى العقائد الدينية ، فاليعاقبة كانوا يرون أن المسيح هو الله ، وأن الله والانسان اتحدا فى طبيعة واحدة هى المسيح ، والملكانية والنساطرة قالوا ان للمسيح طبيعتين متميزتين الطبيعة اللاهوتية والطبيعة الناسوتية ، — وان اختلفت الطائفتان فيما عدا ذلك من التفاصيل — وقد استمر الخلاف بين هذه الفرق فى : هل اللاهوتيـة وما للناسوتية من ارادة وفعل متحدتان فى المسيح أو مختلفتان ؟ قالت اليعاقبة بالأول ،

---

(١) هم أتباع نسطور وقد كان بطريقاً للقسطنطينية فى بعض أيامه ومات فى منفاه حول سنة ٤٥٠ م وليس كما زعم الشهرستانى أنه ظهر فى عصر المأمون

وقالت النساطرة ان للمسيح ناسوتية لها ارادة ولها فعل يختلف كل الاختلاف عن العنصر اللاهوتى (١) — واختلفوا فى تصوير اتحاد اللاهوت بالناسوت ، فقال اليعاقبة كاتحاد الماء يلقى فى الخمر فيصيران شيئاً واحداً ، وقالت النسطورية كاتحاد الماء يلقى فى الزيت فكل واحد منهما باق بحسبه ، وقالت الملكانية كاتحاد النار فى الصفيحة المحماة (٢)

وقد سقنا هذا لنبين أن الفرق النصرانية المنتشرة فى البلاد التى فتحها المسلمون كانت مختلفة ، وكانت تتجادل فى العقيدة فى الله جدالا شديداً ، والقرآن نفسه حكى شيئاً عن بعض أقوال هذه الفرق ورد عليها ، فقال « لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ » وقال « لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ » وقال يخاطب عيسى عليه السلام « أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللهِ قَالَ سُبْحَانَكَ »

ولم يقتصر النزاع بين النصارى على العقيدة فى الله بل اختلفوا فى مسائل أخرى كثيرة : هل ينزل المسيح قبل يوم القيامة أو لا ينزل ؟ وهل الحشر يكون للارواح والأبدان أو للارواح فقط ؟ وهل صفات الله زائدة عن ذات الله أو هى هى ؟ ومن النسطورية من كان يقول بالقدر خيره وشره ، الى غير ذلك من أقوال تسرب منها الى المسلمين كثير وأثار بينهم الجدل ، وحق قول النبى صلى الله عليه وسلم « لَتَرْكَبُنَّ سَنَنَ من كان قبلكم حَذْو القُذَّة بالقُذَّة » وسترى أثر ذلك واضحاً فى الفرق الاسلامية

وقد لجأت النصرانية الى الفلسفة اليونانية لتستعين بها على الجدل . ولتؤيد

(١) أنظر Boer فى الفلسفة الاسلامية ص ١٢

(٢) ابن حزم فى الملل والنحل جزء ١ ص ٥٣

تعاليمها وعقائدها أمام الوثنيين — أولا — ثم أمام المسلمين أخيراً ، فكان كثير من رجال الدين فلاسفة كالأب أوغسطينوس (٣٥٤ — ٤٣٠م) « وكانت الاسكندرية هى المركز الجغرافى لمزج الدين بالفلسفة ، فبعد أن كانت مدينة المتحف ، والمدينة المعروف عن أهلها النقد وسعة الاطلاع أصبحت مجمع المذاهب الفلسفية والطوائف الدينية ، فسهل الاتصال والامتزاج ، والتقى على ضفاف النيل رجال مختلفة آراؤهم ، متباينة مذاهبهم ، تبادلوا فيها الآراء كما كانت تُتَبادل السِّلَع ، فاتسعت دائرة الفكر ، وقورن بين الآراء المختلفة ، وكان من نتيجة ذلك ظهور روح جديد أسس على مبدأين متناقضين ممتزجين : أحدهما الشك والنقد ، والثانى سرعة التصديق ، تقابلت فى الاسكندرية آراء الشرقيين والغربيين « اليونان » ، فامتزج روح اليونان بروح المشارقة ، فأنتجا عقائد ونظما دينيـة متأثرة بتأمل الأوابين والهام الآخرين ، بما لليونان من علم ، وما للمشارقة من أساطير ، جاء الروح اليونانى بما له من ذكاء ودقة وقدرة على الشرح المبين فأصابته شرارة من الشرق أشعلته وأحيته ، كذلك أخرج الروح الشرقى — الذى من خصائصه الطموح الى ما وراء عالم الشهادة — نظاماً ملتئما ونظريات مرتبة لم يكن ليخرجها لولا مساعدة العلم اليونانى له — فانه رتب مأثور الشرقيين ، وحل من عقدة لسانهم ، فاستخرجوا العقائد الدينية والنظم الفلسفية التى بلغت الذروة فى مذاهب الغنوسطية والأفلاطونية الحديثة ، ويهودية فيلون ، ومذهب الاشراك الذى وضعه يوليان الصابى . ان الشرق بما له من ميل الى الغيب وخوارق العادات ، وما فى طبيعته من تصوف وتدين ، واليونانى بما له من فحص دقيق وبحث عميق ، وان شئت فقل ان ما للاول من شعور وما للثانى من تحليل منطقى ، امتزجا ونتج منهما فكر خاص انتشر فى الاسكندرية فى القرون الاولى للميلاد ، وقد صبغ ذلك الفكر بصبغتين مختلفتين ، صبغة الكماليين والصوفيين

وصبغة أهل البحث العلمى ، ولذا امتاز هذا العصر بميل الفلسفة الى الدين وميل الدين الى الفلسفة »[١]

الفصل الثانى

الفلسفة اليونانية

فى العصور الأولى للمسيح ظهر فى الاسكندرية المذهب المعروف « بالأفلاطونية الحديثة » — وكان لهذا المذهب أثر كبير فى فلاسفة المسلمين وعلماء الكلام وخاصة المعتزلة والصوفية

مؤسس هذا المذهب « أُمُنْيُوسْ سَكَّاسْ » كان أول أمره حمّالا ثم صار معلم فلسفة فى الاسكندرية ، وقد ولد من أبوين نصرانيين ، ولكنه صَبَأَ الى الدين اليونانى القديم ، وهو أول المعلمين الاسكندريين الذين حاولوا التوفيق بين تعاليم أفلاطون وارسطو ، ولم يؤثر عنه أى كتاب ، ولذلك كانت معلوماتنا عن تعاليمه قليلة ، ومات سنة ٢٤٢ م ، ويُعد تلميذه « أَفْلُوطين » منظم هذا المذهب ، وأكبر مؤيديه والمدافعين عنه بل ربما عدّ هو مؤسسه ، وقد ولد سنة ٢٠٥م فى ليكو بوليس Licopolis (أسيوط) وتعلم فى الاسكندرية ولازم أُمُنْيُوس نحو احدى عشرة سنة ، وقد التحق بحملة سارت لغزو فارس ليتعرف علوم الفرس والهنود ، وسافر الى رومة سنة ٢٤٥ م وأسس بها مدرسة للفلسفة ومات سنة ٢٧٠ م والعرب لم تعرف كثيراً عن أفلوطين هذا ، ولكن تعرف مدرسته وتطلق عليها « مذهب

---

(١) كتاب مبادىء الفلسفة — تعريب —

الاسكندرانيين » ويطلق عليه الشهرستانى « الشيخ اليونانى » وقد نقلت اليهم كثير من فلسفته معزوة خطأ الى غيره — وقد ألف أفلوطين كتباً كثيرة حفظت عنه ، ويطلق عليها عادة اسم (التاسوعات) « إنِّيدْ » Enneads ، — وتفرع مذهبه الى فروع كثيرة فكان منه فرع فى الاسكندرية ، وفرع فى الشام وفرع فى أثينا — وله آراء فى الطبيعة لا تهمنا الآن ، وله آراء فى الالهيات نذكر طرفا منها

يقول ان هذا العالم كثير الظواهر ، دائم التغير ، وهو لم يوجد بنفسه ، بل لا بد لوجوده من علة سابقة عليه هى السبب فى وجوده ، وهذا الذى صدر عنه العالم واحد غير متعدد ، لا تدركه العقول ولا تصل الى كنهه الأفكار ، لا يحده حد ، وهو أزلى أبدى قائم بنفسه ، فوق المادة وفوق الروح وفوق العالم الروحانى ، خلق الخلق ولم يَحُلّ فيما خلق ، بل ظل قائماً بنفسه مسيطراً على خلقه ، ليس ذاتاً وليس صفة ، هو الارادة المطلقة ، لا يخرج شىء عن ارادته ، هو علة العلل ولا علة له ، وهو فى كل مكان ولا مكان له

كيف نشأ عنه العالم ؟ وكيف صدر هذا العالم المركب المتغير من البسيط الذى لا يلحقه تغير ؟ كان هذا العالم غير موجود ثم وجد فهل يمكن أن يصدر عن الخالق ذلك من غير أن يحصل تغير فى ذاته ؟ كيف يصدر هذا العالم الفانى من الله غير الفانى ؟ هل صدر هذا العالم من الصانع عن روية وتفكير أو من غير روية ؟ ولم وجد الشر فى العالم ؟ ما النفس وأين كانت قبل حلولها بالبدن وأين تكون بعد فراقه ؟

هذه المسائل وأشباهها كانت من أهم المسائل التى شغلت أفلوطين ومدرسته وثار حولها الجدل وذهبوا فيها مذاهب يخرج بنا شرحها عما رسمنا ، وانما أشرنا اليها لنبين فيم كان هذا العالم العلمى يبحث ولنستطيع بعدُ أن نعرف أثرهم

وكان هذا المذهب الاسكندرى فى أول أمره يميل الى البحث والتفكير العقلى المحض ، ثم أخذ يناصر الوثنية اليونانية ، ويقاوم النصرانية ، ثم انحدر الى أن اقتصر على الشغف بالاطلاع على المغيبات ، وخوارق العادات ، والاعتناء بالسحر ، والتصرف بالأسماء ، والطلاسم والكهانة والتنجيم والدعوات والعزائم ونحو ذلك

ولما انتصرت النصرانية وجاء « چوستنيان » أغلق مدارس الفلسفة فى أثينا ، واضطهد الفلاسفة ، فمنهم من فر (ومن هؤلاء سبعة سافروا الى فارس فاستقبلهم كسرى أنو شِرْوَان واحتفى بهم وأنزلهم منزلا كريماً ، وجعل من شروط الصلح مع چوستنيان أن يُعْنَى بهم — وكان هؤلاء السبعة من فلاسفة الأفلاطونية الحديثة) ومنهم من تنصر ، و بعض المتنصرين أخرجوا كتباً فى الأفلاطونية الحديثة مصبوغة بالصبغة النصرانية ، ككتاب دَيُونِيسُوس ألفه أفلوطونى مجهول فى منتصف القرن السادس للمسيح باسم ديونيسوس ادعى أنه من تلاميذ بولس الحوَارى ، وقد شرح أسرار الربوبية ودرجات عالم الملكوت والكنيسة السماوية على المذهب الافلوطينى فصار من ذلك الوقت عمدة للنصارى فى ذلك[1] — ثم دخل هذا المذهب فى الاسلام عن طريق فريق من المعتزلة والحكماء والصوفية ، ومنهم أخذت جل أفكارهم جماعة « اخوان الصفا » وغيرهم

السريانيون — قام السريانيون بنشر الفلسفة اليونانية وخاصة مذهب الافلاطونية الحديثة فى العراق وما حوله ، وأخذوا ينقلون الكتب اليونانية الى

---

(١) قد طبع فى برلين كتاب اسمه « أثولوجيا » أرسطاليس سنة ١٨٨٢ وهو فى الالهيات ، تفسير فوفوريوس الصورى ، نقله الى العربية عند المسيح الحمصى ابن الناعمى وأصلحه يعقوب الكندى — والحق أنه ليس على مذهب ارسطو وانما هو على مذهب أفلوطين فان فورفوريوس هذا تلميذ أفلوطين وتوفى سنة ٣٠٤ م وألف هذا الكتاب على مذهبه

لغتهم السريانية ، وهى احدى اللغات الآرامية ، انتشرت فيما بين النهرين والبلاد المجاورة لها ، وكان من أهم مراكزها الرُّها (Edessa) ونَصِيبِين — وفوق هذا كانت هى لغة الأدب والعلم لجميع كُتّاب النصرانيـة فى أنطاكية وما حولها ، وللنصارى الخاضعين لدولة الفرس ، وأنشئت فى هذه الأصقاع مدارس دينية متعددة كانت تعلّم فيهـا اللغة السريانية واليونانيـة جميعاً فى الرها وفى نصيبين وفى جنديسابور

بل كانت اللغـة السريانية أيضاً لغة الوثنية وآدابها ، وأشهر مراكز الوثنية السريانية مدينة حَرّان (فى جنوبى الرها) وقد ظلت هذه المدينة مركزاً للديانة الوثنية والثقافة اليونانية الى ما بعد الاسلام ، فكانوا بعد الفتح الاسلامى يدرسون الرياضة والفلك والفلسفة على المذهب الأفلاطونى ، وهم الذين تسموا بعد ذلك فى القرن التاسع والعاشر الميلادى بالصّابئين ، وكان منهم كثيرون من المؤلفين ومن تولوا الترجمة بعدُ

* * *

وقد عاشت الآداب السريانية من القرن الثالث الميلادى الى القرن الرابع عشر ولكن حياتها بعد الفتح الاسلامى كانت حياة ضعيفة لغزو اللغة العربية لها وغلبتها

وبقى لنا من الأدب السريانى مجموعة فى مختلف أنواع الكتابة ، ولكن الذى بقى منها انما هو من المدرسة النصرانية لا الوثنية ، فهناك كتب فى الصلوات والادعية الدينية ، والأقاصيص التاريخية ، والتاريخ العام ، والفلسفة والعلوم ، وكلها مصبوغ بالصبغة الدينية لأن أكثر الكُتّاب كانوا قسيسين ورهبانا — وهناك قليل من الآثار الأدبية نظما ونثراً

وخدم السريانيون العلم والفلسفة بما ترجموا أكثر مما ألفوا ، فلم يبتكروا كثيراً وحفظت اللغة السريانية بعض الكتب اليونانية التى فقد أصلها ، وكانت ترجمتهم لكتب الفلسفة اليونانية هى الأساس الذى اعتمد عليه العرب والمسلمون أول أمرهم ، وقد كانت الترجمة السريانية فى عهدها الأول ترجمة حرفية تقريباً ثم تحرر الكُتّاب المتأخرون من حرفية الترجمة

وكان هؤلاء السريانيون ينقلون العلوم اليونانية بدقة وأمانة فيما لم يمس الدين ، كالمنطق والطبيعة والطب والرياضة، أما الالهيات ونحوها فكانت تعدّل بما يتفق والمسيحية ، حتى لقد حوّلوا أفلاطون فى كتاباتهم الى راهب شرقى، فقالوا انه بنى لنفسه معبداً فى بريّة بعيداً عن الناس وظل يتعبد فيه سنين — وهذه هى الطريقة التى سلكها المسلمون بعدُ ، فقد أغفلوا من الالهيات كثيراً مما يخالف تعاليم الاسلام

ولم يقتصر السريانيون على الترجمة من اليونان بل ترجموا كذلك من الفهلوية فترجموا منها تاريخ الاسكندر ، نقله الفرس عن اليونانية ثم نقله السريانيون من الفهلوية ، وكذلك ترجموا كليلة ودمنة الى السريانية فى القرن السادس الميلادى وقصة السندباد فى القرن الثامن

ومن أشهر رجال الدين والأدب من السريانيين الذين يعرفهم المسلمون بَارْديصان أو ابن ديصان Bardaisan (مات سنة ٢٢٢م) وديصان اسم نهر نسب اليه وله مذهب دينى مزَجَ فيه الثنوية بالنصرانية كما فعل مانى ، وكان ينكر بعث الأجسام، ويقول ان جسد المسيح لم يكن جسما حقيقيا بل صورة شُبّهت للناس أرسلها الله تعالى ، وله تعاليم كثيرة بقيت بعد ظهور الاسلام ، ومنها استمد الرافضة بعض أقوالهم ، وانتسب اليه بعضهم كأبى شاكر الديصانى ، وأخذ علماء الكلام فى الرد عليهم ، وهم يكتبون عن أتباعه تحت اسم « الديصانية »

ومن أشهرهم أيضاً سِرْجيس الرَّسْعَنِي من مدينة «رأس عين» وقد مات سنة ٥٣٦ م ، وهو من أشهر المتأدبين بالآداب اليونانية ، وترجم منها الى السريانية كتباً كثيرة بعضها محفوظ الى عهدنا فى المتحف البريطانى ، منها رسائل لارسطو ولفُورْفُورْيُوس ، ولجالينوس ، وألف رسالة فى المنطق ليست كاملة تبحث فى المَقُولات العشر ، والايجاب والسلب ، والجنس والفصل الخ وألف رسالة أخرى فى تأثير القمر وفى حركة الشمس — وقد انتشرت كتبه بين اليعاقبة والنساطرة وعدُّوه عمدتهم فى المنطق والطب

وألف غير سرجيس كثيرون — فى هذا العصر — فى النفس والقضاء والقدر والنحو وفى أن الانسان عالم صغير وفى تركب الانسان من جسم وروح الخ

ولما فتح المسلمون هذه البلاد فى القرن السابع الميلادى أسلم بعض السريانيين وظل بعضهم محافظاً على دينه يدفع الجزية ، ولكن الآداب السريانية على الجملة أخذت فى الضعف ، ومع ذلك فقد نبغ كثير منهم فى العصر الأموى والعباسى ، وظلت المدارس السريانية مفتوحة فى عهد الدولة الأموية كما كانت ، ولم يكن الخلفاء والأمراء يتدخلون فى شؤونهم الا عند ما يحتدم النزاع الدينى بينهم فيلجأ بعضهم الى الولاة يستنصرهم

واشتهر من هولاء ، فى العصر الأموى يعقوب الرُّهَاوِى (٦٤٠ — ٧٠٨م تقريباً) وقد ترجم كثيراً من كتب الالهيات اليونانية ، وليعقوب هذا أَثَرٌ كبير الدلالة ، فقد أُثِرَ عنه أنه أفتى رجال الدين من النصارى بأنه يحل لهم أن يعلموا أولاد المسلمين التعليم الراقى — وهذه الفتوى تدل من غير شك على اقبال بعض المسلمين فى ذلك العصر على دراسة الفلسفة عليهم وتردد النصارى أولا فى تعليمهم

ولما جاء دور نقل الفلسفة والعلوم الى العربية فى العهد العباسى كان لهؤلاء

السريانيين الفضل الأكبر فى الترجمة أمثال حنين بن اسحاق وابنه اسحاق وابن أخته حبيش مما نعرض اليه فى موضعه ان شاء الله

***

الآن نستطيع أن نفهم أن الثقافة اليونانية كانت منتشرة فى العراق والشام والاسكندرية ، وان المدارس انتشرت فيها على يد السريانيين — وان هذه المدارس وهذه التعاليم أصبحت تحت حكم المسلمين ، وامتزج هؤلاء المحكومون بالحاكمين على النحو الذى شرحته ، فكان من نتائج هذا أن تشعبت هذه التعاليم فى المملكة الاسلامية ، وتزاوجت العقول المختلفة كما تزاوجت الأجناس المختلفة ، فنتج من هذا التزاوج الثقافة العربيــة أو الاسلامية ، ونتجت المذاهب الدينية والفلسفة الاسلامية والحركات العلمية والفنون الأدبية

والعرب أنفسهم اتصلوا بهذه الثقافات من قديم ، فالقِفْطى فى كتابه أخبـار الحكماء يحدثنا « أن الحارث بن كَلَدة كان من ثَقِيف من أهل الطائف ، رحل الى أهل فارس وأخذ الطب عن اهل تلك الديار من أهل جُنْدَيْسَابُور وغيرها فى الجاهلية وقبل الاسلام ، وأجاد فى هذه الصناعة ، وطَبَّ بأرض فارس ، وعالج وشهد أهل بلد فارس ممن رآه بعلمه ، واشتهر طبه بين العرب ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمر من كانت به علة أن يأتيه فيسأله عن علته ، وسُمَيَّة مولاته هى أم زِيَاد بن أَبيه » اه

وابن أبى أُصَيْبِعة يقول فى كتابه « طبقات الاطباء » أن النضر بن الحارث بن كَلَدة ابن خالة النبى صلى الله عليه وسلم سافر البلاد كأبيه واجتمع مع الأفاضل والعلماء بمكة وغيرها وعاشر الأحبار والكهنة ، واشتغل وحصل من العلوم القديمة أشياء جليلة القدر ، واطلع على علوم الفلسفة وأجزاء الحكمة ، وتعلم من أبيه أيضاً ما كان

يعلمه من الطب وغيره ، وكان النضر يؤاتى أبا سفيان فى عداوة النبى صلى الله عليه وسلم . . . واعتقد النضر أنه بمعلوماته وفضائله يستطيع أن يقاوم النبوة ، وأين الثريا من الثرى » اهـ

و بعد الاسلام استمر هذا الاتصال ، فهم يحدثوننا أن خالد بن يزيد بن معاوية « كان من أعلم قريش بفنون العلم ، وله كلام فى صنعة الكيمياء والطب وكان بصيراً بهذين العلمين متقناً لهما ، وله رسائل دالة على معرفته و براعته ، وأخذ الصنعة عن رجل من الرهبان يقال له مَرْيَانُسْ المذكور (كذا) الرومى ، وله فيها ثلاث رسائل تضمنت احداهن ماجرى له مع مَرْيانس المذكور وصورة تعلمه منه والرموز التى أشار اليها »(١) ويقول ابن النديم أن خالداً عنى باخراج كتب القدماء فى الصنعة ، وكان خطيباً شاعراً فصيحاً حازماً ، وهو أول من ترجم له كتب الطب والنجوم وكتب الكيميا . . . وقد رأيت من كتبه كتاب الحرارات — كتاب الصحيفة الكبير — كتاب الصحيفة الصغير — كتاب وصيته الى ابنه فى الصنعة »(٢). ومات خالد سنة ٨٥ هـ أو ٧٠٤ م

من هذا جميعه نرى أن الثقافة اليونانية — كالثقافة الفارسية كانت مبثوثة بين المسلمين فى البلدان المختلفة ، وكان منالها منهم قريباً ، وأنهم أخذوا يستفيدون منها و يتعلمونها على المثقفين بها ، ولو لم يكونوا على دينهم ، كما تدلنا عليه فتوى يعقوب الرهاوى

أضف الى هذا أنه فى ذلك العصر وجد الاحتكاك الدينى بين المسلمين والنصارى فأخذوا يتجادلون و يتحاجون فى العقائد ، ويدلنا على ذلك أن أحد المؤلفين فى

---

(١) ابن خلكان (٢) فهرست ابن النديم ص ٣٥٤

هذا العصر واسمه يحيي الدمشقي ألف رسالة على هذا النمط « اذا قال لك العربي كذا فأجبه بكذا »

اذن فمن الخطأ البين الفكرة الشائعة أن العرب والمسلمين جميعاً كانوا بمعزل عمن حولهم من الثقافات والأديان الى العصر العباسي ، وأن آراءهم وآدابهم وعلومهم نبتت وحدها من عقول عربية من غير أن تُغَذَّى بغيرها ، فقد رأينا أنهم حتى فى جاهليتهم لم يكونوا بمعزل ، وانهم كانوا بعد الاسلام أكثر اتصالا ، ولا يقدح هذا فى أية أمة ، فالعلم ملك شائع ، ومرفق مباح ، يغترف منه الناس جميعاً ، وليس له حدود فاصلة كالتي ترسمها السياسة الدولية ، انما الذى يقدح فى الأمة حقاً أن تغمض عيونها وتسد آذانها عما حولها من نظريات وأفكار ، أو أن يدفعها التعصب الأعمى أن تنسب لأمتها ما ليس لها ، وتعزو اليها خلق ما لم تخلق وابتداع ما لم تبتدع

الفصل الثالث

الأدب اليونانى الرومانى

كان لليونان أدب غزير المادة متنوع الموضوع ، فقصص خرافية عن آلهتم الأقدمين ، وشعر وصفى قصصى يصف حروبهم وأبطالهم يسمى شعر الملاحم Epic كالالياذة والأوذيسة

وشعر غنائى Lyric يصفون فيه مشاعرهم ويتعرضون فيه للمدح والفخر والحماسة والغزل والرثاء ونحو ذلك مما تعرض له الشعر العربى

وشعر تمثيلى Dramatic يتخيلون فيه وقعة حربية أو نحوها كما يتخيلون رجالها ثم يعمدون الى تصوير الحوادث ، ويضعون على لسان رجالها ما يتناسب مع شخصياتهم

ولهم فى هذه الأنواع كلها الشىء الكثير الذى أثر فى الأدب الغربى قديمه وحديثه ، ونبغ منهم شعراء عدة فى بلادهم وفى مستعمراتهم ، و بقى من شعرهم الى يومنا هذا ما يكفى لتصوير ذلك كله تصويراً بديعاً

ولهم غير الشعر كتابة راقية وخطابة ، وأبحاث وافية منظمة فى الكتابة والخطابة وعلم البيان كالذى ترى فى أبحاث أرسطو — ولهم مؤرخون أمثال هيرودوتس وتوسيديد كتبوا التاريخ ونظموه بالقدر الذى يسمح به عصرهم

ولما ذهب سلطانهم وأصبحوا اقليما رومانياً ضعفت آدابهم ، ولكن ظل أهم ما وصلوا اليه محفوظاً يتغذى به الرومانيون على نحو ما كان بين الفرس والعرب ، وظهر فى هذا العصر أدباء ومؤرخون أمثال بلوتارك ولوسيد

ولكن هل تأثر العرب والمسلمون بهذه الآداب فى هذا العصر — أعنى العصر الأموى — كما تأثروا بالفلسفة اليونانية

يظهر لنا أن التأثير الأدبى كان ضعيفاً ، فانا نرى الشعر العربى فى العصر الأموى ظل حافظاً لكيانه ؛ يترسم الطريق الذى خطه له الشعر الجاهلى فى بحوره وفى قافيته حتى فى موضوعاته — كانوا مقصرين فى الجاهلية فى شعر الملاحم وفى الشعر التمثيلى فظلوا كذلك حتى فى العصر العباسى

ومن العسير العثور على معان يونانية وردت فى شعرهم ، ونفتش فى هذا العصر عن شاعر أصله يونانى أو رومانى تعلم العربية وشعر بها فلا نجد ، مع انا وجدنا كثيراً فيما سبق من أصل فارسى أصبحوا شعراء فى العربيـة ، ونجد مؤرخى المسلمين فى ذلك العهد تأثروا فى طريقـة تدوين الحوادث بالنمط الفارسى لا بالنمط اليونانى ، ويتجلى ضعف التأثير اليونانى فى العرب بضعف معلومات المسلمين عن الحياة الأدبية اليونانية حتى فى العصر العباسى ، فتاريخ اليونان عندهم يبتدئ بالاسكندر الأكبر أو قبله بقليل ، مع امتلائه بالأساطير الخرافية ، ولم يسمعوا كثيراً بتوسيديد ، وقد سمعوا قليلا عن هوميروس ، واستشهدوا منه بشىء قليل مقتضب مضطرب كالذى تراه فى الشهرستانى والكشكول لبهاء الدين العاملى

وعلى الجملة يظهر لنا أن الآداب الفارسية كانت أكثر تأثيراً فى الأدب العربى من الآداب اليونانية ، — وعلة ذلك — على ما يبدو لنا — أن العرب وهم العنصر الحاكم كانوا متعصبين جد التعصب لشعرهم ، لا يسمحون فيـه بابتكار أو تحوير فى الأساس ، فنَظْم البيت ، وبحر الشعر ، وقافيـة القصيدة ، ونحو ذلك أشياء مقدسة لايصح أن تمس بسوء ، بل الموضوعات التى يقال فيها الشعر كذلك ، فتحرير القافية من قيودها الثقيلة ، وزيادة بحور على البحور التى قال فيها الجاهليون

مهما كانت موسيقى البحور الجديدة مطربة ، والقول فى موضوعات جديدة لم تُؤلَف ، كل هذه كانت فى نظرهم انتهاكا لحرمة الأدب ، بل هم كانوا حريصين فى تقاليدهم على ما دون ذلك ، ولعل خير ما يمثل هذا ما جاء فى طبقات الشعراء لابن قتيبة « وليس لمتأخر الشعراء أن يخرج عن مذهب المتقدمين فى هذه الأقسام ، فيقف على منزل عامر ، أو يبكى على مَشِيد البنيان ، لأن المتقدمين وقفوا على المنزل الداثر والرسم العافى ، أو يرحل على حمار أو بغل ويصفهما لأن المتقدمين رحلوا على الناقة والبعير ، أو يرِدَ على المياه العِذَاب الجوارى لأن المتقدمين وردوا على الأَوَاجِن الطَّوامى ، أو يقطع الى الممدوح منابت النرجس والآس والورد لأن المتقدمين جروا على قطع منابت الشيح والحَنْوَة[1] والعَرار ، قال خَلَف الأحمر قال لى شيخ من أهل الكوفة أما عجبت من الشاعر قال — أَنْبَتَ قَيْصُوماً وَجَثْجَاثا — فاحتُمِل له وقلت أنا — أَنْبَتَ إِجَّاصاً وتفاحا — فلم يُحْتَمَلْ لى — وليس له أن يقيس على اشتقاقهم فيطلق ما لم يطلقوا قال الخليل بن احمد أنشدنى رجل — تَرَافَعَ العِزُّ بِنَا فَارْفَنْعَعَا — فَقُلْتُ ليس هذا شيئاً ، فقال كيف جاز للعجَّاج أن يقول — تَقَاعَسَ العِزُّ بِنَا فَاقْعَنْسَسَا — ولا يجوز لى »[2] اهـ

فترى من هذا الى أى حد وصل العرب فى المحافظة على تقاليد من قبلهم ، حتى يلجئهم ذلك الى أن يصفوا ناقة وبعيراً وهم انما يركبون بغلا وحماراً ، ويدَّعوا أن الأرض أنبتت قيصوماً وجثجاثاً وهى انما أنبتت اجاصاً وتفاحاً ، ولا يبيحوا لأنفسهم أن يشتقوا كلمة قياساً على اشتقاق مثيلها ، فهؤلاء لا يكون لهم من الحرية ما يسمح لهم بأن يدخلوا ملاحم لم يكن يعرفها آباؤهم ، أو شعراً تمثيلياً ينبو عنه ذوقهم — والفرس انما أثروا بشىء من معانيهم وخيالاتهم لأنهم هم الذين انتقلوا للعربية ولم

---

(١) الحنوة نوع من النبات له نور أحمر طيب الرائحة (٢) ابن قتيبة ص ١٦ طبع أوروبا

تنتقل العربيـة اليهم ، واذ كان اليونان والرومان لم ينتقلوا الى العربية كما أسلفنا لم يكن أثرهم فيهم كبيراً —

وسبب آخر دعا الى تأثرهم بالفارسية أكثر من اليونانية — ذلك أن دولة الفرس ذابت فى المملكة العربية ، وكانت حياة الفرس الاجتماعية تحت أعين العرب يعرفون عنها الكثير فاستطاعوا أن يتذوقوا شيئاً من أدبهم ، أما الحياة اليونانية فكانت بعيدة كل البعد عن معيشة العرب ولم تكن تحت أعينهم لينظروها ، آلهة تخالف كل المخالفة تعاليم دينهم ، ونظم سياسية واجتماعية لا عهد لهم بها ، وأنواع من اللهو لم يألفوها — والأدب كما علمت انما هو صورة منعكسة للمعيشة الاجتماعية ، فكان لِزاماً ألا يتذوق العرب الأدب اليونانى ويتأثروا به

ولا يفوتنا — مع هذا — أن نشير الى أشياء ثلاثه يونانيـة كان لها أثر فى الأدب العربى

(الأول) كلمات أخذها العرب من اليونانية كالفردوس والقسطاس (الميزان) والسَّجَنْجَل (المرآة) والبطاقة (الرقعـة) والقسطل (الغبار) والقنطار والبطريق والترياق والنقرس والقولنج (مرضان) ورووا أن علياً رضى الله عنه سأل شريحاً مسألة فأجابه ، فقال له قالون أى أصبتَ بالرومية »[١] الى غير ذلك من الالفاظ

(الثانى) ما كان من أثر فى الشعر لشعراء النصرانية فى الاسلام أمثال الأخطل والقَطَامى ، وحتى هؤلاء أثر النصرانية فى شعرهم قليل حتى يقول الاب لامانس نفسه « ان أثر النصرانية فى ديوان الأخطل أثر ضعيف ، ونصرانيته نصرانية سطحية ككل العقائد الدينية بين البدو »

(الثالث) وهو أكثرها تأثيراً الحِكَم اليونانية ، وهذا النوع عنى به السريانيون

(١) الثعالبي فى فقه اللغة

من قبل العرب ، فنقلوا منه عن اليونانية الشيء الكثير ، ثم أخذه العرب لمّا كان يتفق وذوقهم الأدبي، فنقل الى العرب حكم نسبت لسقراط وأفلاطون وارسطو وأمثالهم، بعضها تصح نسبتها اليهم و بعضها ليست من أقوالهم عزيت اليهم ، كالذى رووا عن أفلاطون أنه قال « اذا أقبلت الدولة خدمت الشهوات العقول واذا أدبرت خدمت العقول الشهوات » وقال « من فضيلة العلم أنك لا تستطيع أن يخدمك فيه أحد ، كما يخدمك فى سائر الأشياء ،وانما تخدمه بنفسك، ولا يستطيع أحد أن يسلبه اياك كما يسلبك غيره من المقتنيات » وقال « لا يضبط الكثير من لا يضبط نفسه الواحدة » الخ . وقال ارسطو « اعلم أنه ليس شيء أصلح للناس من أولى الأمر اذا صلحوا ، ولا أفسد لهم ولأنفسهم منهم اذا فسدوا ، فالوالى من الرعية بمنزلة الروح من الجسد الذى لا حياة له الا بها » وقال « لن يسود من يتبع العيوب الباطنة من اخوانه » وقال سقراط « النفس الخيرة مجتزئة بالقليل من الأدب والنفس الشريرة لا ينجع فيها كثير من الأدب لسوء مغرسها » وقال « العقول مواهب والعلوم مكاسب »

ورووا أن أوميروس جاءه رجل وقال له اهجنى لأفتخر بهجائك اذ لم أكن أهلا لمديحك، فقال له لست فاعلا، قال فانى أمضى الى رؤساء اليونان فأشعرهم بنكولك ، قال أوميروس مرتجلا : بلغنا أن كلباً حاول قتال أسد بجزيرة قبرص فامتنع عليه أنفة منه ، فقال له الكلب انى أمضى فاشعر السباع بضعفك، قال له الأسد لأن تعيرنى السباع بالنكول عن مبارزتك أحب إلىّ من أن ألوث شاربى بدمك . . . الخ الخ

وزاد هذا النقل من حكم اليونان على توالى الأيام حتى أفردت لها الكتب كما فعل ابن هِندُو فى كتابه ، ورأيت رسالة طبعت فى الجوائب جمعت فيها حكم نسبت لأفلاطون لم يُذْكَر مؤلفها ، وذكر أنها نقلت من نسخة مخطوطة سنة ٨٩٣هـ

وكتب الأدب مشحونة بضروب من هذه الأمثال

الخلاصة

عقلية عربية لها طبيعة خاصة هى نتاج بيئتها ، وعيشة اجتماعية خاصة يعيشها العرب فى جاهليتهم ، ودين اسلامى أتى بتعاليم جديدة ، ورسم للحيـاة مثلا أعلى يخالف المثل الذى كانت ترسمه تقاليد الجاهلية ، وفتح اسلامى مد سلطانه على فارس وما حولها وعلى مستعمرات رومانية كثيرة ، فأذاب ما كان للفرس من دين ومدنية وعلم ، وما كان للمستعمرات الرومانية من دين ومدنية وعلم فى المملكة الاسلامية جميعها ، وكوَّنَ منها مزيجاً واحداً مختلف العناصر — كل هذه الأشياء التى عددناها كانت أسباباً لها نتائجها ، ومن نتائجها ما كان من حركة علمية ودينية فى ذلك العصر أعنى العصر الذى ينتهى بانتهاء الدولة الأموية فهو الذى يعنينا الآن — واذ كنا قد شرحنا بايجاز هذه الأسباب فلنشرح بايجاز كذلك هذه النتائج ولنقسمها الى قسمين الحركة العلمية وحركة العقائد الدينية

مصادر هذا الباب

اعتمدنا فى هذا الباب على :

1 Boer, History of philosophy in Islam.

2 Dresser, History of Ancient and medieval philosophy.

3 Macdonald, Development of Muslim Theology.

4 O'leary, Arabic Thought.

(٥) دائرة المعارف البريطانية فى مادة « الآداب السريانية »

(٦) محاضرات الاستاذ سانتلانا فى الجامعة المصرية

عدا ماذكرنا من الكتب العربية أثناء البحث .

الباب الخامس

الحركة العلمية

وصفها ومراكزها

الفصل الأول

وصف الحركة العلمية اجمالا

نستعمل هنا الحركة العلمية بأوسع معانيها ، ونعنى بها كل ماعنى المسلمون بالتفكير فيه تفكيراً منظما نوعاما ، من تشريع وتفسير وحديث وتاريخ وسِيَر وما الى ذلك ، ولسنا نستثنى الا حركة العقائد الدينية، وسنفرد لها باباً خاصاً ، والحركة الأدبية وقد كتب فيها جزء خاص — والآن ننظر نظرة عامة فى الحركة العلمية من عهد الاسلام الى سقوط الدولة الأموية

الأمية — تركنا العرب فى الجاهلية وليس لهم علم ولا فلسفة ، ولم يكن من بينهم من يصح أن يسمى عالماً الا قليل ، وعلى تجوز فى اطلاق كلمة عالم ، كالذى حكينا عن الحارث بن كَلَدَة والنَّضْرِ بن الحارث

وقد كان الجهل فاشياً فيهم ، والأمية شائعة بينهم خصوصاً فى الأقطار البدوية لما قدمنا من أن الكتابة والعلم انما يكثران حيث يكثر العمران ، ويقول ابن خلدون « ان أهل الحجاز تعلموا الكتابة من أهل الحِيرة ، وهؤلاء تعلموها من الحميريين »

وسواء صح هذا أو لم يصح فالحجازيون والمضريون عموماً كانوا أشد بداوة وأكثر أمية ، حتى يروى لنا البَلاَذُرِىّ فى كتابه « فتوح البلدان » « أن الاسلام دخل وفى قريش سبعة عشر رجلا كلهم يكتب ، عمر بن الخطاب ، وعلىّ ابن أبى طالب ، وعثمان بن عفان ، وأبو عبيدة بن الجرّاح ، وطَلْحة ، ويزيد بن أبى سفيان ، وأبو حُذَيْفة بن عُتْبة بن ربيعة ، وحاطب بن عمرو ، وأبو سَلَمة بن عبد الأسَد المخزومى ، وأَبَان بن سعيد بن العاص بن أمية ، وخالد بن سعيد أخوه ، وعبد الله بن سعد بن أبى سَرْحٍ العامرى ، وحُوَيْطب بن عبد العُزَّى العامرى ، وأبو سفيان بن حرب ، ومعاوية بن أبى سفيان ، وجُهَيْم بن الصَّلْت ، ومن خلفاء قريش العَلاَء بن الحَضْرَمى »[١] وقليل من نسائهم كن يكتبن كحفصة وأم كلثوم من زوجات النبي صلى الله عليه وسلم والشِّفاء بنت عبد الله العَدَوية ، وكانت عائشة أم المؤمنين تقرأ المصحف ولا تكتب[٢] وكذلك أم سلمة ، فاذا كانت قريش — وشأنها فى الحجاز ما بينا قبل من تقدمها فى الشؤون التجارية — ليس فيها الا سبعة عشر كاتباً كان الكاتبون فى غيرها من القبائل المضرية أندر ، ويروى البلاذرى أيضاً « أن الكِتَاب (يريد الكتابة) بالعربية فى الأوْس والخزرج كان قليلا ، وكان بعض اليهود قد عَلِمَ كِتَاب العربية وكان يُعَلِّمه الصبيان بالمدينة فى الزمن الأول فجاء الاسلام وفى الأوس والخزرج عدة يكتبون وقدعدهم فكانوا أحد عشر[٣] — ولندرة الكتابة كانوا يلقِّبون مَنْ جمع بين معرفة الكتابة والرمى والعوم « الكَامِل » فلقبوا بهذا اللقب سعد بن عُبَادة وأُسَيْد بن حُضَيْر وعبد الله بن أُبَىّ[٤] وقد رأيت فيما قبل أنه فى الجاهلية لقب به سُوَيد بن الصامت

---

(١) فتوح البلدان طبع أوروبا ص ٤٧١ وما بعدها

(٢) المصدر نفسه (٣) ص ٤٧٣ (٤) ص ٤٧٤

فلما جاء الاسلام استكتب رسول الله صلى الله عليه وسلم بعض هؤلاء الذين يعرفون الكتابة لكتابة ما ينزل من القرآن ، « فكان أول من كتب له مَقْدَمَهُ المدينة أُبَيّ بن كعب الانصارى — فكان أُبَيّ اذا لم يحضر دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم زيد بن ثابت الانصارى فكتب له ، فكان أُبَيّ وزيد يكتبان الوحى بين يديه وكُتُبَهُ الى من يكاتب من الناس وما يُقْطِع وغير ذلك — وأول من كتب له من قريش عبد الله بن سعد بن أبى سرح ثم ارتد الخ »[1] ثم كتب له صلى الله عليه وسلم عثمان بن عفان وشُرَحبِيلُ بن حَسَنة وأَبَان بن سعيد وخالد بن سعيد والعلاء الحضرمى ومعاوية بن أبى سفيان ، ويروى الواقدى أن حنظلة بن الربيع كتب بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم مرة فسمى حنظلة الكاتب

وحتى هؤلاء الذين كانوا يكتبون الوحى لم يكونوا مهرة فى الكتابة ، ولا كتابتهم سائرة على نمط واحد ، ولا خاضعة لقوانين الاملاء ، فكتبوا « لا أذبحنه بزيادة ألف » ، وكذلك « لا أوضعوا » وكتبوا « بأييد » بياءين ، وكتبوا « امرأت فرعون » « وقرت عين لى ولك » بتاء مفتوحة ، وحذفوا الألفات من مواضع دون مواضع مع تساويهما فى نظر الاملاء ، وسبب ذلك كما يعلله ابن خلدون ضعفهم فى صناعة الخط ، وأنهم لم يبلغوا حد الاجادة فيها

أثر الاسلام فى الحركة العلمية — وجاء الاسلام فأفاد الحركة العلمية من وجوه

(الأول) ان نشر الدين كان يستتبع الحاجة الى القارئين الكاتبين فقد كانت آيات القرآن تكتب ويتلوها من يعرف القراءة على من لم يعرف ، وقد جاء فى حديث اسلام عمر أنه « عمد الى أخته وخَتَنِهِ وعندهما خَبَّاب ابن الأَرَتّ

---

(١) ص ٤٧٣

معه صحيفة فيها « طه » يقرئهما اياها » فكان طبيعياً أن يشجع النبى صلى الله عليه وسلم على تعلم الكتابة ، وقد ورد أنه فى غزوة بدر « كان فداء بعض الأسرى الذين يكتبون أن يعلموا عشرة من صبيان المدينة الكتابة » ، ورأى بعض المسلمين أنهم فى حاجة الى الكتابة ليعرفوا دينهم على الوجه الأكمل

بل حث النبى صلى الله عليه وسلم بعض أصحابه أن يتعلموا لغة غير اللغة العربية لما دعت الحاجة الى ذلك بعد انتشار الاسلام ، ففى « البخارى » عن زيد بن ثابت قال أُتِىَ بى النبىّ صلى الله عليه وسلم مَقْدَمَه المدينة ، فقيل هذا من بنى النجار وقد قرأ سبع عشرة سورة ، فقرأتُ عليه فأعجبه ذلك ، فقال تَعَلَّمْ كِتَابَ (كتابة) يهود فانى ما آمَنُهم على كتابى ، ففعلتُ فما مضى لى نصف شهر حتى حَذِقْتُهُ ، فكنت أكتب له اليهم ، واذا كتبوا اليه قرأت له » وفى حديث آخر « عن زيد بن ثابت قال قال لى النبى صلى الله عليه وسلم انى أكتب الى قوم فأخاف أن يزيدوا علىّ أو ينقصوا ، فَتَعَلَّمِ السريانية ، فتعلمتها فى سبعة عشر يوماً »

ولما فتحت البلاد كان العنصر العربى هو العنصر الحاكم ، فكان لا بد له أن يتعلم وأن يقرأ ويكتب ، فكثرت القراءة والكتابة وخاصة فى عهد التابعين

كذلك هؤلاء الداخلون فى الاسلام من غير العرب اضطروا الى تعلم العربية لدينهم ولدنياهم ، حتى اضطروا أن يتعلموا النحو لاصلاح لغتهم كما نقلنا ذلك عن أبى عبيدة

أضف الى ذلك أن الفتح الاسلامى استتبع الحضارة ، فبنيت فى عهد عثمان ومن بعده الدور والقصور وشيدت بالكلس ، وجعلت أبوابها من الساج ، واقتنى كثير من الصحابة الأموال والجنان والعيون ، كالزبير بن العوام وعبد الرحمن بن

عوف وسعد بن أبى وَقَّاص والْمِقْدَاد ، وهذا من غير شك يستتبع رقى الصناعة ومنها الكتابة

(الثانى) مما أثر به الاسلام فى الحركة العلمية انه نشر بين العرب كثيراً من التعاليم التى أبناها من قبل ، فرفعت مستويهم العقلى ، كما نشر بينهم كثيراً من أحوال الأمم الأخرى وتاريخها باطناب أحياناً وبايجاز أحياناً حسبما يدعو اليه موقف العِظَة ، فقص علينا قصة آدم ونوح وابراهيم ويوسف وموسى ويونس وداود وسليمان وغيرهم عليهم السلام وشيئاً من أخبار أممهم فى أسلوب جذاب هيج النفوس الى الاستزادة وتعرف ما عند الأمم الأخرى منها — كاليهود والنصارى — فكان فى ذلك نوع من الثقافة أفاد المسلمين ووسع مداركهم

ثم شرع أحكاماً فى الزواج والطلاق والشؤون المدنية والجنائية كانت قانوناً نظّم أمور المسلمين فى معيشتهم الاجتماعية والاقتصادية ، واتخذه الفقهاء والمشرعون مرجعهم يستنبطون منه الأحكام ، ويستهدونه فيما يعرض من حوادث جديدة خلقتها مدنيتهم ، فكان ذلك أساساً لحركة تشريعية واسعة نعرض لوصفها فيما بعدُ

ذلك عدا ما له من أثر لغوى ولسانى موضعه قسم آخر من الكتاب

(الثالث) وشىء آخر للاسلام كان له أثر كبير فى الحياة العقلية وهو أنه سلك فى دعوته الى الايمان بالله وصفاته من علم وقدرة ووحدانية مسلكا يثير العقل وهو الدعوة الى النظر الى ما فى العالم من ظواهر « أَوَ لَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللهُ مِنْ شَيْءٍ » « فَلْيَنْظُرِ الإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ » « فَلْيَنظُرِ الإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ ، أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ، ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقًّا فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ، وعِنَبًا وَقَضْبًا ، وَزَيْتُونًا وَنَخْلاً ، وَحَدَائِقَ غُلْبًا ، وَفَاكِهَةً وَأَبًّا مَتَاعًا لَكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ » « لاَ الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلاَ

اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ » « إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ، الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللّٰهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ، رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هٰذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ » « وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ » الى كثير من أمثال هذا

هذا الضرب من الآيات بعث العقل على النظر فى الكون وكان له أثر فى نمو الحياة العقلية

ولعل هذا أعنى النظر فى الكون للاستدلال منه على الله وصفاته هو الذى كان يطلق عليه القرآن الحكمة — فقد قال تعالى « وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ » ونحن اذا قرأنا ما ورد فى القرآن من أقوال لقمان وجدناها من هذا النوع ، وقال « يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً » وسمى موضع العظة حكمة « وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِي النُّذُرُ » وسمّى ما أوحى الله به الى محمد حكمة لهذا فقال « ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ » الخ وقد سئل مالك ما الحكمة قال المعرفة بالدين والفقه فيه والاتباع له[1]

وكذلك لفظ العلم فالقرآن لم يستعمل الكلمة بالمعنى الذى استعمل بعدُ حين تقول « علم النحو » أو « علم الفقه » وهو ما يقابل كلمة Science وانما استعمله — على مايظهر — بمعنى المعرفة بأوسع معانيها « وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ » « وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً »

وهو بهذا المعنى يطلق حتى على المعارف الدنيوية كما ورد على لسان قارون «قَالَ

---

(١) ويفسر الطبرى الحكمة بالاصابة فى القول والفعل

إِنَّمَا أُوتِيتُهُ (أى المال) عَلَى عِلْمٍ عِنْدِى) أى معرفة بطرق كسب المال ،ولكن أكثر ما تستعمل فى هذا النوع من المعرفة الذى يوصل الى الهداية كأنه هو المعرفة التى يعتد الله بها ، فهو فى هذا قريب من معنى الحكمة الذى ذكرنا « إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاء » « وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْماً » « وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءهُمْ بَعْدَ الَّذِى جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ مَالَكَ مِنَ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ » الخ

وصف الحركات العلمية وأشهر القائمين بها — اذا نظرنا الى الحركات العلمية فى صدر الاسلام الى آخر الدولة الأموية — وجدناها اتجهت ثلاثة اتجاهات حركة دينية ونعنى بها البحث فى الشؤون الدينية من تفسير للقرآن وحديث وتشريع وما الى ذلك ، وحركة فى التاريخ والقصص والسِّيَر ونحوها ، وحركة فلسفية فى منطق وكيمياء وطب وما اليها — ونعيد هنا ما ذكرنا قبل من أنا اذا قلنا حركة علمية فلسنا نعنى علوماً منظمة لها أبواب وفصول فذلك ما لم يصل اليه هذا العصر ، وانما نعنى النواة التى تكونت حولها العلوم بعد وسنصف هذه الحركات الثلاث وصفاً اجمالياً

الحركة الدينية — كانت هذه الحركة أكبر الحركات وأوسعها نطاقاً ، فقد أقبل الناس على القرآن يفهمون معانيه ، ويفسرون آياته ، ويستنبطون منه الأحكام وكذلك فعلوا فى الحديث

وقد بدأت هذه الحركة فى حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم أخذت فى الاتساع بعده وقامْ أصحابه بقسط وافر منها

وبديهى أن أصحاب رسول الله كانوا مختلفين اختلافاً كبيراً فى درجتهم العلمية كاختلافهم فى الفضائل الأخرى ، فكان بعضهم أشجع من بعض ، وبعضهم أكرم من بعض ، كذلك كان بعضهم أعلم من بعض ، جاء فى الحديث « أن

رسول الله قال « ان مَثَل ما بعثنى به الله من الهُدَى والعلم كمثل غيث أصاب أرضاً فكان منها طائفة طيبة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعُشْبَ الكثير، وكان منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله تعالى بها الناس فشربوا منها وسقوا وزرعوا ، وأصاب طائفةً منها أخرى انما هى قِيعَان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأً الخ »[١]

ويقول مسروق (وهو من التابعين) لقد جالست أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم فوجدتهم كالإخَاذِ[٢] فالاخاذ يُرْوِى الرجل والاخاذ يروى الرجلين والاخاذ يروى العشرة والاخاذ يروى المائة والاخاذ لو نزل به أهل الأرض لأصدرهم »[٣]

واشتهر من الصحابة ستة أو سبعة عُدُّوا الطبقة الأولى فى العلم ، يختلف العادون فى بعضهم فيضعون واحداً مكان آخر وهم عمر وعلىّ وابن مسعود وابن عمر وابن عباس وزيد بن ثابت وعائشة — وهؤلاء كلهم من قريش ، ما عدا ابن مسعود فانه هُذَلى ، وزيد بن ثابت فهو من الأنصار ، ويقول مسروق « شامَمْتُ أصحاب رسول الله[٤] فوجدت علمهم انتهى الى ستة الى عمر وعلىّ وعبد الله (ابن مسعود) ومُعَاذ وأبى الدَّرْدَاء وزيد بن ثابت فشاممت هؤلاء الستة فوجدت علمهم انتهى الى علىّ وعبد الله »[٥] وروى يزيد بن عُمَيْرَة السَّكْسَكِى وكان تلميذاً لمعاذ بن جبل « أنه لما حضرت الوفاة معاذاً أمره أن يطلب العلم من أربعة عبد الله بن مسعود وعبد الله بن سَلَام وسلمان الفارسى وأبى الدرداء » — فترى من هذا اختلافهم فيمن هو الأعلم ، واختلاف النظر فى هذا طبيعى فى كل عصر وكل أمة

وعلى كل حال فقد عُدَّ بضعة من الصحابة هم الطبقة الأولى فى العلم ، وعد عشرون من الطبقة الثانية ، ونحو مائة وعشرين من الطبقة الثالثة[٦] ويطول بنا القول لو

---

(١) أخرجه البخارى ومسلم

(٢) الاخاذ الغدير

(٣) طبقات ابن سعد جزء ٢ ص ١٠٤

(٤) شامت الرجل قاربته لأتعرف ما عنده

(٥) الطبقات جزء ٢ ص ١١٠

(٦) الاصابة جزء ١ ص ٩

عددنا أسماءهم و بَيَّنا نسبهم

ونحن اذا ألقينا نظرة على الطبقة الأولى منهم بعد قراءة تاريخهم العلمى وجدنا شخصياتهم العلمية مختلفة : فعمر بن الخطاب — مثلا — لا نجد له كثيراً من الأقوال فى تفسير القرآن ، كما لا نجده مكثراً فى جمع الحديث ، ولكن ميزته الكبرى على ما يظهر لنا قوته الفطرية فى الحكم على الأشياء ، واصابته فى معرفة العدل والظلم ، وخبرته الواسعة بالعالم الذى يحيط به ، « يقول أبو ذر سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « ان الله وضع الحق على لسان عمر يقول به »

وهذه الميزة تفسر لنا بوضوح مواضع كفايته ، فعقله عقل قضائى ، كان يفتى الناس حتى فى حياة رسول الله ، ورويت عنه أحكام كثيرة فى مشكلات المسائل ، وفراسته فى الناس وفيمن يوليه الاعمال فراسة فى منتهى الصدق جاء فى العقد الفريد « كان عبد الله بن عباس من أحب الناس الى عمر بن الخطاب ، وكان يقدمه على الأكابر من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم — ولم يستعمله قط ، فقال له يوماً كدت أستعملك ولكن أخشى أن تستحل الفىء على التأويل ، فلما صار الأمر الى علىّ استعمله على البصرة فاستحل الفىء على تأويل قول الله تعالى « وَاعْلَمُوا أَنَّ مَاغَنِمْتُمْ مِنْ شَىْءٍ فَأَنَّ لِلهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى الْقُرْبَى » — كذلك ادارته للمملكة الاسلامية على سعتها ومواجهته لأمور عظام نشأت عن الفتح لم تكن فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ولا أبى بكر تحتاج الى عقل كبير فى تصريفها والتشريع لها — كل هذا ونجاحه فيه يجعلنا — من غير شك نقرأ فى عمر سعة العلم ، ويجعلنا نتصور نوع العلم الذى كان به ممتازاً

على العكس من ذلك نرى ابنه عبد الله ، وهو أحد علماء الصحابة ، فهو يعطينا صورة علمية غير صورة عمر ، جمّاع للحديث ، يتلمسه حيث كان ، و يتحرى

ألفاظ النبى صلى الله عليه وسلم بدقة يقول أبو جعفر « لم يكن أحد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا سمع من رسول الله حديثاً أجدر أن لا يزيد فيه ولا ينقص منه ولا، ولا، من عبدالله بن عمر بن الخطاب ولكنه كما قال الشعبى « كان جيد الحديث ولم يكن جيد الفقه »(١)، حمله الورع والخوف من الله ألا يكثر من الفتوى وألا يدخل فى شىء من الفتن ، يقول ابن الأثير « وكان ابن عمر شديد الاحتياط والتوقى لدينه فى الفتوى وكل ما تأخذه به نفسه ، حتى أنه ترك المنازعة فى الخلافة مع كثرة ميل أهل الشام اليه ومحبتهم له ، ولم يقاتل فى شىء من الفتن ، ولم يشهد مع علىّ شيئاً من حروبه »(٢) كما اشتهر بأنه ثقة فى روا ية الحوادث التاريخية التى وقعت فى صدر الاسلام ، لاتصاله برسول الله صلى الله عليه وسلم والخلفاء من بعده واهتمامه بتعرّفها ، فترى من هذا أن شخصيته العلمية كانت كثرة الجمع ودقة النقل ، لا كثرة الاستنباط ، ولا وفرة الفتوى

ونموذج آخر نراه فى عبد الله ابن عباس ، كما تصوره لنا كتب السير والتفسير فقد كان واسع الاطلاع فى نواح مختلفة ، يعرف الشعر والأنساب وأيام العرب ، ويجتهد فى تعرف ماعند الصحابة من حديث وعلم ، يقول « وجدت عامة حديث رسول الله عند الأنصار ، فان كنت لآتى الرجل فأجده نائماً لو شئت أن يُوقَظَ لِي لأُوقِظَ ، فأجلسُ على بابه تَسْفِي على وجهى الريح حتى يستيقظَ متى ما استَيْقَظَ ، وأسأله عما أريد ثم أنصرف » كذلك كان يعلم ماورد فى تفسير القرآن وأسباب نزوله وحساب الفرائض والمغازى ، ويعرف شيئاً من الكتب الأخرى كالتوراة والانجيل — وكانت أكثر حياته حياة علمية يتعلم ويُعَلّم ، لم يشتغل بالامارة الا قليلا لما استعمله علىّ على البصرة ، وعُمّر طويلا فقد مات نحو سنة ٧٠ هـ عن نحو سبعين

(١) طبقات ابن سعد جزء ٢ ص ١٢٥

(٢) أسد الغابة جزء ٣ ص ٢٢٨

عاماً وكان عبد الله بن عمر يتهمه بالجرأة فى تفسير القرآن ثم عدل عن ذلك [١]

فترى من هذا صورة أخرى غير السابقتين ، ترى فيها ضرباً من تخصيص الحياة للعلم وضرباً من سعة الاطلاع فى نواح علمية مختلفة — نعم قد أحيط اسمه ببعض المبالغات — على ما يظهر — نشأت فى الدولة العباسية لمّا كان جدّ الخلفاء العباسيين ، ولكنّ لهذه المبالغات أساسا صحيحاً من سعة العلم وقوة الحجة، وأكثر ما اشتهر به أقواله فى تفسير القرآن

وشخصية رابعة هى أصعب ما يكون تصويراً ، دخلها من المبالغات والأكاذيب ما وقف المؤرخ حائراً ، تلك هى شخصية على ابن أبى طالب — فليس هناك من الشخصيات فى ذلك العصر ما دار حوله الجدل ، وأفرط فيه المحبون والكارهون ، واختلق حوله المختلقون ، وتأسست من أجله المذاهب الدينية ، كالذى كان لشخصية علىّ ، فقد رووا عنه ٦٨٦ حديثاً مسنداً الى رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يصح منها الا نحو خمسين [٢] ونسبوا اليه ديوان شعر ، ويقول المازنى انه لم يصح أنه تكلم بشىء من الشعر غير بيتين

تِلْكُمْ قُرَيْشٌ تَمَنَّانِى لِتَقْتُلَنِى ... فَلاَ وَرَبِّكَ مَا بَرُّوا وَلاَ ظَفِرُوا
فَإِنْ هَلَكْتُ فَرَهْنٌ ذِمَّتِى لَهُمُ ... بِذَاتِ وَدْقَيْنِ لاَ يَعْفُو لَهَا أَثَرُ [٣]

ونسبوا اليه ما فى نهج البلاغة ، وهو يشتمل على كثير من الخطب والأدعية والكتب والمواعظ والحكم ، وقد شك فى مجموعها النقاد قديما وحديثا كالصَّفَدِى وهوار Huart [٤]، واستوجب هذا الشك أمور ، ما فى بعضه من سجع منمق ، وصناعة لفظية ، لا تعرف لذلك العصر ، كقوله « أكرم عشيرتك فانهم جناحك

---

(١) انظر الاتقان جزء ٢
(٢) الفصل فى الملل والنحل لابن حزم جزء ٤ ص ١٣٧
(٣) ذات ودقين الداهية
(٤) فى كتابه الادب العربى

الذى به تطير ، وأصلك الذى اليه تصير » وما فيه من تعبيرات انما حدثت بعد أن نقلت الفلسفة اليونانية الى العربية ، و بعد أن دونت العلوم ، كقوله «الاستغفار على ستة معان ، والايمان على أربع دعائم » وكالذى فيه من وصف الدار وتحديده بحدود هى أشبه بتحديد الموثّقين ، كقوله « وتجمع هذه الدار حدود أربعة ، الحد الأول ينتهى الى دواعى الآفات» الخ هذا الى ما فيه من معان دقيقة منمقة على أسلوب لم يعرف الا فى العصر العباسى كما ترى فى وصف الطاووس — كما نسبوا اليه كتاباً فى الجَفْر يذكر فيها الحوادث التى تحدث الى انقراض العالم، وحكايته مع أبى الأسود الدؤلى فى وضع النحو معروفة مشهورة — كل هذا يجعل من العسير على المؤرخ الناقد وصف شخصيته العلمية وصفا يطمئن اليه ، أىّ ما فى نهج البلاغة لعلىّ وأيها ليس له؟ وأى ماروى عنه من الحكم والأمثال له وأيها ليس له ؟ وأى الأحاديث وما صدر عنه من الأحكام وما استشاره فيه الخلفاء من الشؤون يصح عنه وأيها لا يصح ؟ كل هذه الأشياء لا تزال مجالا للبحث

وعلى كل حال اذا نحن رجعنا الى كتب السِّير الموثوق بها كطبقات ابن سعد . نرى أنه كان كذلك ذا عقل قضائى ، فقد ولاه رسول الله صلى الله عليه وسلم قضاء اليمن ، وله آراء ثبتت صحتها فى مشاكل قضائية عديدة ، حتى قيل فيه « قضية ولا أبا حسن لها » وحكى علقمة عن عبد الله قال « كنا نتحدث أن من أقضى أهل المدينة علىّ » وفوق هذا كان يهتم بالقرآن يعرف معانيه وفيم نزل حتى « زعموا أنه كتبه على تنزيله » [1] وهو فى هذا كان أستاذاً لعبد الله بن عباس أخذ عنه كثيراً ، ويقارنون بينهما فيقولون « ان عبد الله ابن عباس كان أعلمهما بالقرآن ،

---

(١) طبقات ابن سعد جزء ٢ — القسم الثانى — ص ١٠١

وكان عليّ أعلمهما بالمبهمات »[1]

ويطول بنا القول لو وصفنا الميزة العلمية لكل من مشهوري الصحابة ، أمثال عبد الله بن مسعود وزيد بن ثابت وأبي الدرداء ومُعاذ بن جبَل وأبي ذرّ وأبي موسى الأشعري ولكن يمكننا أن نقول اجمالا أن الشخصيات السابقة تبين أشهر النواحي العلمية ، وهؤلاء الذين سمينا يشاكلونهم فيها أو بعضها . رُوِي عن أبي البَخْتَري أنه قال « أتينا علياً فسألناه عن أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم فقال عن أيهم ؟ قال قلنا حدثنا عن عبد الله بن مسعود ، قال عَلِمَ القرآن والسنة ثم انتهى ، وكفى بذلك علماً ، قلنا حدثنا عن أبي موسى قال صُبِغَ في العلم صبغة ثم خرج منه ، قال قلنا حدثنا عن عمّار بن ياسر ، فقال مؤمن نسي واذا ذُكِّر ذَكَر ، قال قلنا حدثنا عن حذيفة فقال أعلم أصحاب محمد بالمنافقين ، قال قلنا حدثنا عن أبي ذر قال وعى علماً ثم عَجَز فيه ، قال قلنا أخبرنا عن سلمان قال أدرك العلم الأول والعلم الآخر بحر لا يُنْزَح قعرُه ، منا أهلَ البيت ، قال قلنا فأخبرنا عن نفسك يا أمير المؤمنين ، قال اياها أردتم كنت اذا سألْتُ أُعْطِيتُ واذا سكتُّ ابْتُدِئْتُ »[2] ولكن لا بأس أن نذكر كلمة عن عالمين لكل منهما ناحية خاصة في العلم ، وهما عبد الله بن سلاَم وسلمان

فأما عبد الله فكان يهودياً ، ويظهر أنه كان مثقفاً بالثقافة اليهودية ، فقد عده المفسرون في أوائل الذين قال الله فيهم « أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ » أسلم على أثر هجرة الرسول الى المدينة (على أحد الأقوال) ، وصحب عمر في سفره الى الشام ، ووقف خطيباً في المتألبين على عثمان يدافع عنه ويخذّل الثائرين ، ومات نحو سنة ٤٠ هـ واشتهر بين الصحابة بالعلم حتى رأيتَ أن مُعاذاً عده رابع أربعة

---

(١) المصدر نفسه ص ١٢١
(٢) يريد اذا سألت النبي أجابني واذا سكت بدأ يسألني ليفيدني

يُطلب عندهم العلم ، ونقل المسلمون عنه كثيراً تدل على علمه بالتوراة وما حولها ، وتجمّع حول اسمه كثير من الاسرائيليات ، ونقل عنه الحديث أبو هريرة وأنس ابن مالك ، وينسب اليه ابن جرير الطبري في تاريخه كثيراً من الأقوال في المسائل التاريخية الدينية

وعلى كل حال فهو يمثل لنا ناحية خاصة دخل منها على المسلمين بعض أقوال التوراة وما اليها ، ولصق بعضها بتفسير القرآن وبالقَصَص ، وسنعرض لذلك بعدُ

أما سَلْمَان الفارسي — ان صح ما يروى محمد بن اسحاق — فانه تنقل في أديان مختلفة قبل أن يسلم ، كان مجوسياً مخلصاً للمجوسية (حتى كان قاطن النـار التى يوقدها أهله) ، ثم كان نصرانياً مخلصاً للنصرانية متصلا بأتقى رجالها ، ثم كان عبداً مملوكا ليهودى من بنى قُرَيْظَة (ولكنه لم يتهود) ثم أسلم فأخلص فى اسلامه — كذلك يروى أنه قبل أن يسلم تنقل فى بلاد كثيرة فهو من أصبهان (على رواية) ثم انتقل فى طلب النصرانيـة الى الشام ، ثم الى الموصل ثم الى نَصِيبِين ثم الى عَمُّورِيَة من أرض الروم ، ثم الى جزيرة العرب يطلب الاسلام فنزل بوادى القرى ، وهناك غدر به قوم من كَلْب فباعوه ، ثم انتهى الى المدينة فأسلم(١)

فترى من هذا أن قد كان له علم بديانات مختلفة ولعل هذا هو ما عناه علىّ ابن أبى طالب بقوله فيه « من لكم بمثل لقمان الحـكيم ، علم العلم الأوّل ، والعلم الآخِر ، وقرأ الكِتَاب الأول ، وقرأ الكتاب الآخر ، وكان بحراً لا يُنْزَف »

وتدلنا سيرته على أن نزعته الدينية كانت نزعة زهد وورع وقد مات بالمدائن فى خلافة عثمان

وقد اتخذه الفرس مَثَلَهُم — كما اتخذ مسلمو الحبشة بلالا ، والروم صُهَيْباً —

---

(١) تجد القصة بطولها فى طبقات ابن سعد فى المجلد الرابع ص ٥٣ وما بعدها

وفخرت به الشعوبية ، وربطه الشيعة بعليّ والحسن والحسين ، وعده الصوفية أحد مؤسسيها ، وبالغ فيه الفرس كثيراً ، ونسبوا اليه كثيراً

***

وهذا القدر يكفينا فى الدلالة على أنه كان بين الصحابة حركة علمية ، وان هذه الحركة أكثرها دينى ، وأنه كان لها نواح مختلفة وشخصيات مختلفة

هؤلاء العلماء وأمثالهم من الصحابة تفرقوا فى المملكة الاسلامية — فى جميع أنحائها ، وان شئت فقل وُزِّعوا على الأمصار قصداً الى تعليمها ، فعل ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مدن جزيرة العرب ، فأرسل الى اليمن والى البحرين والى مكة بعد فتحها — وكذلك فعل عمر بن الخطاب عند ما اتسعت الفتوح وكثرت الأمصار ، عن سالم بن عبد الله قال : كنا مع ابن عمر يوم مات زيد بن ثابت فقلت مات عالم الناس اليوم ، فقال ابن عمر يرحمه الله اليوم ، فقد كان عالمَ الناس وحبرها ، فرقهم عمر فى البلدان [٢]

وعن عمر بن الخطاب أنه قال حين خرج معاذ بن جبل الى الشام لقد أخل خروجه بالمدينة وأهلها فى الفقه وما كان يفتيهم به ، ولقد كنت كلمت أبا بكر رحمه الله أن يحبسه لحاجة الناس اليه فأبى عليَّ ، وقال رجل أراد جهاداً يريد الشهادة فلا أحبسه فقلت والله ان الرجل ليرزَق الشهادة وهو على فراشه الخ » — وكتب عمر الى أهل الكوفة انى بعثت اليكم بعبد الله بن مسعود معلِّماً ووزيراً ، وآثرتكم به على نفسى فخذوا عنه ، فقدم الكوفة ونزلها وابتنى بها داراً الى جانب المسجد » الى كثير من أمثال ذلك

هؤلاء الصحابة العلماء الذين تفرقوا فى الامصار أنشأوا حركة علمية فى كل مصر

(١) المصدر نفسه ص ٦١ (٢) المصدر نفسه مجلد ٢ قسم ٢ ص ١١٧

نزلوه وكونوا مدارس [١] وكان لهم تلاميذ ينقلون عنهم العلم، فتخرج عليهم التابعون ثم تابعوهم مما سنعرض له عند الكلام على مراكز الحركة العقلية

وعندئذ دخل عنصر الموالى وأولادهم فى الحركة العلمية ، واتسع نطاقها فكان منهم كثير من سادة التابعين وتابعى التابعين

الموالى والعلم — كان سكان البلاد كما علمنا يتكونون من عنصرين : عنصر عربى ، وهو العنصر الفاتح ، وعنصر أعجمى ، وكان أكثر حملة العلم فى عصر الصحابة العرب ، لأن أكثر الصحابة عرب ، فلما أخذ علماء الصحابة يعلّمون فى الأمصار المفتوحة ، اشترك العرب والعجم فى تلقى العلم عنهم ، حتى اذا كان عصر التابعين وتابعيهم كان بعض حملة العلم عرباً وأكثرهم من الموالى أو أبناء الموالى ويقول ابن خلدون فى تعليل هذا « والسبب فى ذلك أن الملة فى أولها لم يكن فيها علم ولا صناعة ، لمقتضى أحوال السذاجة والبداوة ، وانما أحكام الشريعة التى هى أوامر الله ونواهيه كان الرجال ينقلونها فى صدورهم ، وقد عرفوا مأخذها من الكتاب والسنة بما تلقوه من صاحب الشرع وأصحابه ، والقوم يومئذ عرب لم يعرفوا أمر التعليم والتأليف والتدوين ولا دفعوا اليه ، ولا دعتهم اليه حاجة ، وجرى الأمر على ذلك زمن الصحابة والتابعين ، وكان يسمون المختصين بحمل ذلك ونقله القُرّاء أى الذين يقرءون الكِتَاب وليسوا أميين لأن الأمية يومئذ صفة عامة فى الصحابة ، بما كانوا عربا ، فقيل لحملة القرآن يومئذ قراء ، . . . . ثم صارت هذه العلوم كلها ملكات محتاجة الى التعليم ، فاندرجت فى جملة الصنائع ، وقد كنا قدمنا أن الصنائع من منتحل الحضر ، وأن العرب أبعد الناس عنها فصارت العلوم لذلك حضرية ، وبعد عنها العرب ، والحضر لذلك العهد هم العجم أو من فى معناهم من الموالى وأهل

(١) نستعمل المدرسة هنا بمعناها الواسع ونعنى بها دائرة الحركة العلمية لا البناء الخاص بالتعليم

الحواضر . . . لأنهم أقوم على ذلك للحضارة الراسخة فيهم منذ دولة الفرس . . . فكان صاحب صناعة النحو سيبويه والفارسيّ من بعده والزجاجَ من بعدهما ، وكلهم عجم فى أنسابهم ، . . . وكذا حملة الحديث وعلماء أصول الفقه ، وحملة علم الكلام وأكثر المفسرين ، ولم يقم بحفظ العلم وتدوينه الا الاعاجم ، أما العرب الذين أدركوا هذه الحضارة وسوقها فشغلتهم الرياسة فى الدولة العباسية » اه مختصراً

وهو وان كان يتكلم عن عصر التدوين ، ويعنى به على مايظهر العصر العباسى فعلته كذلك صحيحة فى العصر الاموى ، عصر التابعين ومن بعدهم ، الا أنه تغالى فى نظريته وسلب العرب ما كان لهم من حظ فى المشاركة فى العلوم

كان فى العصر الأموى عرب من أشهر العلماء كسَعِيد بن المُسَيِّب وَعَلْقَمَة وشُرَيْح ومسروق والنَّخَعِّى وغيرهم ، ولكن الاكثرين كانوا موالى أو فى حكمهم — فكان فى المدينة سُلَيْمان بن يَسَار ، وكان من أعلم الناس وأفقههم وأبوه مولى ميمونة زوج النبى صلى الله عليه وسلم — ونافع مولى عبد الله بن عمر والذى روى عنه أكثر أحاديثه ، وأصله من الدَّيْلَم ، — ورَبِيعَةُ الرَّأْيِ وهو شيخ الامام مالك وأبوه فرُّوخ من الموالى

ومن علماء مكة مُجَاهِدُ بن جَبْر ، وكان مولىً لبنى مَخْزُوم ، وهو من أكثر رواة التفسير عن ابن عباس — وعِكْرِمة مولى ابن عباس والذى روى عنه أكثر علمه — وعطاء بن أبى رَبَاح مَوْلى بنى فهر من مولَّدى الجَنَدْ [1] وكان أسود — وأبو الزبير محمد بن مسلم بن تَدْرُس مولى حكيم بن حزام وكان من أحفظ الناس للحديث

واشتهر من علماء أهل الكوفة سَعِيد بن جُبَيْر ، مولى بنى وَالبَة وكان أسود

---

(١) الجند بليدة باليمن

— واشتهر بالبصرة الحسن بن يسار ، مولى زيد بن ثابت — ومحمد بن سيرين وكان أبوه من سبي مَيْسَان ، وأمه صفية مولاة أبي بكر الصديق ، وهو من فقهاء البصرة وكذلك الحسن البصرى وكان أبوه أيضا من سبي مَيْسان

واشتهر من أهل الشام مَكْحُول بن عبد الله ، وهو معلم الأوْزَاعى ، وأبوه من أهل هَرَاة ، وأمه ابنة لملك من ملوك كَابُل

واشتهر فى مصر

يزيد بن حبيب مولى الأزْد ، كان مفتى أهل مصر ، وعنه أخذ الليث بن سعد وكان يزيد بربرى الاصل ، أبوه من أهل دنقله (١)

وهناك غير هؤلاء كثير من العلماء من أبوين عربى وعجمى كالذى رأيت من حكاية سالم بن عبد الله بن عمر الخطاب ، والقاسم بن محمد بن أبى بكر ، وعلى ابن الحسين بن على بن أبى طالب المعروف بزين العابدين ، فان الزمخشرى يروى أن أمهاتهم بنات يَزْدَجِرْد ، وكالشعبى علاّمة التابعين فان أباه عربى وأمه من سبي جَلُولاَء

ويطول بنا القول لو أنا أحصينا من كان من علماء هذا العصر من العرب ومن كان من الموالى ، ولكن نظرة فى أنسابهم عامة تدلنا على أن أكثرهم موال جاء فى العقد الفريد « وقال ابن أبى ليلى قال لى عيسى بن موسى وكان دَيَّانًا شديد العصبية (أى للعرب) من كان فقيه البصرة ؟ قلت الحسن بن أبى الحسن قال ثم من ؟ قلت محمد بن سيرين ، قال فما هما ؟ قلت موليان ، قال فمن كان فقيه مكة ؟ قلت عطاء بن أبى رباح ومجاهد وسعيد بن جبير وسليمان بن يسار ، قال فما هؤلاء ؟ قلت موال ، قال فمن فقهاء المدينة ؟ قلت زيد بن أسلم ومحمد بن

---

(١) رجعنا فى نسب هؤلاء ومحل اقامتهم الى ابن خلكان وأعلام الموقعين وطبقات ابن سعد

المنكدر ونافع بن أبي نجيح ، قال فما هؤلاء ؟ قلت موال ، فتغير لونه ثم قال فمن أفقه أهل قُبَاء ؟ قلت ربيعة الرأى وابن أبي الزناد ، قال فما كانا ؟ قلت من الموالى ، فَارْبَدَّ وجهه ، ثم قال فمن فقيه اليمن ؟ قلت طاووس وابنه وابن منبه ، قال فما هؤلاء ؟ قلت من الموالى ، فانتفخت أوداجه وانتصب قاعداً ، قال فمن كان فقيه خراسان ؟ قلت عطاء بن عبد الله الخراسانى ، قال فما كان عطاء هذا ؟ قلت مولى ، فازداد وجهه تَرَبُّداً واسود اسوداداً حتى خفته ، ثم قال فمن كان فقيه الشام ؟ قلت مكحول ، قال فما كان مكحول هذا ؟ قلت مولى ، قال فتنفس الصُّعَدَاء ، ثم قال فمن كان فقيه الكوفة ؟ قلت فوالله لولا خوفه لقلت الحكم بن عتبة وعمار بن أبي سليمان ، ولكن رأيت فيه الشر ، فقلت ابراهيم (النخعى) والشعبى ، قال فما كانا ؟ قلت عربيان ، قال الله أكبر ، وسكن جأشه

ونظير هذا ما جاء فى معجم ياقوت فى مادة خراسان « قال عبد الرحمن ابن زيد بن أسلم لما مات العبادلة عبد الله بن عباس وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن عمرو بن العاص صار الفقه فى جميع البلدان الى الموالى ، فصار فقيه أهل مكة عطاء ابن أبي رباح ، وفقيه اهل اليمن طاووس ، وفقيه أهل اليمامة يحيى بن كثير ، وفقيه أهل البصرة الحسن البصرى ، وفقيه أهل الكوفة النخعى[1] وفقيه أهل الشام مكحول وفقيه أهل خراسان عطاء الخراسانى ، الا المدينة فان الله تعالى خصها بقرشى فكان فقيه أهل المدينة غير مدافَع سعيد بن المسيب »

وهناك قصص أخرى كثيرة كهذه لا تخلو من نزعة شعوبية ولكن أساسها صحيح وهو أن أكثر العلماء من الموالى — ولذلك سبب آخر غير الذى ذكره ابن خلدون — وهو أن الصحابة كما علمت — استكثروا من الموالى يستخدمونهم

(١) هكذا ورد وهو يدل على أن النخعى من الموالى ، والذى فى ابن خلكان أنه من النخع وهى قبيلة كبيرة من مذحج باليمن وأمه كذلك نخعية ، وقيل فى نسبه غير ذلك وهذا هو الصحيح

فى بيوتهم وفى أعمالهم ، فاذا كان الصحابى تاجراً فمواليه أعوانه فى التجارة ، واذا كان عالماً كانت مواليه تلاميذه وأعوانه فى العلم ، ومتى كان عندهم حسن استعداد نبغوا فيه بحكم مخالطتهم لسادتهم فى السر والعلن ، وملازمتهم لهم فى الاقامة والسفر ، ودليلنا على ذلك نافع مولى عبد الله بن عمر ، فقد أخذ عنه أكثر علمه ، ويسمى المحدثون رواية الشافعى عن مالك عن نافع عن ابن عمر سلسلة الذهب — وعكرمة مولى بن عباس ؛ فقد مات عبد الله بن عباس وعكرمة على الرق ، فباعه ولده على ابن عبد الله بن عباس من خالد بن يزيد بن معاوية بأربعة آلاف دينار ، فأتى عكرمة مولاه علياً فقال له ما خير لك ، بعتَ علم أبيك بأربعة آلاف ، فاستقاله فأقاله فأعتقه — الى غير ذلك من الأمثلة

وسيأتى الكلام على الحركة الدينية بشىء من التفصيل فى الباب الآتى

(الحركة الثانية) حركة تاريخية ، ولسنا نعنى بها حركة تأليف الكتب التاريخية ، وانما نعنى ما انتشر فى المملكة الاسلامية فى هذا العهد من أخبار الأمم الماضية والأجيال الغابرة ، والأحداث التى كانت فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم والخلفاء من بعده ، ونظرة فيما روى فى ذلك العصر تبين أنها كانت حركة واسعة ، وأنها كانت الأساس الذى بنيت عليه المؤلفات التى ألفت بعد ككتب ابن اسحاق وابن جرير وأمثالها ، يدل على ذلك أنك لو تتبعت فى ابن جرير الطبرى — مثلا — سلسلة روايته وجدت أن الرواة الثلاثة أو الاربعة الذين يتصلون بحياته كانوا فى العصر العباسى ، وهؤلاء يروون عمن قبلهم ممن كانوا فى عهد الأمويين أو الخلفاء الراشدين ، أعنى بذلك أن هذه الحوادث التاريخية التى دونت كانت معروفة فى عصرنا الذى نؤرخه ، وابن اسحاق وأمثاله انما رووا ما كان معروفاً وجمعوه

وقد نبعت هذه الحركة التاريخية من جملة مصادر

(أولها) شعور بعض الخلفاء بالحاجة فى سياسة الدولة الى تعرف أخبار الملوك فى الأمم الأخرى وسياستهم ونظامهم ، وهذا كان ضرورياً بعد أن اتسعت المملكة الاسلامية هذا الاتساع الكبير — كانت الحركة المالية فى جزيرة العرب قبل الفتح حركة ضعيفة لا تكفى لتسيير الحركة الكبيرة التى كانت بعد الفتح ، فكان لا بد من علم بطرق تحصيل الأموال وحفظها وصرفها ، وكذلك الشأن فى ادارة البلاد وتنظيمها وطرق حكمها ، فلجأ بعض خلفاء المسلمين الى الوقوف على ما كان من ذلك عند الأمم الأخرى ، كالذى روى المسعودى عن معاوية أنه بعد أن يفرغ من عمله « كان يستمر الى ثلث الليل فى أخبار العرب وأيامها ، والعجم وملوكها ، وسياستها لرعيتها وغير ذلك من أخبـار الأمم السالفة ، ثم تأتيه الطُّرَف الغريبة من عند نسائه من الحلوى وغيرها من المآكل اللطيفة ، ثم يدخل فينام ثلث الليل ، ثم يقوم فيقعد فيحضر الدفاتر فيها سير الملوك وأخبارها ، والحروب والمكايد ، فيقرأ ذلك عليه غلمان له مرتبون ، وقد وُكِلُوا بحفظها وقراءتها ، فتمر بسمعه كل ليلة جمل من الأخبار والسِّيَر والآثار وأنواع السياسات » اهـ ولا شك أنه تسرب بهذه الطريقة بعض المعلومات التاريخية الى الخاصة من المسلمين

(ثانيها) وهو أهم من الأول أن كثيراً من الشعوب المختلفة ذوات التـاريخ دخلت فى الاسلام ، فأخذوا يُدخلون تاريخ أممهم ويبثونه بين المسلمين ، اما عصبية لقومهم أو نحو ذلك ، فكثير من اليهود أسلم وهم يعلمون كثيراً من تاريخ اليهودية وأخبار الحوادث حسبما روت التوراة وشروحها ، فأخذوا يحدّثون المسلمين بها ، وهؤلاء ربطوها بتفسير القرآن أحياناً ، و بتاريخ الأمم الأخرى أحياناً ، ان شئت فاقرأ ما فى الجزء الأول من تاريخ الطبرى تجد منـه الشىء الكثير مثل « حدثنى المثنى بن ابراهيم قال حدثنا عبد الله بن صالح حدثنى أبو معشر عن سعيد بن أبى سعيد عن

عبد الله بن سلام أنه قال «ان الله بدأ بالخلق يوم الأحد ، فخلق الأرضين فى الأحد والاثنين ، وخلق الأقوات والرواسى فى الثلاثاء والأربعاء ، وخلق السموات فى الخميس والجمعة ، وفرغ فى آخر ساعة من يوم الجمعة ، فخلق فيها آدم على عجل ، فتلك الساعة التى تقوم فيها الساعة » وكثير من هذا النوع روى حول ما ورد فى القرآن من قصص الانبياء ، كذلك كان للفرس تاريخ وكان لهم أساطير ، فلما أسلموا رووا تاريخهم ، ورووا أساطيرهم ، وكذلك فعل النصارى فكانت هذه الروايات والأساطير عن الأمم المختلفة مبثوثة بين المسلمين ومصدراً من مصادر الحركة التاريخية عندهم وهذان النوعان هما بالقصص أشبه منهما بالتاريخ

(ثالثها) وهو أهمها ، أن المسلمين بدءوا من أول أمرهم يجمعون الحديث ، وفى الحديث مناح شتى من القول ، ففيه ما كان يفعله النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه من عبادات وتشريع فى المعاملات والجنايات ، وفيه أقوال للوعظ والارشاد ، وفيه قسم تاريخى لا يستهان به ، فأحاديث تتعلق بحياة النبى فى مكة وهجرته ، وحياته فى المدينة وغزواته ، وأعمال لأبى بكر وفتوحات عمر ونحو ذلك ، وكلها حوادث تاريخية نثرت فى الحديث ، وعنى بها بعض الصحابة كالذى رأيت فى عبدالله بن عمر — وكانت هذه الأحاديث التاريخية أساساً لما أُلّف بعد من كتب السِّيَر والمغازى ، فقد أُفْرِدت وأضيف اليها ما لم يُتَحر فيه تحرى ثقات المحدثين — والدليل على أن أصل هذه السير والمغازى هو الحديث ما تجده من وجوه شبه كبير فى الأسلوب وفى طريقة سرد الوقائع وحكايتها

وقد عنى المسلمون من العصر الأول بافراد ما يتعلق بالسير والمغازى فى كتب خاصة فقد روى أن وهب بن منبه (٣٤ — ١١٠ هـ) ألف كتاباً فى المغازى ، كما

---

(١) الطبرى جزء ١ ص ٢٤

رووا ان عروة بن الزبير بن العوام (٣٣ — ٩٤ هـ) وهو من أشهر فقهاء المدينة ومحدثيها كان أقدم من ألّف فى سيرة رسول الله، ومثله معاصره أبان بن عثمان بن عفان (٢٢ — ١٠٥ هـ) فقد جمع له تلميذه عبد الرحمن بن المغيرة (المتوفى قبل سنة ١٢٥ هـ) كتابه فى سيرة الرسول

كذلك رووا أن ابن شهاب الزهرى (٥١ — ١٢٤ هـ) جمع كتاباً فى المغازى ومثله موسى بن عقبة (المتوفى سنة ١٤١ هـ)[١]

ويظهر أن النمط الذى اتبع فى تأليف هذه الكتب كان جمع الأحاديث المتعلقة بالسيرة أو المغازى لا أكثر من ذلك ، وعلى الجملة فلعل هذا الباب كان أقرب من سابقيه الى معنى التاريخ

وكل ذلك يدلنا على ما ذكرت من انتشار حركة تاريخية واسعة وان لم تصبغ بالصبغة العلمية الدقيقة

القصص — ويتصل بهذا النوع ما يعرف فى ذلك العهد بالقَصَص — وقد استُحدث فى صدر الاسلام ، فقد رُوِى عن ابن شهاب أن « أول من قص فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم تَمِيمُ الدّارِىّ ، استأذن عمر أن يُذَكِّر الناس فأبى عليه ، حتى كان آخر ولايته فأذن له أن يُذَكِّر الناس فى يوم الجمعة قبل أن يخرج عمر ، فاستأذن تميم عثمان بن عفان فأذن له أن يُذَكِّر يومين فى الجمعة فكان تميم يفعل ذلك » وفى رواية أخرى عن الحسن أنه سئل متى أُحدث القصص ؟ قال فى خلافة عثمان فسئل من أول من قص ؟ قال تميم الدارى

وتميم هذا كان نصرانياً من نصارى اليمن أسْلَمَ فى سنة تسع من الهجرة وقد ذَكَر للنبى صلى الله عليه وسلم قصة الجَسَّاسة والدَّجَّال[٢] وكان يَتَرَهب حتى قال

---

(١) وقد عثر على قطعة من مغازى موسى طبعت سنة ١٩٠٤ م

(٢) الاصابة جزء «١» ص ١٩١ وحديث الجساسة فيما يذكرون أن تميما حدث أنه ركب

عنه أبو نعيم أنه راهب أهل عصره — وهى نزعة نصرانية بقيت عنده فى الاسلام ،
ويذكرون أيضاً أنه أول من أسرج السراج فى المسجد

وتكاد الروايات تتفق على أنه أول قاصّ ، ولم أقف على ما كان يقصه ، ولكن نظرة فى حديث الجساسة والدجال وفى أقوال له أخرى كثيرة منثورة كالذى روى أن رَوْح بن زِنْبَاع زار تميما الدارى فوجده يُنَقِّى شعيراً لفرسه وحوله أهله فقـال له روح أما كان فى هؤلاء من يكفيك ؟ قال بلى ولكنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول مامن امرئ مسلم يُنَقِّى لفرسه شعيراً ثم يعلقه عليه الا كتب الله له لكل حبة حسنة [1] تدلنا على عقليته ونوع قصصه ومنحاه فيما يَرْوِى

وصورة هذا القصص أن يجلس القاص فى المسجد وحوله الناس فيُذَكِّرهم بالله ويقص عليهم حكايات وأحاديث وقصصاً عن الأمم الأخرى وأساطير ونحو ذلك ، لا يعتمد فيها على الصدق بقدر ما يعتمد على الترغيب والترهيب ، قال الليث بن سعد « هما قصصان : قَصَص العامة وقصص الخاصة ، فأما قصص العامة فهو الذى يجتمع اليه النفر من الناس يعظهم ويذكرهم فذلك مكروه لمن فعله ولمن استمعه ، وأما قصص الخاصة فهو الذى جعله معاوية ، ولّى رجلا على القصص فاذا سلَّم من صلاة الصبح جلس وذَكَرَ الله عز وجل وحَمَّده ومجّده وصلى على النبى صلى الله عليه وسلم ، ودعا للخليفة ولأهل ولايتـه وحشمه وجنوده ودعا على أهل حربه وعلى المشركين كافة » [2]

فى سفينة بحرية مع ثلاثين رجلا من لخم وجذام فلعب بهم الموج شهراً فى البحر ثم أرفئوا الى جزيرة فى البحر حين مغرب الشمس فجلسوا فى أقرب السفينة فدخلوا الجزيرة فلقيتهم دابة أهلب (كثيرة الشعر وذكر الصفة لان الدابة تطلق على المذكر والمؤنث) كثيرة الشعر فقالوا ويلك ما أنت ؟ فقالت أنا الجساسة — وسميت الجساسة لانها تتجسس الاخبار فتأتى بها الدجال

(١) أسد الغابة جزء ١ ص ٢١٥

(٢) خطط المقريزى جزء ٢ ص ٢٥٣ طبعة أميرية

وقد نما القَصَص بسرعة لأنه يتفق وميول العامة ، وأكثرَ القصاص من الكذب حتى رووا أن عليّ بن أبي طالب طردهم من المساجد واستثنى الحسن البصرى لتحريه الصدق فى قوله

ويظهر أنه اتخذ أداة سياسية من عهد الفتن بين على ومعاوية، يستعين بها كل على ترويج حزبه والدعوة له — يدلك على ذلك ما نقلنا عن الليث بن سعد وما روى ابن لهيعة عن يزيد بن حبيب أن علياً رضى الله عنه قنت فدعا على قوم من أهل حربه ، فبلغ ذلك معاوية ، فأمر رجلا يقص، بعد الصبح وبعد المغرب يدعو له ولأهل الشام

وارتفع شأن القصص حتى رأيناه عملا رسمياً يعهد به الى رجال رسميين يعطون عليه أجراً ، فنرى فى كتاب القضاة للكندى أن كثيراً من القضاة كان يعينون قصاصاً أيضاً ، فيقول أن أول من قص بمصر سليمان بن عِتْر التُّجِيبىّ فى سنة ٣٨هـ ، وجمع له القضاء الى القصص ، ثم عزل عن القضاء وأفرد بالقصص

ولا تهمنا هذه النواحى الرسمية انما يهمنا ما كان منه من صبغة تشبه العلمية ، ونرى أن هذا القصص هو الذى أدخل على المسلمين كثيراً من أساطير الأمم الأخرى كاليهودية والنصرانية كما كان باباً دخل منه على الحديث كذب كثير، وأفسد التاريخ بما تسرب منه من حكاية وقائع وحوادث مزيفة أتعبت الناقد وأضاعت معالم الحق

ولا بد أن نشير هنا الى منبعين كبيرين لهؤلاء القصاص وأمثالهم ، تجد ذكرهما كثيراً فى رواية القصص وفى التاريخ وفى الحديث وفى التفسير ، هما وهب بن مُنَبِّه وكعب الأحبار

فأما وهب بن منبه فيمنى من أصل فارسى ، وكان من أهل الكتاب الذين أسلموا

وله أخبار كثيرة وقِصَص تتعلق بأخبار الأوَل ومبدأ العالم وقصص الأنبياء ، وكان يقول قرأت من كتب الله اثنين وسبعين كتاباً ، وقد توفى حول سنة ١١٠ هـ بصنعاء وأما كعب الأحبار أو كعب بن ماتِع فيهودى من اليمن كذلك ، ومن أكبر من تسربت منهم أخبار اليهود الى المسلمين ، أسلم فى خلافة أبى بكر أو عمر على خلاف فى ذلك — وانتقل بعد اسلامه الى المدينة ثم الى الشام ، وقد أخذ عنه اثنان هما أكبر من نشر علمه : ابن عباس — وهذا يعلل ما فى تفسيره من اسرائيليات — وأبو هريرة — ولم يُؤْثَر عنه أنه ألف ، كما أثر عن وهب بن منبه ، ولكن كل تعاليمه — على ماوصل الينا — كانت شفوية ، وما نقل عنه يدل على علمه الواسع بالثقافة اليهودية وأساطيرها . جاء فى الطبقات الكبرى حكاية رجل دخل المسجد فاذا عامر بن عبد الله بن عبد القيس جالس الى كتب و بينهما سفر من أسفار التوراة وكعب يقرأ [1] وقد لاحظ بعض الباحثين أن بعض الثقات كابن قتيبة والنووى لا يروى عنه أبداً . وابن جرير الطبرى يروى عنه قليلا ، ولكن غيرهم كالثعلبى والكسائى ينقل عنه كثيراً فى قصص الانبياء ، كقصة يوسف والوليد بن الريان وأشباه ذلك . ويروى ابن جرير أنه جاء الى عمر بن الخطاب قبل مقتله بثلاثة أيام وقال له اعهد فانك ميت فى ثلاثة أيام ، قال وما يدريك ؟ قال أجده فى كتاب الله عز وجل ، فى التوراة — قال عمر انك لتجد عمر بن الخطاب فى التوراة ؟ قال اللهم لا ، ولكن أجد صفتك وحليتك وانه قد فنى أجلك .

وهذه القصة ان صحت دلت على وقوف كعب على مكيدة قتل عمر ، ثم وضَعها هو فى هذه الصبغة الاسرائيلية ، كما تدلنا على مقدار اختلاقه فيما ينقل

وعلى الجملة فقد دخل على المسلمين من هؤلاء وأمثالهم فى عقيدتهم وعلمهم

(١) طبقات ابن سعد مجلد ٧ ص ٧٩

كثير كان له فيهم أثر غير صالح

وقد أنحى باللوم كثير من العلماء على القصاص والوعاظ ، كما فعل الغزالى فى كتابه « الاحياء » فقد عد عملهم من منكرات المساجد ، لما كانوا يقترفون من كذب ، واستثنى الحسن البصرى وأمثاله

والحق أن الحسن البصرى كان قاصاً من نوع آخر ، فلم يكن ينحو منحى الذين يعتمدون على الاسرائيليات والنصرانيات ، انما كان يعتمد على التذكير بالآخرة ونحوها ، ويستخرج العظة مما يقع حوله من حوادث ، فقد كان يجلس فى آخر المسجد بالبصرة وحوله الناس يسألونه فى الفقه وفى حوادث الفتن التى كانت فى عهده ، ويحدثهم بما صح عنده من حديث ، ويقص عليهم فيعظهم ويذكرهم ، فما أُثر من قَصَصه قوله « يا ابن آدم لا تُرْض أحداً بسخط الله ، ولا تطيعن أحداً فى معصيـة الله ، ولا تحمدن أحداً على فضل الله ، ولا تلومن أحداً فيما لم يؤتك الله ، ان الله خلق الخلق فمَضَوا على ما خلقهم عليه ، فمن كان يظن أنه مزداد بحرصه فى رزقه فليزدد بحرصه فى عمره ، أو يغير لونه أو يزد فى أركانه أو بنـانه » وكقوله « يا ابن آدم لم تكن فكُوِّنتَ ، وسألتَ فأُعطيتَ ، وسُئِلت فمَنَعْتَ فبئس ما صنعت » ثم يكرر ذلك مراراً ، وله أقوال كثيرة من هذا النحو مثبوتة فى كتب الأدب

وهنا أمر لابد أن يكون قد استرعى نظرك ، وهو أن أكثر من ذكرنا من منابع القصص كتميمٍ الدارى ووهب بن منبهٍ وكعب الأحبار من أهل الكتاب من اليمن ، فما السر فى ذلك ، ولم كان ما يروى عن يهود اليمن فى هذا النوع أكثر مما يروى عن يهود الحجاز ؟ لعل السبب أن اليمن كانوا أكثر حضارة كما علمت ، وقد استتبع هذا وجود مدارس يهودية أرقى مما كان ليهود الحجاز (وهذه المدارس

اليمنية ثابتة تاريخياً) فكان من نتيجة ذلك انتشار الثقافة اليهودية فى اليمن ، بما فيها من شروح للتوراة وأساطير ونحو ذلك على نمط أوسع مما كان ليهود الحجاز ، فلما دخل يهود اليمن فى الاسلام رووا ما تعلموا فكان لهم أكبر الأثر

(الحركة الثالثة) الحركة الفلسفية ، وهى أقل الحركات — على ما يظهر — انتشاراً وكان مظهرها . أولا . فى المدارس السريانية التى كانت منتشرة فى أماكن كثيرة من المملكة الاسلامية كما بينا قبل ، وعنهم أخذ المسلمون ، وكان من أثر ذلك ظهور بعض المذاهب الدينية التى سيأتى تفصيلها ، وقد روينا ما كان لخالد بن يزيد بن معاوية من دراسة فلسفية

ونلاحظ أنه فى هذا العصر ظهر كثير من أطباء النصارى فى بلاط الخلفاء ، وكان أكثرهم فلاسفة وأطباء معاً ، لأن دراستهم الطبية لم تكن منفصلة عن دراستهم الفلسفية ، كما كان الشأن فى فلاسفة المسلمين بعد كابن سينا والكِنْدى ، ومن هؤلاء الاطباء الذين خدموا فى البلاط الأموى ابن أثَال وكان طبيباً نصرانياً فى دمشق ، ولما ملك معاوية اصطفاه لنفسه ، وكان كثير الافتقاد له ، والاعتقاد فيه والمحادثة معه ليلا ونهاراً ، و « عبد الملك بن أبْجَر الكِنانى ، وكان طبيباً عالماً ماهراً وكان فى أول أمره مقيما بالاسكندرية وكان متولى التدريس فيها ، ولما استولى المسلمون على البلاد وملكوا الاسكندرية أسلم ابن أبجر على يد عمر بن عبد العزيز وكان حينئذ أميراً قبل أن تصل اليه الخلافة وصَحِبه ، فلما أفضت الخلافة اليه نقل التدريس الى أنطاكية وحَرّان ، وتفرق فى البلاد ، وكان عمر بن عبد العزيز يستطبه ويعتمد عليه فى صناعة الطب »[1]

وحكى القفطى فى أخبار الحكماء أن ماسرجويه الطبيب البصرى كان اسرائيلياً

---

(١) عيون الأنباء لابن أبى أصيبعة

فى زمن عمر بن عبد العزيز وربما قيل فى اسمه ما سرجيس ، وكان عالماً بالطب تولى لعمر بن عبد العزيز ترجمة كتاب أهرن القس فى الطب وهو كُنّاش فاضل من أفضل الكنانيش القديمة — وقال ابن جلجل الأندلسى ماسرجويه كان سريانياً يهودى المذهب ، وهو الذى تولى فى أيام مروان فى الدولة المروانية تفسير كتاب أهرن القس بن أعين الى العربية ، ووجده عمر (بن عبد العزيز) فى خزائن الكتب فأمر باخراجه ، ووَضَعه فى مصلاه واستخار الله فى اخراجه الى المسلمين لينفع به ، فلما تم له فى ذلك أربعون يوماً أخرجه الى الناس وبثه فى أيديهم — ولماسرجويه من التصانيف كتاب قُوَى الأطعمة ومنافعها ومضارها ، وكتاب قوى العقاقير ومنافعها ومضارها

هذا وأمثاله كوّن حركة ثالثة هى التى سميناها بالحركة الفلسفية ويدخل فيها ما رأيت من الجدل بين فرق النصارى والمسلمين ولكنها على كل حال — كانت أقل من الحركتين السابقتين

وهناك حركة رابعة هى الحركة الأدبية موضوعها قسم خاص من كتابنا هذا

***

وهذه الحركات جميعاً كانت تتساند ويعاون بعضها بعضاً ، فأصحاب المذاهب الدينية اعتمدوا فى تعاليمهم على الفلسفة وتعاليم الكتاب والسنة ، والمفسرون والمحدثون والفقهاء كان يستعينون بالشعر والأدب على تفهم معانى القرآن والحديث ، والمؤرخون والقصاص يستمدون بعض معلوماتهم من القرآن والحديث وهكذا ، وقلّ أن تجد فى هذا العصر ما نسميه الآن تخصصاً ، فليس هناك عالم بالتفسير فقط أو الحديث فقط ، لأن هذا الدور انما يكون بعد تنظيم البحث ، وهو دور لم يصلوا اليه فى هذا العصر

وكذلك كانت الدروس فيهـا تفسير وفيها حديث وفيها فقه وفيها لغة وفيها جدال دينى

والذى يظهر أن الأمويين لم يشجعوا من هذه الحركات الثلاث الا الحركة الأدبية والقصص الرسمى ، ففتحوا أبوابهم للشعراء والخطباء وبذلوا لهم الأموال ، وعينوا القصاص فى المساجد، ولم يفعلوا شيئاً من ذلك للعلماء والفلاسفة، ولعل السبب فى ذلك أمران (الأول) أن حكم الأمويين بنى على الضغط والقهر فكانت حاجتهم الى الشعراء والقصاص أشد ، لأنهم هم الذين يبشرون بهم ، ويشيدون بذكرهم ، ويقومون فى ذلك مقام الصحافة لأحزابها ، ومن أجل هذا لم يكن ينال الحظوة عند خلفاء بنى أمية الا من كان مادحاً لهم ، فأما الشعراء العلويون والزبيريون ونحوهم فيحمدون الله أن سلموا منهم (الثانى) أن نزعة الأمويين نزعة عربيـة جاهلية لاتتلذذ من فلسفة ولا من بحث دينى عميق ، انما يلذ لها الشعر الجيد والخطبة البليغة والحكمة الرائعة . قال المسعودى « كان عبد الملك بن مروان يحب الشعر والفخر والتقريظ والمدح ، وكان عماله على مثل مذهبه » وشأن أكثر بنى أمية شأن عبد الملك — نستثنى منهم خالد بن يزيد بن معاوية فقد كان له نزعة فلسفية كما أسلفنا فوق نزعته الأدبية ، قال فيه الجاحظ فى البيان والتبيين « وكان خالد بن يزيد بن معاوية خطيباً شاعراً ، وفصيحاً جامعاً ، وجيد الرأى كثير الأدب ، وكان أول من ترجم كتب النجوم والطب والكيمياء »

كما نستثنى عمر بن عبد العزيز فقد كانت نزعته دينية وقد شقى به الشعراء ، دخل عليه النُّصَيب بعد ما ولى الخلافة فقال له إيه يا أسود أنت الذى تشهر النساء بنسيبك؟ فقال انى قد تركت ذلك يا أمير المؤمنين وعاهدت الله أن لا أقول، وشهد له بذلك من حضر فأعطاه

اذا عدونا هذين (خالداً وعمر) لم نجد كبير أثر للامويين فى تشجيع الحركة الفلسفية والدينية والتاريخية كالذى نجده للعباسيين مثلا . ومع هذا فقد نشطت هذه الحركات من نفسها ، أما الحركة الدينية فللباعث الدينى ، وكان قوياً اذ ذاك ، وأما الحركة الفلسفية فلأن الدين فى آخر عهد الأمويين اضطر الى استخدام الفلسفة لمجادلة اليهود والنصارى ، ولمحاربة الفرق الاسلامية بعضها لبعض ، وأما الحركة التاريخية فلما كان لها من صبغة دينية

***

فى هذا العصر كان العلم — ولا سيما الدينىّ — يدرّس فى المساجد ، يجلس الأستاذ فى المسجد وحوله الآخذون عنه على شكل حلْقة ، وتكبر الحلقة وتصغر تبعاً لقدر الأستاذ ، فالسيوطى فى الاتقان يحدثنا أن عبد الله بن عباس كان يجلس بفناء الكعبة وقد اكتنفه الناس يسألونه عن تفسير القرآن ، ويحدثنا ابن خلكان أن رَبيعة الرَّأْى كان يجلس فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المدينة ويأتيه مالك والحسن وأشراف أهل المدينة ويُحْدِق الناس به — وكانت حلقته وافرة — وكذلك كان مجلس الحسن البصرى فى مسجد البصرة ، وقد يكون فى المسجد جملة حلقات تجتمع كل حلقة على شيخ ، كما حدثونا أن عمرو بن عُبَيْد ونفراً معه كانوا يجلسون فى حلقة الحسن البصرى ثم اعتزلوا حلقة الحسن وحَلَّقوا (أى أنشئوا لهم حلقة خاصة) وكذلك كان يفعل جعفر الصادق فى المدينة . قالوا وكان يشتغل بالكيمياء والزجر والفأل ، ومثل هؤلاء كثيرون موزعون فى الأمصار اتخذوا المساجد مدارس يعلمون فيها العلوم المختلفة ، ولم أر ما يدل على أن المسلمين أنشئوا فى هذا العصر مدارس خاصة للعلم الا ما نقل المقريزى « عن الواقدى أن عبد الله ابن أم مكتوم قدم مهاجراً الى المدينة مع مصعب بن عمير، وقيل قدم بعد بدر بقليل

فنزل دار القرّاء » ولم نعلم كثيراً عن دار القراء هذه وهل خصصت للمدارسة أو لا.
وحكى السيد أمير على فى كتابه «مختصر تاريخ العرب» أن الحُر بن يوسف بن الحكم بن أبى العاص بن أمية — وكان عاملا لهشام بن عبد الملك على الموصل — بنى مدرسة بالموصل » ولكن لم يذكر له مستنداً ، والذى فى ابن الأثير أن الحر هذا بنى المنقوشة ، وهى دار يسكنها ، وسميت المنقوشة لأنها كانت منقوشة بالساج والرخام والفصوص الملونة وما شاكلها ، ولم يذكر أنه بنى مدرسة ، والذى نعرفه أن بعض المدارس التى كانت فى الممالك قبل الفتح ظلت على حالها بعد الفتح كبعض مدارس السريانيين ، أما الأمويون فلا نعلم أنهم أنشئوا مدارس ، ولكن كانت الدراسة العلمية فى البيوت والمساجد

***

التدوين [١] : ذهب بعضهم الى أن تدوين العلوم والاخبار لم يحدث الا فى منتصف القرن الثانى للهجرة ، وهذا على ما يظهر لنا غير صحيح ، فان التدوين بدأ من القرن الأول ، بل كان قبل الاسلام تدوين ، وكان هذا التدوين كثيراً فى البلاد المتحضرة كاليمن والحيرة ، وقليلا فى بلاد الحجاز ، فالحميريون فى اليمن دونوا كثيراً من أخبارهم وحوادثهم ، ونقشوها على الأحجار ولا تزال آثارهم فى ذلك تستكشف بين حين وحين — وقد حدثناك من قبل أن النبى صلى الله عليه وسلم لقى سُوَيْدَ بن صامت وكان معه مَجَلَّة لقمان ، أعنى صحيفة فيها حِكَمُ لقمان ، فلما جاء الاسلام اتخذ النبي صلى الله عليه وسلم كتبة للوحى فكانوا يكتبون على الرّقاع والاضلاع وسَعَف النخل والحجارة الرّقاق البيض ، ثم جمعت هذه الصحف فى عهد أبى بكر ، وعُنى بعض الصحابة بكتابة حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ،

(١) نعنى بالتدوين ما هو أوسع معنى من التأليف فنعنى به تقييد الاخبار والآثار بالكتابة .

كعبد الله بن عمرو بن العاص فانه كان يدون ما يسمع من رسول الله ، قال أبو هريرة ما أجد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أكثر حديثاً منى الا ما كان من عبد الله بن عمرو ، فانه كان يكتب وقال عبد الله بن عمرو كنت أكتب كل شيء أسمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم أريد حفظه — الحديث — بل قد رأيت أن النبي صلى الله عليه وسلم دعا بعض أصحابه أن يتعلم العبرية والسريانية ليدون بها رسائله

فهذا تدوين للقرآن والحديث والرسائل التى كانت ترسل من النبي صلى الله عليه وسلم ، وبعد هذا الزمن بقليل نرى أن المسلمين طرقوا موضوعات أخرى يدونونها ، فابن النديم يحدثنا فى كتابه الفهرست أن عُبَيد بن شَرْيَة الجُرهُمى كان فى زمان معاوية وأدرك النبي صلى الله عليه وسلم ولم يسمع منه شيئاً ، ووفد على معاوية بن أبى سفيان فسأله عن الاخبار المتقدمة وملوك العرب والعجم وسبب تبلبل الألسنة وأمر افتراق الناس فى البلاد ، وكان استحضره من صنعاء اليمن فأجابه الى ما أمر ، فأمر معاوية أن يدوّن وينسب الى عبَيد بن شرية ، وعاش عبيد الى أيام عبد الملك بن مروان ، وله من الكتب كتاب الأمثال وكتاب الملوك وأخبار الماضين

ويقول فى موضع آخر أن صُحَاراً العَبدى كان خارجياً وكان أحد النسابين والخطباء فى أيام معاوية بن أبى سفيان وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم حديثين أو ثلاثة وله من الكتب — كتاب الأمثال —

ويقول فى موضع ثالث انه كان بمدينة الحَدِيثَة رجل يقال له محمد بن الحسين جمّاعة للكتب ، له خزانة لم أر لأحد مثلها كثرة ، تحتوى على قطعة من الكتب العربية فى النحو واللغة والأدب ، والكتب القديمة ، فلقيت هذا الرجل دفعات ،

فأنِس بى ، وكان نفوراً ضنيناً بما عنده ، خائفاً من بنى حمدان ، فأخرج لى قمطراً كبيراً فيه نحو ثلثمائة رطل جلود وصِكاك وقراطيس وورق صينى وورق تهامى وجلود أدم فيها تعليقات عن العرب ، وقصائد مفردات من أشعارهم ، وشىء من النحو والحكايات والأخبار والأسماء والأنساب وغير ذلك من علوم العرب وغيرهم ، فرأيتها وقلبتها فرأيت عجباً الا أن الزمان قد أخلقها وأحرفها ، وكان على كل جزء أو ورقة أو مدرج توقيع بخطوط العلماء واحداً أثر واحد ورأيت فى جملتها مصحفاً بخط خالد ابن أبى الهياج صاحب علىّ ، ورأيت فيها بخط الامامين الحسن والحسين ، ورأيت عنده أمانات وعهوداً بخط أمير المؤمنين علىّ عليه السلام ، وبخط غيره من كتّاب النبى صلى الله عليه وسلم ومن خطوط العلماء فى النحو واللغة مثل أبى عمرو بن العلاء وأبى عمرو الشيبانى . . . ورأيت ما يدل على أن النحو عن أبى الأسود ماهذه حكايته : وهى أربعة أوراق أحسبها من ورق الصين ترجمتها هذه فيها كلام الفاعل والمفعول من أبى الأسود رحمة الله عليه بخط يحيى بن يَعْمُر ، وتحت هذا الخط بخط عتيق هذا خط عِلاّن النحوى ، وتحته هذا خط النضر بن شميل ، ثم لما مات هذا الرجل فقدنا القمطر وما كان فيه فما سمعنا له خبراً . ولا رأيت منه غير المصحف ، هذا على كثرة بحثى عنه اه باختصار

هذا فى عصر الصحابة فلما جاء عصر التابعين ومن بعدهم قويت الحركة العلمية بسبب الفتوح ، ودخول الأمم المتحضرة فى الاسلام ، والحاجة الى تشريع واسع يتفق وما أحدثت المدنية من أحداث لم تكن ، فكثر التدوين ، فابن خلكان يحدثنا أن وهب بن منبه المتوفى سنة ١١٠ هـ وعمره تسعون سنة ألف فى ترجمة الملوك المتوجة من حمير وأخبارهم وقصصهم وقبورهم وأشعارهم

وابن سعد فى الطبقات يذكر لنا أن هشام بن عروة بن الزبير « قال أحرق

أبى يوم الحرّة كتب فقه كانت له ، قال فكان يقول بعد ذلك لأن تكون عندى أحب الىّ من أن يكون لى مثل أهلى ومالى »[١]

ويقول فى موضع آخر عن عبد الرزاق (قال سمعت معمراً قال كنا نرى أنا قد أكثرنا عن الزهرى حتى قتل الوليد ، فاذا الدفاتر قد حملت على الدواب من خزائنه ، يقول ، من علم الزهرى)[٢]

ويقول ابن خلكان أيضاً أن ابن شهاب الزهرى « كان اذا جلس فى بيته وضع كتبه حوله فيشتغل بها عن كل شىء من أمور الدنيا ، فقالت له امرأته يوماً والله لهذه الكتب أشد على من ثلاث ضرائر » وقد توفى سنة ١٢٤ هـ وأن أبا عمرو ابن العلاء وقد ولد نحو سنة سبعين للهجرة كانت كتبه التى كتب عن العرب الفصحاء قد ملأت بيتاً له الى قريب من السقف ، ثم أنه تقرّأ أى تنسك فأخرجها[٣] كلها ، فلما رجع الى علمه الأول لم يكن عنده الا ماحفظه بقلبه ، وكانت عامة أخباره عن أعراب قد أدركوا الجاهلية » وقد روينا من قبل أن خالد بن يزيد بن معاوية كتب ثلاث رسائل فى الكيمياء وما اليها ، وذكر ابن النديم أن زياد بن أبيه ألف كتاباً فى علم الأنساب فى مثالب العرب وطعن فيه فى أنسابهم لما طعن الناس فيه

هؤلاء وأمثالهم كانوا فى العصر الأموى ، وهذه الأخبار وان كان بعضها محلا للشك فهى فى جملتها تدلنا على أن التدوين لم ينشأ فى العصر العباسى كما يزعم بعضهم ولكنه كان قبل ذلك — ويظهر مما عثرنا عليه أن التدوين بدأ بتقييد العلم من غير أن تظهر فيه للمؤلف شخصية ما ، وليس له الا الجمع ، وكانت الكتب عبارة عن صحف يكتب عليها وقد تكون صحفاً مفرقة مبعثرة ، فلما دخل الفرس والروم فى الاسلام وكانوا ذوى حضارة قديمة وكتب مؤلفة من قبل أدخلوا على اللغة

---

(١) جزء ٥ ص ١٣٣ (٢) جزء ٢ قسم ٢ ص ١٣٦ (٣) لعله أحرقها

العربية بعـد أن تعلموها نظام تأليف الكتب بالمعنى الذى نفهمه الآن من جمع ما يتعلق بالموضوع الواحد فى كتاب واحد

ولكن ما كتب فى عصر الأمويين لم يصل الى أيدينا منه الا القليل. وأغلب هذه الكتب أخذت عن العلماء من طريق الرواية ، وأدمجت فى كتب العباسيين التى كانت أتم نظاماً ، وأرقى فى فن التأليف، و بعض هذه الكتب الأموية كانت موجودة فى العصر العباسى وما بعده ، فابن النديم يقول أنه رأى صفحات أبى الأسود الدؤلى فى النحو ، وأنه رأى كتاب عبيـد بن شرية فى الأمثال ، وابن خلكان يقول انه رأى كتاب وهب بن منبه فى تاريخ اليمن ولكن فى عهدنا هذا لم يصلنا شىء يصح أن يوثق به الا قليلا

هذا مجمل الحركة العلمية فى ذلك العصر وسيأتى بعض تفصيل لها فى الأبواب التاليـة

الفصل الثانى

مراكز الحياة العقليـــة

نلاحظ أن الدين والفن والعلم والأدب تنبع دائماً من المدن ، وتزهر فيها ، كان ذلك فى القـديم ، وهو كذلك فى الحديث ، فأنت الآن ترى الأفكار الجديدة وآراء المصلحين انما تنشأ فى المدن أولا ، وكذلك معاهد العلم والأدب والفن من مدارس وجامعات ومكتبات وصحف ومتاحف انما تعظم وتكثر فى المدن لا فى القرى — ولذلك أسباب أهمها أن المدن أكثر ناساً وأوفر عمراناً — وقد نشأت كثرة الناس والعمران من وفرة المؤن اما لسبب مباشر كخصب الأرض وجودتها وكثرة غلاتها ، أو غير مباشر كأن تتبادل المدينـة مصنوعاتها مع أمة أخرى خصبة الأرض كثيرة الغلات أو نحو ذلك ، وكثرة السكان على هذا النحو تستتبع نوعاً من الغنى يستطيع معه أهله أن يجدوا زمناً يصرفونه فى غير كسب القوت ، كما يستتبع نوعاً من الرقى السياسى يستطيع الناس معه أن يتبادلوا الآراء والافكار ، وينظروا الى الحياة غير هذا النظر المادى الوضيع ، فينشأ الرأى وينشأ العلم ويزهر الأدب [(١)]

كذلك تختلف المدن فى نوع ما تمتاز به من العلوم فقد تمتاز مدينـة بعلم ، وأخرى بعلم آخر ، وثالثـة بفن أو أدب وهكذا ، فأنت اذا رأيت الحديث مثلا ونوعاً من التاريخ الاسلامى كان يكثر فى الحجاز فى ذلك العصر وأن المذاهب الدينية

---

(١) أضف الى ذلك ما يذكره ابن خلدون من « أن الحضارة تفيد عقلا ، لأن الحضارة متجمعة من صنائع فى شأن تدبير المنزل ومعاشرة أبنـاء الجنس وتحصيل الآداب فى مخالطتهم ثم القيام بأمور الدين واعتبار آدابها وشرائطها ، وهذه كلها قوانين تنتظم علوماً فيحصل منها زيادة عقل » اهـ

نبع أكثرها فى العراق ، وأن النحو نبع فى البصرة ، فلا تظن أن ذلك كان مجرد اتفاق ، بل الواقع أن هناك أسباباً طبيعية أنتجت ذلك ولم يكن فى الامكان أن يكون غير ما كان ، واختلاف المدن فى الشهرة العلميـة ونوع العلم الذى تمتاز به يرجع الى أسباب : أهمها — بالنظر الى العصر الذى نبحث فيه — تكوّن المدنية الاسلامية على أطلال مدنيات قديمة طبعت البلاد بطابع خاص ، كالذى كان فى مدن العراق والشام ، فلما فتحها المسلمون لم تتجرد من طابعهـا وعقليتها القديمة ، ولكن أثر فيها الاسلام أثراً جديداً ، فكانت العقلية الجديدة نتيجة العاملين معاً — ومنها — أن العلماء الأولين من الصحابة ومن يلحق بهم مع اختلاف شخصياتهم العلمية التى بينا نزلوا فى البلاد المختلفة ، وكونوا فيها مدارس ومذاهب تبعاً لمزاجهم العقلى ، فتأثرت البلاد التى نزلوا فيها بشخصياتهم ، ونهجوا فى العلم مناهجهم — ومنها — ظهور أحداث سياسية وغير سياسية كان لها أثر كبير فى امتياز بعض المدن بنوع من العلم ، ونمط من التفكير ، فظهور رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مكة ، وهجرته الى المدينة ، جعل لمكة والمدينة صبغة علمية خاصة ، وكثرة الأحداث السياسية فى العراق وتلاحق الفتن فيه كان له الأثر الكبير فى نشوء المذاهب الدينية به ، وقرار الخلافة الأموية فى دمشق لم يخل من أثر فى تكييف الحياة العلمية فيها وهكذا مما سنعرض لبيانه بعد — وعلى الجملة فقد كانت أهم المراكز العقلية فى ذلك العصر مكة والمدينة فى الحجاز ، والبصرة والكوفة فى العراق ، ودمشق فى الشام والفسطاط فى مصر

الحجاز : قطر فقير خلا من الأنهار ، وكسيت أرضه غالبا بالصخور والرمال ، واشتدت حرارته ، فلم يسمح للنبات أن ينمو الا فى وديان بعثرت هنا وهناك ، يعيش أكثر أهله عيشة بدوية ، لم يتصلوا بالعالم الذى حولهم الا بالقدر الذى أبناه

من قبل ، ولم تتعاقب عليهم مدنيات مختلفة تورثهم حضارة وعلما ، ولم يصل اليهم من العالم المتحضر الا أثارة من اليهودية والنصرانية ، وقليل من الحكمة والفلسفة من طريق غير معُبَّد ، ومع هذا فانهم وان لم يرثوا مدنية وعلما عن أمم حكموهم وتعاقبوا عليهم فقد أورثهم استقلالهم أنفة وعزة واعتداداً بالنفس وحرية جاوزت الحد « حتى لقد حاولوا أن يكونوا ملوكا أجمعين »

جاء الاسلام فكان لمدينتى الحجاز — أعنى مكة والمدينة — شأن علمى كبير ولكنه العلم الدينى المطبوع بالطابع العربى ، فأما مكة فلأنها كانت منبع الاسلام وبها كانت نشأة محمد صلى الله عليه وسلم ، وبها كانت الاحداث الأولى من دعوة قريش الى الاسلام ومناهضتهم للدعوة ، وبها كان التشريع المكى ، وهو لا يفهم فهما حقا حتى يفهم ما كان يحيط به من ظروف مكية ، وبعض هذا التشريع الاسلامى انما هو اقرار لما كان يفعل فى مكة قبل الاسلام ككثير من مناسك الحج

وأما المدينة فمهاجَر النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، وبها كان أكثر التشريع الاسلامى ، وكانت منبعاً لأكثر الأحداث التاريخية فى صدر الاسلام ، وبها حدّث النبى صلى الله عليه وسلم أكثر حديثه ، وهو لا يفهم تمام الفهم الا أن يفهم ما أحاط به من ظروف مدنية ، وكانت مركزَ الخلافة فى أهم عصر من عصور الاسلام أيام أبى بكر وعمر وعثمان ، وبها كان كثير من أكابر الصحابة قد شاهدوا ما فعل النبى وسمعوا ما قال ، وكانوا شركاء فى بعض ما وقع من أحداث كغزوات وفتوح ، فهم يحدثون بما سمعوا وشاهدوا

فلا غرو اذن ان كانت مكة والمدينة مركزين من أهم مراكز الحياة العلمية فى ذلك العصر ، يقصدهما طلاب الحديث وطلاب الفقه وطلاب التاريخ — وقد فاقت المدينة مكةَ فى ذلك ، لأن أشهر من أسلم من أهل مكة هاجر مع النبى صلى

الله عليه وسلم الى المدينة ، وكان من يسلم بعد الهجرة من أهل مكة يهاجر كذلك ، خصوصاً اذا كان من رجالات قريش وعقلائها ، ثم كانت المدينة مقصد من يريد الاسلام فى عهد النبى من سكان جزيرة العرب ، وكثير منهم كانت تدعوه الحماسة الدينية أن يقيم بجوار النبى يتعلم منه ويتعبد معه ويسمع من قوله ويشاركه فى غزواته ، وبعد وفاة الرسول كانت مقرّ الخلافة ، ومركز كبار الصحابة ، حتى يحرّم عمر على كبار قريش أن يبرحوها الا لحاجة ماسة ، وكانت فى عهد الفتوح الكبيرة مورداً للاسرى ، وقد رأيت أن عمر كان يحرم أن توزع الأسرى فى مواطن الحروب ، فكان يأتى بهم أولا الى المدينة ، وكثير من هؤلاء الاسرى من الفرس والروم كانوا من الطبقة الارستقراطية فى قومهم ، وكانوا متعلمين على النمط الذى ساد فى أمتهم وعصرهم ، فأقام منهم بالمدينة كثيرون عد منهم ابن سعد فى طبقاته عدداً كبيراً ، وكانوا موالى لكبار الصحابة وأسلموا على أيديهم فصبغوا الحياة الاسلامية بعقليتهم التى تخالف من بعض الوجوه عقلية العرب ، وكانوا قد ألِفوا فى قومهم علماً منظماً وكتباً مدونة فأخذوا يتبعون هذا فى تعاليم الاسلام — كل هذا جعل المدينة تفوق مكة من هذه الناحية العلمية ، أضف الى ذلك أن المهاجرين كانوا يكرهون فى أول عهد الاسلام — ديناً — أن يتحولوا من المدينة الى مكة ، روى ابن سعد « قال محمد بن عمر لا نعلم أحداً من المهاجرين من أهل بدر رجع الى مكة — يعنى بعد وفاة النبى صلى الله عليه وسلم فنزلها غير أبى سَبْرَة فانه رجع الى مكة بعد وفاة النبى صلى الله عليه وسلم فنزلها ، فكره ذلك له المسلمون ، وولده ينكرون ذلك ، ويدفعون أن يكون رجع الى مكة فنزلها بعد أن هاجر منها ، ويغضبون من ذِكر ذلك »[1]

(١) الطبقات مجلد ٥ ص ٣٢٨

لهذا كانت مدرسة المدينة أغزر علماً ، وأبعد شهرة ، تخرج فيها أكثر علماء ذلك العصر فى التفسير والحديث والفقه والتاريخ ، يقصدها طلبة العلم من أقاصى البلدان لتلقى العلم عن علمائها ، فابن الأثير يحدثنا أن عبد العزيز بن مروان بعث ابنه « عمر » الى المدينة للتأدب بها ، وكتب الى صالح بن كيسان أن يتعاهده ، فأبطأ عمر يوماً عن الصلاة فقال ما حبسك ؟ فقال كانت مرجلتى تصلح شعرى ، فكتب الى أبيه بذلك ، فأرسل أبوه رسولا فلم يزل به حتى حلق شعره ، ونرى محمد بن اسحاق والواقدى نشأا بالمدينة وتخرجا فى مدرستها ، فكان عليهما اعتماد كل من كتب بعدهما فى المغازى والسير — وهذا طبيعى ، فمن أحفظ لحديث رسول الله وأخبر بغزواته ، وأعرف بحياته وحياة خلفائه من أهل المدينة ، وبين سمعهم وبصرهم كانت هذه الاحداث ؟ والآن نذكر طرفاً من أخبار مدرسة مكة ومدرسة المدينة وأشهر علمائها

مدرسة مكة : لما فتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة خلف فيها معاذاً يفقه أهلها ويعلمهم الحلال والحرام ويقرئهم القرآن ، وكان معاذ من أفضل شباب الانصار علماً وحلماً وسخاء ، وقد شهد المشاهد كلها مع رسول الله ، وكان يعدّ من أعلم الصحابة بالحلال والحرام ، ومن أقرئهم للقرآن ، وممن جمع القرآن على عهد الرسول ، وقد روى عنه ابن عباس وعمر وابن عمر ومات شاباً فى طاعون عمواس

كذلك علّم بمكة عبد الله بن عباس فى أخريات أيامه ، فقد علّم فى البصرة وعلم فى المدينة ، ثم لما كان الخلاف بين عبد الملك بن مروان وعبد الله بن الزبير ذهب الى مكة وعلّم بها ، فكان يجلس فى البيت الحرام ويعلم التفسير والحديث والفقه والأدب ، والى عبد الله بن عباس وأصحابه يرجع الفضل فيما كان لمدرسة مكة من شهرة علمية — وأشهر من تخرج فى هذه المدرسة من التابعين مجاهد بن جبر

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وعطاء بن أبى رَبَاح وطَاوس بن كَيْسَان[١] وثلاثتهم من الموالى ، فمجاهد مولى بنى مخزوم ، وقد اشتهر برواية أقوال ابن عبـاس فى تفسير القرآن ، وروى أنه قال عرضت القرآن على ابن عباس ثلاث عرضات ، أقفه عند كل آية أسأله فيم نزلت وكيف كانت

وعطاء كان من مولَّدِى الجَنَد ، وكان مولى لبنى فهر ، وكان أسود أفطس مفلفل الشعر ، ومن جِلّة فقهاء مكة وزهادها ، وكان يعد من أعلم الناس بمناسك الحج ، وكان يجلس فى المسجد الحرام ويجتمع الناس حوله فيفتيهم ويحدثهم ويعلمهم

وطاووس كان من أبناء الفرس فى اليمن ، وقد أدرك كثيراً من الصحابة وأخذ عنهم ثم انقطع الى ابن عباس وكان من خاصة تلاميذه ، ثم كان من سادة التابعين ومن فقهاء مكة ومفتيها

واستمرت هذه المدرسة قائمة تَتَلَقى العلمَ فيها طبقـةٌ عن طبقة ، ويطول بنا القول لو عددنا مشهورى العلماء من كل طبقة وترجمة حياتهم ، غير أنا نذكر هنا أنه كان من مشهورى الطبقة الخامسة سفيان بن عُيَيْنة ومسلم بن خالد الزّنجى ، وكلاهما كان من الموالى ، وعليهما أخذ الامام الشافعى القرشى علمه فى نشأته الأولى ، فقد ولد بغزّة ثم حملته أمه صغيراً الى مكة فتعلم الأدب فى باديتها ، يحفظ الأشعار ويتعلم اللغة ، ثم نشأ فى مدرستها يأخذ الحديث والفقه عمن ذكرنا من علمائها ، ولما قارب العشرين من عمره تحول الى المدينة يتم فيها دراسته

<u>مدرسة المدينة</u> : قلت ان مدرسة المدينة كانت أكثر علماً وأوفر شهرة وأبنت السبب فى ذلك ، وقد اشتهر فيها كثير من الصحابة العلماء كعمر وعلىّ ،

---

(١) عد الذهبى طاووسا من علماء اليمن وفقهائها ومفتيها وقال انه اتفق موته بمكة فى الحج وكذلك ابن سعد وجرينا هنا على ما قاله ابن القيم الجوزية من أنه من فقهاء مكة ومفتيها

ولكن أشهر من امتاز بالعلم فيها وتخصص للحياة العلمية وكثر بها أصحابه وتلاميذه زيد بن ثابت ، وعبد الله بن عمر بن الخطاب ، ولكن كلاهما يختلف فى منحاه العلمى عن الآخر ، فزيد بن ثابت أنصارى صحب النبى صلى الله عليه وسلم منذ صباه ، وتعلم السريانية والعبرية ولكن لا ندرى الى أى حد كان مثقفاً بثقافتهما ؛ فهم يحدثوننا أنه تعلم اليهودية فى نصف شهر والسريانية فى سبعة عشر يوماً ، وهى أيام قليلة لا تكفى لحذق لغة والقدرة على تفهم آدابها ، فهل استمر يتعلم حتى نال قسطاً من آداب اللغتين ؟ ذلك ما لا ندرى ، كان ضليعاً فى فهم تعاليم الاسلام وله القدرة الفائقة على استخراج الأحكام من الكتاب والسنة ، ومن الرأى اذا لم يكن كتاب ولا سنة ، حتى قال سليمان بن يَسَار « ما كان عمر ولا عثمان يقدّمان على زيد بن ثابت أحداً فى القضاء والفتوى والفرائض والقراءة » وقال القاسم « كان عمر يستخلف زيد بن ثابت فى كل سفر يسافره ، وكان يفرق الناس فى البلدان . . . ويُطلب اليه الرجال المُسَمَّون (النابهون) فيقال له زيد بن ثابت ، فيقول لم يسقط علىّ مكان زيد ، ولكن أهل البلد يحتاجون الى زيد فيما يجدون عنده فيما يَحْدُث لهم ما لا يجدون عند غيره » وقال قَبيصة « كان زيد بن ثابت مترئساً بالمدينة فى القضاء والفتوى والقراءة والفرائض فى عهد عمر وعثمان وعلى فى مُقامه بالمدينة و بعد ذلك خمس سنين حتى ولى معاوية سنة ٤٠ فكان كذلك أيضاً حتى توفى زيد سنة ٤٥ » وكان ابن عباس يأخذ بركابه ويقول هكذا يُفعل بالعلماء والكبراء — وكان ذا عقل رياضى ، فكان أعلم الناس بالفرائض (المواريث وتقسيمها) وولى قسمة الغنائم فى اليرموك ، وعلى الجملة فكان عالماً وفقيهاً معاً أعنى واسع الاطلاع قادراً على استنباط المعانى ، ذا رأى فيما لم يردفيه أثر ، ويروى أن حسان ابن ثابت رثاه فقال :

فَمَنْ للقوافى بعد حسانَ وابنه ومن للمعانى بعد زيد بن ثابت ؟

وهذه « المعانى » التى وردت فى هذا البيت هى الميزة التى امتاز بها عن عبد الله بن عمر ، فقد كان عبد الله عالماً فقط . يجمع الأحاديث و يرويها ويكتبها ويتحرج من الفتوى وابداء الرأى ، وهما نزعتان ظلتا تسيران جنباً الى جنب عهدا طويلا كما سيأتى بيانه

على هؤلاء العلماء من الصحابة فى المدينة تخرج كثير من علماء التابعين من أشهرهم سعيد بن المسيِّب — وكان من تلاميذ زيد بن ثابت يحفظ قضاياه وفتاويه و يفضل قوله على قول غيره — وعروة بن الزبير بن العوام وكان من أعلم أهل المدينة وأورعهم — وعن هذه الطبقة أخذ ابن شهاب الزُّهرى القرشى وقد حفظ فقه علماء المدينة وحديثهم ، وكان من أسبق العلماء الى تدوين العلم ، واتصل بكثير من خلفاء بنى أمية ، وكان موضع احترامهم، كعبد الملك بن مروان وهشام ، واستقضاه يزيد بن عبد الملك وقال فيه عمر بن عبد العزيز انكم لا تجدون أحداً أعلم بالسنة الماضية منه

وأخيراً أنجبت هذه المدرسة مالك بن أنس امام دار الهجرة

***

بجانب هذه الحياة الجليلة الوقور التى تصفها لنا كتب طبقات المحدثين والفقهاء والمفتين ، كانت تسود فى الحجاز حياة أخرى هى حياة فرح ومرح وطرب وشراب ، تصفها لنا كتب الأدب وخاصة كتاب الأغانى ، فمن الحق أن نصور هذا العصر من جميع جهاته كما كان ، كان بالحجاز زهد وورع وتقوى وحديث وفقه ، وكان بالحجاز شراب وتشبيب بالنساء حتى فى موسم الحج ولهو ولعب كثير ، وكما أنتجت الحياة الأولى علماً كثيراً أنتجت الحياة الثانية فناً بديعاً من غناء وتنادر وأدب ،

ومن العجيب أن يفوق هذا الفن فى الحجاز مثيله فى العراق والشام — على مايظهر لنا — فقد امتلأت مكة والمدينة وضواحيهما بالمغنين والمغنيات ، حتى يروى لنا أبو الفرج أن المغنين كانوا يخرجون الى الحج قوافل ، واشتهر فى عصر واحد أربعة من كبار المغنين ابن سُرَيْج والغَريض ومَعْبَد وحُنَيْن ، وكان الثلاثة الاولون بالحجاز والأخير وحده بالعراق ، فاجتمع الأولون فتذاكروا ، وكتبوا لحنين يقولون نحن ثلاثة وأنت وحدك فأنت أولى بزيارتنا فشخص اليهم . . . واجتمعوا بمنزل سُكَينة فلما دخلوا أذنت للناس اذناً عاماً فغصت الدار بهم . . . وازدحم الناس على السطح وكثروا ليسمعوه ، فسقط الرواق على من تحته ومات حنين تحت الهدم [1] — واجتمع فى زمن واحد من مشهورى المغنين والمغنيات فى الحجاز جميلة وهَيْتُ وطُوَيْسٌ والدَّلاَل وبرد الفؤاد ونومة الضحى ورحمة وهبة الله ومعبد ومالك وابن عائشة ونافع ابن طُنْبُورة وعزّة المَيْلاَء وحَبَابَة وسَلاَّمة وبُلْبلة ولَذَّة العيش وسَعيدة والزرقاء الخ ويروون ان هؤلاء حجوا فتلقاهم فى مكة سعيد بن مِسْجح وابن سُرَيْج والغَرِيض وابن مُحْرز ، وحرج أبناء أهل مكة من الرجال والنساء ينظرون الى حسن هيئتهم الخ [2] ويقول أبو الفرج أن الناس اجتمعوا عند جميلة فضربت ستارة وأجلست الجوارىَ كلهن ، فضربن وضربَتْ ، فضربن على خمسين وتراً فتزلزلت الدار ثم غنت على عودها ، وهن يضربن على ضربها الخ [3]

وكان لمغنى مكة مذهب فى الغناء ولمغنى المدينة مذهب ، وكان بين الفريقين مفاخرة ، وأقبل الناس على الغناء يسمعونه حتى يروى لنا أبو الفرج أيضاً أنه نَمَى الى عبد الملك أن رجلا أسود بمكة يقال له سعيد بن مِسْجح أفسد فتيان قريش

(١) أنظر الأغانى جزء ٢ ص ١٢٢ و١٢٣

(٢) ترى الحديث بطوله فى الأغانى جزء ٧ ص ١٢٨ وما بعدها

(٣) جزء ٧ ص ١٣٢

وأنفقوا عليه أموالهم ، فكتب الى عامله أن اقبض ماله وسيّره [١] وحتى يروى لنا أن الامام مالك بن أنس قال نشأت وأنا غلام حدث أتبع المغنين وآخذ عنهم ، فقالت لى أمى يابنى ان المغنى اذا كان قبيح الوجه لم يلتفت الى غنائه ، فدع الغناء واطلب الفقه فانه لا يضر معه قبح الوجه ؛ فتركتُ المغنين واتبعت الفقهاء فبلغ الله بى عز وجل ما ترى [٢]

والى الغناء كان التنادر والفكاهة الحلوة ، فكان النّاضرى مُنْدِر أهل المدينة ومضحكهم ، ثم خلفه أشعب فملأ الحجاز ملحاً ونوادر كما أمتع أهله بحسن صوته ، وخلف لنا فى كتب الأدب نوادر ممتعة أضحك بها أهل المدينة فى مجالسهم

والحق أن الحجاز كان غنياً بفنّى الغناء والمنادرة كما كان غنياً بالفقه والحديث، وكان أكثر المغنين فى قصور أمراء بنى أمية وخلفائهم ممن تخرجوا فى مدرسة الحجاز — وليس عجيباً أن يكثر الفقه والحديث فى الحجاز لما بيّنا ، انما كان عجيباً أن يبز الحجازُ العراق والشام فى الغناء وما اليه ، فقد كان أقرب الى الذهن أن يكون العراق وارثُ المدنيات المتتابعة ، أو الشام وقد تحضر بحضارة الرومانيين ، أسبق من الحجاز فى اجادة الغناء وما يحيط به من لهو ومجون ، والحجاز كما قدمنا أقرب الى البداوة ، وهو اذا قورن بالعراق أو الشام كان فقيراً مجدباً فما السر فى ذلك ؟

لعل السبب ما نراه فى ثنايا الكتب من ظَرف أهل الحجاز ورقة شعورهم وأنهم فى ذلك العصر فاقوا أهل العراق والشام ، حتى لقد كان فقهاء الحجاز أوسع صدراً ، وأكثر تسامحاً فى الغناء والمجون من أهل العراق ، وقد رأينا قبل مالأهل العراق من تشدد فى الدين كان وليدَ الفرس ، جاء فى الأغانى أن عبيد الله بن عمر العُمَرى قال خرجت حاجاً فرأيت امرأة جميلة تتكلم بكلام رفثت فيه ،

---

(١) الاغانى ج ٣ ص ٨٤ (٢) الاغانى جزء ٤ ص ٣٩

فأدنيت ناقتي منها ثم قلت لها يا أَمة الله أَلستِ حاجّة ، أَما تخافين الله ؟ فسفرت عن وجه يَبْهَر الشمس حسناً ثم قالت : تأمل ياعمى فانى ممن عنى العَرْجِىّ بقوله

مِنَ اللاَّءِ لم يَحْجُجْنَ يَبْغِينَ حِسْبَة ولكن لِيَقْتُلْنَ البرىء المُغَفَّلا

قال فقلت لها فإنى أَسأل الله أَلا يعذب هذا الوجه بالنار ، و بلغ ذلك سعيدَ ابن المسيب (مفتى المدينة) فقال أَما والله لو كان من بعض بُغَضاء أَهل العراق لقال لها اعزُبى قبحك الله ، ولكن ظَرف عُبَّاد الحجاز[1]. وروى فى موضع آخر عن داود الثقفى قال كنا فى حلقة ابن جُريج وهو يحدثنا وعنده جماعة فيهم عبدالله ابن المبارك وعدة من العراقيين اذ مر به ابن مَيْزَن المغنى . . . فدعاه ابن جريج فقال له احب أَن تسمعنى ، قال أَنا مستعجل، فألح عليه . . . فغناه وقال لولا مكان هؤلاء الثقلاء عندك لأطلت معك حتى تقضى وطرك ، فالتفت ابن جريج الى أَصحابه فقال : لعلكم أَنكرتم ما فعلت ! فقالوا إنا لننكره عنـدنا بالعراق ونكرهه ، قال فما تقولون فى الرجز يعنى الحُداء ؟ قالوا لا بأس به عندنا ، قال فما الفرق بينـه و بين الغناء ؟[2] ويحكى الاغانى أيضا أن حنيناً خرج الى الشام واجتمع بالفتيان فقلب لهم الغناء على جميع ألوانه فلا فكهوا له ولا سروا به، وتمنوا أبا منبه فلما حضر غنى لهم غناء سخيفاً فطر بوا له ، فأقسم ألا يبيت فى هذا البلد[3]

وقد يكون السبب أن الحجاز كان به ارسـتقراطية العرب وهم العنصر الفاتح وقد نال هؤلاء الارستقراطيون خير الجوارى وأرفعهن نسباً ، وأكثرهن تأدباً ، ومنهن من تربى ببيت الملوك والامراء ، وتأدب بآداب الحضارة ، فنقلن ذلك الى الحجاز وصبغنه بالصبغة العربية ، وكان لهم الفضل فى تأسيس مدرسـة الغناء فى الحجاز

---

(١) الاغانى جزء ١٧ ص ١٢١

(٢) الاغانى جزء ١ ص ١٥٧

(٣) انظر الحكاية بطولها فى جزء ٢ ص ١١٩

وقد تكون العلة ان البدو اذا تحضروا و بسط لهم فى العيش أسرفوا فى اللهو، شأن كثير ممن غَنِي بعد الحرمان

وربما كان السبب أن الأمويين تبوءوا الخلافة وحصروها فيهم بل فى بيت من بيوتهم ، وضيقوا على من عداهم من بطون قريش، وحجروا عليهم التفكير فى الشؤون السياسية، وكان الشام هو العنصر المؤيد لخلفاء بنى أمية ، والعراق هو العنصر المعارض، فانصرف فتيان الحجاز بما لهم من مال وفير وجاه عزيز عن الامارة والخلافة والسياسة الى اللهو ، فكان الظرف وكان الغناء وكان الشراب وكان المجون

وقد يكون من الحق أن تكون كل هذه أسباباً أنتجت ما ذكرنا

وكان لهذا النوع من الحياة أثر فى الأدب كبير ليس من شأننا هنا التعرض له

العراق : هو الجزء الجنوبى من وادى دجلة والفرات ، خَصُبَتْ أرضه وغزر ماؤه ، واعتدل جوه ، فكان من أسبق الأقاليم مدنية وعمراناً ، فقديماً تعاقبت عليه الأمم المتحضرة من نحو ثلاثين قرناً قبل الميلاد ، فالبابليون والأشوريون والكلدانيون والفرس واليونان كل هؤلاء انشئوا فى العراق ممالك تختلف صبغتها وكانت مدنيتهم مناراً يلقى أشعته على ما حوله من البلدان

وقديما عرفه العرب فنزلت فيه قبائل من بكر وربيعة ، ثم كونوا فيه امارة هى امارة المناذرة فى الحيرة ، وهى التى وصفناها قبل ، ثم استولوا عليه بعد الاسلام فى عهد عمر ، وأنشئوا فيه البصرة والكوفة فأسرع اليهما النمو ، وتحولت اليهما كنوز المدائن ، وحضارة بابل والحِيرَة وتركزت فيهما مدنية العراق فى عهد الأمويين ، حتى كان اذا قيل العراق فمعناه البصرة والكوفة ، وكانوا أحياناً يطلقون عليهما « العراقين »

لما فُتح العراق وسمع العرب بغناه رغبوا فى الرحلة اليه ، جاء فى الطبرى

« بعث عتبةُ أنسَ بن حُجَيَّة الى عمر بمنطقة مَرْزُبَانِ دَسْت مَيْسَان فقال له عمر كيف المسلمون ؟ فقال انثالت عليهم الدنيا فهم يهيلون الذهب والفضة ، فرغب الناس فى البصرة فأتوها » وترك عمر الأرض فى يد أهلها ووضع عليهـا الخراج فجعل على جريب النخل[1] عشرة دراهم وعلى جريب القصب ستة دراهم وعلى جريب البُر أربعـة دراهم وعلى جريب الشـعير درهمين فبلغ الخراج — على مايقولون — مائة مليون درهم ، وضرب على أهلها الجزية ، فكان من تجب عليهم الجزية ٥٥٠٠٠٠ وتختلف قيمة الجزية — كما علمت — بين ٤٨ ديناراً فى السنة و ٢٤ و ١٢ حسب الثروة ، فترى من هذا مقدار ثروة العراق وغناه ، مما حبب الى العرب سكناه

رحل العرب الى العراق يحملون بين جنوبهم العصبية القَبَلِيَّة[2] ، وارستقراطية الفاتح ، فكان من مظاهر الأمر الأول أن البصرة والكوفة خطط كل منهما تخطيطاً قبلياً ، فقـد قسمت الكوفة مثلا قسمين : القسم الشرقى وكان خير القسمين ، والقسم الغربى ، فاقترح على من يأخذ خير القسمين ، اليمنيون أم النزاريون ، فنال القسمَ الشرقى اليمن ، والقسم الغربى نِزار ، ثم اختط كل فريق جزءاً من أرضه حسب القبائل[3] ويروى الشعبى أن اليمنيين بالكوفة كانوا أكثر من النزاريين فكان اليمنيون اثنى عشر ألفاً ، والنزاريون ثمانية آلاف[4] ، وكانت هذه العصبية مثاراً للنزاع الشديد كما رأيت مما حكينا عن ابن أبى الحديد ، وكان عرب الكوفة

---

(١) الجريب نحو ٣٦٠٠ ذراع مربع

(٢) القبلى نسبة الى القبيلة

(٣) ترى توزيع القبائل على الخطط فى الطبرى جزء ٤ ص ١٩٢ طبع مصر وفى فتوح البلدان للبلاذرى

(٤) فتوح البلدان ص ٢٧٦ طبع أوروبا

اذا قاتلوا عرب البصرة انحازت كل قبيلة ناحية وقاتلت مثيلتها فى الجانب الآخر ، فيمن الكوفة يقاتلون يمن البصرة ، وربيعة الكوفة تقاتل ربيعة البصرة ، ومضر الكوفة تقاتل مضر البصرة [١]

وأما ارستقراطية الفاتح فكان مظهرها فى موقف العرب أزاء الموالى ، فقد كان أكثر سكان العراق من الفرس ، والعرب فيه أقلية ، فقد رأيت أنه أحصى من تجب عليه الجزية فى العراق فكانوا خمسمائة ألف وخمسين ألفاً ، هذا عدا من اسلموا من الفرس ولم تجب عليهم الجزية ، هؤلاء الموالى كانوا يحالفون العرب ويدخلون فى ولائهم لحمايتهم ، ويعدونهم سادتهم ، ويتعصب كل قوم منهم للقبيلة التى حالفوها من العرب يقول البلاذرى « حالفت الأساورة [٢] الأزد ثم سألوا عن أقرب الحيين من الأزد و بنى تميم نسباً الى النبى صلى الله عليه وسلم والخلفاء وأقربهم مدداً فقيل بنو تميم فحالفوهم » وكان هؤلاء الموالى هم القائمين بالحرف والصناعات والتجارة فى العراق ، وكان العنصر السائد المشرف على الأمر الذى بيده زمام الحرب هم العرب

تحولت هذه العصبية القبلية الى عصبية للمدينة التى سكنوها ، فعرب الكوفة ومواليها يتعصبون للكوفة ، وعرب البصرة ومواليها يتعصبون للبصرة ، يفخر كل منهما بطبيعة الأرض وموقعها الجغرافى ، ويفخر كل بما كان على يده من فتوح للبلدان ، ويفخر كل بمن نزل عندهم من صحابة رسول الله ، ويعير كل الآخر ما نبت عنده من دعاة للضلالة ، وأخيراً كانوا يتفاخرون بالعلم [٣] وظهرت هذه المفاخرات

---

(١) الطبرى جزء ٥ ص ٢٠٧

(٢) الاساورة قوم من فرسان الفرس نزلوا البصرة ويقابلهم الاحمرة بالكوفة

(٣) أنظر فى هذه المفاخرات كتاب البلدان للهمدانى المعروف بابن الفقيه ص١٦٣ وما بعدها ففيه مفاضلة ممتعة بين البصرة و الكوفة

العلمية والمناظرات وتعصُّب كل مدينة لعلمائها ظهوراً بيناً فى كثير من فروع العلم ، فالبصريون والكوفيون فى النحو ، والبصريون والكوفيون فى الفقه ، والبصريون والكوفيون فى المذاهب الدينية وعلم الكلام ، والبصريون والكوفيون فى الأدب ، يقول أعشى هَمْدان

اكْسَعِ البَصَرِيَّ ان لاقَيتَهُ ... انما يُكْسَعُ مَن قَلَّ وذل

وَاجْعَلِ الكُوفِيَّ فى الخَيْلِ ولا ... تجْعَلِ البَصْرِيّ الاَّ فى النفَل

وإذَا فَاخَرْتُمُونَا فاذْكرُوا ... ما فَعَلْنَا بِكُمُ يوم الجَمَل

بينَ شَيْخٍ خاضِبٍ عُثْنُونَهُ ... وَفَتًى أبْيَضَ وَضَّاحٍ رِفَلّ

جاءنا يخطر فى سَابِغَةٍ ... فَذَبَحْنَاهُ ضُحَّى ذَبْحَ الحَمَل

وعَفَوْنا فنَسِيتُمْ عَفْوَنا ... وكَفَرْتُمْ نِعْمَةَ اللهِ الأجَلّ

ويظهر أن العراق — على الجملة — كان أكثر البلاد الاسلامية ثروة علمية وأدبية ، اذا استثنينا بعض فروع تفوّق فيها أهل الحجاز ، ولثروة العراق العلمية أسباب أهمها : —

(أولا) أن العراق — كما علمنا — أسس على مدنيات قديمة لها علم مأثور ، فكان طبيعياً أن ينهض أهله بعد ثورة الفتح فيستعيدوا حضارتهم القديمة ، وعلمهم الموروث ، كان السريانيون منتشرين فى أرض العراق قبل الفتح ولهم مدارس يدرسون فيها الآداب اليونانية ، وكانت فى العراق مذاهب نصرانية تتجادل فى كثير من العقائد كالذى رأيت ، وكان فى الحيرة يونان مثقفون ، من أسارى الحروب الفارسية اليونانيــة ، فكان لا بد أن تتخلف من هذا جميعه آراء وأفكار خمدت أثناء الحروب ثم استيقظت بعد أن قرت سياسة البلاد ، وكان كثير من أهل العراق دخل فى الاسلام، فأخذت هذه الآراء تصطبغ بالصبغة الاسلامية ، يزهر منها مايتفق

والاسلام ويذبل منها ما يخالفه

أضف الى ذلك أن العراق — كما علمت — قطر غنى يتوافر فيه العيش فيجد الناس من أوقاتهم ما يسمح لهم بالعلم

(ثانياً) لعل العراق كان أكبر الأقاليم الاسلامية ميداناً للحروب والفتن فى عهد الدولة الأموية ، فمنذ مقتل عثمان وهو مشتعل ، ذهبت عائشة وطلحة والزبير الى البصرة ، فذهب علىّ الى الكوفة ، وكانت بين البصرة والكوفة وقعة الجمل ، وذهب الحسين الى الكوفة فكان بها مقتله ، وخرج المختار الثقفى بالكوفة يطلب بثأر الحسين ، واستولى مصعب بن الزبير على البصرة وسار الى الكوفة فقتل المختار ، وجهز عبدالملك جيشاً وسار الى العراق فقتل مصعباً ، وتغلب عبد الرحمن بن الأشعث على الكوفة فسار اليه الحجاج وتغلب عليه ، كان من أثر ذلك طبيعياً أن يتساءل الناس مَن المخطئ ومن المصيب ؟ هل أخطأ قتلة عثمان أو أصابوا ؟ هل لعلى يد فى دم عثمان ؟ هل لطلحة والزبير وعائشة حق فى قتال على ؟ هل أصاب علىّ فى التحكيم ؟ هل يصح الخروج على عبد الملك لظلم واليه الحجاج وسفكه للدماء ؟ وهل أصاب من فعل ذلك وخرج مع ابن الأشعث ؟ كل هذه أسئلة كانت تثار ، وكانت تثار بكثرة حتى فى دروس الأساتذة فى المساجد ، واذ كان العراق ميداناً لأكثر هذه الحروب كان أهله أكثر الناس جدالا فى هذا ، فكان طبيعياً أن يكون منبعاً للكثير من المذاهب الدينية ، لأن كثيراً منها بنى على نحو هذا الأساس كما سيأتى بيانه — جاء فى طبقات ابن سعد أن الحسن البصرى كان من رءوس العلماء فى الفتن والدماء — ودخل عليه قوم فقالوا له يا أبا الحسن ، ما تقول فى هذا الطاغية (يعنى الحجاج) الذى سفك الدم الحرام ، وأخذ المال الحرام ، وترك الصلاة وفعل وفعل ؟ الخ وقال « سأل رجل الحسن ما تقول فى الفتن ؟ مثل يزيد بن المهلب

وابن الأشعث ؟ فقال لا تكن مع هؤلاء ولا مع هؤلاء ؟ فقال رجل من أهل الشام ولا مع أمير المؤمنين يا أبا سعيد ؟ فغضب ثم قال بيده فخطر بها ثم قال ولا مع أمير المؤمنين يا أبا سعيد ! نعم ولا مع أمير المؤمنين[١] الى كثير من أمثال ذلك

(ثالثاً) كان العراق عرباً وموالى — كما علمت — وكانت السيادة للعرب ، فاضطر الموالى لتعلم اللغة العربية لدينهم ولدنياهم ، فكانوا مضطرين الى نوع من العلم يسهل لهم طريق التعلم ، فمست الحاجة الى وضع علم النحو ، وكان طبيعياً أن ينشأ ذلك فى العراق ، لافى الحجاز ولا فى الشام ، لأن الحجاز لم يكن فى حاجة الى قواعد يقيم بها لسانه ، ولأن موالى العراق أكثر رغبة من موالى الشام ، لما علمت من أن رغبة الفرس فى العربية كانت أكثر من رغبة سواهم ، ولأن الآداب السريانية كانت فى العراق قبل الاسلام ، وكان لها قواعد نحوية ، فكان من السهل أن توضع قواعد عربية على نمط القواعد السريانية ، خصوصاً واللغتان من أصل سامى واحد ، لهذا كان السابقون الى وضع النحو هم البصريين أولا ثم الكوفيين ، وفاق البصريون لقربهم من بادية العرب و بُعْدِ الكوفيين عن البادية الفصيحة

والآن نستعرض باختصار الحركة العلميــة فى البصرة والكوفة من مبدئها

الكوفة — نزل الكوفة من أصحاب رسول الله كثيرون ، وكان أشهرهم فى العلم على بن أبى طالب وعبد الله بن مسعود ، فأما على فكان عمله السياسى فى العراق واشتغاله بالحرب وشؤونها مانعاً له من التفرغ للتعليم ، وأما ابن مسعود فهو أكثر الصحابة أثراً علمياً فيها ، كان ابن مسعود من أول الناس اسلاماً ، حتى روى أنه سادس ســتة أسلموا ، وهاجر الى الحبشة مع من هاجر ، والى المدينة ، ولازم النبى صلى الله عليه وسلم يخدمه ، وسَمَحَ له أن يدخل بيته حين لايسمح لغيره . وشغف

(١) الطبقات جزء ٧ ص ١١٨ ، ١١٩

بالقرآن يحفظه و يتفهمه . كل ذلك جعله يفهم من تعاليم الاسلام ومعانى القرآن وأعمال الرسول ما عدّ من أجله من كبار علماء الصحابة ، بعثه عمر بن الخطاب الى أهل الكوفة يعلمهم ، فأخذ عنه كثير من الكوفيين ، ولزمه تلاميذ له يتعلمون عنه العلم و يتأدبون بأدبه ، قال فيهم سعيد بن جُبير « كان أصحاب عبدالله سُرُجَ هذه القرية » (يعنى الكوفة) وكان يعلم الناس القرآن ويفسره ، و يروى أحاديث سمعها من رسول الله ، و يُسْأل عن حوادث فيفتى فيها استنباطاً من الكتاب أو السنة أو برأيه اذا لم يرد فيها كتاب ولا سنة ، واشتهر من مدرسته هذه ستة ، كانوا يعلمون القرآن ويُفتون الناس . عَلْقمة والأَسْوَدُ ومسروق وعُبَيْدَة والحارث بن قيس وعمرو بن شُرَحْبِيل ، وهؤلاء خلفوا عبد الله بن مسعود فى التعليم بالكوفة ، ولم يكن كل علماء الكوفة أخذ عن عبد الله بن مسعود ، بل كثير منهم كانوا فى المدينة وأخذوا عن عمر بن الخطاب وعلى بن أبى طالب وعبد الله بن عباس ومعاذ ونحوهم فتكونت فى الكوفة حركة علمية كبيرة ، واشتهر من علمائها شريح والشعبى والنخعى وسعيد بن جبير . ولم تزل هذه الحركة تنمو وتنضج حتى توجت بأبى حنيفة النعمان الكوفى

البصرة — كذلك نزل فى البصرة عدد كبير من الصحابة ، أشهرهم فى العلم أبو موسى الأشعرى وأنس بن مالك

فأما أبو موسى فيمنى ، قدم مكة وأسلم وهاجر الى الحبشة مع من هاجر ، وكان يعد من أعلم الصحابة ، وقد قدم البصرة وعلّم بها ، سأل عمر بن الخطاب أنس بن مالك كيف تركت الاشعرى فقال تركته يعلم الناس القرآن فقال انه كبير ولا تُسْمِعْهَا اياه[1] ، و يدل ماروى عنه من قضاء بين الناس وفصل فى الخصومات على

---

(١) طبقات ابن سعد جزء ٤ ص ٨٠

أنه كان فقيهاً فوق معرفته القرآن والحديث ، أما أنس بن مالك فكان أنصارياً وكان صبياً لما قدم النبي المدينة وخدمه نحو عشر سنين ، وقد نزل البصرة وعُمِّر فيها طويلا ، وكان آخر من توفى بالبصرة من الصحابة ، وتوفى سنة ٩٢ هـ ولكن يظهر أنه لم يبلغ فى العلم مبلغ أبى موسى الأشعرى ولا عبد الله بن مسعود فى الكوفة ، وكان محدثاً أكثر منه فقيها ، وأشهر من خرجته مدرسة البصرة فى عهد الأمويين الحسن البصرى وابن سيرين ، وكلاهما من أبناء الموالى من سبى مَيْسَان ، وكلاهما أتاه العلم عن طريق الولاء ، فأبو الحسن البصرى كان مولى لزيد بن ثابت ، وهو من أشهر علماء الصحابة ، وسيرين أبو محمد كان مولى لأنس بن مالك وهو من علمت صحبة وحديثاً ، وكلاهما كانت له شخصية ظاهرة فى البصرة ، فالحسن البصرى اشتهر بمتانة خلقه وصلاحه وعلمه وفصاحته ، فأما متانة خلقه فتظهر فى أنه لم يكن يخشى أحداً فى ابداء رأيه ، سئل عن ولاية يزيد بن معاوية فلم يستصوبها على حين أن الشعبى وابن سيرين لم يجرؤا على ابداء رأيهما ، وقد رأيت قبل أن سائلا سأله عن الدخول فى الفتن فكان لا يرى الدخول فيها ، فسأله ولا مع أمير المؤمنين فقال ولا مع أمير المؤمنين ، وكان يقارن بالحجاج فى فصاحته ، وفوق ذلك كان ورعاً تقياً يعده الصوفية أحدهم ، ويتمثلون بحكمه وجمله ، ويعده المعتزلة رأسهم لأنه تكلم فى القضاء والقدر وكان يذهب الى أن الانسان حر الارادة ، وكان فقيهاً يستفتى فيما يعرض من الحوادث فيفتى بعلم ، وكان قَصَّاصاً يعد من سادة القصاص وأصدقهم ، لذلك كان الحسن شخصية ممتازة فى كل ناحية من النواحى التى ذكرنا ، ويروى ابن خلكان أنه لما مات (سنة ١١٠ هـ) تبع أهل البصرة كلهم جنازته حتى لم يبق بالمسجد من يصلى العصر

وأما ابن سيرين فقد تعلم على زيد بن ثابت وأنس بن مالك وشريح وغيرهم

وكان محدثاً ثقة وفقيهاً يفتى فيما يعرض عليه من الشؤون ، وكان معاصراً للحسن البصرى ، وكانا صديقين حيناً ، وبينهما وحشة حيناً ، وسبب الوحشة على ما يظهر اختلاف طباعهما فقد كان الحسن صريحاً شديداً حزيناً غضوباً ، لايخشى أن يقول ما يعتقد حتى فى المسائل السياسية الخطرة ، وكان ابن سيرين حليما ضحوكا يتحرج أن يقول ما يؤخذ عليه[1] وقد اشتهر فيما بعد بتفسير الاحلام وزيف عليه كتاب فى ذلك ، وقد ذكره ابن النديم فى الفهرست ونسبه اليه ، ولكنا لانجد أثراً لشهرته فى تعبير الرؤيا فى كتب المتقدمين أمثال طبقات ابن سعد ، ومات سنة ١١٠هـ وكان الحسن وابن سيرين يعدان سيدى أهل البصرة

***

وكان فى العراق حركة غير الحركة الدينيـة تعد كأنها امتداد للحياة العقلية الجاهلية ، مصبوغة بالصبغة الاسلاميـة ، فقد كان للقبائل العربية النازلة بالبصرة والكوفة رؤساء ، وكان هؤلاء الرؤساء أشبه شىء برؤساء القبائل فى الجاهلية ، فى السيادة على قبائلهم ، والتفاف الناس حولهم ، والخضوع لاشارتهم فى السلم والحرب ، ووقوف الشعراء ببابهم يتغنون بمدحهم وينشرون مفاخرهم ويهجون أعداءهم ، ويتغنى هؤلاء السادة بالسيادة والمروءة وبذل المال وما الى ذلك ، كالأحنف بن قيس سيد تميم البصرة ، والحَكَم بن المنذر بن الجارود سيد عبد القيس البصرة ، ومالك ابن مِسْمَع سيد بَكْر البصرة ، وقتيبة بن مسلم سيد قيس البصرة ، ومحمد بن عُمَيْر ابن عطارد بن حاجب بن زُرَارة سيد تميم الكوفة ، وحسان بن المنذر من ضبة الكوفة وحُجْر بن عدى ومحمد بن الأشعث سيدَى كندةِ الكوفة وغيرهم ، وهؤلاء وأمثالهم كانوا مصدراً لحيـاة أدبية قوية ، من شعر يشبه الشعر الجاهلى وحكم تشبه

(١) استنتجنا هذا من سيرة الحسن وابن سيرين فى طبقات ابن سعد وانظر فى ذلك خاصة جزء ٧ ص ١٤٢

التى تروى عن أكثم بن صَيْفى ، وليس هذا موضع شرح هذه الحركة الأدبية ولكن لا بأس من تصوير شخصية من هذه الشخصيات الكبيرة ، ليتبين لنا منحاها فى الحياة وتأثيرها فى الأدب ، ولتكن شخصية الأحنف بن قيس

كان الأحنف كما ذكرت — سيد بنى تميم فى البصرة وكان كما يقولون اذا غضب غضب لغضبته مائة ألف سيف لا يدرون فيم غضب ، يدخل بنو تميم الحرب مع من أحب الاحنف ، ويكفون اذا كف ، وعرف معاوية منزلته فى قومه وسيادته فقربه وأكرمه ، وأوصى ولاته بذلك حتى كان يعزل الوالىَ اذا غضب عليه الأحنف ، ويحتمل منه معاوية الكلمة القارصة ويداريه ، قال له معاوية يوماً والله يا أحنف ما أذكر يوم صفين الا كانت حزازة فى قلبى (لأن الأحنف كان مع على) فقال الأحنف والله يامعاوية ان القلوب التى أبغضناك بها لفى صدورنا ، وان السيوف التى قاتلناك بها لفى أغمادها ، وان تدن من الحرب فِتْراً ندن منها شبراً ، وان تَمْشِ اليها نهرول لها — وكان له فضل فى التأليف بين كثير من القبائل المتعادية فى البصرة — وكان مثلا فى علو النفس والاحتفاظ بالكرامة والمروءة ولما مات قيل « مات سِرُّ العرب » وأبنته امرأة فقالت « لقد كنتَ فى الحىِّ مسوَّداً ؛ والى الخليفة موفَداً ، ولقد كانوا لقولك مستمعين ، ولرأيك متبعين » وله من الأقوال المأثورة والحكم ما ملأ كتب الأدب مثل « لاخير فى لذة تُعْقِب ندماً » « لن يفتقر من زهد » « أنصف من نفسك قبل أن يُنْتَصَفَ منك » « ما أقبح القطيعة بعد الصلَة » « أنفق فى حق ولا تكن خازناً لغيرك » « لاراحة لحسود ولا مروءة لكذوب » الخ

***

أما الحركة الفلسفية فى العراق فسنشير اليها عند الكلام على المذاهب الدينية

وقد أينعت فى الدولة العباسية حتى نبغ من الكوفة كثيرون من الفلاسفة ، ونبغ من البصرة جماعة اخوان الصفاء

الشام : قطر غنى ، خصب الارض كثير المياه ، معتدل الجو ، كان مبعثاً لكثير من الانبياء ، فنشروا فيه تعاليمهم الدينيـة [1] ، وتعاقبت عليه المدنيات المختلفة فاورثته علمها وحضارتها ، ففينيقيون وكلدانيون ومصريون وعبريون ويونانيون ورومانيون ، كل هؤلاء كانت لهم مدنية ، وكان لهم علم ، وانتشر علمهم فى البلاد ، وكان من أهل الشام أنفسهم من شارك فى العلم ونبغ فيه ،وبارى علماء الامم المستعمرة ، واشتهر فى الشام كثير من المدن كان مركزاً للعلم والحركة العقلية ، كصُور وانطاكية وصيدا وبيروت ودمشق وحمص ، أورثها الفينيقيون حروف الكتابة ، والعبريون التعاليم الآلهيـة ، واليونان المذاهب الفلسفية ، والرومان النظريات الفقهية ، فكان لذلك كله الأثر الكبير فى عقلية الشاميين ، وقد ذكرنا قبل ذلك طرفا مما كان للسريانيين من حركة علميـة فى هذه البقاع وما حولها

وقد عرف العرب فى جاهليتهم هذه البـلاد فزحفوا اليها طمعاً فى خيراتها ، وانشئوا ولايات بها فى حمص و بَطْرةَ من أول القرن الثانى قبل الميلاد، ثم كانت فى القرن الخامس الميلادى امارة الغساسنة وقد سبق ذكرها ، وقد تأقلموا باقليمها واعتنقوا النصرانية بعد انتشارها فى ربوع الشام، وتمدنوا بشىء من مدنيتها وتكلموا بلغة هى خليط من الآرامية والعربية ، وعدوا أنفسهم سوريين يرتبطون بسوريا أكثر مما يرتبطون بجزيرة العرب

فتح الاسلام هذه البلاد ونشر لغته وتعاليمه بها ، فأخذ عرب الشام يتعلمون

---

(١) نعنى بالشام ما يشمل فلسطين كما هو اصطلاح كتاب العرب كياقوت

لغة قريش ، وبدأ أهل الشام انفسهم يتعلمونها ويتكلمون بها مع لغتهم الآرامية أو اليونانية ، كذلك أخذ الاسلام يحل فيهـا محل النصرانية واليهودية ، ودخل كثير من الشاميين فى الأسلام وبعث عمر اليهم من يعلمهم الدين الجديد ، شأنه مع كل الممالك التى فتحت فى عهده

أورد البخارى فى التاريخ أن يزيد بن سفيـان كتب الى عمر « قد احتاج أهل الشام الى من يعلمهم القرآن ويفقههم فأرسل مُعاذا وعُبَادة وأبا الدرداء » فـكان هؤلاء أول مؤسسى المدرسة الدينية بالشام ، فأما معاذ فقد قرأت طرفا من سيرته العلمية عند الكلام على مدرسة مكة ، وقد قضى آخر حياته فى الشام معلماً ، وأما عبادة بن الصامت فهو كذلك أنصارى كان ممن جمع القرآن ، وولاه ابو عبيدة امرة حمص ، ووُلى قضاء فلسطين ، وكان من أفقـه الناس فى دين الله كما كان شديداً فى الحق ، أنكر على معاوية كثيراً من اموره فشكاه الى عثمان ، ومات بالشام

وأما أبو الدرداء فأنصارى كذلك كان من أفضل الصحابة وفقهائهم ، وقد ولى القضـاء بدمشق وتوفى بها — وقد تفرق هؤلاء الثلاثة فى بلاد الشام يعلمون أهلها ، فقد نزلوا جميعاً أولا فى حمص ، ثم خلفوا بها عبادة وخرج أبو الدرداء الى دمشق ، ومعاذ الى فلسطين ، ثم خرج عبادة بعدُ الى فلسطين — وقد بعث عمر بعد هؤلاء عبد الرحمن بن غُنْم ، فتخرج على يدهم جميعاً كثير من التابعين كأبى ادريس الخَوْلَانى ثم مكحول الدمشقى وعمر بن عبد العزيز ورَجَاء ابن حَيْوَة ، وتخرج فى هذه المدرسة امام أهل الشام عبد الرحمن الأَوْزاعى الذى يقرن بمالك وأبى حنيفة ، وقد ولد ببعلبك وعاش فى دمشق و بيروت ولقب « بامام أهل الشام » وقلده أهلها ، وانتشر مذهبه فى المغرب والأندلس ، ولكن هزمه مذهبا الشافعى ومالك ، فأسرع اليه الفناء

كانت دمشق مركز الخلافة فى عهـد الدولة الأموية ، فكان طبيعياً أن يقصدها العلمـاء من كل صقع ، ولكن خلفاء بنى أمية لم يشجعوا الحركة العلمية لما بينا قبل ، انما شجعوا الشعر والخطابة وفنون الأدب فكانت الحركات العلميـة الأخرى تنمو من نفسها ، وأهم هذه الحركات الحركة الدينية ، وكان الباعث على نموها الحماسة الدينية وحاجة الناس الى معرفة الحلال والحرام ، وخاصة فيما يعرض من الحوادث التى لم تكن تعرض فى صدر الاسلام

وكان بالشام نصارى كثيرون ، احتفظوا بدينهم ، ورضوا بدفع الجزية عن رؤوسهم والخراج عن أرضهم ، ودخل كثير من نصارى الشام فى الاسلام ، وكان من هؤلاء وهؤلاء مثقفون بالثقافة النصرانية ؛ وقامت المساجد بجانب الكنائس ، فسرعان ما كان الاحتكاك بين الإسلام والنصرانيـة وكان بينهما جدال وحوار وخصومة ، يدل عليها ما أثر من كتابة يحيى الدمشقى النصرانى كما أسلفنا ، وقد سبب هذا الاحتكاك ظهور الكلام فى القضاء والقدر أو الجبر والاختيار ، والكلام فى صفات الله هل هى عين الذات أو غيرها ، ولعل هذا هو الاساس الأول لعلم الكلام فى الاسلام

مصر : فتح المسلمون مصر والثقافة اليونانية الرومانية منتشرة فيها ، وقد ذكرنا قبل شيئاً عن مدرسة الاسكندرانيين ومذهبهم وتعـاليمهم ، فلما تم فتحها أقبل العرب عليها لما سمعوا بغنـاها وخصب أرضها ، وخططوا الفسطاط حسب قبائلهم ، ونزلوا بالمدن والأرياف ، واستوطنوها واتخذوا الزرع معاشاً ، ودخل كثير من القبط فى الاسلام ، واختلطت أنساب العرب بأنساب المصريين بما كان بينهم من تزاوج [1]

---

(١) أنظر خطط المقريزى جزء ١ ص ٨٢ طبعة ميرى

أصبحت مصر منذ دخول العرب اليها مركزاً علمياً فى المملكة الاسلامية كما هى مركز سياسى ، ولكن الحركة العلمية فى بدء عهدها لم تكن حركة فلسفية ولا دنيوية انما كان شأنها شأن جميع المراكز العقلية اذ ذاك ، فأكبر شىء قيمة هو الدين، فكان طبيعياً أن يكون العلم السائد فى هذا العصر فى جميع الأقطار هو علم الدين وما اليه ، ولكن ليس معنى هذا أن الثقافة اليونانية الرومانية التى كانت منتشرة فى مصر والشام والعراق قد بادت ولم يعد لها من أثر ، انما أصابتها دهشة الفتح وخضعت لقوة الحركة الدينية ، فلما هدأت النفوس أخذت هذه الثقافة اليونانية الرومانية تستعيد نشاطها وقوتها بعد أن صبغت بالتعاليم الاسلامية، وعدلت حسب ما يتفق والاسلام، ولكن هذا النشاط لم يظهر الا آخر الدولة الأموية وصدر الدولة العباسية

كان من الصحابة الذين نزلوا بمصر علماء علَّموا بها،وكانوا أساس مدرستها ، وأشهرهم عبد الله بن عمرو بن العاص ، وقد كان عبد الله هذا من أكثر الناس حديثاً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان يدوّن مايسمع،قال مجاهد (رأيت عند عبد الله بن عمرو صحيفة فسألته عنها فقال هذه الصادقة، فيها ما سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس بينى و بينه فيها أحد)[1] وكان مع هذا كثير الاطلاع فى غير الحديث ، فابن حَجَر فى الاصابة يروى لنا أنه كان يقرأ التوراة ، وابن سعد فى طبقاته يروى لنا عن شَرِيك أنه قال رأيت عبد الله بن عمرو يقرأ بالسريانية ، وقد روى عنه الحديث كثير من الصحابة والتابعين فى المدينة والشام ومصر ، وقد خرج مع أبيه الى مصر عند ماولاه اياها معاوية، ولماحضرت الوفاة عمراً استعمل ابن عبد الله عليها ، فأقره معاوية ثم عزله

---

(١) طبقات ابن سعد ج ٧ ص ١٨٩

وكان يحج ويعتمر ويأتى الشام ثم يرجع الى مصر ، وابتنى فيها داراً فلم يزل بها حتى مات فدفن فى داره فى مصر — على أحد الأقوال — فى خلافة عبد الملك ابن مروان — ويُعد بحق مؤسس المدرسة المصرية — فقد أخذ عنه كثير من أهل مصر وكانوا يكتبون عنـه ما يحدِّث. روى المقريزى (عن حَيْوَة بن شريح قال دخلت على حسين بن شُفَيّ بن مَانِع الأَصْبَحِي وهو يقول فعل الله بفلان ، فقلت ماله ؟ فقال عمد الى كتابين كان شفي سمعهما من عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنه، أحدهما قضى رسول الله فى كذا وقال رسول الله كذا ، والآخر مايكون من الأحداث الى يوم القيامة فأخذهما فرمى بهما بين الخَوْلة والرَّبَاب)[1]

وقد اشتهر من مدرسة مصر بعد الصحابة يزيد بن أبى حبيب وهو نوبى الأصل من دنقلة وقد أخذ العلم عن بعض الصحابة المقيمين بمصر ، قال الكندى أنه أول من نشر العلم بمصر فى الحلال والحرام ومسائل الفقه ، وكانوا قبل ذلك انما يتحدثون فى الفتن والترغيب ، وكان ثالث ثلاثة جعل عمر بن عبد العزيز الفتيا اليهم بمصر ، رجلان من الموالى ورجل من العرب ، فأما العربى فجعفر بن ربيعة وأما الموليان فيزيد بن أبى حبيب وعبد الله بن أبى جعفر ، فكأن العرب أنكروا ذلك فقال عمر بن عبد العزيز ما ذنبي ان كانت الموالى تسمو بأنفسها صُعُداً وأنتم لا تَسْمُون[2] وقد كان يزيد عالماً بالفتن والحروب وخاصة ما يتعلق بفتح مصر وشؤونها وولاتها ، وهو أحد الاركان الذين نقل عنهم الكندى كتابه « ولاة مصر وقضاتها »

---

(١) المقريزى ج ٢ ص٣٣٣، قال أبو سعيد بن يونس: يعى بقوله الخولة والرباب مركبين كبيرين من سفن الجسر كانا يكونان عند رأس الجسر مما يلى الفسطاط تجوز من تحتهما لكبرهما المراكب

(٢) أنظر خطط المقريزى ج ٢ ص ٣٣٣ طبعة ميرى

وكان من أشهر تلاميذ يزيد هذا عبد الله بن لَهِيعة والليث بن سعد ، فأما عبد الله فعربى أصله من حضرموت — وما أكثر الحضارمة كانوا فى مصر — وقد قابل كثيراً من التابعين وأخذ عنهم ، وكان يدون ما يسمع

وكثير من المحدثين كالبخارى والنسائى لا يثق به ، ومن الأسف أن كثيراً من حوادث تاريخ العرب فى مصر نقلت عنه وكان هو العمدة فى روايتها — وقد ولى القضاء بمصر نحو تسع سنين

وأما الليث بن سعد فمن الموالى على أصح الأقوال، أصله من أصفهان فى فارس ولكن الراجح أنه هو ولد فى مصر فى قَلْقَشَنْدَة وقد طوّف فى كثير من البلدان لأخذ العلم، فرحل الى مكة و بيت المقدس و بغداد ، ولقى تسعة وخمسين تابعياً حدّث عنهم، وكان له اتصال بالامام مالك فى المدينة يكاتبه فى مسائل فى التشريع ويحاجه ، ويروون أن الشافعى قال الليث أفقه من مالك الا أن أصحابه لم يقوموا به ، وكان ذا منزلة رفيعة فى قومه ، يستشيره الولاة والقضاة فى عظائم الأمور ، ثقة لم يشك أحد فى صدقه وأمانته — وكان له مذهب خاص يعرف به ، وقد قلده المصريون واتبعوه ولكن ضاع مذهبه كما ضاع مذهب الأوزاعى فى الشام

* * *

نأخذ مما تقدم أنه بعد فتح الممالك تفرق الصحابة فى الأمصار وكان من هؤلاء الصحابة علماء رحلوا للتعليم فكانوا نواة لمدارسها ، وأن هؤلاء الصحابة العلماء كانت لهم شخصيات علمية مختلفة كان لها أثرها فى مدارسهم ، وأن أكبر الشخصيات تأثيراً فى الأمصار هى عبد الله بن عمر فى المدينة ، وعبد الله بن مسعود فى الكوفة ، وعبد الله بن عباس فى مكة ، وعبد الله بن عمرو بن العاص فى مصر — لم يكن هؤلاء الصحابة يحيطون علماً بكل ما قاله النبى صلى الله عليه وسلم وفعله،

وبكل ما يتعلق بتعاليم الدين ، بل كان منهم من صحب النبى فى بعض الأوقات دون بعض،ففاته حين لم يصحبه علم حمله غيره ، لذلك علم كل منهم شيئاً وغاب عنه شىء ، واستتبع هذا أن بعض الامصاركان يعرف من الحديث ما لم يعرفه الآخر ، خلف هؤلاء الصحابةَ التابعون فتلقوا عنهم، وحلوا محلهم فى رفع لواء العلم، وشعر كثير منهم بأن فى الأمصار الاخرى علماً غير علمهم فأكثروا من الرحيل، فكانت هناك حركة دائمة للعلماء، فمصرى يرحل الى المدينة ، ومدنى الى الكوفة ، وكوفى الى الشام ، وشامى الى هنا وهناك ، وهكذا عملوا على توحيد الوطن العلمى ، وكان من أثر هذا التقليلُ من الفروق التى سببتها الشخصيات العلمية المختلفة للصحابة ، وأخذ عن التابعين طبقات أتت بعدهم سارت على مناهجهم

وبعد ، فماذا كان يُعَلَّم فى المدارس المختلفة فى هذه الأمصار تفصيلا ؟ وعلام كانت تدور الحركات العلمية اذ ذاك ؟ وهل كان هناك تأثير للأمصار المختلفة فى العلم ؟ وهل تأثر العلم فى الشام ومصر بمدنية الرومان ؟ وهل تأثر فى العراق بمدنية الفرس؟ وهل تأثر فى الحجاز ببساطة العرب؟ وهل كان للعقائد الدينية المنتشرة كانت فى هذه الأقطار قبل الاسلام أثر فى المذاهب الدينية التى نشأت بعد الاسلام ؟ ذلك مطلب عسير سنحاول الاجابة عنه فى البابين التاليين ان شاء الله

مصادر هذا الباب

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد

(٢) الاصابة فى أخبار الصحابة

(٣) أسد الغابة لابن الأثير

(٤) فتوح البلدان للبلاذرى

(٥) معجم البلدان لياقوت

(٦) كتاب البلدان للهمذانى المعروف بابن الفقيه

(٧) التنبيه والاشراف للمسعودى

(٨) تاريخ ابن جرير الطبرى

(٩) شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد

(١٠) دائرة المعارف الاسلامية فى مادة العراق والبصرة والكوفة والشام ومصر وغير ذلك

(١١) ابن خلكان

(١٢) خطط المقريزى

(١٣) أخبار ولاة مصر وقضاتها للكندى

(١٤) الأغانى والعقد الفريد والجزء الأول والثانى من عيون الأخبار لابن قتيبة

(١٥) أعلام الموقعين لابن القيم

(١٦) فهرست ابن النديم

(١٧) طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة

(١٨) أخبار الحكماء للقفطى

(٢٩) الاعلاق النفيسة لابن رسته

وهناك كتب غير هذه تجد ذكرها فى أثناء البحث

الباب السادس

الحركة الدينية

تفصيلا

قدمنا أن الحركة الدينية فى صدر الاسلام كانت أكثر الحركات انتشاراً، وأوسعها ميداناً، وأن أكثر العلماء الذين ظهروا فى هذا العصر كانوا علماء دين، وأن السبب فى ذلك أن الدين ملك على الناس نفوسهم ورأوا فيه سبب وحدتهم وعلة نهضتهم، لولاه لظل العرب شيعاً وأحزاباً يضرب بعضهم بعضاً، ولولاه لقبعوا فى كسر بيتهم، ولما تعدوا حدود بلادهم، ولما فتحوا الأمصار ودوخوا الممالك، فهو هو عزهم فى الدنيا ورجاؤهم فى الآخرة، وأخلص له قوم من غير العرب فاعتنقوه وآمنوا أنه هو السبيل لسعادتهم، فأقبل هؤلاء وهؤلاء على القرآن يتفهمونه، والحديث يجمعونه ويشرحونه، وأخذوا يستنبطون منهما أحكام ما يعرض فى هذه الدولة المترامية الأطراف من حوادث، فأما العلوم الدنيوية والفلسفية فكان ضعيفاً شأنها، بل كان ما ينمو منها انما يحتاج فى نموه الى الدين يعتمد عليه ويصطبغ به، يستخير الله عمر بن عبد العزيز أياماً ليخرج للناس كتاباً فى الطب عثر عليه، وتتخذ أخبار الفتن والملاحم والغزوات والفتوح شكل الحديث وهكذا — وقد وصفنا قبل هذه الحركة الدينية اجمالا فلنعرض لها الآن بشىء من التفصيل.

كان أهم ما تدور عليه هذه الحركة ثلاثة أشياء: القرآن وتفسيره، والحديث وجمعه وتبويبه، واستنباط الأحكام لما يعرض من أحداث وهو الذى نسميه بالتشريع.

الفصل الأول

القرآن وتفسيره

نزل القرآن مُنَجَّما على رسول الله فى نحو عشرين سنة ، وكان ينزل حسب الحوادث ومقتضى الحال ، وتوفى رسول الله ولم يجمع القرآن فى مصحف ، بل كان فى صحف مفرقة كتبها كتاب الوحى ، وفى صدور الحفاظ من الصحابة ، وفى عهد أبى بكر أمر بجمع القرآن ، ولكن لا فى مصحف واحد بل جمعت الصحف المختلفة التى فيها آيات القرآن وسوره . وكتب منها ما كان فى صدور الرجال ، وأودعت الصحف الكثيرة التى فيها القرآن عند أبى بكر ، وقد تولى جمعه هذا زيد بن ثابت

وانتقلت من أبى بكر الى عمر ، ثم الى حَفْصة بنت عمر ، حتى اذا تولى عثمان أخذ الصحف من حفصة وعهد الى جمع من الصحابة منهم زيد بن ثابت وعبد الله ابن الزبير وسعيد بن العاص بجمعها فى مصحف واحد ، وكتب منه نسخاً كثيرة وزعت على الأمصار ، وأحرق ما يخالفه من الصحف : فى حديث طويل ليس هذا محل تفصيله

نزل القرآن بلغة العرب وعلى أساليب العرب فى كلامهم ، فألفاظه عربية ، إلا ألفاظاً قليلة عُرّبت وأخذت من اللغات الأخرى ، ولكن هضمتها العرب وأجرت عليها قوانينها ، وأساليبه هى أساليب العرب فى كلامها ، ففيه الحقيقة وفيه المجاز وفيه الكناية الخ على نمط العرب فى حقيقتهم ومجازهم ، وهذا طبيعى لأنه أتى يدعو العرب — أولا — الى الاسلام ، فلا بد أن يكون بلغة يفهمونها « وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ »

ومع هذا فلم يكن القرآن جميعه فى متناول الصحابة جميعاً يستطيعون أن يفهموه — اجمالا وتفصيلا — بمجرد أن يسمعوه ، وليس بصحيح مايقوله ابن خلدون من « أن القرآن نزل بلغة العرب وعلى أساليب بلاغتهم فكانوا كلهم يفهمونه ويعلمون معانيه فى مفرداته وتراكيبه »[١] لأن نزول القرآن بلغة العرب لا يقتضى أن العرب كلهم يفهمونه فى مفرداته وتراكيبه ، والدليل على ذلك ما هو حاصل فى مشاهداتنا الأولى ، فليس كل كتاب مؤلف بلغة يستطيع أهل اللغة كلهم أن يفهموه ، فكم من كتب انجليزية وفرنسية لا يستطيع الانجليز أو الفرنسيون أنفسهم أن يفهموها ، لأن فهم الكتاب لا يتطلب اللغة وحدها ، وانما يتطلب درجة عقلية خاصة تتفق ودرجة الكتاب فى رقيه ، وهكذا كان شأن العرب أمام القرآن فلم يكونوا كلهم يفهمونه اجمالا وتفصيلا ، انما كانوا يختلفون فى مقدار فهمه حسب رقيهم العقلى ، بل أن ألفاظ القرآن أنفسها لم يكن العرب كلهم يفهمون معناها ، كما لم يدع أحد أن كل فرد فى أمة يعرف جميع ألفاظ لغتها ، وحسبنا على ذلك «ماروى عن أنس بن مالك أن رجلا سأل عمر بن الخطاب عن قوله تعالى «وَفَاكِهَةً وأَبًّا» ما الأبّ ؟ فقال عمر نهينا عن التكلف والتعمق ، وروى عن عمر أيضاً أنه كان على المنبر فقرأ « أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ » ثم سأل عن معنى التَّخَوُّف فقال له رجل من هذيل — التخوف عندنا التنقص ثم أنشده

تَخَوَّفَ الرَّحْلُ مِنْهَا تَامِكا قَرِداً كَمَا تَخَوَّفَ عُودَ النَّبْعَةِ السَّفَنُ[٢]

ونحن نعلم قدر عمر فى الدين والعلم فكيف بغيره من الصحابة — انما كان

---

(١) المقدمة ص ٣٦٦

(٢) الحكايتان وردتا فى كتاب الموافقات ج ٢ ص ٥٧ ، ٥٨ طبع مصر ، والسفن الحديدة التى يبرد بها خشب القوس والقرد الكثير القردان ، والتامك العظيم السنام ، يقول ان الرحل تنقص الناقة كما تأكل الحديدة خشب القسى

كثير من الصحابة يكتفون بالمعنى الاجمالى للآية ، فيكتفون من قوله تعالى « وفاكهة وأبا » بأنه تعداد لنعم الله ، ولا يُلزمون أنفسهم بتفهم معانى الآيات تفصيلا

وفوق ذلك ، ففى القرآن آيات كثيرة لا يكفى فى تفهمها معرفة ألفاظ اللغة وأساليبها ، مثل « وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحاً » « والذَّارِيَاتِ ذَرْوًا » وما المراد بالليالى العشر فى قوله تعالى « وَالْفَجْرِ وَلَيَالٍ عَشْرٍ » وما المراد بليلة القدر ؟ الى كثير من أمثال ذلك ، وفيه اشارات كثيرة الى أشياء فى التوراة والانجيل وردٌّ عليهم ليس يكفى فى فهمها معرفة اللغة ، والله تعالى يقول « هُوَ الَّذِى أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِى الْعِلْمِ . الآية »(١)

الحق أن من البديهى أن الصحابة رضى الله عنهم كانوا يتفاوتون مقدرة فى فهم القرآن ومعرفة معانيه .

* * *

ولم يكن شائعاً فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم حفظ القرآن جميعه كما شاع بعد ، انما كانوا يحفظون السورة أو جملة آيات و يتفهمون معانيها فاذا حذقوا ذلك انتقلوا الى غيرها فكان حفظ القرآن موزعاً على الصحابة ، قال أبو عبد الرحمن السلمى حدثنا الذين يقرأون القرآن كعثمان بن عفان وعبد الله بن مسعود وغيرهما أنهم كانوا اذا تعلموا من النبى صلى الله عليه وسلم عشر آيات لم يتجاوزوها حتى يعلموا ما فيها من العلم والعمل — وقال أنس كان الرجل اذا قرأ البقرة وآل عمران جدّ فى اعيننا (رواه احمد فى مسنده) وأقام ابن عمر على حفظ البقرة ثمان سنين (٢) ذلك أنه

(١) أحسن تفسير للمحكم أنه المكشوف المعنى الذى لا يتطرق اليه أشكال واحتمال ، والمتشابه ماتطرق اليه الاحتمال

(٢) الاتقان جزء ٢ ص ٢٠٨

انما كان يحفظ ولا ينتقل من آية الى آية حتى يفهم

* * *

فى القرآن آيات كثيرة محكمة واضحة المعنى وهى التى تتعلق بأصول الدين وأصول الأحكام . وخاصة منها الآيات المكية التى تدعو الى أصول الدين كسورة الانعام . وهذا النوع من الآيات يستطيع فهمه جمهور الناس ولاسيما من كانوا عربا بسليقتهم ، وفى القرآن آيات غامضة هى التى سميت متشابهة ، صعب فهمها ولم يصل الى معرفتها الا الخاصة

وكان الصحابة — على العموم — أقدر الناس على فهم القرآن لأنه نزل بلغتهم ولأنهم شاهدوا الظروف التى نزل فيها القرآن

ومع هذا فقد اختلفوا فى الفهم على حسب اختلافهم فى أدوات الفهم وذلك

(١) أنهم كانوا يعرفون العربية على تفاوت فيما بينهم وان كانت العربية لغتهم ، فمنهم من كان يعرف كثيراً من الأدب الجاهلى ويعرف غريبه ويستعين بذلك فى فهم مفردات القرآن ، ومنهم من كان دون ذلك

(٢) كذلك منهم من كان يلازم النبي صلى الله عليه وسلم ويقيم بجانبه ويشاهد الأسباب التى دعت الى نزول الآية ، ومنهم من ليس كذلك ، ومعرفة أسباب التنزيل من أكبر ما يعين على فهم المقصود من الآية ، والجهل بها يوقع فى الخطأ ، روى أن عمر استعمل قُدَامة بن مَظْعون على البحرين فقدم الْجَارُود على عمر فقال أن قدامة شرب فسكر ، فقال عمر من يشهد على ما تقول ؟ قال الجارود : أبو هريرة يشهد على ما أقول ، فقال عمر ياقدامة انى جالدك ، قال والله لو شربتُ كما يقولون ما كان لك ان تجلدنى ، قال عمر ولِمَ ؟ قال لأن الله يقول « لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا

الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا » فأنا من الذين آمنوا وعملوا الصالحات ثم اتقوا وآمنوا ثم اتقوا وأحسنوا ، شهدت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بدراً واحُداً وَالخَنْدَق والمشاهد ، فقال عمر ألا تردون عليه قوله ؟ فقال ابن عباس أن هذه الآيات أنزلن عذراً للماضين ، وحجة على الباقين ، لأن الله يقول «يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الخَمْرُ والمَيْسِرُ والأَنْصَابُ والأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ » قال عمر صدقت — وجاء رجل الى ابن مسعود فقال تركت فى المسجد رجلا يفسر القرآن برأيه ، يفسر هذه الآية « يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ » قال يأتى الناسَ يوم القيامة دخان فيأخذ بأنفاسهم حتى يأخذهم كهيئة الزكام ، فقال ابن مسعود من علم علماً فليقل به ومن لم يعلم فليقل الله أعلم ، انما كان هذا لأن قريشاً استعصوا على النبى صلى الله عليه وسلم فدعا عليهم بسنين كسِنِى يوسف ، فأصابهم قحط وجهد حتى أكلوا العظام ، فجعل الرجل ينظر الى السماء فيرى بينه و بينها كهيئة الدخان من الجهد (١)

(٣) كذلك اختلافهم فى معرفة عادات العرب فى أقوالهم وأفعالهم ، فمن عرف عادات العرب فى الحج فى الجاهلية استطاع أن يفهم آيات الحج أكثر ممن لم يعرف وهكذا ، وكذلك الآيات التى وردت فى التنديد بمعبودات العرب وطريقة عبادتهم لا يكمل فهمها الا لمن عرف ماذا كانوا يفعلون

(٤) ومثل هذا معرفة ما كان يفعله اليهود والنصارى فى جزيرة العرب وقت نزول الآيات ، ففيها اشارة الى أعمالهم ورد عليهم ، وهذا لا يتم فهمه الا بمعرفة ما كانوا يفعلون — من ذلك ونحوه كان الاختلاف بين الصحابة فى الفهم وكان التابعون ومن بعدهم أشد اختلافا

* * *

---

(١) الموافقات جزء ٣ ص ٢٠١ وما بعدها

مصادر التفسير — هناك تفسير يسمى التفسير بالمنقول و يعنون به

أولا — تفسيراً نقل عن النبي صلى الله عليه وسلم مثل الذى روى أن رسول الله قال الصلاة الوسطى صلاة العصر ، ومثل ماروى عن على قال سألت رسول الله عن يوم الحج الأكبر فقال يوم النحر، وماروى أى الاجلين قضى موسى؟ قال أوفاهما وأبرهما الخ وهذا النوع كثير وردت منه أبواب فى كتب الصحيح الستة وزاد فيه القصاص والوضاع كثيراً ، ونقد ذلك علماء الحديث فمنها ماصححوه ومنها ماضعفوه، وأهم مايدل على دخول الوضع فى هذا الباب أنك ترى فى الآية الواحدة تفسيرين متناقضين لايمكن أن يصدرا عن رسول الله ، مثل الذى روى عن أنس أن رسول الله سئل عن قوله تعالى« والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة» قال القنطار ألف أوقية، ورووا عن أبى هريرة أنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم القنطار اثنا عشر ألف أوقية[1] — بل أن بعض العلماء أنكر هذا الباب بتاتاً ، أعنى أنه أنكر صحة ورود مايروونه من هذا الباب، فقد روى أن الامام احمد بن حنبل قال « ثلاثة ليس لها أصل، التفسير والملاحم والمغازى»[2] ومما يدل على عدم ثقة المفسرين بما ورد فى هذا الباب أنهم لم يقفوا عند ماورد ، بل أتبعوا ذلك بما أداه اليه اجتهادهم ، ولو كان ذلك صحيحاً فى نظرهم لوقفوا عند حدود النص

و بمرور الزمان تضخم هذا التفسير المنقول فدخل فيه أيضاً ما نقل عن الصحابة والتابعين وهكذا ، حتى كانت كتب التفسير المؤلفة فى العصور الأولى مقصورة على هذا النحو من التفسير

(الثانى) من مصادر التفسير الاجتهاد وان شئت فقل الرأى ، يعرف المفسر

(١) أخرج الحديث الاول الحاكم والثانى احمد وابن ماجه

(٢) الأتقان جزء ٢ ص ٢١١ وتقل أن المحققين من أصحاب احمد قالوا أن مراده أن الغالب أنه ليس لها أسانيد صحاح متصلة

كلام العرب ومناحيهم فى القول ، ويعرف الألفاظ العربية ومعانيها بالوقوف على ماورد فى مثله من الشعر الجاهلى ونحوه ، ويقف على ما صح عنده من أسباب نزول الآية مستعيناً بهذه الأدوات ويفسرها حسب ماأداه اليه اجتهاده ، وكثير من الصحابة كان يفسر الآيات من القرآن بهذا الطريق ، مثل كثير مما ورد عن ابن عباس وابن مسعود ، فمثلا يفسر المفسرون الطور فى قوله تعالى « وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ ورفعنا فَوْقَكُمْ الطُّورَ » بتفسيرات مختلفة فمجاهد يفسر الطور بالجبل مطلقاً ، وابن عباس بجبل بعينه وآخر يقول أن الطور ما أنبت من الجبال ، فأما ما لم ينبت فليس بطور ، فهذا الاختلاف نتيجة اختلاف فى الراى لا نتيجه اختلاف فى المنقول ، وقد اختلفوا فى معانى الآيات خلافهم فى معانى الألفاظ

نعم ان الصحابة والتابعين انقسموا فى ذلك قسمين ، فمنهم من تورع أن يقول فى القرآن شيئاً برأيه كالذى روى عن سعيد بن المسيب أنه كان اذا سئل عن شيء من القرآن قال أنا لا أقول فى القرآن شيئاً ، وقال ابن سيرين سألت عبيدة عن شيء من القرآن فقال اتق الله وعليك بالسداد فقد ذهب الذين يعلمون فيم أنزل القرآن ، وعن هشام بن عروة بن الزبير قال ما سمعت أبى تأول آية من كتاب الله — ولكن كان بجانبهم من يرى حل ذلك ويستبيحه ، بل يرى كتمان ما وصل اليه اجتهاده كتماناً للعلم وهم الأكثرون ، وعلى هذا كان رأى ابن مسعود وابن عباس وعكرمة وغيرهم ، انما كره هؤلاء وأمثالهم أن يتعرض للتفسير من لم يستكمل أدواته ، كأن لم يبلغ فى معرفة كلام العرب مبلغاً يمكنه من صحة الفهم ، أو لم يدرس القرآن درساً يستطيع معه أن يحمل مجمله على مفصله ، كذلك كرهوا أن يعتنق الرجل مذهباً من المذاهب الدينية كالاعتزال والارجاء والتشيع ويجعل ذلك أصلا يفسر القرآن على مقتضاه ، والواجب أن تكون العقيدة تابعة للقرآن لا أن يكون القرآن تابعاً للعقيدة

وهذا الاجتهاد هو الذى سبّب الاختلاف بين الصحابة والتابعين فى تفسيرهم لألفاظ القرآن وآياته اختلافاً واضحاً تكاد تلمسه فى كل صفحة من صفحات تفسير ابن جرير الطبرى

فالأدب الجاهلى من شعر ونثر ، وعادات العرب فى جاهليتها وصدر اسلامها ، وما قابلهم من أحداث وما لقى رسول الله من عداء ومنازعات وهجرة وحروب وفتن ، وما حدث فى أثناء ذلك مما استدعى أحكاماً واستوجب نزول قرآن ، كل هذا كان مصدراً لعلماء الصحابة والتابعين يستمدون منه القدرة على التفسير

(الثالث) وهناك منبع آخر من منابع التفسير استمد منه المفسرون كثيراً ، ذلك أن شغف العقول وميلها للاستقصاء دعاها عند سماع كثير من آيات القرآن أن تتساءل عما حولها ، فاذا سمعوا قصة كلب أصحاب الكهف قالوا ما كان لونه ؟ واذا سمعوا « فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبعضها » تساءلوا ما ذلك البعض الذى ضَرَبوا به ، وما قدر سفينة نوح ، وما اسم الغلام الذى قتله العبد الصالح فى قصة موسى معه ، واذا تلى عليهم « فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيرِ » قالوا ما أنواع هذا الطير ، وما هى الكواكب التى رآها يوسف فى منامه ، وكذلك اذا سمعوا قوله تعالى فى قصة موسى مع شعيب سألوا أى الأجلين قضى موسى ، وهل تزوج الصغرى أو الكبرى وهكذا ، كذلك كانوا اذا سمعوا اشارة الى بدء الخليقة طلبوا بقية القصة ، واذا تليت عليهم آية فيها اشارة الى حادثة لنبى لم يقتنعوا الا باستقصائها ، وكان الذى يسد هذا الطمع هو التوراة وما علق عليها من حواش وشروح ، بل وما أدخل عليها من أساطير ، وقد دخل بعض هؤلاء اليهود فى الاسلام فتسرب منهم الى المسلمين كثير من هذه الأخبار ، ودخلت فى تفسير القرآن يستكملون بها الشرح ، ولم يتحرج حتى كبار الصحابة مثل ابن عباس من أخذ قولهم ، نعم روى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال « اذا حدثكم

أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم» ولكن العمل كان على غير ذلك ، وأنهم كانوا يصدقونهم و ينقلون عنهم، وان شئت مثلا لذلك فاقرأ ماحكاه الطبرى وغيره عند تفسير قوله تعالى « هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلاَئِكَةُ » وقد رأيت أن ابن عباس كان يجالس كعب الأحبار ويأخذ عنه ، ويعجبنى فى ذلك ماقاله ابن خلدون « أن العرب لم يكونوا أهل كتاب ولاعلم ، وانما غلبت عليهم البداوة والأمية، واذا تشوقوا الى معرفة شيء مما تشوق اليه النفوس البشرية فى أسباب المكونات و بدء الخليقة وأسرار الوجود فأنما يسألون عنه أهل الكتاب قبلهم، و يستفيدونه منهم، وهم أهل التوراة من اليهود ، ومن تبع دينهم من النصارى، وأهل التوراة الذين بين العرب يومئذ بادية مثلهم ، ولا يعرفون من ذلك الا ماتعرفه العامة من أهل الكتاب ، ومعظمهم من حمير الذين أخذوا بدين اليهودية ، فلما أسلموا بقوا على ما كان عندهم مما لا تعلق له بالأحكام الشرعية التى يحتاطون لها ، مثل بدء الخليقة وما يرجع الى الحدثان والملاحم وأمثال ذلك ، وهؤلاء مثل كعب الأحبار ووهب بن منبه وعبد الله بن سلام وأمثالهم، فامتلأت التفاسير من المنقولات عندهم فى أمثال هذه الأغراض ، أخبار موقوفة عليهم وليست مما يرجع الى الأحكام فيتحرى فى الصحة التى يجب بها العمل ، وتساهل المفسرون فى مثل ذلك ، وملئوا كتب التفسير بهذه المنقولات الخ[1]

المفسرون فى هذا العصر — اشتهر عدد قليل من الصحابة بالقول فى تفسير القرآن ، وأكثر من روى عنه منهم على بن أبى طالب وعبد الله بن عباس وعبدالله ابن مسعود وأُبَىّ بن كعب ، وأقل من هؤلاء زيد بن ثابت وأبو موسى الأشعرى وعبد الله بن الزبير ، ولنقصر قولنا على الأربعة الأولين لأنهم أكثر من غذّى

(١) المقدمة ص ٣٦٧

التفسير فى مدارس الامصار المختلفة ، والصفات العامة التى مكنت هؤلاء الأربعة الاولين من التبحر فى التفسير قوتهم فى اللغه العربية ، واحاطتهم بمناحيها وأساليبها ، ومخالطتهم للنبى صلى الله عليه وسلم مخالطة مكنتهم من معرفة الحوادث التى نزلت فيها آيات القرآن، وعدم تحرجهم من أن يجتهدوا ويقرروا ما أداه اليه اجتهادهم — نستثنى من ذلك ابن عباس فانه استعاض عن ملازمة النبى فى شبابه بملازمة علماء الصحابة يأخذ عنهم ويروى لهم — ولو أنا رتبنا هؤلاء الأربعة حسب كثرة ماروى عنهم لكان ابن عباس أولهم ، ثم عبدالله بن مسعود ، ثم على بن أبى طالب ، ثم أبىّ — هذا بالنسبة لما روى لا بالنسبة لما صح ، ويظهر أنه وضع على ابن عباس وعلىّ أكثر مما وضع على غيرهما ، ولذلك أسباب : أهمها أن علياً وابن عباس من بيت النبوة فالوضع عليهما يكسب الموضوع ثقة وتقديساً لا يكسبهما الاسناد الى غيرهما ، ومنها أنه كان لعلى من الشيعة ما لم يكن لغيره . فأخذوا يضعون وينسبون له ما يظنون أنه يعلى من قدره العلمى، وابن عباس كان من نسله الخلفاء العباسيون يتقرب اليهم بكثرة المروى عن جدهم — ان شئت فانظر الى ماروى ابن أبى جمرة عن على أنه قال لو شئت أن أوقر سبعين بعيراً من تفسير أم القرآن (الفاتحة) لفعلت ، وما روى عن أبى الطفيل قال شهدت علياً يخطب وهو يقول سلونى فوالله لا تسألونى عن شىء الا أخبرتكم ، وسلونى عن كتاب الله فوالله مامن آية الا وأنا أعلم أبليل نزلت أم بنهار أم فى سهل أم فى جبل — ومجرد رواية هذين الحديثين يغنى عن التعليق عليهما ، وقد روى عن ابن عباس ما لا يحصى كثرة ، فلا تكاد تخلو آية من آيات القرآن الا ولابن عباس فيها قول أو أقوال، وكثر الرواة عنه كثرة جاوزت الحد، واضطرت النقاد أن يتتبعوا سلسلة الرواة فيعدّلون بعضاً ويجرّحون بعضا ، فيقولون مثلا ان طريق معاوية بن صالح عن على بن أبى طلحة عن ابن عباس من أجود الطرق ، وقد اعتمد عليها البخارى،

ورواية جويبر عن الضحاك عن ابن عباس غير مرضية، وابن جُرَيْج فى جمعه لم يقصد الصحة ، وانما روى ما ذكر فى كل آية من الصحيح والسقيم ، ورواية الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس أوهى طرقه ، فان انضم الى ذلك رواية محمد بن مروان السدى الصغير فهى سلسلة الكذب الى كثير من أمثال ذلك

وقد روى من طريق ابن عبد الحكم قال سمعت الشافعى يقول لم يثبت عن ابن عباس فى التفسير الا شبيه بمائة حديث[١] — فان صح هذا دلنا على مقدار ما كان يختلق الوضاعون والى أى حد بلغت جرأة الناس على الاختلاق

ومن أدلة الوضع أنك ترى روايتين نقلتا عن ابن عباس أحياناً وهما متناقضتان، لايصح أن تنسبا اليه جميعاً، فترى فى ابن جرير مثلا عند تفسير قوله تعالى« فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ الَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءاً ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْياً » عن معاوية عن على ابن أبى طلحة عن ابن عباس قال انما هو مثل، قال قطّعهن ثم اجعلهن فى أرباع الدنيا ، ربعاً ههنا وربعاً ههنا ثم ادعهن يأتينك سعياً — وقال بعد قليل، حدثنا محمد ابن سعد قال حدثنى أبى قال حدثنى عمى قال حدثنى أبى عن أبيه عن ابن عباس فصرهن اليك ، صرهن أوثقهن[٢] اه فهو يفسر صرهن مرة بقطعهن ومرة بأوثقهن ، ومن العسير أن تتكلف القول بأنه فسر هذا زمناً وفسر ذلك آخر ، وأمثال ذلك كثير فى ابن جرير

على أن هذا التفسير الموضوع — والحق يقال — لايخلو من قيمته العلمية، فلم يكن الوضع مجرد قول يلقى على عواهنه، انما هو فى كثير من الأحيان نتيجة اجتهاد علمى قيّم ، والشىء الذى لا قيمة له فقط هو اسناده الى علىّ أو ابن عباس

واذا نحن ألقينا بنظرة عامة على ماروى من التفسير عن ابن عباس وغيره

(١) الاتقان جزء ٢ ص ٢٢٥ (٢) ابن جرير ج ٣ ص ٣٧ و ٣٨

وجدنا منبعه هو الأشـياء الثلاثة التي ذكرناها قبل ، نقل عن رسول الله أو رواية حوادث وقعت أمامهم توضح معنى الآية ، واجتهادهم فى الفهم معتمدين على الأدب الجاهلى ومعرفتهم بلغة العرب والعادات التى كانت فاشية فى الجاهلية وصدر الاسلام، والاسرائيليات وما اليها

***

بعد عصر الصحابة اشتهر بعض التابعين فى الرواية عمن ذكرنا من الصحابة ، فأكثر من يروى عن ابن عبـاس مجاهد وعطاء بن أبى رباح وعِكْرِمة مولى ابن عباس وسعيد بن جُبَيْر ، وهؤلاء كانوا من تلاميذ فى مكة ، وكلهم من الموالى ، وهم يختلفون فى الرواية عن ابن عباس قلة وكثرة ، كما يختلف العلماء فى مقدار الثقة بهم ، فمجاهد من أقلهم رواية عن ابن عباس ومن أوثقهم ، ولهذا يعتمـد على تفسيره الشافعى والبخارى وغيرهما من أهل العلم ، ولكن كان بعض العلماء لا يأخذ بتفسير مجاهد ، فقد روى ابن سعد فى طبقاته أن الأعمش سئل: مالهم يتقون تفسير مجاهد قال كانوا يرون أنه يَسْأَل أهل الكتاب[1] ، ولكن لم نر أحداً طعن عليه فى صدقه — كذلك كان كل من عطاء وسعيد ثقة صادقاً ، أما عكرمة فكان أكثرهم رواية عن ابن عباس وهو مولاه ، وكان أصله من البربر بالمغرب ، واختلف العلماء فى توثيقه ، فكان بعضهم لا يثق به ولا يروى له شيئا ، ويوثّقه البخارى ويروى له ، ويرى آخرون أنه جرىء على العلم يزعم أنه يعلم كل شيء «فى القرآن» سأل رجل سعيد بن المسيب عن آية فى القرآن فقال لا تسألنى عن آية من القرآن ، سل من يزعم أنه لا يخفى عليه شيء منه يعنى عكرمة[2] — واشتهر من تلاميذ عبد الله بن مسعود فى التفسير فى العراق مسروق بن الأجدع وهو عربى من هَمْدَان ، وكان ورعا زاهداً ثقة صادقا وكان

(١) جزء ٥ ص ٣٤٤ (٢) تفسير ابن جرير ج ١ ص ٢٩

يسكن الكوفة ويستشيره شريح القاضى فى معضلات المسائل، واشتهر كذلك قَتادَة ابن دعامة السَّدوسى الأكمه ، وهو عربى الأصل كان يسكن البصرة ، وشهرته فى التفسير جاءت من تضلعه فى اللغة العربية، فكان واسع الاطلاع فى الشعر العربى وأيام العرب وأنسابهم ، وكان ثقة الا أن بعضهم كان يتحرج من الرواية عنه لخوضه فى القضاء والقدر

وفى هذا العصر — أعنى عصر التابعين تضخم التفسير بالاسرائيليات والنصرانيات لكثرة من دخل منهم فى الاسلام وميل النفوس لسماع التفاصيل عما يشير اليه القرآن من أحداث يهودية ونصرانية ، وقد تتبعنا فى تفسير ابن جرير كثيراً من الآيات التى وردت عن بنى اسرائيل فاذا بطل الرواية فيها وهب بن منبه ، وقد ذكرنا قبل انه كان من يهود اليمن وأسلم، فكان يقص ما جاء فى كتب اليهود وأحاديثهم من غير تحر دقيق، ومن غير أن تصبغ روايته صبغة علمية ، وتساهل المسلمون فى أخذهم عنه كما أشار اليه ابن خلدون ، لأنه لا يترتب على ما يحكى استنباط لحكم شرعى أو نحوه ، كما تتبعنا كثيراً من الآيات التى وردت عن النصارى فاذا كثير مما يرويه الطبرى عن ابن جُرَيْج ، وابن جريج هذا هو عبد الملك ابن عبد العزيز بن جريج ، ويقول الذهبى فى تذكرة الحفاظ « انه من أصل رومى » فهو نصرانى الأصل ، ويقول عنه بعض العلماء أنه كان يضع الحديث وانه تزوج تسعين امرأة زواج متعة « ويقال أنه أول من صنف الكتب فى الاسلام(١) » وولد سنة ٨٠ وتوفى حول سنة ١٥٠ ﻫ بعد أن طوف فى كثير من البلاد ، فقد ولد بمكة ورحل الى البصرة واليمن و بغداد

(١) ابن خلكان جزء ١ ص ٤٠٥

وبعد عصر الصحابة وكبار التابعين أخذ العلماء يؤلفون كتب التفسير على طريقة واحدة ، هي ذكر الآية ونقل ما روى فى تفسيرها عن الصحابة والتابعين بالسند ، مثل تفسير سفيان بن عيينة ووكيع بن الجراح وعبد الرزاق وغيرهم ، ولم تصل الينا هذه التفاسير انما وصل الينا ما تلا هذه الطبقة ، وأشهرهم ابن جرير الطبرى

***

وبعد فيظهر أن تفسير القرآن كان فى كل عصر من العصور متأثراً بالحركة العلمية فيه ، وصورة منعكسة لما فى العصر من آراء ونظريات علمية ومذاهب دينية ، من ابن عباس الى الاستاذ الشيخ محمد عبده ، حتى لتستطيع اذا جمعت التفاسير التى ألفت فى عصر من العصور أن تتبين فيها مقدار الحركة العلمية وأى الآراء كان سائداً شائعاً وأيها غير ذلك وهكذا

فلو تتبعت ما نقل عن الصحابة وصدر التابعين من تفسير وجدتهم يقتصرون فى تفسير الآية على توضيح المعنى اللغوى الذى فهموه من الآية بأخصر لفظ ، مثل قولهم « غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ » أى غير متعرض لمعصية ومثل قولهم فى قوله تعالى « وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ » كان أهل الجاهلية اذا أراد أحدهم خروجاً أخذ قِدْحاً فقال هذا يأمر بالخروج فان خرج فهو مصيب فى سفره خيراً ، ويأخذ قِدْحاً آخر فيقول هذا يأمر بالمكوث فليس يصيب فى سفره خيراً ، والمنيح بينهما ، فنهى الله عن ذلك — فان زادوا شيئاً فما [illegible] سبب نزول الآية ثم زاد مَنْ بعدهم التوسع فى أخبار اليهود والنصارى — ولا تجد فى التفسير عن هؤلاء أثراً من الاستنباط العلمى لحكم فقهى ولا انتصاراً لمذهب دينى، فلما جاء العصر الذى يليه وظهر الكلام فى القدر ونحوه رأيت التفسير قد حمل هذه المذاهب، فأصبح كل يفسر القرآن على مذهبه فى الجبر والاختيار وهكذا، ولما عظمت الحركة الفقهية رأيت المفسرين من

الفقهاء يتعرضون للآيات يذكرون ما يستنبط منها من الأحكام ، وقل مثل ذلك في قواعد النحو والبلاغة وقواعد الأخلاق

مصادر هذا الفصل

الاتقان فى علوم القرآن

المستصفى للغزالى

الموافقات للشاطبى

طبقات المفسرين لمحمد بن على الداوودى المالكى (نسخة خطية فى دار الكتب)

كشف الظنون

طبقات ابن سعد

تفسير ابن جرير

مقدمة ابن خلدون

تذكرة الحفاظ للذهبى

ابن خلكان

الفصل الثانى

الحديث

يراد بالسنة أو الحديث ما ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قول أو فعل أو تقرير ، و بعد عصر الرسول ضم الى الحديث ما ورد عن الصحابة ، فالصحابة كانوا يعاشرون النبى صلى الله عليه وسلم ويسمعون قوله ، ويشاهدون عمله ، ويحدثون بما رأوا وما سمعوا ، وجاء التابعون بعدُ فعاشروا الصحابة وسمعوا منهم ورأوا ما فعلوا ، فكان من الأخبار عن رسول الله وصحابته « الحديث »

للحديث قيمة كبرى فى الدين تلى رتبة القرآن ، فكثير من آيات القرآن مجملة أو مطلقة أو عامة فجاء قول رسول الله أو عمله فبيَّنها أو قيدها أو خصصها ، فالقرآن مثلا لم يبين تفاصيل الصلاة انما أمر بها مجملة وفعل النبى أوضح أوقاتها وكيفياتها ، وحرم القرآن الخمر بقوله تعالى « انما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه» ولكن ما المراد بالخمر ؟ وأى المقادير يحرم ونحو ذلك ؟ كل هذا بينه الحديث

كذلك كانت تعرض لرسول الله حوادث يقضى فيها ، وأسئلة يجيب عنها ومبادلة أخذ وعطاء ، وتصرف فى الشؤون السلمية والحربية ، كل هذه كانت أحياناً ينزل فيها قرآن وأحياناً لا ينزل، وهذا النوع الثانى كالأول مرجع للمشرعين، فاقتضى ذلك جميعه العناية بالحديث

لم يدون الحديث فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم كما دوّن القرآن ، فأنا نرى أن رسول الله اتخذ كتبة للوحى يكتبون آيات القرآن عند نزولها ولكنه لم يتخذ

كتبة يكتبون ما ينطق به من غير القرآن ، بل قد وجدنا أحاديث كثيرة تنهى عن تدوين الحديث ، منها ماروراه مسلم فى صحيحه « عن أبى سعيد الخدرى أنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تكتبوا عنى ، ومن كتب عنى غير القرآن فليمحه ، وحدثوا عنى فلا حرج ، ومن كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده من النار » وروى البخارى عن ابن عباس قال « لما اشتد بالنبى صلى الله عليه وسلم وجعه قال ائتونى بكتاب أكتب لكم كتاباً لا تضلوا بعده ، قال عمر أن النبى صلى الله عليه وسلم غلبه الوجع وعندنا كتاب الله حسبنا »

نعم وجدت أحاديث تدل على أنه كتبت صحف من الحديث فى عهد رسول الله كالذى روى البخارى عن أبى هريرة أن خُزَاعة قتلوا رجلا من بنى لَيْث عام فتح مكة ، بقتيل منهم قتلوه ، فأُخبر بذلك النبى صلى الله عليه وسلم فركب راحلته فخطب فقال ان الله حبس عن مكة القتل[1] وسُلط عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنون، وانها لم تَحِلَّ لأحدقبلى ولم تحل لأحد بعدى، ألا وأنها أحلت لى ساعة من نهار وانها ساعتى هذه ، حرام ، لا يُخْتَلَى[2] شوكها ولا يعضد[3] شجرها ولا تُلْتَقَطُ ساقطتها الا لمُنْشِد[4] فمن قُتِل له قتيل فهو بخير النظرين اما أن يُعقَل واما أن يُقاد أهل القتيل،فجاء رجل من أهل اليمن فقال أكتب لى يارسول الله (يريد أن يكتب له الخطبة التى سمعها منه) فقال (صلى الله عليه وسلم) اكتبوا لأبى فلان، وكذلك ما روى عن عبد الله بن عمرو بن العاص من أنه كان يكتب كل ماسمع من رسول الله

وقد أراد بعض العلماء التوفيق بين هذه الأحاديث المتضاربة فقالوا ان النهى

---

(١) شك البخارى فى أنها القتل أو الفيل (٢) لا يقطع
(٣) لا يقطع (٤) أى لمن أراد التعريف عن الساقط

عن الكتابة كان وقت نزول القرآن خشية التباس القرآن بالحديث

على كل حال لم يكن تدوين الحديث شائعاً فى هـذا العصر ، ولم يوضع له نظام خاص لتدوينه كالذى وضع للقرآن

نشأ عن هذا أنه كان بعـد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم كتاب مدون هو القرآن ، وأحاديث غير مدونة تروى عن رسول الله ، وكانت تروى فى الغالب من الذاكرة لا من صحيفة

فكان اذا عرض حادث ليس له حكم فى القرآن وعرف بعض الصحابة أنه حدث نظيره لرسول الله وكان له فيه حكم حدَّث بذلك الحديث ، وكذلك كانوا يحدثون بما وقع فى عهده من غزوات ومن وعد ووعيد ونحو ذلك

وكان بعض الصحابة يكره كثرة الرواية عن رسول الله خشية الكذب عليه وخشية أنْ يصدهم ذلك عن القرآن روى القرطبى فى كتابه « جامع بيـان العلم » (عن قَرَظَة بن كعب قال خرجنا نريد العراق فمشى معنا عمر الى « حرار » فتوضأ فغسل اثنتين ثم قال أتدرون لم مشيت معكم ؟ قالوا نعم : نحن أصحاب رسول الله مشيتَ معنـا ، فقال انكم تأتون أهل قرية لهم دَوِىّ بالقرآن كدوى النَّحْل فلا تصدوهم بالأحاديث فتشغلوهم ، جوِّدوا القرآن وأقلوا الرواية عن رسول الله صلى الله عليـه وسلم ، امضوا وأنا شريككم ، فلما قدم قرظة قالوا حدثْنا قال نهانا عمر بن الخطاب) بل كان بعض الصحابة كذلك اذا حُدِّث حديثاً عن رسول الله طلب دليلا على صحة ما يروى ، كالذى روى الحاكم قال جاءت الجدة الى أبى بكر فقالت ان لى حقاً فى مال ابن ابن مات ، قال ما علمت لك فى كتاب الله حقاً ، ولا سمعت من رسول الله صلى الله عليـه وسلم فيـه شيئاً ، وسأل فشهد المغيرة بن شعبة أن رسول الله أعطاها السدس قال ومن سمع ذلك معك ؟ فشهد محمد بن مَسْلَمَة

فأعطاها أبو بكر السدس، وروى البخاري ومسلم عن أبي سعيد الخدري قال كنت جالساً في مجلس من مجالس الأنصار فجاء أبو موسى فزعاً فقالوا ما أفزعك ؟ قال « أمرني عمر أن آتيه فأتيته، فاستأذنت ثلاثاً فلم يؤذن لي ، فرجعت فقال ما منعك أن تأتينا ؟ فقلت اني أتيت فسلمت على بابك ثلاثاً فلم تردوا عليّ فرجعت، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا استأذن أحدكم ثلاثاً فلم يؤذن له فليرجع » قال (عمر) لتأتيني على هذا بالبينة، فقالوا لايقوم الا أصغر القوم، فقام أبو سعيد معه فشهد له فقال عمر لأبي موسى اني لم أتهمك ولكنه الحديث عن رسول الله — وروى عن علي أنه كان يُحَلِّف من حدثه بحديث عن رسول الله

***

نشأ من عدم تدوين الحديث في كتاب خاص في العصور الأولى واكتفائهم بالاعتماد على الذاكرة وصعوبة حصر ما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أو فعل في مدة ثلاثة وعشرين عاماً من بدء الوحي الى الوفاة ، أن استباح قوم لأنفسهم وضع الحديث ونسبته كذباً الى رسول الله ، ويظهر أن هذا الوضع حدث حتى في عهد الرسول ، فحديث «من كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار» يغلب على الظن أنه انما قيل لحادثة حدثت زور فيها على الرسول ، وبعد وفاته صلى الله عليه وسلم كان الكذب عليه أسهل، وتحقيق الخبر عنه أصعب، روى مسلم عن ابن عباس انه قال « انا كنا نحدث عن رسول الله اذ لم يكن يُكْذَبُ عليه ، فلما ركب الناس الصعبَ والذلول تركنا الحديث عنه، وفي حديث آخر أن بشيرا العدوي جاء الى ابن عباس فجعل يحدث ويقول قال رسول الله قال فجعل ابن عباس لا يأذَنُ لحديثه[1] ولا ينظر اليه ، فقال يا ابن عباس مالي لا أراك تسمع لحديثي ؟ أحدثك

(١) لا يصغي اليه

عن رسول الله ولا تسمع ؟ فقال ابن عباس انا كنا مرة [١] اذا سمعنا رجلا يقول قال رسول الله ابتدرته أبصارنا، وأصغينا اليه بآذاننا، فلما ركب الناس الصعبة والذلول لم نأخذ من الناس الا ما نعرف[٢] وروى عن سفيان بن عيينة أن ابن عباس أُتى بكتاب فيه قضاء علىّ فمحاه الا قَدْر[٣] وأشار سفيان بذراعه[٤] (يريد أن ما فى الدرج المستطيل كله كان كذباً على علىّ الا قدر ذراع وان ما محاه ابن عباس انما هو القدر الكاذب — فلما فتحت الفتوح ودخل فى الاسلام من لا يحصى كثرة من الأمم المفتوحة من فارسى وروى و بربرى ومصرى وسورى وكان من هؤلاء من لم يتجاوز ايمانهم حناجرهم كثر الوضع كثرة مزعجة وسال الوادى حتى طَمَّ على القَرِىّ (قال ابن عدى لما أخذ عبد الكريم بن أبى العوجاء الوضاع لتضرب عنقه قال لقد وضعت فيكم أربعة آلاف حديث أحرم فيها وأحلل[٥]— وكان عبد الكريم هذا خال معن بن زائدة واتهم بالمانوية ، وكان يضع أحاديث كثيرة بأسانيد يغتر بها من لا معرفة له بالجرح والتعديل، وتلك الأحاديث التى وضعها كلها ضلالات فى التشبيه والتعطيل وفى بعضها تغيير أحكام الشريعة [٦]— وحسبك دليلا على مقدار الوضع أن أحاديث التفسير التى روينا عن احمد بن حنبل أنه لم يصح عنده منها شىء قد جمع فيها آلاف الأحاديث ، وأن البخارى وكتابه يشتمل على نحو سبعة آلاف حديث، منها نحو ثلاثة آلاف مكررة ، قالوا انه اختارها وصحت عنده من ستمائة ألف حديث كانت متداولة فى عصره ، وقال سفيان سمعت جابراً يحدث بنحو من ثلاثين ألف حديث ما أستحل أن أذكر منها شيئاً وان كان لى كذا

---

(١) زمناً (٢) صحيح مسلم
(٣) قدر منصوب غير منون معناه محاه الا قدر ذراع والظاهر أن هذا الكتاب كان مدرجاً مستطيلا
(٤) صحيح مسلم (٥) شرح مسلم الثبوت (٦) الفرق بين الفرق ص ٢٥٦

وكذا — ويظهر أن بعض الوضاعين لم يكونوا يرون الوضع عن رسول الله نقيصة خلقية ، ولا معرة دينية ، روى مسلم عن محمد بن يحي بن سعيد القطان عن أبيه قال لم نر الصالحين فى شىء أكذب منهم فى الحديث ، وفسر مسلم هذا بأنه « يجرى الكذب على لسانهم ولا يتعمدون الكذب » و بعضهم كان سليم النية يجمع كل ما أتاه على أنه صحيح وهو فى ذاته صادق فيحدث بما سمع فيأخذه الناس عنه مخدوعين بصدقه ، كالذى قيل فى عبد الله بن المبارك ، فقد قيل أنه ثقة صدوق اللسان ولكنه يأخذ عمن أقبل وأدبر [١] وقوم كانوا يتحرون فقط أن يكون الكلام حقاً فى ذاته فيستجيزون نسبته الى رسول الله ، قال خالد بن يزيد سمعت محمد بن سعيد الدمشقى يقول اذا كان كلام حسن لم أر بأساً أن أجعل له اسناداً [٢] وكان أبو جعفر الهاشمى المدينى يضع أحاديث كلام حق [٣] وقوم جوزوا وضع الحديث فى الترغيب والترهيب قال النووى « وقد سلك مسلكهم بعض الجهلة المتسمين بسمة الزهاد ترغيباً فى الخير فى زعمهم الباطل »

على كل حال كان الوضع كثيراً ، وقد حمل الوضاع على الوضع أمور : أهمها

(١) الخصومة السياسية ، فالخصومة بين على وأبى بكر ، و بين على ومعاوية و بين عبد الله بن الزبير وعبد الملك ، ثم بين الأمويين والعباسيين ، كل هذه كانت سبباً لوضع كثير من الحديث ، قال ابن أبى الحديد فى شرح نهج البلاغة « واعلم أن أصل الكذب فى حديث الفضائل كان من جهة الشيعة ، فانهم وضعوا فى مبدأ الأمر أحاديث مختلقة فى صاحبهم ، حملهم على وضعها عداوة خصومهم ، نحو حديث السطل وحديث الرمانة وحديث غزوة البئر التى كان فيها الشياطين . . . وحديث غسل سلمان الفارسى وطى الأرض ، وحديث الجمجمة ونحو ذلك ، فلما رأت البكرية

(١) مسلم (٢) النووى على مسلم ج ١ ص ٣٢ (٣) مسلم

ما صنعت الشيعة وضعت لصاحبها أحاديث فى مقابلة هذه الأحاديث نحو « لو كنت متخذاً خليلا » فانهم وضعوه فى مقابلة حديث الأخاء ، ونحو سد الأبواب فانه كان لعلى فقلبته البكرية الى أبى بكر . . . . فلما رأت الشيعة ما قد وضعت البكرية أوسعوا فى وضع الأحاديث ، فوضعوا حديث الطوق الحديد الذى زعموا أنه فتله فى عنق خالد . . . وحديث الصحيفة التى علقت عام الفتح بالكعبة . . . وأحاديث مكذوبة كثيرة تقتضى نفاق قوم من أكابر الصحابة والتابعين الأولين، وكفرهم ، وعلى أدون الطبقات فسقهم، فقابلتهم البكرية بمطاعن كثيرة فى على وفى ولديه ، ونسبوه تارة الى ضعف العقل وتارة الى ضعف السياسة ، وتارة الى حب الدنيا والحرص عليها ، ولقد كان الفريقان فى غنية عما اكتسباه واجترحاه ، ولقد كان فى فضائل علىّ الثابتة الصحيحة وفضائل أبى بكر المحققة المعلومة ما يغنى عن تكلف العصبية لهما) اه[1]

وتلمح أحاديث كثيرة لاتكاد تشك وأنت تقرؤها أنها وضعت لتأييد الامويين أو العباسيين أو العلويين أو الحط منهم ، كالخبر الذى روى ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فى معاوية اللهم قه العذاب والحساب ، وعلمه الكتاب ، وكالذى روى أن عمرو بن العاص قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان آل أبى طالب ليسوا لى بأولياء . انما ولبى الله وصالح المؤمنين — وقد قال ابن عرفة أن أكثر الأحاديث الموضوعة فى فضائل الصحابة افتعلت فى أيام بنى أمية تقرباً اليهم بما يظنون انهم يرغمون به أنوف بنى هاشم

ويتصل بهذا النحو أحاديث وضعها الوضاعون فى تفضيل القبائل العربية ، ذلك أن هذه القبائل كانت تتنازع الرياسة والفخر والشرف فوجدوا فى الأحاديث بابا

---

(١) شرح ابن أبى الحديد جزء ٣ ص ١٧ باختصار

يدخلون منه الى المفاخرة كالذى وجدوه فى الشعر ، فكم من الأحاديث وضعت فى فضل قريش والأنصار وجهينة ومزينة واسلم وغفار والاشعريين والحميريين

وكم من حديث وضع فى تفضيل العرب على العجم والروم، فقابلها هؤلاء بوضع أحاديث فى فضل العجم والروم والحبشة والترك[1]

ومثل ذلك العصبية للبلد ، فلا تكاد تجد بلداً كبيراً الا وفيه حديث بل أحاديث فى فضله ، فمكة والمدينة وجبل أُحُد والحجاز واليمن والشام وبيت المقدس ومصر وفارس وغيرها كل ذلك وردت فيه الأحاديث المتعددة فى فضله وعلى الاجمال فالعصبية الحزبية والقبلية ، والعصبية للمكان كانت سبباً من أهم أسباب الوضع

(٢) الخلافات الكلامية والفقهية ، فمثلا اختلف علماء الكلام فى القَدَر أو الجبر والاختيار ، فأجاز قوم لأنفسهم أن يؤيدوا مذهبهم بأحاديث يضعونها ينصون فيها حتى على التفاصيل الدقيقة التى ليس من مسلك الرسول التعرض لها ، وحتى ينصون فيها على اسم الفرقة المناهضة لهم، بل واسم رئيسها ولعنه ولعنهم وكذلك فى الفقه فلا تكاد فرعاً فقهياً مختلفاً فيه الا وحديث يؤيد هذا وحديث يؤيد ذاك، حتى مذهب أبى حنيفه الذى يذكر العلماء أنه لم يصح عنده الا أحاديث قليلة قال ابن خلدون « أنها سبعة عشر » ملئت كتبه بالأحاديث التى لاتعد، وأحياناً بنصوص هى أشبه مايكون بمتون الفقه ، ويطول بنا القول لو ذكرنا أمثلة على هذا النحو من الوضع فنكتفى هنا بالاشارة اليها

(٣) متابعة بعض من يتسمون بسمة العلم لهوى الأمراء والخلفاء يضعون لهم ما يعجبهم رغبة فيما فى ايديهم ، كالذى حكى عن غياث بن ابراهيم انه دخل على

---

(١) انظر الاحاديث فى هذا الباب فى الجزء الثالث من « تيسير الوصول »

المهدى بن المنصور وكان يعجبه اللعب بالحمام ، فروى حديثاً لاسبق الا فى خف أو حافر أو جناح ، فأمر له بعشرة آلاف درهم ، فلما قام ليخرج قال المهدى أشهد أن قفاك قفا كذاب على رسول الله ، ما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « جناح » ولكنه أراد ليتقرب الينا [1]

(٤) تساهل بعضهم فى باب الفضائل والترغيب والترهيب ونحو ذلك مما لا يترتب عليه تحليل حرام أو تحريم حلال ، واستباحتهم الوضع فيها ، فملئوا كتب الحديث بفضائل الأشخاص حتى من لم يرهم النبى صلى الله عليه وسلم كوهب بن منبه، و بفضائل آيات القرآن وسوره، كالذى روى عن أبى عصمة نوح بن أبى مريم أنه وضع أحاديث فى فضائل القرآن سورة سورة بعنوان ان من قرأ سورة كذا فله كذا وروى ذلك عن عكرمة عن ابن عباس وتارة يروى عن أُبَى بن كعب — — وهى الأحاديث التى نقلت فى تفسير البيضاوى عند ختم كل سورة — فلما سئل من أين هذه الأحاديث؟ قال لما رأيت اشتغال الناس بفقه أبى حنيفة ومغازى محمد بن اسحق وأعرضوا عن حفظ القرآن وضعت هذه الأحاديث حسبة لله تعالى [2]

ومثل هذا ما ترى فى كتب الأخلاق والتصوف من أحاديث فى الترغيب والترهيب لا يحصى له عد ، ومن هذا الباب أدخل القصاص فى الحديث كثيراً

(٥) يخيل الىّ أنه من أهم أسباب الوضع تعالى الناس اذ ذاك فى أنهم لا يُقبلون من العلم الا على ما اتصل بالكتاب والسنة اتصالا وثيقاً وماعدا ذلك فليس له قيمة كبيرة ، فأحكام الحلال والحرام اذا كانت مؤسسة على مجرد «الاجتهاد»

---

(١) شرح مسلم الثبوت جزء ٢ ص ١٥٢
(٢) شرح المسلم جزء ٢ ص ١٢٥

لم يكن لها قيمـة ما أسس على الحديث ولا ما يقرب منه بل كثير من العلماء في ذلك العصر كان يرفضها ولا يمنحها أية قيمة ، بل بعضهم كان يشنع على من ينحو هذا النحو ، والحكمة والموعظة الحسنة اذا كانت من أصل هندى أو يونانى أو فارسى أو من شروح من التوراة أو الانجيل لم يؤبه لهـا ، فحمل ذلك كثيراً من الناس أن يصبغوا هذه الأشياء كلها صبغة دينية حتى يقبلوا عليها ، فوجدوا الحديث هو الباب الوحيد المفتوح على مصراعيه ، فدخلوا منه على الناس ، ولم يتقوا الله فيما صنعوا ، فكان من ذلك أن ترى فى الحديث الحكم الفقهى المصنوع والحكمة الهنـدية والفلسفة الزرادشتية والموعظة الاسرائيلية أو النصرانية

* * *

روّعت هذه الفوضى فى الحديث عن رسول الله جماعة من العلماء الصادقين فنهضوا لتنقيـة الحديث مما ألمّ به وتمييز جيده من رديئه ، وسلكوا فى ذلك جملة مسالك

منها أنهم طالبوا باسنـاد الحديث ، أعنى أن يعينوا رواة الحديث ، فيقول المحدث حدثنى فلان عن فلان عن رسول الله أنه قال كذا ، ليتمكنوا بذلك من معرفة قيمة المحدث صدقاً وكذباً ، ولينظروا هل المحدث ينتسب الى بدعةٍ وضَع الحديث ترويجاً لها ونحو ذلك جاء فى مقدمة صحيح مسلم « عن ابن سيرين قال لم يكونوا يسألون عن الاسناد فلما وقعت الفتنة قال سمّوا لنا رجالكم فينظر الى أهل السنة فيؤخذ حديثهم ، وينظر الى أهل البدع فلا يؤخذ حديثهم »

ثم أخذوا يشرّحون الرجال فيجرّحون بعضاً ويُعَدّلون بعضاً « وألزموا أنفسهم الكشف عن معايب رواة الحديث وناقلى الأخبار »

وأكثر هؤلاء النقاد عدّلوا الصحابة كلهم اجمالا وتفصيلا ، فلم يتعرضوا لأحد

منهم بسوء، ولم ينسبوا لأحد منهم كذباً، وقليل منهم أجرى على الصحابة ما أجرى على غيرهم قال الغزالى « والذى عليه سلف الأمة وجماهير الخلف أن عدالتهم (أى الصحابة) معلومة بتعديل الله عز وجل اياهم وثنائه عليهم فى كتابه، فهو معتقدنا فيهم الا أن يثبت بطريق قاطع ارتكاب واحد لفسق مع علمه بذلك، وذلك مما لا يثبت فلا حاجة لهم الى التعديل . . . وقد زعم قوم أن حالهم كحال غيرهم فى لزوم البحث، وقال قوم حالهم العدالة فى بداية الأمر الى ظهور الحرب والخصومات، ثم تغيرت الحال وسفكت الدماء فلا بد من البحث . . . ثم فسر الصحابى المعنىّ بهذا بمن كثرت صحبته للنبى صلى الله عليه وسلم »[1]

ويظهر أن الصحابة أنفسهم فى زمنهم كان يضع بعضهم بعضاً موضع النقد وينزلون بعضاً منزلة أسمى من بعض، فقد رأيت قبل أن منهم من كان اذا روى له حديث طلب من المحدث برهاناً، بل روى ما هو أكثر من ذلك فقد روى أن أبا هريرة روى حديثاً « من حمل جنازة فليتوضأ » فلم يأخذ ابن عباس بخبره، وقال لا يلزمنا الوضوء فى حمل عيدان يابسة، وكذلك روى أنه حدث بحديث جاء فى الصحيحين وهو « متى استيقظ أحدكم من نومه فليغسل يده قبل أن يضعها فى الاناء فان أحدكم لا يدرى أين باتت يده » فلم تأخذ به عائشة وقالت كيف نصنع بالمِهْرَاس[2] وكالذى روى أن فاطمة بنت قيس روت أن زوجها طلّق فبت الطلاق فلم يجعل رسول الله لها نفقة وسكنى. وقال لها اعتدّى فى بيت ابن أم مكتوم فانه رجل أعمى فردها أمير المؤمنين عمر قائلا لا نترك كتاب ربنا وسنة نبينا بقول امرأة لا ندرى أصدقت أم كذبت حفظت أم نسيت — وقالت لها عائشة ألا

---

(١) المستصفى جزء ١ ص ١٦٥

(٢) شرح مسلم الثبوت ج ٢ ص ١٧٨ والمهراس هو حجر منقور ضخم لا يقله الرجل ولا يحركونه لثقله، يملئونه ماء ويتطهرون منه

تتقين الله الخ[١] ومثل هذا كثير

على كل حال فالذى جرى عليه العمل من أكثر نقاد الحديث وخاصة المتأخرين أنهم عدلوا كل صحابى ولم يرموا أحداً منهم بكذب ولا وضع انما جرحوا ونقدوا من بعدهم — وقد بدأ الكلام فى الجرح والتعديل من عهد الصحابة ، فقد رويت أقوال فى ذلك عن عبد الله بن عباس وعبادة بن الصامت وأنس ، وكثر القول فى ذلك من التابعين كالشعبى وابن سيرين والحسن البصرى وسعيد بن المسيب ، ثم تتابع القول فيه

وكان للاختلاف المذهبى أثر كبير فى التعديل والتجريح ، فأهل السنة يجرحون كثيراً من الشيعة ، حتى أنهم نصوا على أنه لا يصح أن يُروَى عن على مارواه عنه أصحابه وشيعته ، انما يصح أن يُرْوَى مارواه عنه أصحاب عبدالله بن مسعود ، وكذلك كان الشيعة مع أهل السنة ، فكثير منهم لا يثق الا بما رواه الشيعة عن أهل البيت وهكذا ، ونشأ عن هذا أن مايعدّله قوم قد يجرحه آخرون ، قال الذهبى « لم يجتمع اثنان من علماء هذا الشأن على توثيق ضعيف ولا على تضعيف ثقة » ومع ما فى قوله من المبالغة فهو يدلنا على مقدار اختلاف الانظار فى التجريح والتعديل ، ولنضرب لك مثلا محمد بن اسحق — أكبر مؤرخ فى حوادث الاسلام الأولى — قال فيه قتادة لا يزال فى الناس علم ما عاش محمد بن اسحق ، وقال النسائى ليس بالقوى وقال سفيان ماسمعت احداً يتهم محمد بن اسحاق وقال الدارقطنى لا يحتج به و بأبيه ، وقال مالك أشهد أنه كذاب الخ

وقد وضع العلماء للجرح والتعديل قواعد ليس هنا محل ذكرها ولكنهم — والحق يقال — عنوا بنقد الاسناد أكثر مما عنوا بنقد المتن ، فقلّ أن تظفر منهم بنقد من ناحيــة أن ما نسب الى النبى صلى الله عليه وسلم لا يتفق والظروف التى

---

(١) أنظر شرح النووى على مسلم وشرح مسلم الثبوت

قيلت فيه ، أو أن الحوادث التاريخية الثابتة تناقضه ، أو أن عبارة الحديث نوع من التعبير الفلسفي يخالف المألوف في تعبير النبي ، أو أن الحديث أشبه في شروطه وقيوده بمتون الفقه وهكذا ، ولم نظفر منهم في هذا الباب بعشر معشار ما عنوا به من جرح الرجال وتعديلهم ، حتى نرى البخاري نفسه على جليل قدره ودقيق بحثه يثبت أحاديث دلت الحوادث الزمنية والمشاهدة التجريبية على أنها غير صحيحة لاقتصاره على نقد الرجال كحديث « لا يبقى على ظهر الأرض بعد مائة سنة نفس منفوسة » وحديث « من اصطبح كل يوم سبع تمرات من عجوة لم يضره سم ولا سحر ذلك اليوم الى الليل »

كذلك قسموا الحديث بحسب قوته والأخذ به الى أقسام وسموا كل نوع أسما ، فقسموه الى متواتر وآحاد ، فالمتواتر ما رواه جماعة يؤمن من تواطئهم على الكذب عن جماعة كذلك الى رسول الله ، وهذا يفيد العلم . وقد قال قوم أن هذا النوع لم يوجد وعد منه قوم حديث من كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده النار ، وزاد بعضهم أحاديث لا تتجاوز السبعة ، وأما أحاديث الآحاد فهي غير المتواترة ، وهي لا تفيد العلم عند أكثر الأصوليين والفقهاء وانما يجوز العمل بها عند ترجح صدقها . وقد قسموا أحاديث الآحاد الى درجات حسب قوتها لا نطيل بذكرها

***

وقد اختلف الصحابة في الحديث عن رسول الله كثرة وقلة ، وأكثرهم حديثاً أبو هريرة وعائشة أم المؤمنين وعبد الله بن عمر وعبد الله بن عباس وجابر وأنس بن مالك ، فحديث ابي هريرة ٥٣٧٤ حديثاً ، ولعائشة ٢٢١٠ ولعبد الله بن عمر وأنس بن مالك ما يقرب من مسند عائشة ولكل من جابر بن عبد الله وعبد الله بن عباس أزيد من ١٥٠٠ على حين أنا نجد مثلا لعمر بن الخطاب ٥٣٧ حديثاً لم يصح منها الا

نحو الخمسين [١] ومما ساعد هؤلاء المكثرين فى الحديث طول حياتهم بعد النبى صلى الله عليه وسلم وكثرة من أخذ عنهم

أما أبو هريرة فيمنى الأصل من قبيلة دوس واسمه عبد الله أو عبد الرحمن ، ولقب بأبى هريرة لهرة صغيرة كانت له ، يقول كنت أرعى غنم أهلى وكانت لى هريرة صغيرة فكنت أضعها بالليل فى شجرة فاذا كان النهار ذهبت بها معى فلعبت بها فكنونى أبا هريرة [٢] أسلم فى السنة السابعة من الهجرة ولازم النبى صلى الله عليه وسلم ، وقد استعمله عمر بن الخطاب على البحرين ثم عزله ثم أراده على العمل فامتنع وكان يسكن المدينة وتوفى بها نحو سنة ٥٧ ه

ويقول ابن قتيبة فى كتابه «المعارف» أن أبا هريرة قال « نشأت يتيما وهاجرت مسكيناً ، وكنت أجيراً لبسرة بنت غزوان بطعام بطنى وعقبة رجلى ، فكنت أخدم اذا نزلوا ، وأحدو اذا ركبوا فزوجنيها الله فالحمد لله الذى جعل الدين قواماً وجعل أبا هريرة اماماً » وروى ابن قتيبة أيضاً أن أبا هريرة كان مزّاحاً وحكى له شيئاً من مُلَحه [٣]

وكان كما قلنا أكثر الناس حديثاً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان لا يكتب ، فكان يعتمد فى روايته على ذاكرته ، ويظهر أنه لم يكن يقتصر على ما سمع من رسول الله بل يحدث عن رسول الله بما أخبره به غيره فقد رَوَى مرة أن رسول الله قال «من أصبح جنباً فلا صوم له» فأنكرت ذلك عائشة وقالت كان رسول الله يدركه الفجر فى رمضان وهو جنب من غير احتلام فيغتسل ويصوم ، فلما ذكر ذلك

---

(١) ابن حزم فى الملل والنحل جزء ٤ ص ١٣٨
(٢) أسد الغابة
(٣) المعارف ص ٩٤

لأبي هريرة قال انها أعلم مني، وأنا لم أسمعه من النبي صلى الله عليه وسلم وسمعته من الفضل بن عباس [١]

وقد أكثر بعض الصحابة من نقده على الاكثار من الحديث عن رسول الله وشكوا فيه، كما يدل على ذلك ماروى مسلم في صحيحه أن أبا هريرة قال انكم تزعمون أن أبا هريرة يكثر الحديث عن رسول الله — والله المَوْعِد [٢] — كنت رجلا مسكيناً أخدم رسول الله صلى الله عليه وسلم على ملء بطني وكان المهاجرون يشغلهم الصفق بالأسواق [٣] وكانت الأنصار يشغلهم القيام على أموالهم — وفي حديث آخر في مسلم أيضاً أن أبا هريرة قال يقولون أن أبا هريرة قد اكثر — والله الموعد — ويقولون ما بال المهاجرين والأنصار لا يتحدثون مثل أحاديثه ، وسأخبركم عن ذلك ، ان اخواني من الأنصار كان يشغلهم عمل أرضهم ، وأما اخواني من المهاجرين كان يشغلهم الصفق بالأسواق، وكنت ألزم رسول الله صلى الله عليه وسلم على ملء بطني فأشهد اذا غابوا وأحفظ اذا نسوا

والحنفية يتركون حديثه أحياناً اذا عارض القياس ، كما فعلوا في حديث المُصَرَّاة [٤] فقد روى أبو هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « لاتُصَرُّوا الابل والغنم ، من ابتاعها بعد ذلك فهو بخير النظرين بعد أن يحلبها ، فان رضيها أمسكها وان سخطها ردها وصاعاً من تمر » قالوا (أبو هريرة غير فقيه، وهذا الحديث مخالف للاقيسة بأسرها، فان حلب اللبن تَعَدٍّ ، وضمان التعدي يكون بالمثل أو القيمة،

---

(١) مسلم الثبوت وشرحه جزء ٢٠ ص ١٧٥

(٢) أي يحاسبني ان تعمدت كذباً ويحاسب من ظن السوء بي

(٣) أي التبايع والعمل في التجارة

(٤) المصراة الناقة أو البقرة يجمع اللبن في ضرعها ويحبس ولاتحلب أياما لإيهام المشترى أنها غزيرة اللبن

والصاع من التمر ليس بواحد منهما)

وقد انتهز الوضاع فرصة اكثاره فزوروا عليه احاديث لا تعد

وأما عائشة أم المؤمنين فكانت أحب أزواج النبى اليه ، بنى بها بعد الهجرة بستة أشهر أوسبعة ، وظلت معه طول مدته بالمدينة ، وتوفى النبى عنها وهى بنت ثمان عشرة سنة ، واشتركت فى الحياة السياسية بعد وفاته ، فنقدت عثمان وحاربت عليا وكانت كما يفهم من سيرتها تتوقد ذكاء ، تعلمت القراءة وعرفت كثيراً من الأدب الجاهلى وكان لها بين الصحابة منزلة عالية يستشيرونها فى مسائل دينية وقضائية — وقد مكنها ذكاؤها وخلطتها بالنبى صلى الله عليه وسلم أن تروى عنه كثيراً ، خصوصاً فيما يتعلق بشؤونه البيتية التى لم يتيسر للصحابة الاطلاع عليها وتوفيت سنة ٥٨ هـ

ويطول بنا القول لو ترجمنا للباقين ، وقد تقدم طرف من أخبار كثير منهم عند الكلام على مراكز الحياة العقلية

كان لهؤلاء الصحابة تلاميذ يختصون بهم ويروون عنهم ، وتكونت على مر العصور سلاسل من المحدثين فضّل علماء الحديث بعضها على بعض ، فأصح أسانيد أبى بكر اسماعيل بن أبى خالد عن قيس بن أبى حازم عن أبى بكر ، وأصح أسانيد عمر الزهرى عن سالم عن أبيه عن جده (وهو عمر) وأصح أسانيد أبى هريرة الزهرى عن سعيد بن المسيب عن أبى هريرة ، وأصح أسانيد عائشة عبيدالله بن عمر عن القاسم عن عائشة وهكذا

* * *

مضى القرن الأول الهجرى جميعه ولم يجعل أحد من الخلفاء للحديث صبغة رسمية ، أعنى أن يعهد الى جمع من الصحابة أو كبار التابعين أن يستوثقوا مما فى أيدى الناس من الحديث ويجمعوا ماصح عندهم منه ويكتبوه فى كتاب ويرسلوا

نسخاً منه الى الأمصار كما فعلوا فى المصحف، ويمنعوا الناس عن أن يحدثوا بغير مافيه، ولعله خطر لبعضهم لذلك ولكن رأى هذا العمل فى منتهى الصعوبة، فانهم يروون أن رسول الله قبض وعدد الصحابة الذين سمعوا منه ورووا عنه ١١٤٠٠٠ كل منهم عنده الحديث والحديثان والأكثر، وقد حادث النبى قوما بما لم يحدث به آخرين، ووقع من الحوادث أمام قوم ما لم يره آخرون وقد تفرق الصحابة فى مختلف الأمصار، فجمعُ الحديث يقتضى استعراض هؤلاء جميعاً واستماع قولهم وتدوين حديثهم، وذلك مطلب عسير المنال، وأيضاً لو فعل هذا فكيف يقص الصحابى جميع ما سمع ورأى، وهو انما يعتمد فى ذلك على ذاكرته وانما يذكر بالمناسبات، الى غير ذلك من أسباب تكاد تحيل هذا العمل، ومع هذا يظهر لنا مما حدث بعد من فوضى الحديث أن لو كان قد اقتصر على تدوين ما عرفه كبار الصحابة وجمع ومنع الناس أن يحدثوا بغير ما فيه لكان خيراً للمسلمين

ويظهر أن هذه الفكرة التى ذكرنا عرضت لعمر بن الخطاب فقد روى عن الزهرى قال أخبرنى عروة بن الزبير أن عمر بن الخطاب أراد أن يكتب السنن، واستشار فيه أصحاب رسول الله فأشار عليه عامتهم بذلك، فلبث شهراً يستخير الله فى ذلك شاكا فيه، ثم أصبح يوماً وقد عزم الله له، فقال انى كنت ذكرت لكم من كتابة السنن ما قد علمتم ثم تذكرت فاذا أناس من أهل الكتاب من قبلكم قد كتبوا مع كتاب الله كتباً فأكبوا عليها وتركوا كتاب الله، وانى والله لا ألبس كتاب الله بشىء

وعرضت بعدُ لعمر بن العزيز ففى الموطأ أن عمر بن عبدالعزيز كتب الى أبى بكر ابن محمد بن عمرو بن حزم أن انظر ما كان من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم أو سنته فاكتبه فانى خفت دروس العلم وذهاب العلماء، وأخرج أبو نعيم فى تاريخ

أصبهان عن عمر بن عبدالعزيز أنه كتب الى أهل الآفاق أنظروا الى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فاجمعوه

ولكنا لم نر لأمره هذا أثراً فلعله عوجل عنه ولم يأبه لذلك من خلفه ، ولما جاء أبو جعفر المنصور عاودته هذه الفكرة ، فابن سعد فى الطبقات يروى عن مالك بن أنس (قال لما حج المنصور قال لى : قد عزمت على أن آمر بكتبك هذه التى وضعتها فتنسخ ، ثم أبعث الى كل مصر من أمصار المسلمين منها نسخة ، وآمرهم أن يعملوا بما فيها ولا يتعدوه الى غيره ، فقلت يا أمير المؤمنين لا تفعل هذا ، فان الناس قد سبقت اليهم أقاويل وسمعوا أحاديث ورووا روايات ، وأخذ كل قوم بما سبق اليهم ، ودانوا به ، فدع الناس وما اختار أهل كل بلد منهم لانفسهم) بل يظهر أن النية لم تكن متجهة فقط الى جمع الحديث فى كتاب وحمل الناس عليه وترك ماعداه بل كانت متجهة أيضاً الى أن يكون فى كتب الامام مالك أساس لقانون واحد اسلامى عام تحكم به المملكة الاسلامية ، ويتخذ صبغة رسمية ، ويتطور بتطور الزمان — ولعل هذا المعنى يزداد وضوحا بما روى فى كتاب الحلية عن مالك بن أنس قال شاورنى هارون الرشيد فى أن يعلق الموطأ فى الكعبة ويحمل الناس على مافيه فقلت لا تفعل ، فان أصحاب رسول الله اختلفوا فى الفروع وتفرقوا فى البلدان وكلٌّ مصيب

على كل حال مضى العصر الأول ولم يكن تدوين الحديث شائعاً ، انما كانوا يروونه شفاهاً وحفظاً ، ومن كان يدون فانما يدون لنفسه

وفى القرن الثانى بدأت جماعة فى الأمصار المختلفة تجمع الحديث لا بالمعنى الذى ذكرنا قبل ، ولكن بمعنى أن كل عالم جمع الأحاديث الذى رويت له وصحت عنده قال ابن حجر فى شرح البخارى « وأول من جمع ذلك الربيع بن صبيح (المتوفى سنة ١٦٠ هـ) وسعيد بن أبى عروبة (سنة ١٥٦) الى أن انتهى الأمر الى كبار

الطبقة الثالثة وصنف الامام مالك الموطأ بالمدينة وعبد الملك بن جريج بمكة والأوزاعى بالشام وسفيان الثورى بالكوفة وحماد بن سلمة بن دينار بالبصرة ، ثم تلاهم كثير من الائمة فى التصنيف كل على حسب ما سنح له وانتهى اليه علمه » فمنها مارتب حسب أبواب الفقه كالموطأ والبخارى ومسلم ، ومنها ما رتب حسب الرواة فيجمع ماروى أبو هريرة مثلا ثم ماروى أنس بن مالك وهكذا كمسند الامام احمد ولا نتعرض لوصف هذه الكتب فانها ألفت بعد عصرنا الذى نؤرخه

***

وبعد فقد كان للحديث — سواء منه ما كان صحيحاً أوموضوعاً — أكبر الأثر فى نشر الثقافة فى العالم الاسلامى ، فقد أقبل الناس عليه يتدارسونه اقبالا عظيما ، وكانت حركة الأمصار العلمية تكاد تدور عليه ، وكل علماء الصحابة والتابعين كانت شهرتهم العلمية مؤسسة على التفسير والحديث — والحديث كان أوسع دائرة — وسبّب حرص الناس على رواية الحديث رحلة العلماء الى أقاصى المملكة وطوافهم فى البلدان يأخذ بعضهم عن بعض ، فكان من ذلك تبادل الآراء العلمية ووقوف كل علماء مصرٍ على ما عند الآخرين حتى لتكاد الحركة العلمية تُوحد — روى احمد أن جابر بن عبدالله الأنصارى بلغه عن عبد الله بن أُنَيْس الجهنى حديثاً سمعه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فاشترى بعيراً ثم شد رحله وسار اليه شهراً حتى قدم عليه الشام وسمعه منه[1] ولا تكاد تقرأ ترجمة كبير من المحدثين الا وجزء عظيم من حياته يتضمن رحلته — أَضف الى ذلك ما كان بينهم من تراسل ، فمالك بن أنس فى المدينة يكتب الى الليث بن سعد فى مصر والليث يرد عليه ويتبادلان الحِجَاج فى الحديث والفقه وهكذا

---

(١) القسطلانى جزء ١ ص ٢٠٦

عن طريق الحديث هذا انتشرت فى العالم الاسلامى أنواع من الثقافة عدة ، فالتاريخ الاسلامى بدأ بشكل حديث كالذى ترى فى كتب الحديث من مغاز وفضائل أشخاص وفضائل أمم، ثم تطور الى أن صار التاريخ كتباً قائمة بنفسها، ودليلنا على ذلك أن كتب التاريخ الأولى كسيرة بن هشام وما يروى ابن جرير عن ابن اسحاق والبلاذرى فى فتوح البلدان يكاد يكون نمطها وأسلوبها نمط حديث وأسلوب حديث — وقصص الانبياء وما اليهم جاءت فى القرآن وتوسع فيها الحديث ثم توسع القصاص فكان القصص — والحكم وقواعد الأخلاق وشىء من فلسفة اليونان والهند والفرس وضعت فى الحديث وضعاً وانتشرت بين الناس على أنها دين، فكان لها من الأثر فى الناس ما ليس للتعاليم الدنيوية ، وفوق ذلك كان الحديث أوسع منبع للتشريع فى العبادات والمسائل المدنية والجنائية ، وغير ذلك مما يطول شرحه

وعلى الجملة فقد كان الحديث أوسع مادة للعلم والثقافة فى ذلك العصر

أهم مصادر هذا الباب

فتح البارى على البخارى

القسطلانى على البخارى

مسلم وشرح النووى عليه

تيسير الوصول الى جامع الأصول

المستصفى للغزالى

شرح مسلم الثبوت

الموافقات للشاطبى

أسد الغابة لابن الأثير

الاصابة لابن حجر

المعارف لابن قتيبة

ميزان الاعتدال للذهبي

طبقات ابن سعد

مقدمة ابن خلدون

الملل والنحل لابن حزم

مسند الامام احمد

دائرة المعارف الاسلامية فى مادة «حديث»

شرح بن أبي الحديد على نهج البلاغة

جامع بيان العلم وفضله للقرطبي

الفصل الثالث

التشريع

كان عرب الحجاز — فى الجاهلية كما رأيت — بدوا أو شبه بدو ، فلم تكن لهم حكومة منظمة ، ولا ملوك يمنعون من تعدى بعضهم على بعض بما لهم من قوة تنفيذية ، انما كانوا قبائل ، اذا كثر عددها انقسموا الى بطون وأفخاذ وعشائر ، والرابطة بين أفراد القبائل هى رابطة الدم ، فكل من كانوا من دم واحد — ولو فى زعمهم — عُدّوا كتلة واحدة ، لأفرادها الحق فى التمتع بحمايتها ، والاستصراخ بها ، وعليها أن تدافع عنه ، وتطالب بدمه ، وعليه الذود عنها ، والخضوع لعرفها ودينها — وكان لكل قبيلة شيخ هو صاحب السيادة على أفراد القبيلة ، مكّنته من هذه السيادة ولادته من بيت الرياسة أو سنه وحكمته ، وهو الذى يمثلها فى علاقاتها الخارجية بالقبائل الأخرى ، وانما كان يستمد قوته ونفوذه من الرأى العام لقبيلته ، لا بماله من جيش وجنود ونحو ذلك

وكان لكل قبيلة عرف وتقاليد تشترك أحيانا فى أمور وتختلف فى أخرى ، تبعاً لبعدها عن البداوة وقربها منها — وكان للقبيلة حاكم يحكم بين من تنازع منهم حسب تقاليدهم وتجاربهم ، فالاغانى يقول فى أكثم بن صَيْفِىّ « أنه كان قاضى العرب يومئذ » والمَيْدَانى يقول فى عامر بن الظَّرِب « كان من حكماء العرب ، لا تعدل بفهمه فهما ، ولا بحكمه حكما » ولو تتبعنا كتب الأدب لرأينا فيها أن العرب كانوا تارة يتحاكمون الى شيخ القبيلة ، وتارة الى الكاهن ، وتارة الى من عرف بجودة الرأى واصالة الحكم ، ومن الصعب وضع حدود فاصلة

لاختصاص كلٍّ ، بل مما نشك فيه كثيراً أنه كان هناك حدود فاصلة فى الواقع

هؤلاء الحكام لم يكونوا يحكمون بقانون مدون ، ولا قواعد معروفة ، انما يرجعون الى عرفهم وتقاليدهم التى كونتها تجاربهم أحياناً ، ومعتقداتهم أحياناً ، وما وصل اليهم عن طريق اليهودية أحياناً ، ولم يكن لهذا القانون الجاهلى المؤسس على العرف والتقاليد جزاء ، ولا المتخاصمون ملزمون بالتحاكم اليه والخضوع لحكمه ، فان تحاكموا اليه فيها والا لا ، وان صدر الحكم أطاعه ان شاء ، وان لم يطعه فلا شيء أكثر من أن يحل عليه غضب القبيلة

وقد روت لنا كتب الأدب كثيراً من قضاياهم فى الخصومات الأدبية ، وهى أن يتنازع سيدان أيهما أسود فيتحاكمان الى حَكَم ، فمن حكم له كان الفضل والشرف له ولعشيرته ، والذل والعار للمنفور ، وهذه القصص تدلنا على أن هؤلاء الحكام كانوا من قبيل ما نسميهم بالمحكَّمين ، فلم يكن لهم سلطة مستمدة من الحكومة ، اذ لا حكومة لهم تمدهم بالسلطان ، ولا الخصوم ملزمون بالتقاضى أمامهم وكل ما فى الأمر أن الرجل اذا عرف بسداد الرأى وصحة الحكم وسعة العلم بوقائعهم ونسبهم نصبوه حكما — وروى لنا البخارى قضية جنائية حدثت قبيل الاسلام (١) فقد روى أن رجلا من بنى هاشم استأجره رجل من قريش من فخذ أخرى ، فانطلق معه فى أبله ، فمر به رجل من بنى هاشم — وقد انقطعت عُرْوة جُوَالِقِه ، فقال أغثنى بعِقَال أشد به عروة جوالقى لا تنفر الابل ، فأعطاه عقالا فشدَّ به ، فلما نزلوا عقلت الابل الا بعيراً واحداً ، فقال الذى استأجره : ما بال هذا البعير لم يعقل ؟ فقال ليس له عقال ، فقال فأين عقاله ؟ وحذفه بعصا كان فيها أجله ، فمر به (بالمقتول) رجل من أهل اليمن قال . . . فهل أنت مبلغ عنى رسالة مرة من

---

(١) رواها البخارى فى باب القسامة

الدهر ؟ قال نعم، قال اذا شهدتَ الموسم فناد يا لَقُريش، فاذا أجابوك فناديا لَبنى هاشم، فاذا أجابوك فاسأل عن أبى طالب ، فأخبره أن فلاناً قتلنى فى عقال ، ومات المستأجَر ، فلما قدم الذى استأجره أتاه أبو طالب فقال ما فعل صاحبنا ؟ قال مرض فأحسنت القيام عليه ووليت دفنه ، قال قد كان أهل ذلك منك ، فمكث حيناً ، ثم ان الرجل الذى أوصى اليه وافى الموسم . . . حتى جاء أبا طالب ، قال أمرنى فلان أن أبلغك رسالة : ان فلاناً قتله فى عقال فأتاه (المستأجِر) أبو طالب ، فقال اخترْ منّا احدى ثلاث ، ان شئت أن تؤدى مائة من الابل ، فانك قتلت صاحبنا ، وان شئت حلَف خمسون من قومك انك لم تقتله ، فان أبيت قتلناك به الخ الحديث

وهذه القصة تدلنا على أنواع كثيرة من النظام القضائى عندهم

ويظهر أن مكة قبيل الاسلام بلغت شيئاً من الرقى فى نظامها الحكومى ، ومنه القضاء ، كما يدلنا على ذلك ما روى من توزيع الأعمال على عشرة رجال من عشرة أبطن[1] كالحجابة والسِّقاية والرِّفادة والنَّدْوة واللواء ، وكان من هذه الأعمال شىء يتعلق بالقضاء عهد به الى أبى بكر فى الجاهلية ، فقد ذكروا أنه عهد اليه بالأشْنَاق ، وهى الديات والمغارم ، ويدلنا على ذلك أيضاً ما رووا لنا من اجتماع قريش على حِلْف الفُضول ، فقد تحالفوا على ألا يُظلم بمكة غريب ولا قريب ولا حر ولا عبد الا كانوا معه حتى يأخذوا له بحقه ، ويؤدوا اليه مظلمته ، من أنفسهم ومن غيرهم

كذلك كان التشريع فى المدينة قبل الاسلام راقياً رقياً نسبياً ، لاختلاط العرب فيها باليهود ، وكان عندهم من التوراة وشروحها كثير من الأحكام ، وكانوا

---

(١) انظر ذلك فى العقد الفريد

خاضعين فى شؤونهم للقانون اليهودى

وقد تعرض الاسلام للقانون الجاهلى و بعبارة أخرى لعرف العرب وتقاليدهم فى الجاهلية ، فأقر بعضاً وأنكر بعضاً ، وعدّل بعضاً ، مثال ما أقره القَسامة وهى التى حكينا عن البخارى قصتها من قبل ، فقد أخرج مسلم والنّسائى عن رجل من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم أن رسول الله أقر القَسامة على ما كانت عليه فى الجاهلية ، وقضى بها بين ناس من الأنصار فى قتيل ادعوه على يهود خَيْبر (١) — وعدّل الاسلام بعض شريعة الجاهليـة فى الحج والزواج والطلاق والمهر والخُلْع والأيلاء ، وألغى نظام التبنى المعروف كان فى الجاهلية ، كما ألغى البيع بالقاء الحجر والمُلَامسة والمنابَذة ، و يطول بنا القول لو ذكرنا ما يروى من هذه النظم فى الجاهلية وما أدخلها عليه الاسلام من تعديل أو الغاء

***

جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم وأقام بمكة نحو ثلاث عشرة سنة ؛ ثم أقام بالمدينة نحو عشر سنين ، وهذا العصر أعنى العصر الذى عاش فيه النبى صلى الله عليه وسلم بعد الرسالة هو عصر التشريع حقاً ، ففيه كان ينزل القرآن بالأحكام ، وتصدر عنه الأحاديث مبينة لما يعرض من الحوادث . وهذان المصدران — الكتاب والسنة — هما أعظم مصادر التشريع الاسلامى

القرآن : نزل القرآن — كما رأيت — منجماً فى نحو ثلاث وعشرين سنة ، منه ما نزل بمكة و يبلغ نحو ثلثى القرآن ، ومنه ما نزل بالمدينة و يبلغ نحو الثلث ، ونحن اذا تتبعنا الآيات المكية نجد أنها لا تكاد تتعرض لشىء من التشريع فى المسائل المدنية والأحوال الشخصية والجنائية ، انما تقتصر على بيان أصول الدين

---

(١) تيسير الوصول ج ٣ ص ٢٠١

والدعوة اليها ، كالايمان بالله ورسوله واليوم الآخر ، والأمر بمكارم الأخلاق كالعدل والأحسان ، والوفاء بالوعد ، وأخذ العفو ، والخوف من الله وحده ، والشكر ، وتجنب مساوئ الأخلاق ، كالزنا والقتل ووأد البنات والتطفيف فى الكيل والميزان ، والنهى عن كل ما هو كفر أو تابع للكفر ، حتى ما شرع فى مكة من عبادات كالصلاة والزكاة لم يكن على التفصيل والبيان الذى عرف فى المدينة ، فالزكاة فى مكة كانت بمعنى الصدقة والانفاق فى سبل الخير من غير أن يحدّد لها جزء معين ولا نظام خاص ، وكذلك الصلاة ، انما أمر المسلمون أول أمرهم بنوع من الصلاة لم يحدد بانه خمس فى اليوم وهكذا — ولعل أوضح ما يبين التعاليم التى كان يدعو اليها الاسلام فى مكة سورة الأنعام المكية

أما التشريع فى الأمور المدنية من بيع واجارة وربا ونحو ذلك ، والجنائية من قتل وسرقة ، والأحوال الشخصية من زواج وطلاق ، فكل ذلك كان بعد أن هاجر النبى صلى الله عليه وسلم الى المدينة ، ولعل خير ما يوضح هذا النوع من التشريع سورتا البقرة والنساء المدنيتان — والعلة فى ذلك واضحة ، فان أصول الدين وهى التى جاء بها التشريع المكى مقدمة فى الأهمية وفى المنطق على أصول الأحكام التى جاء بها التشريع المدنى — وأيضاً ، فان الأحكام هى أشبه ما تكون بقوانين الدولة ، وهى انما توضع بعد تكوّن الدولة وقرارها ، ولم يكن الحال كذلك الا فى المدينة ، أما فى مكة فقد تقضى زمن النبى صلى الله عليه وسلم بها فى دعوة الناس الى الدين الجديد ، ولم يدخل فيه فى السنوات الأولى الا العدد القليل

وهذه الآيات القانونية أو كما يسميها الفقهاء آيات الأحكام ليست كثيرة فى القرآن ، ففى القرآن نحو ستة آلاف آية ، ليس منها مما يتعلق بالأحكام الا نحو مائتين ، وحتى بعض ما عده الفقهاء آيات أحكام لا يظهر أنها كذلك ، وليس

عدها من آيات الأحكام الا تغالياً فى الاستنتاج لايساعد عليه سياق الآيات ، وذلك كاستنتاج أن لفظ « أشهد » من ألفاظ اليمين من قوله تعالى « إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللهِ واللهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ واللهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً » وكاستنتاج حرمة لحم الخيل والبغال والحمير من قوله تعالى « وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ » واستنتاج وجوب الأضحية من قوله تعالى « إنا أعطيناك الكوثر فصلِّ لربك وانحر » الى كثير من أمثال ذلك

وترتيب القرآن توقيفى ، لم يراع فيه تاريخ النزول ، ولا اتحاد الموضوع ، لذلك لا ترى الآيات القانونيـة قد جمعت فى موضع واحد ، ولا الآيات المتعلقة بموضوع واحد فى مقام واحد أو مقامين الا نادراً ، كآيات المواريث وآيات الطلاق . والسبب فى ذلك على ما يظهر أن القصد الأول للقرآن تأسيس أركان الدين ، والدعوة الى التوحيد ، وتهذيب النفوس ووضع مبادىء للاخلاق ، فأما القصد التشريعى فيلى هذا ، ومن ثم كان كثير من آيات التشريع وارداً فى سياق القصد الأول ، وعلى أسلوب الدعوة والهداية لا على الاسلوب القانونى المألوف مثل « يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنْصَابُ وَالأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ . وَأَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ »

وكان التشريع أكثر ما يكون بمناسبة حوادث تحدث ، فيتحاكم فيها المتخاصمون الى الرسول ، فتنزل الآية أو الآيات ناطقة بالحكم ، مثل ماروى أن

رجلا من غَطَفَان كان عنده مال كثير لابن أخ له يتيم ، فلما بلغ اليتيم طلب المال فمنعه عمه ، فترافعا الى النبي صلى الله عليه وسلم فنزلت « وَآتُوا الْيَتَامى أَمْوَالَهُمْ الآية » وكالذى روى أن أهل المدينة فى الجاهلية وفى أول الاسلام كانوا اذا مات الرجل وله امرأة جاء ابنه من غيرها أو قرابته من عصبته فألقى ثوبه على تلك المرأة فصار أحق بها من نفسها ومن غيره ، فان شاء أن يتزوجها تزوجها بغير صداق الا الصداق الذى أصدقها الميت ، وان شاء زوّجها غيرَه وأخذ صداقها ولم يعطها شيئاً وان شاء عضلها وضارّها لتفتدى منه بما ورثت من الميت ، أو تموت هى فيرثها ، فتوفى أبو قيس بن الأسْلت الأنصارى وترك امرأته كُبَيْشَة [1] فقام ابن له من غيرها فطرح ثوبه عليها ، فورث نكاحها ، ثم تركها فلم يقربها ولم ينفق عليها ، يضارها لتفتدى منه بمالها فأتت كبيشة الى رسول الله وقصت قصتها ؛ فقال لها رسول الله اقعدى حتى يأتى فيك أمر الله ، فانصرفت وسمعت بذلك نساء المدينة فأتين رسول الله ، وقلن ما نحن الا كهيئة كبيشة فأنزل الله « يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهاً وَلاَ تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ » الآية [2]

وأحياناً تحدث حادثة جزئية تستدعى نزول آيات تبين أحكام الموضوع كله ، كآيتى الميراث « يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللهُ يُفْتِيكُمْ فِى الْكَلاَلَةِ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ » الآية

ولعلك لحت معى مما ذكرتُ من حادثة كبيشة أن الناس حتى فى المدينة كانوا

(١) ترد فى بعض الكتب « كبشة » وفى بعضها « كبيشة » وهما اسمان لها كما فى الاصابة لابن حجر

(٢) تجد هذا وكثيرا مثله فى أسباب النزول للواحدى النيسابورى

يسيرون فيما لم يرد فيه حكم اسلامى على المألوف عندهم فى الجاهلية حتى يغيره الاسلام أو يقره ، بل قد روى لنا أن بعض من ينتسب الى الاسلام فى العهد الأول بالمدينة كان يريد أن يسير على النمط الجاهلى فى التقاضى وفى الحكم ، فقد جاء فى الطبرى أن رجلا من الأنصار يقال له قيس ورجلا من اليهود تخاصما فتنافرا الى كاهن بالمدينة ليحكم بينهما ، وتركا نبى الله صلى الله عليه وسلم ، وكان اليهودى يدعوه الى نبى الله وقد علم أنه لن يجور عليه ، وجعل الانصارى يأبى عليه وهو يزعم أنه مسلم ، ويدعوه الى الكاهن ، فأنزل الله تعالى « أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيداً » الى أن يقول « فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً » وفى موضع آخر « أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكْماً لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ » ولعل هذه الآيات هى أول ما نبه الى وجوب رجوع المسلمين فى تقاضيهم الى أحكام الاسلام

ويمكننا أن نقول أن آيات الاحكام بالمدينة كانت تنزل حسب تطور جماعة المسلمين بالمدينة ، ولو وقفنا على تاريخ نزول آيات الاحكام بها وتتبعنا تسلسل الآيات تبعاً لتسلسل الحوادث لفهمنا أصدق فهم حالة المسلمين الاجتماعية وتدرجها فى الرقى ، وفهمنا بحق مجمل الآيات ومفصلها ، ومطلقها ومقيدها ، ولعل هذا المعنى هو الذى يرمى اليه «الشاطبى» فى كتابه «الموافقات» من قوله « المدنى من السور ينبغى أن يكون مُنزّلا فى الفهم على المكى وكذلك المكى بعضه مع بعض ، على حسب ترتيبه فى التنزيل الخ[1]

---

(١) الموافقات جزء ٣ ص ٢٤٤ — ٢٤٥

ـ فالدعوة السلمية فى مكة ثم تشريع الحرب والجهاد فى أول عهد الاسلام بالمدينة ، ثم التوسع فى أحكام الحرب بعد ذلك ، والأمر بالزكاة على وجه عام ليس فيه تقدير ما فى مكة ، ثم تحديد القدر و بيان مصارف الزكاة فى المدينة ، كل هذا — ونحوه كثير — كان تابعاً لنمو جماعة المسلمين ورقيهم ، فكان التشريع ينزل طبقاً لحالتهم ، وقل مثل ذلك فيما ورد من آيات مُسَالِمة لليهود أول الأمر ، ثم آيات شدة وحرب لمـّا ناصب اليهود المسلمين العداء وهكذا ، بل ترك الاسلامُ الناس يأتون بعادات جاهلية لا يحبها كالخمر استدراجاً لهم وتأليفاً لقلوبهم حتى اذا نضجوا وأصبح من الممكن تنفيذ الأمر والنهى أمَرَ ونَهَى

وهذا التدرج ومراعاة حال جماعة المسلمين هى التى تفسر لنا العـلة فى تشريع النسخ ، وهو أداة لابد منها فى القوانين الالهية والوضعية ، يقول الله تعالى «مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا »ويقول « وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ » و يقول الطبرى فى تفسير النسخ « أن يُحَوَّل الحرام حلالا ، والحلال حراماً ، والمباح محظوراً ، والمحظور مباحاً » وعللوا جواز النسخ بأن المصلحة قد تختلف باختلاف الأوقات ، وقد حدث ذلك فعلا فى الشريعة الاسلامية ، فقد أمرت المرأة ان تعتد حولا اذا مات عنها زوجها « وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجاً وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعاً إِلَى الْحَوْلِ » ثم نسخ باعتدادها أربعـة أشهر وعشراً فى قوله تعالى « وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجاً يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْراً » وحصل مثل ذلك فى الحديث « كنت نهيتكم عن ادخار لحوم الاضاحى فالآن ادخروها » و « كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها »

وقد لاحظ الشاطبى — بحق — أن التشريع المـكى قلّ أن يتعرض للنسخ ،

والعلة فى ذلك ما علمنا أن التشريع المكى انما يتعرض لأصول الدين من توحيد وترك أوثان ودعوة الى مكارم الأخلاق وهذه غير معقول فيها نسخ ، انما يحصل النسخ أحياناً للاحكام الدينية التفصيلية ، وذلك كان فى المدينة

***

تعرض القرآن فى آيات الأحكام الى جميع أنواع ما يصدر عن الانسان من أعمال ، الى العبادات من صلاة وصوم وزكاة وحج ، الى الأمور المدنية كبيع واجارة وربا ، الى الأمور الجنائية من قتل وسرقة وزنى وقطع طريق ، الى نظام الأسرة من زواج وطلاق وميراث ، الى الشؤون الدولية كالقتال وعلاقة المسلمين بالمحاربين وما بينهم من عهود وغنائم الحرب — وهو فى هذا كله لايتعرض كثيراً للتفاصيل الجزئية ، انما يتعرض غالباً للأمور الكلية ، فهو لا يتعرض فى الصلاة مثلا الى أوقاتها وهيئاتها ، وفى الزكاة الى مقدار الواجب فيها وأنواع ما يجب ، وهكذا فى بقية الأبواب ، بل ترك ذلك الى الرسول يبينه بقوله وفعله

وهو فى كثير من شؤون التشريع مجدّد مصلح ، قد أدخل على النظام الجاهلى تغييرات وتعديلات يطول شرحها ، فهو يقلل عدد الزوجات ، ويزيد فى حرية المرأة ، ويغير كثيراً من عادات الجاهلية فى زواجهم وطلاقهم ، ويضع نظاماً للارث يخالف النظام الجاهلى ، فقد كانوا فى الجاهلية — مثلا — لا يورّثون النساء ، ولا الصغار من أبناء الميت ، انما يورثون من يلاقى العدو ويقاتل فى الحروب(١) ، فشرع الاسلام توريث المرأة وكان ذلك شديداً على النفوس ، فقد روى عن ابن عباس أنه قال لما نزلت الفرائض التى فرض الله فيها للولد الذكر والأنثى والأبوين كرهها الناس وقالوا تعطَى المرأة الربع والثمن ، وتعطى الابنة

---

(١) أنظر الطبرى جزء ٤ ص ١٨٥

النصف ، ويعطى الغلام الصغير ، وليس من هؤلاء أحد يقاتل القوم ولا يحوز الغنيمة الخ[1] ومن أجل هذا أكد القرآن اعطاء المرأة نصيبها وكرر ذلك فى أكثر من موضع — وهكذا فى كثير من الشؤون التى تعرض القرآن لبيان أحكامها ، ولسنا نستطيع هنا ذكر جميع ما شرعه القرآن من الأحكام [2]

***

وهناك نوع آخر من التشريع كان فى عهد رسول الله وهو التشريع بالسنة ، ويختلف عن الكتاب فى أن القرآن ألفاظه ومعانيه بوحى من الله ، وأما السنة فألفاظها من عند الرسول ، فالسنة أو أحاديث الرسول بينت كثيراً من آيات القرآن كالذى رأيت فى آيات الصلاة والزكاة ، فالقرآن لم يبين هيئات الصلاة ولا أوقاتها ولم يبين المقادير الواجبة فى الزكاة ولا شروطها انما بين ذلك النبى بقوله أو فعله ، كذلك حدثت حوادث وخصومات قضى فيها النبى بالحديث لا بالقرآن فكان قضاؤه فى ذلك تشريعاً ، فكل ما قاله النبى أو فعله أو حدث أمامه واستحسنه كان تشريعاً ، ومتى ثبت ذلك عن رسول الله كان فى القوة بمنزلة القرآن ، ولكن قلّ أن يثبت ثبوتاً لا يحتمل الشك لما بينا قبل فى كلامنا على الحديث

ويتصل بهذا النوع ما ارتضاه أكثر الأصوليين من أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يجتهد برأيه حيث لا يكون وحى ، وانه كان أحياناً يخطىء فى رأيه واستدلوا على ذلك بأنه عوتب فى أسرى بدر بقوله تعالى « مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فى الأَرْضِ » وكان قد أشار عليه عمر بالقتل ، ولو

(١) تفسير الطبرى جزء ٤ ص ٨٦ (٢) أفرد قوم آيات الاحكام بالتأليف مثل « التفسيرات الأحمدية فى الآيات الشرعية فاقتصر على آيات الأحكام وتفسيرها وبيان ما يستنبط منها وانظر كذلك « التشريع الأسلامى » للمرحوم الأستاذ الخضرى فقد كتب فيه فصلا مطولا عن الاحكام التى وردت فى الكتاب

كان حكم بمقتضى الوحى ما عوتب ، وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال فى حق مكة « لا يُخْتَلَى خَلاَهَا وَلاَ يُعْضَدُ شجرها » فقال العباس الا الإِذْخِر فقال صلى الله عليه وسلم الا الأذخر — ونزل صلى الله عليه وسلم منزلا للحرب فقيل له ان كان بوحى فسمعاً وطاعة ، وان كان باجتهاد ورأى فليس منزل مكيدة ، فقال باجتهاد ورأى فرحل ، وقال صلى الله عليه وسلم فى حجة الوداع « لو استقبلت من أمرى ما استدبرت ماسُقْتُ الهَدْى » وقال صلى الله عليه وسلم « انكم تختصمون الىّ ولعل بعضكم أن يكون ألحَنَ بحجته من بعض فأقضى له على نحو ما أسمع ، فمن قضيت له بحق أخيه فلا يأخذ منه شيئاً ، فانما أقضى له قطعة من نار » — ولكن اتفقوا على انه صلى الله عليه وسلم لا يُقَرُّ على خطأ ، فما اجتهـد فيه وأقِرّ عليه كان — لا شك — حجة[1]

وأحاديث الأحكام كثيرة وردت فى كل الانواع التى ورد فيها القرآن فبينت مجمله ، وقيدت مفصله ، وزادت أشياء كثيرة لم يذكرها القرآن وقد عنى العلماء قديماً بجمعها ، ورتبوها حسب الترتيب الفقهى[2]

هذان الأصلان — الكتاب والسنة — هما مصدرا التشريع فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم ومن ذلك يتبين أن أساس القانون الاسلامى الهى ، مصدره الله فيما نص عليه من كتاب وحديث ، ليست لأية سلطة حق فى مخالفتهما ، ولا الخروج على ما ورد فى نصوصهما ، انما يجتهد المجتهدون فيما لم يرد فيه نص ، مسترشدين بما ورد فى الكتاب والسنة من قواعد كليـة ، و بذلك تخالف القوانين الوضعية ، ففيها

---

(١) انظر المستصفى للغزالى جزء٢ ص ٣٥٥ (٢) من أقدم من عمل ذلك البخارى فى صحيحه ومن خير ما ألفه المحدثون الشوكانى فى كتابه نيل الاوطار فقد جمع ما فى الكتب الستة ورتبه حسب أبواب الفقه وشرحه شرحا مستفيضا بينا ما يستنبط منها من الاحكام

تكون السلطة التشريعية فى منتهى الحرية فى تفسير قانون أو تعديله أو الغائه ، وليس الشأن كذلك فى القوانين الالهية ، فحرية الفقهاء والخلفاء محدودة فى دائرة فهم نصوص القرآن ، ومقدار الثقة بالحديث وعدمها . وفيما لم يرد فيه كتاب ولا سنة صحيحة

***

توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وانقطع الوحى ، واتسعت المملكة الاسلامية اتساعاً عظيما وسريعاً وعجيباً ، ففى السنة الرابعة عشرة من الهجرة فتحت دمشق ، وفى السابعة عشرة تم فتح الشام كله والعراق ، وفى الحادية والعشرين تم فتح فارس ، وفى السادسة والخمسين وصل المسلمون الى سمرقند ، وفى الغرب أخذت مصر فى سنة عشرين ثم امتدت الفتوح الى المغرب وأخذت اسبانيا حول سنة ٩٣ هـ ونال المسلمون من الغنى فى المال والرقيق وزخرف الحياة ما لا عهد لهم به من قبل ، وكانت هذه الممالك المفتوحة غنية ، وكانت ممدنة كأرقى ما وصلت اليه المدنية فى ذلك العصر ، تمثلت الحضارة الفارسية فى فارس والعراق والحضارة الرومانية فى مصر والشام ، ولم يكن الفتح الاسلامى سلباً ونهباً وتدميراً ، انما كان فتحاً منظماً يسير فيه القراء والمعلمون والقانونيون مع الجند الفاتحين ، ويحلون حيث حل الجند — فواجه المسلمون بهذا الفتح مسائل كثيرة — فى كل شأن من شؤون الحياة — تحتاج الى تشريع لم يكونوا يحتاجون اليه وهم فى جزيرة العرب ، فنظام الرى يخالف رى الجزيرة ، وما كان منه فى العراق يخالف ما كان منه فى مصر ، ومسائل مالية عديدة معقدة لا تقارن بالشؤون المالية بجزيرة العرب ، ومسائل الجيش والفتوح ومعاملة المغلوبين وعلاقة الفاتحين بهم ، وما يؤخذ من الضرائب ممن أسلم وممن لم يسلم واحوال فى الزواج لم يكن يعرفها العرب ، وأنواع فى طريقة التقاضى لم يكن لهم بها عهد ، وجنايات ترتكب لم يرتكبها العرب فى حياتهم البسيطة

وقل مثل ذلك فى سائر الشؤون الداخلية والخارجية ، فواجه المشرعون الاولون أمراً عظيما ، ولم يدّع أحد أن القرآن والسنة الصحيحة نصا فى المسائل الجزئيـة على كل ما كان وما هو كائن ، فنتج عن هذا أن كان أصل آخر من أصول التشريع ، وهو الرأى الذى نظّم بعدُ وسمى القياس

جرى على هذا كثير من الصحابة ، فكانوا يستعملون رأيهم حيث لا نص، وقد نقل الينا المؤرخون والمحدثون والفقهاء جملة صالحة من المسائل التى استعمل فيها الصحابة رأيهم ، فلم يكد يتوفى النبى صلى الله عليه وسلم حتى رأوا أنفسهم أمام أكبر مشكلة قانونية وهى من يتولى الامر بعده ، أمن المهاجرين أم من الانصار أم من هؤلاء أمير ومن هؤلاء أمير ، واذا فصل فى ذلك فمن هو خير من يتولاها ؟ لم يرد فى ذلك نص من كتاب ولا سنة فلم يكن الا أن يستعملوا رأيهم، وقد كان، فالمحضر الذى ذكره المؤرخون لاجتماع السقيفة يدلنـا على كيفية استعمال رأيهم وتقليب الامر على وجوهه

ولم يفرغ أبو بكر من مبايعة الناس له حتى واجه مسألة الرّدة ، فرأى قوماً يمتنعون عن أداء الزكاة مع اقرارهم بالاسلام واتيانهم للصلاة ، فكيف يصنع بهم ولم تحدث حادثة كهذه فى عهد النبى ؟ فلجئوا الى الرأى ، فقال عمر كيف تقاتلهم وقد قال عليه الصلاة والسلام « أُمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا اله الا الله فاذا قالوها عصموا منى دماءهم وأموالهم الا بحقها » فقال أبو بكر ألم يقل الا بحقها ، فمن حقها ايتاء الزكاة كما أن من حقها اقام الصلاة

وكذلك عرضت فكرة جمع القرآن فى مصحف واختلف الرأى أولا بين أبى بكر وعمر حتى شرح الله صدر أبى بكر لما يقول عمر

وعرضت لهم مسألة الجد مع الأخوة ، هل يرث الأخوة ؟ فالقرآن لم ينص على

هذه المسألة ، انما نص على الأب مع الاخوة ، فذهب ابن عباس وأبو بكر الى أنه يحجبهم كالاب ، وذهب آخرون ومنهم زيد بن ثابت وعلى وعمر الى ارثهم معه

وأرادوا أن يعطوا العطاء أعنى الغنائم التى يغنمونها فى الحروب فاختلفوا ، هل يسوّى بين المهاجرين والانصار ؟ فقال عمر لا نجعل من ترك دياره وأمواله مهاجراً الى النبى صلى الله عليه وسلم كمن دخل فى الاسلام كرهاً ، فقال أبو بكر انما أسلموا لله ، وأجورهم على الله ، وانما الدنيا بلاغ ، وكان أبو بكر يعمل برأيه فيسوى بينهم ولما أفضت الخلافة الى عمر فرق بينهم ، ووزع على تفاوت درجاتهم ، ولما رفعت الى زيد بن ثابت مسألة من مات عن زوج وابوين أعطى للام ثلث ما بقى ، فقال ابن عباس أين وجدت فى كتاب الله ثلث ما بقى ؟ فقال زيد أقول برأيى وتقول برأيك

وفى تاريخ القضاة للكندى أن عياض بن عبيد الله قاضى مصر كتب الى عمر ابن عبد العزيز فى مسألة ، فكتب اليه عمر أنه لم يبلغنى فى هذا شىء ، وقد جعلته لك فاقض فيه برأيك[١] والأمثلة الواردة فى هذا الباب كثيرة جداً لانطيل بسردها

وعلى الجملة فقد كان كثير من الصحابة يرى أن يستعمل الرأى حيث لانص من كتاب ولاسنة ، والمتتبع لما روى عن العصر الأول فى « الراى » يرى أنهم كانوا يستعملون هذه الكلمة بالمعنى الذى نفهمه الآن من كلمة « العدالة » و بعبارة أخرى مايرشد اليه الذوق السليم مما فى الأمر من عدل وظلم ، وفسره ابن القيم « بأنه مايراه القلب بعد فكر وتأمل وطلب لمعرفة وجه الصواب » وأنا أقص عليك بعض أمثلة رويت تبين كيف كانوا ينظرون الى المسائل ، وكيف يقلبونها على وجوهها ، وكيف يستعملون رأيهم ، من ذلك ما روى أن عمر بن الخطاب لما استشار فى ميراث الجد والاخوة ، قال زيد وكان رأيى يومئذ أن الجد أولى بميراث ابن ابنه من اخوته ،

---

(١) ص ٣٤٤

فتحاورت أنا وعمر محاورة شديدة فضربت له فى ذلك مثلا ، فقلت لو أن شجرة تشعب من أصلها غصن ثم تشعب فى ذلك الغصن خُوطَان[1] ، ذلك الغصن يجمع الخوطين دون الأصل ويغذوهما ، ألا ترى يا أمير المؤمنين أن أحد الخوطين أقرب الى أخيه من الأصل ، قال زيد فانا أعدله ، وأضرب له هذه الأمثال ، وهو يأبى الا أن الجد أولى من الاخوة [2]

ورفعت الى عمر قصة رجل قتلته امرأة أبيه وخليلها ، فتردد عمر هل يقتل الكثير بالواحد ، فقال له علىّ أرأيت لو أن نفراً اشتركوا فى سرقة جَزُور فأخذ هذا عضواً وهذا عضواً أ كنت قاطعهم ؟ قال نعم ، قال فكذلك ، فعمل عمر برأيه وكتب الى عامله أن اقتلهما ، فلو اشترك فيه أهل صنعاء كلهم لقتلتهم [3]

ولما اختلفوا فى المسألة المشتركة وهى التى توفيت فيها امرأة عن زوج وأم وأخوة لأم واخوة أشقاء كان عمر يعطى للزوج النصف ، وللام السدس ، وللاخوة لأم الثلث فلا يبقى شىء للاخوة الاشقاء فقيل له : هب أن أبانا كان حماراً ، ألسنا من أم واحدة ؟ فعدل عن رأيه وأشرك بينهم

ولما سئل على فى عقوبة شارب الخمر قال من شرب هذى ، ومن هذى افترى فأرى عليه حد المفترى (وهو القاذف) ومثل هذا كثير مما يدل على مقدار تفكيرهم القانونى فى هذا العصر

ولعل عمر بن الخطاب كان أظهر الصحابة فى هذا الباب ، وهو استعمال الرأى ، فقد روى عنه الشىء الكثير ، وكان هذا من توفيق الله للمسلمين ، فان عمر قد واجه من الأمور المحتاجة الى التشريع ما لم يواجه خليفة قبله ولا بعده ، فهو الذى على

---

(١) الخوط الغصن الغض النابت حديثاً (٢) أعلام الموقعين جزء ١ ص ٢٥٦

(٣) أعلام الموقعين

يده فتحت الفتوح ، ومصرت الأمصار ، وخضعت الأمم المدنة من فارس والروم لحكم الاسلام ، وهى حالة لم يحدث بعدُ نظيرها ، فكان لعمر من التشريع فى المسائل الاقتصادية والسياسية والعمرانية ما كان أصلا للفقهاء من بعده ، ولذلك يقول فيه الفقهاء فى باب الجهاد والسِّيَر — وهو الباب الذى تبين فيه علاقة الغالبين بالمغلوبين — « انه العمدة فى هذا الباب »

بل يظهر لى أن عمر كان يستعمل الرأى فى أوسع من المعنى الذى ذكرنا ، ذلك أن ما ذكرنا هو استعمال الرأى حيث لا نص من كتاب ولا سنة ، ولكننا نرى عمر سار أبعد من ذلك ، فكان يجتهد فى تعرف المصلحة التى لأجلها كانت الآية أو الحديث ، ثم يسترشد بتلك المصلحة فى أحكامه ، وهو أقرب شىء الى ما يعبر عنه الآن بالاسترشاد بروح القانون لا بحرفيته ، ودليلنا على ذلك ما روى عنه العلماء من أحكام نذكر بعضها

فقد قال الله تعالى « إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ » الآية فجعل المؤلفة قلوبهم مصرفاً من مصارف الزكاة وقد ثبت أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يعطى بعض الناس يتألف قلوبهم للاسلام كما أعطى أبا سفيان والأقرع بن حابس وعباس بن مرداس وصفوان بن أمية وعيينة بن حصن ، كل واحد منهم مائة من الابل ، حتى قال صفوان : لقد أعطانى ما أعطانى وهو أبغض الناس الىّ فما زال يعطينى حتى كان أحب الناس الىّ ، ثم فى زمن أبى بكر جاء عيينة والأقرع يطلبان أرضاً ، فكتب لهما بها ، فجاء عمر فمزق الكتاب ، وقال ان الله أعز الاسلام وأغنى عنكم ، فان ثبتم عليه والا فبيننا و بينكم السيف[1] فترى من هذا أن عمر علل الدفع الى المؤلفة قلوبهم بعلة هى المصلحة ، فلما ارتفعت هذه المصلحة

---

(١) الزيلعى جزء ١ ص ٢٩٩

بعزة الاسلام وعلم حاجته الى من تتألف قلوبهم لم يستمر فى اجراء الحكم

كذلك روى عن عمر أنه لم يقطع يد السارق فى عام المجاعـة ، وروى أن غلمة لحاطب بن أبى بلتعة سرقوا ناقة لرجل من مزينة ، فأتى بهم عمر ، فأقروا ، فأرسل الى عبد الرحمن بن حاطب فجاء ، فقال له أن غلمان حاطب سرقوا ناقة رجل من مزينة وأقروا على أنفسهم ، فقال عمر يا كثير بن الصلت ! اذهب فاقطع أيديهم ، فلما ولى بهم ردهم عمر ثم قال أما والله لولا انى أعلم أنكم تستعملونهم وتجيعونهم حتى ان أحدهم لو أكل ما حرم الله عليـه حل له لقطعت أيديهم ، وايم الله اذ لم أفعل لأغرمنك غرامة توجعك الخ [1]

ومثل ذلك ما جاء فى صحيح مسلم عن ابن عباس « كان الطلاق الثلاث على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبى بكر وسنتين من خلافة عمر طلاق الثلاث واحدة ، فقال عمر بن الخطاب ان الناس قد استعجلوا فى أمر كانت لهم فيه أناة ، فلو أمضيناه عليهم ، فأمضاه — الى كثير من أمثال ذلك ، ويكفينا هذا القدر للدلالة على ما نقول

وقد وجدت نزعة من العصر الأول لتنظيم هذا الرأى من طريق الاستشارة ؛ فقد أخرج البغوى عن ميمون بن مهران قال : كان أبو بكر اذا ورد عليه الخصوم نظر فى كتاب الله فان وجد فيه ما يقضى بينهم قضى به ، وان لم يكن فى الكتاب وعلم من رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ذلك الأمر سـنة قضى بها ، فان أعياه خرج فسأل المسلمين وقال أتانى كذا وكذا ، فهل علمتم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قضى فى ذلك بقضاء ؟ فربما اجتمع عليه النفر كلهم يذكر فيه عن رسول الله قضاء . . . فان أعياه أن يجد فيه سنة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم جمع رءوس

---

(١) أعلام الموقعين جزء ٣ ص ٣٢و٣٣

الناس وخيارهم فاستشارهم ، فان أجمع رأيهم على شيء قضى به ، وكان عمر رضى الله عنه يفعل ذلك فان أعياه أن يجد فى القرآن والسنة نظر هل كان فيه لأبى بكر قضاء ، فان وجد أبا بكر قضى فيه بقضاء قضى به ، والادعا رؤوس الناس فاذا اجتمعوا على أمر قضى به

وفى المبسوط للسرخسى « ان عمر كان يستشير الصحابة مع فقهه حتى كان اذا رفعت اليه حادثة قال ادعوا لى علياً ، وادعوا لى زيداً . . . فكان يستشيرهم ثم يفصل بما اتفقوا عليه »

وعن الشعبى قال « كانت القضية ترفع الى عمر رضى الله عنه فربما يتأمل فى ذلك شهراً ويستشير أصحابه ، واليوم يفصل فى المجلس مائة قضية »

وروى عن سعيد بن المسيب عن على قال قلت يا رسول الله الأمر ينزل بنا لم ينزل فيه قرآن ولم تمض فيه منك سنة قال اجمعوا له العالمين أو قال العابدين من المؤمنين فاجعلوه شورى بينكم ، ولا تقضوا فيه برأى واحد

وعن شريح قال قال لى عمر بن الخطاب أن اقض بما استبان لك من قضاء رسول الله فان لم تعلم كل أقضية رسول الله فاقض بما استبان لك من أئمة المهتدين ، فان لم تعلم فاجتهد برأيك ، واستشر أهل العلم والصلاح

ولكن لم يوضع — مع الأسف — نظام ملزم واضح يبين كيفية الشورى ومَن الذين يستشارون وقيمة رأى المستشارين الخ مع أن الحاجة ماسة الى هذا التنظيم ، وقد سار الاندلسيون فيه خطوة سديدة بتكوين مجلس للشورى يعين أعضاؤه من قِبَل الخليفة ليس هنا موضع الكلام عليه

على كل حال وجد العمل بالرأى ، ونقل عن كثير من كبار الصحابة قضايا أفتوا فيها برأيهم كأبى بكر وعمر وزيد بن ثابت وأُبىّ بن كعب ومعاذ بن جبل

وكان حامل لواء هذه المدرسة أو هذا المذهب فيما نرى عمر بن الخطاب ، وأشهر من سار على طريقته عبد الله بن مسعود فى العراق ، فكان يتعشق عمر ويعجب بآرائه ، وروى عنه انه قال انى لأحسب عمر ذهب بتسعة أعشار العلم . وجاء فى أعلام الموقعين أن ابن مسعود كان لا يكاد يخالف عمر فى شيء من مذاهبه (١) وقال الشعبى كان عبد الله لا يَقْنُتُ ، ولو قنت عمر لقنت عبد الله ، وقال أيضاً « ثلاثة كان يستفتى بعضهم من بعض ، فكان عمر وعبد الله (بن مسعود) وزيد بن ثابت يستفتى بعضهم من بعض ، وكان على وأُبى بن كعب وأبو موسى الاشعرى يستفتى بعضهم من بعض » وهذا الخبر يدلنا على أنه كان للصحابة العلماء مناحٍ للتفكير ، كل جماعة لهم منحى يألف بعضهم بعضاً ويؤيد بعضهم بعضاً

فكان عبدالله بن مسعود من منحى عمر ، وأظهر مناحيه الاعتداد بالرأى حيث لا نص كما رأيت . وهذا المنحى يظهر فى ابن مسعود واضحاً أيضاً ، فقد قال أبو عمرو الشيبانى كنت أجلس الى ابن مسعود حولا لا يقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فاذا قالها استقلته الرِّعْدة (٢) وروى عن ابراهيم النخعى أنه كان لا يعدل بقول عمر وابن مسعود اذا اجتمعا فاذا اختلفا كان قول عبد الله أعجب لأنه كان ألطف

وأنت اذا علمت أن علم أهل العراق كان عن عبد الله بن مسعود وأن مدرسة العراق توجت بأبى حنيفة (٣) رأيت سبباً كبيراً من الأسباب التى جعلت مدرسة العراق تشتهر بالرأى واعمال القياس

انتشرت مدرسة الرأى هذه فى القرن الأول والثانى للهجرة حتى كانوا ينسبون اليها ، فسموا « ربيعَة الرَّأْى » وهو من أكبر التابعين وشيخ الامام مالك وكان من

(١) جزء ١ ص ٢٢ (٢) أعلام الموقعين

(٣) اذا تتبعنا تسلسل هذه المدرسة وجدنا أن أبا حنيفة أخذ عن حماد بن أبى سليمان وهو أخذ عن ابراهيم النخعى وابراهيم أخذ عن علقمة بن قيس وهو تلميذ عبد الله بن مسعود

الموالى ، وكان كثير من التابعين وتابعيهم من هذه المدرسة كالحسن البصرى ، وكان أكبر موطن لها العراق ، ويرجع ذلك الى أسباب ثلاثة : الأول ما ذكر من تأثير عبد الله بن مسعود فيهم وهو ما علمت من ميل الى الرأى يشاركه فيه أستاذه عمر بن الخطاب ، والثانى ما ذكره ابن خلدون من أن الحديث كان فى العراق قليلا ، وكان أكثر رواة الحديث فى الحجاز ، لانه موطن النبي صلى الله عليه وسلم وكبار الصحابة ، والثالث أن العراق قطر ممدن كما علمت قد تأثر الى درجة كبيرة بالمدنية الفارسية واليونانية ، والمدنية تضع تحت عين المشرع جزئيات كثيرة تحتاج الى التشريع لا يقاس بها القطر البدوى وما فى حكمه ، فاذا انضم الى ذلك قلة ما وصل اليهم من الحديث أنتج ذلك لا محالة اعمال الرأى

وكان لمدرسة الرأى هذه مميزات واضحة

(١) كثرة تفريعهم الفروع حتى الخيالى منها ، وقد ألجأ الى ذلك أولا كثرة مايعرض لهم من الحوادث نظراً لمدنيتهم ، ثم ساقهم ذلك الى الجرى وراء الفروض فأكثروا من أرأيت لو كان كذا ، فيسألون المسألة و يبدون فيها حكما ، ثم يفرعونها بقولهم أرأيت لو كان كذا ، ويقلبونها على سائر وجوهها الممكنة وغير الممكنة أحياناً حتى سماهم أهل الحديث « الأرَأَيْتيُّون » قال الشعبى « والله لقد بغض هؤلاء القوم الى المسجد حتى لهو أبغض الىّ من كناسة دارى ، قلت من هم يا أبا عمر ؟ قال الأرأيتيون »[1] وقال « ما كلمة أبغض الىّ من أرأيت » وكان مالك بن أنس لا يُقدَّم عليه فى السؤال كثيراً ، وكان أصحابه يهابون ذلك ، قال أسد بن الفرات — وقد قدم على مالك — وكان أصحابه يجعلونى أسأله عن المسألة فاذا أجاب يقولون قل له فان كان كذا ، فأقول له ، فضاق علىّ يوماً فقال لى هذه سُلَيسلة بنت

(١) الموافقات جزء ٤ ص ١٨٦

سليسلة ؟ ان أردت هذا فعليك بالعراق[1] وقال ربيعة الرأى لسعيد بن المسيب وقد اعترض عليه فى مسألة « أعراق أنت ؟ » الخ وكان عمل العراقيين سبباً فى تضخيم الفقه وكثرة مسائله مما جعل الفقهاء الآخرين ينظرون فيها ويبدون حكمهم فيها على أصول مذاهبهم ، ويظهر أنه كان للمنطق السريانى الذى كان منتشراً فى العراق قبل الفتح — كما وصفنا من قبل — أثر فى القالب الذى اتخذه العراقيون فى تفريع المسائل

(٢) قلة روايتهم للحديث واشتراطهم فيما يؤخذ به من الحديث شروطاً لا يسلم معها الا القليل

وحتى تغالى قوم فرأوا عدم الأخذ بالحديث بتاتاً ، وحجتهم فى ذلك شكهم المطلق فى رواة الحديث ، وكثرة من جرحه المحدثون ، حتى يكادوا لا يتفقون على أمانة محدث وصدقه ، فقالوا لا نترك كتاب الله الثابت المقطوع به لمثل هذا الحديث المشكوك فيه ، وحتى من ظهرت أمانته ؛ فمن يدرينا ما دخيلة نفسه ، وكانت هذه فئة كبيرة على مايظهر ، فقد عقد الامام الشافعى فى كتابه الأم فصلا طويلا عنوانه « باب حكاية قول الطائفة التى ردت الأخبار كلها » وحكى آراءهم وناقشهم فيها مناقشة طويلة وبديعة[2] وعقد بعده باباً آخر للرد على جماعة ذهبوا الى أنه لا يؤخذ من الأخبار إلا ما اجتُمع عليه ، فأما ما اختلفوا فيه فيقدم الرأى والقياس عليه[3] ويظهر أن خطورة هذا القول جعلت ناقلى الأخبار لا ينقلون أقوالهم فلا نعثر منها الا على القليل المجمل الغامض، وقد نسب البغدادى القول بأنكار العمل بالحديث الى الخوارج فى كتابه « أصول الدين »

---

(١) المصدر نفسه ص ١٨٧

(٢) الام جزء ٧ ص ٢٥٠ وما بعدها

(٣) الام ص ٢٥٤ وما بعدها جزء ٧

كان يناهض هذه المدرسة مدرسةُ الحديث أو أهل الحديث ، ونرى لهذه المدرسة أصولا فى الصحابة ، كالعباس والزبير ، ثم عبد الله بن عمر بن الخطاب وعبد الله بن عمرو بن العاص ، ومن هـذه المدرسة الشعبي من التابعين فأنه يقول « ماجاءكم به هؤلاء من أصحاب رسول الله فخذوه ، وما كان من رأيهم فاطرحوه فى الحُشّ » ومذهب هؤلاء أنهم اذا سئلوا عن شيء فأنْ عرفوا فيه آية أو حديثا أفتوا والا لم يقولوا شيئا ، روى أن رجلا سأل سالم بن عبد الله بن عمر عن شيء فقال لم أسمع فى هذا شيئاً ، فقال له الرجل فأخبرنى أصلحك الله برأيك ، قال لا ، ثم أعاد عليه فقال انى أرضى برأيك ،فقال سالم أنّى ؟ لعلى انأخبرتك برأيى ثم تذهب فأرى بعد ذلك رأيا غيره فلا أجدك ، وروى عن عبد الله بن احمد بن حنبل أنه قال سألت أبى عن الرجل يكون ببلد لايجد فيه الا صاحب حديث لايعرف صحيحه من سقيمه ، وأصحاب رأى ، فتنزل به النازلة ، فقـال أبى : يسأل أصحاب الحديث ولا يسأل أصحاب الرأى ، ضعيفُ الحديث أقوى من صاحب الرأى (١) ومثل هـذه الأقوال كثير

وأظهر ما كانت هذه المدرسة فى الحجاز لعكس الأسباب التى ذكرناها فى العراق ، وكان من مميزات هذه المدرسة (١) كراهيتهم الشديدة للسؤال عن الفروض ، لأن المصدر عندهم وهو الحديث محدود ، وهم يكرهون إعمال الرأى ، وقد رويت أقوال كثيرة تدل على كراهيتهم للسؤال عن حادثة الا اذا وقعت فعلا ، وعيبهم على العراقيين اثارة الفروض (٢) ومن مميزاتها الاعتداد بالحديث حتى الضعيف منه وتساهلهم فى شروطه وتقديمهم ذلك على الرأى ، كالذى روينا عن احمد بن حنبل وكانت هذه المدرسة كما أسلفنا سبباً غير مباشر لوضع الحديث ، فقد رأى

(١) اعلام الموقعين جزء ١ ص ٨٨

قوم لا يتحرون الصدق أن هناك مسائل لا تعد لم يرد فيها نص ، ورأوا أعلام مدرستهم لا تُقْدِم على الرأى تحل به هذه المشاكل ،فوضعوا الأحاديث الكثيرة يغطون بها هذا الموقف ، قال عتيق الزبيدى : وضع مالك الموطأ عن نحو من عشرة آلاف حديث ، فلم يزل ينظر فيه كل سنة ويسقط منه حتى بقى هذا ؛ ولو بقى قليلا لأسقطه كله [١] ومن أدلتنا على ذلك مابين أيدينا من كتب الفقه حتى فقه الامام أبى حنيفة المشهور فى عصره بأعمال الرأى ، فانك لا تجد فرعاً من فروعه الا وفيه الحديث عن الرسول أو الصحابى ، مع قول الثقات بأنه لم يصح عنده الا أحاديث قليلة ، وقد نبه العلماء على ضعف كثير مما ورد فى هذه الكتب

وتغالى اصحاب الحديث كما تغالى أصحاب الرأى حتى قال بعضهم أن السنة حاكمة على الكتاب وليس الكتاب حاكما على السنة ، وحتى كان فى العصر الثانى من يقول أن السنة تنسخ الكتاب

***

كان النزاع بين المدرستين شديدا ووجه كل فريق قوارص اللوم للآخرين ، ووضعت الأحاديث لتأييد كل مدرسة ، فاذا روت مدرسة الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (يوشك رجل منكم متكئاً على أريكته يحدث بحديث عنى فيقول بيننا وبينكم كتاب الله ، فما وجدنا فيه من حلال استحللناه ، وما وجدنا فيه من حرام حرمناه ، ألا وأن ماحرم رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل الذى حرم الله) [٢] روت مدرسة الرأى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (ما أتاكم عنى فاعرضوه على كتاب الله فأن وافق كتاب الله فأنا قلته وان خالف كتاب الله فلم أقله

---

(١) الديباج المذهب فى تراجم المالكية للقاضى ابن فرحون ص ٢٥

(٢) انظر كتاب نصب الراية فى تخريج أحاديث الهداية للزيلعى

(٣) الحديث فى الموافقات للشاطبى جزء ٤ ص ٧

أنا وكيف أخالف كتاب الله و به هدانى الله ؟ [1]) وهذا هوالذى يفسر لنا ما نراه فى الكتب من تناقض فقد روى عن أبى بكر فى العمل بالرأى وفى ذم الرأى، وعن عمر فى العمل بالرأى وذم الرأى ، وابن مسعود كذلك [2] وقد أجهد بعض العلماء أنفسهم فى التوفيق بين هذه الأقوال المتناقضة ، ورأوا أن نوعاً من الرأى محمود ونوعا منه مذموم ، وأن ماورد عنهم فى الذم انما ينصرف الى النوع المذموم ، والذى نرى أن هذه الأقوال المتناقضة انما هو من أثر المدارس المتنازعة ، ومن وضع من اندس فى كل مدرسة ولم يرع الحق ولم يخش الله .

وكانت بين المدرستين مناقشات طريفة نذكر لك مثلا منها

فقد روى أن ربيعة الرأى سأل سعيد بن المسيب عن عقل [3] أصابع المرأة ما عقل الاصبع الواحدة ؟ قال عشرة من الابل ، قال فأصبعان ؟ قال عشرون ، قال فثلاث ؟ قال ثلاثون ، فأربع ؟ قال عشرون ، قال فعند ماعظم جرحها نقص عقلها ؟ فقال له سعيد أعراقى أنت ؟ انما هى السنة

* * *

وهناك مدرسة كانت بين المدرستين لاتهمل الرأى بتاتاً وهى مع ذلك غنية بالحديث ، ولا تهمل الرأى الا بشروط ، والا عند مالم يكن نص فى المسألة فيما وصل اليها من حديث كثير ، ومن أعلام هذه المدرسة الامام مالك ثم الامام الشافعى ، .

وقد ارتقى البحث فى الرأى ونظم ووضعت له قواعد وشروط وسمى بالقياس، وحصر الرأى بعد وضع هذه القواعد والنظم فى دائرة ضيقة لا تتعدى غالباً تشبيه ما لم ينص عليه بما نص عليه لعلة تجمعهما

وهذه المدارس على اختلافها رقت التشريع رقياً بيناً بما بحثت واستنبطت ،

---

(١) الحديث فى الموافقات أيضا جزء ٤ ص ٩ وقد نبه على وضعه

(٢) نقل هذه الأقوال ابن القيم فى أعلام الموقعين جزء ١

(٣) العقل الدية

حتى الأحاديث الموضوعة نفسها كان لها فضل فى التشريع ، فانها لم توضع اعتباطاً ولا كانت مجرد قول يقال ، انما كانت فى الغالب نتيجة تفكير فقهى وبحث واجتهاد ، ثم وضع هذا الرأى وهذا الاجتهاد فى قالب حديث

ولنعد الآن الى القاء نظرة عامة على تاريخ التشريع فى ذلك العصر

فى عهد الخلفاء الراشدين كان مركز الخلافة فى المدينة ، وكان فيها أكثر كبار الصحابة وأوسعهم علماً ، فلما تولى أبو بكر كانت تعرض عليه معضلات المسائل ليقضى فيها ، وكان — كما رأيت — يستشير كبار الصحابة فيما لم يرد فيه كتاب ولا سنة ، ولم يؤثر عنه أنه عين قاضيا فى ناحية من النواحى ، وقد ذكروا أنه لما كثرت عليه شؤون الأمة عهد بالشؤون القضائية الى عمر

فلما تولى عمر وفتحت الفتوح عين القضاة فى الامصار ، فى مصر والشام والعراق ، وكان بجانب القاضى جملة من الصحابة والتابعين فى كل مصر ، عرفوا عادات المصر الذى نزلوا به ونوع معيشتهم وحالتهم الاجتماعية والاقتصادية ، وكان لهم علم بالقرآن وجملة صالحة من الحديث ، ورأى يحكمونه فيما ليس فيه نص ، فكان هؤلاء يُسْتَفْتَوْنَ فيما يعرض لهم فيفتون ، هؤلاء أصدروا فتاوى فى أمور كثيرة عدت بعدُ تقاليد لكل مصرٍ ، أو بعبارة أخرى سوابق قضائية تراعى اذا حدث مثلها ، وقد ذكرنا قبل أن أهل المدينة كانوا يتبعون أكثر مايتبعون فتاوى عبدالله ابن عمر بن الخطاب ، وأهل مكة فتاوى عبد الله بن عباس ، وأهل الكوفة فتاوى عبد الله بن مسعود ، وأهل مصر فتاوى عبد الله بن عمرو بن العاص — هذه الفتاوى كانت تكثر بظهور أحداث لم يسبق صدور فتوى فيها واجتهاد العلماء فى بيان حكمها

ولما جاءت الدولة الأموية نقلت مركز الخلافة الى دمشق الشام — وفى عهدها

ظهر أثر الامتزاج الذى كان بين العرب الفاتحين والأمم المفتوحة على النحو الذى أبناه من قبل

وساعد على هذا الامتزاج أن المسلمين كانوا بحق فى عصرهم الأول متسامحين مع غيرهم أجمل تسامح ، وسيرة عمر بن الخطاب أصدق شاهد على ذلك ، وانما جاءت القسوة وسوء المعاملة بعد هذا العهد — فكان من أثر ذلك أن وضع تحت أعين المسلمين أنواع من المدنيات المختلفة ، وأنواع من الديانات المختلفة ، وأنواع من الانظمة المختلفة — كل هذه جعلت المسلمين وغير المسلمين يتساءلون ما حكم الاسلام فيها ؟ ما رأى الاسلام فى هذه الجزئيات الكثيرة التى أنتجتها هذه المدنيات ، ما الذى يرضاه الاسلام وما الذى لا يرضاه ، أيها يتفق مع قواعده الكلية وأيها لا يتفق ؟ فكان موقف الفقهاء أمام هذه المشاكل من أصعب المواقف وأشدها عناء ، وكانوا هم من جانبهم من أكثر الناس نشاطاً وتحملا للعبء

يذهب بعض الباحثين من المستشرقين مثل « جولد زيهير » و « سانتلانا » الى أن الفقه الاسلامى فى هذا العصر تأثر كثيراً بالقانون الرومانى ، وكان هذا الفقه الرومانى مصدرا من مصادره ، استمد منه بعض أحكامه ، قالوا كان فى الشام مدارس للقانون الرومانى عند الفتح الاسلامى فى قيصرية وفى بيروت ، وكان هناك محاكم تسير فى نظامها وأحكامها حسب القانون الرومانى ، واستمرت هذه المحاكم فى البلاد بعد الاسلام زمناً — قالوا — وطبيعى أن قوما لم يأخذوا من المدنية بحظ وافر اذا فتحوا بلادا ممدنة نظروا ما ذا يفعلون وبم يحكمون ثم اقتبسوا من أحكامهم ، — وقالوا — ان المقارنة بين بعض أبواب الفقه وبعض أبواب القانون الرومانى تقنعنا بما نقول ، بل أن هناك قواعد نقلت من القانون الرومانى بنصها مثل (البينة على من ادعى واليمين على من أنكر) وأن كلمتى الفقه والفقيه استعملتا وفاقاً لمعنى الكلمة

المستعملة عند الرومان ، فهم يستعملون كلمة « juris » وهى تدل على الفهم والمعرفة والحكمة — وقالوا — ان الفقه الاسلامى أخذ عن القانون الرومانى اما مباشرة أو من طريق التلمود فان هذا التلمود أخذ كثيراً من القانون الرومانى ، واتصال المسلمين باليهود مكنهم من الأخذ ببعض أقوال التلمود الى آخر ما قالوا

ولسنا نرى أن الأدلة التى أتوا بها مقنعة، فتشابه بعض أحكام فى قانونين لا يجعلنا نقطع بأخذ أحدهما عن الآخر ، سيما اذا روعى أن القوانين — الهية أو وضعية — تراعى العدالة فى التقنين ، وهناك أمور واضحة العدالة يتفق فيها المشرعون كقاعدة البينة على من ادعى واليمين على من أنكر — وكلمة الفقه فى أصل اللغة العربية معناها العلم بالشىء والفهم له ثم غلبت على معنى العلم بالدين والفهم له ، كما غلب الشعر على ذلك الضرب المعروف من القول ، وفى هذا المعنى استعملها القرآن قبل امتزاج العرب بالرومان فقال «فَلَوْلاَ نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ» ثم غلبت على هذا النمط من العلم (علم التشريع) لأنه يتطلب فقهاً فى الدين ومعرفة بالكتاب والسنة، وهذا شأن العرب فى أسماء العلوم على العموم، تكون الكلمات عامة ثم تُخَصَّص — ولم نعثر على أحد من الأئمة المشرعين أشار أية أشارة الى القانون الرومانى على سبيل النقد أو التأييد أو الاقتباس، وقد كان أولى الناس بالتأثر بالقانون الرومانى الأوزاعِىّ، فقد عاش فى بيروت، موطن أكبر مدرسة رومانية فى الشام ، وكان أكبر فقيه فيها ، وقد التفت بعض المستشرقين الى ذلك وقالوا — ان من دواعى الأسف أن مذهبه اندثر ولو عثرنا عليه لوجدنا فيه أثراً كبيراً للقانون الرومانى ، ويظهر لنا أنه قول غير وجيه ، فقد عثرتُ على جملة صالحة من مذهبه فى الجزء السابع من الأم ، ودلتنى قراءتها على أن من الانصاف أن يعد الأوزاعى من مدرسة الحديث لا من مدرسة الرى، عكس مايقول « جولد زيهير » ومدرسة الحديث أبعد مظنة من التأثر بالقانون الرومانى

ولسنا ننكر أن القانون الرومانى أفاد من ناحية غير هذه ، أعنى ناحية عرض المسائل على الفقهـاء ليبدوا فيها رأيهم حسب القواعد الكلية للشريعة الاسلامية ، فمن المحقق أن مصر والشام كانت تحكمها محاكم رومانية بالقانون الرومانى ، فلما جاء الاسلام ودخل قوم من هؤلاء المحكومين فيه وخضع له غيرهم كان من الطبيعى أن يعرضوا تقاضيهم القديم وآراء محاكمهم القديمة على الاسلام لينظروا ما يقر منها وما لم يقر — هب اليوم أنه لداع من الدواعى غيّر القانون المصرى ووضعت أسس أخرى لقوانين جديدة ، فمما لا شك فيه أن المتقاضين ورجال القضاء ونحوهم ممن كانوا يتقاضون حسب القانون القديم يثيرون مسائله ويعرضون رأيه ويقارنون بين التعاليم القديمة والتعاليم الجديدة — خصوصاً اذا لاحظنا أن القضاة فى صدر الاسلام كان لديهم الشىء الكثير من المرونة والتسامح فيما لم يخرج عن قواعد الاسلام ، قرأت فى ذيل كتاب قضاة مصر « أن خير بن نُعيْم (تولى قضاءمصرمن ١٢٠ — ١٢٧) كان يسمع كلام القبط بلغتهم ويخاطبهم بها ، وكذلك شهـادة الشهود منهم ، ويحكم بشهادتهم »[١]

***

فى هذا العهد عهـد الدولة الاموية لا نرى خلفاءهم يهتمون بشىء من شؤون التشريع الا قليلا منهم كعمر بن عبـد العزيز ، فالتشريع لم يرق تحت حمايتهم ورعايتهم ، كالذى كان فى عهد الدولة العباسية ، انما رقى فى المدارس وفى حلقات الدروس المستقلة عن خلفائهم ، ولم يبذل الأمويون محاولة فى صبغ تشريعهم صبغة رسميـة ، فلا نرى فى الدولة الأموية مثل أبى يوسف فى الدولة العباسية ، يحميه الخلفاء ، ويؤيدونه فى التشريع ، ويوثقون الصلة بينه وبينهم ، وبينه وبين قضاة

---

(١) تاريخ قضاة مصر للـكندى — ذيل عليه ص ٣٤٩

الامصار ، ولا نرى من المشرعين من اتصل بالأمويين الا قليلا كالزهرى

وفى هذا العهد لم تكن المذاهب الاربعة قد تكونت، انما كان هناك أئمة كثيرون مجتهدون كالأوزاعى ، اندثرت مذاهبهم ، وبدأ فى آخر عهد الدولة الأموية يظهر امامان من الأئمة الأربعة : الامام أبو حنيفة فى العراق ، والامام مالك بن أنس فى المدينة ، فالامام أبو حنيفة ولد سنة ٨٠هـ فى ولاية عبد الملك بن مروان ، وعاش نحو ١٨ سنة فى ظل الدولة العباسية ، وهو من أصل فارسى ، أخذ الفقه عن جعفر الصادق من البيت العلوى ، وعن ابراهيم النخعى من أكبر فقهاء عصره ، وسمع الحديث من الشعبى والاعمش وقَتَادَة ، واشتهر بقدرته التشريعية ، وقوة حجته وحسن منطقه ودقته فى الاستنتاج ، ومن أجل ذلك عد أمام أهل الرأى ، ولم يصل الينا شيء من تآليفه القانونية ولا ثبت تاريخياً أنه دوّن مذهبه فى كتاب ، انما فعل ذلك تلميذاه من بعده أبو يوسف ومحمد

والامام مالك ولد سنة ٩٦ بالمدينة من أصل عربى ، وبها تعلم وعلم وألف ، واشتهر بأنه حجة فى الحديث ، وعد من أجل ذلك امام أهل الحديث ، ويمتاز مذهبه باعتماده على الحديث أكثر من أبى حنيفة ، ويحتج بعمل أهل المدينة وتوفى سنة ١٧٩ ، وخلف لنا كتاب المُوَطَّأ ، وقد اشتهر أنه كتاب حديث ولكنه فى الحقيقة كتاب فقه وان ملىء حديثاً ، فلم يكن غرضه أن يجمع فيه الأحاديث المعروفة فى عهده ، والتى صحت عنده ، انما غرضه الاتيان بالتشريع مستدلا عليه بالحديث، ولذلك تجد فيه فتاواه الشخصية وآراءه فى بعض المسائل

ولا نطيل بذكر ما كان بينهم من خلاف فى وجهة النظر واختلاف فى الأصول التى اعتمدوا عليها ، فذلك بالعصر العباسى أليق ، انما نذكر هنا ملاحظة دقيقة لاحظها ابن خلدون عند تعليله لانتشار مذهب مالك فى المغرب والأندلس

فقد قال « وأيضاً فالبداوة كانت غالبة على أهل المغرب والأندلس ، ولم يكونوا يعانون الحضارة التى لأهل العراق ، فكانوا الى الحجاز أميل ، لمناسبة البداوة ، ولهذا لم يزل المذهب المالكى غضاً عندهم ، ولم يأخذه تنقيح الحضارة وتهذيبها ، كما وقع فى غيره من المذاهب » [١]

فهو يريد أن يقرر أن مدنية البلد الذى نشأ فيه الامام أو بداوته لها أثر خاص فى تكوين مذهبه ، من كثرة فروع وقلتها ، بل يظهر أن لها كذلك أثراً فى تكوين رأيه ، ولو استعرضنا بعض خلافات بين الفقهاء لوجدنا ذلك واضحاً ، فمن ذلك مثلا أن أبا حنيفة يجوِّز أن يفتتح الصلاة بالفارسية بدل أن يقول الله أكبر بالعربية ، ولو كان قادراً على قولها بالعربية ، ويجوِّز أن يقرأ القرآن بالفارسية ، وخالفه فى ذلك الامام مالك والشافعى [٢] ومثل تجويز الامام أبى حنيفة أن تُزَوِّج المرأة الحرة المكلفة نفسها من غير ولىّ ، وقال مالك والشافعى لا يجوز الا بولى [٣]

والظاهر أن هذا المنزع أعنى تقدير الامام للظروف التى تحيط به وتأثيرها فى آرائه انما يكون حيث لا يصح نص عند الامام ، فاما اذا صح فلم يكن لهذه الظروف أثر فى تكوين رأيه ، ودليلنا على ذلك مثلا ما نرى من أن مذهب أبى حنيفة اعتبار الكفاءة فى الزواج نسبا ، فقريش عنده أكفاء لبعض ، وليس سائر العرب أكفاء لقريش ، والموالى ليسوا بكفء للعرب ، مع أن الامام مالكا يقول لا تعتبر الكفاءة الا فى الدين ، لأنه صح عنده قوله عليه الصلاة والسلام « الناس سَوَاسية كأسنان المُشْط ، لا فضل لعربى على عجمى ، انما الفضل بالتقوى [٤] » — ولو كانت المسألة لتقدير الظروف فقط لانعكس المذهبان

---

(١) المقدمة ص ٣٧٥ (٢) الزيلعى جزء ١ ص ١٠٩
(٣) الزيلعى جزء ٢ ص ١١٧ (٤) الزيلعى جزء ٢ ص ١٢٨ ، ١٢٩

مصادر هذا الفصل

المستصفى للغزالى
مسلم الثبوت
صحيح البخارى ومسلم
مقدمة ابن خلدون
الموافقات للشاطبى
تاريخ ولاة مصر وقضاتها للكندى
خطط المقريزى
تفسير الطبرى
العقد الفريد لابن عبد ربه
تيسير الوصول فى جمع أحاديث الرسول
أسباب النزول للواحدى
التفسيرات الأحمدية فى الآيات الشرعية
أعلام الموقعين لابن القيم والطرق الحكمية له
شرح الزيلعى على متن الكنز
فتح القدير على الهداية
الأم للامام الشافعى
نصب الراية فى تخريج أحاديث الهداية للزيلعى
وفيات الاعيان لابن خلكان
الديباج المذهب فى معرفة أعيان علماء المذهب لابن فرحون
تاريخ التشريع الاسلامى المرحوم الشيخ محمد الخضرى
دائرة المعارف الاسلامية فى مادة « فقه »
Abdurahim, Muhammadan jurisprudence
Macdonald, Muslim Pheology
Goldziher, Le Dogma et Le Loi de L'Islam,

الباب السابع

الفِرَق الدينية

كانت الخلافة أول مسألة اشتد فيها الخلاف بين المسلمين، وتشعبت فيها آراؤهم ، وتكوّن حولها أهم الفرق الاسلامية فى العصر الأول، وهى الخوارج والشيعة ثم المرجئة فلنستعرض باختصار تام مادار فيها حتى نتبين كيف نشأت هذه الفرق ، تاركين تفصيل ذلك الى الجزء الخاص بالتاريخ السياسى من كتابنا

توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يعين من يخلفه ، ولم يبين كيف يكون اختياره ، فواجه المسلمون أشق مسألة وأخطرها ، وعلى طريق سيرهم فيها كان يتوقف نجاحهم فى الحياة السياسية أو فشلهم

شعر المسلمون من لحظة وفاته صلى الله عليه وسلم بضرورة التفكير فيمن يخلفه ، وأسرع الأنصار قبل دفنه الى عقد اجتماع فى سقيفة بنى ساعدة ليبتوا فى الأمر ، وأدركهم أبو بكر وعمر وأبو عبيدة بن الجراح وغيرهم خشية ألا ينظر الأنصار فى الأمر الا من جانبهم، وفى هذه السقيفة انقسموا الى رأيين: رأى يقول يجب أن يكون الخليفة من الأنصار ، وحجتهم أن محمداً صلى الله عليه وسلم لبث فى قومه فى مكة نحو ثلاث عشرة سنة يدعوهم الى الاسلام فما آمن منهم الا قليل ، ولا منعوا رسول الله من الأذى ، ولا أعزوا الدين ، فلما هاجر من مكة الى المدينة نصره الأنصار وآمنوا به ، وأعزوا دينه ، ومنعوه وصحبه ممن أراد بهم سوءاً ، وكانوا معه على عدوه حتى خضعت له جزيرة العرب ؛ وتوفى صلى الله عليه وسلم وهو عنهم راض ، وبهم قرير عين ، فهم أولى الناس أن يخلفوه .

وفريق آخر وهم المهاجرون يرون أن تكون الخلافة فيهم ، وحجتهم أنهم أول من آمن به ، وصبروا على الأذى ، ولم يستوحشوا لقلة عددهم ، وهم قومه وعشيرته ، وهم من قريش والعرب لا تدين الا لهم ، ولا تقر بعزة ومنعة غير عزتهم ومنعتهم ، فهم أولى بالخلافة من غيرهم — وبعد حِوار طويل واقتراح بعض الأنصار للتوفيق بين الرأيين أن يكون منهم أمير ومن المهاجرين أمير ، ورَفْضِ المهاجرين ذلك الاقتراح أيضا تمت البيعة فى هذا المجلس لأبى بكر التَّيْمِى القرشى

لم يكن علىّ حاضراً هذا الاجتماع لاشتغاله هو وأهل بيته فى جهاز رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخذ العدة لدفنه ، فلما بلغه خبر البيعة لأبى بكر لم يرض عنها وتكوّن رأى ثالث وهو ان تكون الخلافة فى بيت النبى ، وأقربُ الناس اليه صلى الله عليه وسلم عمه العباس ابن عبد المطلب وابن عمه على بن أبى طالب ، ولكن العباس لم يكن من السابقين الى الاسلام ، فقد حضر غزوة بدر مع المشركين ، ولم يسلم الا آخراً ، فأولى الناس من قرابة النبى على بن أبى طالب وهو من أول الناس اسلاماً ، وزوج فاطمة بنت النبى صلى الله عليه وسلم ، وجهاده وفضله وعلمه لا ينكر — وحجة أصحاب هذا الرأى أن أقرب الناس الى النبى أولى أن يخلفوه ، وأن بيت بنى هاشم خير من بيت أبى بكر ، فالعرب للاولين أطوع وأن المهاجرين احتجوا على الأنصار بأنهم قوم النبى وعشيرته فآل النبى وأقربهم اليهم أولى ، كما جاء فى نهج البلاغة أن علياً سأل عما حدث فى سقيفة بنى ساعدة فقال فماذا قالت قريش ؟ قالوا احتجت بأنها شجرة الرسول صلى الله عليه وسلم فقال علىّ « احتجوا بالشجرة ، وأضاعوا الثمرة » يريد أن المهاجرين احتجوا بأنهم من شجرة النبى ، فأولى بالاحتجاج من يجمعهم والنبىّ أنهم من ثمرة قريش ، وهم قرابته ، — وسواء صح هذا القول عن علىّ أو لم يصح فهو تعبير صادق عما فى نفسه ، دعا

الى هذا الرأى علىّ، وأيده بعض بنى هاشم ، وأيده الزبير بن العوام ، وعطف عليه بعض الأنصار لمَّا كان موقفهم وموقف علىّ سواء فى ضياع الأمر من أيديهم ، ولم يبايع علىّ أبا بكر الا بعد لأْى

وظلت النظريات الثلاث تتعارض ، ووجد فى العصور المختلفة من يؤيدها ويدافع عنها ، حتى النظرية الأولى — وهى نظرية الأنصار — فقد كان قوم يعتنقونها وان لم يظهروا ظهوراً بيناً فى التاريخ[1] أما النظريتان الاخيرتان فكان الحرب بينهما أحكم ، والجدال أشد

لم تمت النظرية القائلة بأولوية على فى عهد أبى بكر وعمر ، ولكن سكنت وخمدت ، وساعد على خمودها عدل أبى بكر وعمر ، وانتصافهما حتى من أنفسهما ، وأنهما لم يعيرا العصبية القَبَلية أى التفات ، وزاد فى سكونها اشتغال الناس بالحروب والفتوح ، ونجاحهم ، فلم يجد الناقمون مجالا يدخلون منه على الناس لاثارتهم الفتن

ولما ولى عثمان تبرم على وأنصاره ، وزادهم تبرماً أن عثمان — وهو أموى — استعان بالأمويين ، فكان أكثر عماله منهم ، وكان كاتبه وأمين سره مروان بن الحكم الأموى ، ومروان هذا وشيعته هدموا كل مابناه الاسلام من قبل ، ودعمه أبو بكر وعمر ، من محاربة العصبية القبلية ، وبث الشعور بأن العرب وحدة ، وحكموا كأمويين لا كعرب ، فحرك ذلك ما كان كامناً من العداوة القديمة الجاهلية بين بنى هاشم وبنى أمية ، وانتشرت الجمعيات السرية فى آخر عهد عثمان تدعو الى خلعه وتولية غيره ، ومن هذه الجمعيات من كانت تدعو الى على ، ومن أشهر الدعاة له عبد الله بن سبأ (وكان من يهود اليمن فأسلم) فقد تنقل فى البصرة

---

(١) أنظر شرح ابن أبى الحديد على نهج البلاغة جزء ٢ ص ٦ ففيها قصيدة شاعر يؤيد الانصار وينصرهم على قريش

والكوفة والشام ومصر يقول «انه كان لكل نبي وصى ، وعلى وصى محمد ، فمن أظلم ممن لم يجز وصية رسول الله ووثب على وصيه » — وكان من أكبر الذين ألبوا على عثمان حتى قتل

لما قتل عثمان بايع علياً كثير من المسلمين فتحققت بذلك نظرية القائلين بحق على فى الخلافة من يوم وفاة رسول الله ، وأيده كثير من كبار المهاجرين لانطباق نظريتهم عليه أيضاً ، وخرج على علىّ طلحة والزبير ومعاوية ، وكلهم يلصق بعلى تهمة أن له ضِلَعاً فى قتل عثمان ، وعلى أقل تقدير أنه قعد عن نصرته وكان فى استطاعته رد الناس عنه ، وكان من حجة بعضهم أنه —وقد بويع— يجب عليه أن يقتص من قتلة عثمان ، ويقول كل من طلحة والزبير أنه أولى بالمطالبة بدم عثمان ، لأنه من الستة الذين انتخبهم عمر للشورى ، ومن السابقين الاولين للاسلام ، ويقول معاوية أنه أولى الناس رحماً بعثمان ، وأقوى أهل بيته على المطالبة بدمه

ووجدت فى هذا الموقف طائفة من كبار الصحابة لم تبايع علياً ولم تبايع غيره ، ولم تشترك فى شيء من الخلاف القائم ؛ وفضلت العزلة ، من أشهرهم عبد الله ابن عمر بن الخطاب ، ومحمد بن مَسْلَمة ، وسعد بن أبي وقاص ؛ وأسامة بن زيد ، وحسان بن ثابت ، وعبد الله بن سلام ، ومن قول سعد بن أبى وقاص فى ذلك « أن رسول الله أمرنى اذا اختلف الناس أن أخرج بسيفى فأضرب به عُرض أُحد ، فاذا تقطع أتيت منزلى فكنت فيه لا أبرحه ، حتى تأتينى يد خاطية أومَنِيَّة قاضية »

فاما طلحة والزبير فقد انتهى أمرهما سريعاً بانهزامهما وقتلهما فى وقعة الجمل ، وأما معاوية فكان أصعب منالا ، اذ كان لديه جند الشام المنظم الطائع وكان بين على ومعاوية من وقعة صِفِّين ما كان ، فلما أحس معاوية بأن الدائرة كادت تدور عليه أوعز الى جنوده برفع المصاحف على رؤوس الرماح ، وطلب التحكيم الى كتاب الله

هذه خلاصة تاريخيـة موجزة اضطررنا لذكرها لأن عليها تأسست ثلاث فرق من أكبر الفرق الاسلامية ، وهى الخوارج والشيعة والمرجئة

الفصل الأول

الخوارج

لما كانت وقعة صِفّين بين على ومعاوية ، وطلب معـاوية تحكيم كتاب الله اختلف أصحاب علىّ أيقبلون هذا التحكيم لأنهم يحاربون لأعلاء كلمة الله وقد دُعُوا اليها ، أم لا يقبلون لأنها خُدَعة حربية ، لجأ اليها معاوية وصحبه لما أحسوا بالهزيمة ، وبعد جدال وتردد قَبِلَ علىّ التحكيم ، واختـار معاوية عمرو بن العاص ليمثـله واختار أصحاب على أبا موسى الأشعرى ، اذ ذاك ظهر قوم من جند علىّ أكثرهم من قبيـلة تَمِيم ، نفروا من أن يُحَـكَّم أحد فى كتاب الله ، ورأوا أن التحكيم خطأ ، لأن حكم الله فى الأمر واضح جلى ، والتحكيم يتضمن شك كل فريق من المحار بين أيهما المحق ، وليس يصح هذا الشك ، لأنهم وقتلاهم انمـا حاربوا وهم مؤمنون — بلا شك — أن الحق فى جانبهم ، هذه المعـانى المختلجة فى نفوسهم صاغها أحدهم فى الجملة الآتيـة « لا حُـكْمَ الا لله » فسرت الجملة سير البرق الى من يعتنق هذا الرأى ، وتجاوبتها الأنحاء ، وأصبحت شعار هذه الطائفة

طلبوا من علىّ أن يقر على نفسه بالخطأ بل بالـكفر ، لقبوله التحكيم ، ويرجع عما أبرم مع معاوية من شروط ، فان فعل عادوا اليه وقاتلوا معه ، فأبى علىّ ، وكان

موقفه فى منتهى الدقة ، فكيف يرجع عن اتفاق أمضاه ، والدين يأمر بالوفاء بالعهود ولو رجع لتفرق عنه أكثر أصحابه ، وكيف يقر على نفسه بالكفر ولم يشرك بالله شيئاً منذ آمن ، فضايقوه بالاكثار من « لا حكم الا لله » فاذا خطب فى المسجد قاطعوه بقولهم «لا حكم الا لله» فتجاوبت بها أنحاء المسجد ، ورآه أحدهم فتلا « وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِين » يُعرِّض به ، وزاد بعض الناس ميلا الى رأيهم فشلُ الحكمين فى حكمهما ، وخيبة الآملين فى أن التحكيم يحقن الدماء ويعيد المسلمين الى الوئام ، حتى انضم اليهم بعض القراء من جيش على — فلما يئست هذه الجماعة من رجوع على الى رأيهم اجتمعوا فى منزل أحدهم ، وخطب خطيبهم يقول « أما بعد فوالله ماينبغى لقوم يؤمنون بالرحمن ، ويُنيبون الى حكم القرآن ، أن تكون هذه الدنيا ... آثر عندهم من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والقول بالحق ، وإن مُنَّ وضُرّ ، فأنه من يُمَنّ ويُضَرّ فى هذه الدنيا فأن ثوابه يوم القيامة رضوان الله عز وجل ، والخلود فى جناته ، فاخرجوا بنا — اخواننا — من هذه القرية الظالم أهلها الى بعض كور الجبال ، أو الى بعض هذه المدائن ، منكرين لهذه البدع المضلة » ثم خرجوا الى قرية قريبة من الكوفة تسمى « حَرُوراء » وسموا حينذاك بالحَرُورِيّة نسبة الى هذه القرية ، و بالمحكِّمة أى الذين يقولون لا حكم الا لله — وهما اسمان كثيراً ما يطلقان على الخوارج ، وأمّروا عليهم رجلا منهم اسمه عبد الله ابن وهب الرّاسبىّ — واسم الخوارج جاء من أنهم خرجوا على علىّ وصحبه ، وان كان منهم من يشتق اسم الخوارج من الخروج فى سبيل الله أخذاً من قوله تعالى « وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِراً إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللهِ » وسموا أيضاً « الشُّرَاة » أى الذين باعوا أنفسهم لله

من قوله تعالى « وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِى نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللهِ » وقد حاربهم علي فى الوقعة الشهيرة بوقعة النَّهْرَوان وهزمهم وقتل منهم كثيراً ، ولكنه لم يبدهم ولم يبد فكرتهم . وزادت هذه الهزيمة فى امعان الخوارج فى كره علي ، حتى دبروا له مكيدة قتله ، فقتله عبد الرحمن بن مُلْجَمْ الخارجي ، وقد كان زوجاً لامرأة قُتِل كثير من أفراد أسرتها فى وقعة النهروان

وظلت الخوارج شوكة فى جنب الدولة الأموية يهددونها ويحاربونها حرباً تكاد تكون متواصلة فى شدة وشجاعة نادرة ، وأشرفوا فى بعض مواقفهم على القضاء على الدولة ، وظل المهلَّب بن أبى صُفْرة يجالدهم ويعانى فى قتالهم الشدائد والأهوال السنين الطوال ، مما لا محل لذكره هنا [١] غير أنا نشير الى أنهم كانوا فرعين : فرعا بالعراق وما حولها ، وكان أهم مركز لهم « البَطَائح » بالقرب من البصرة ، وقد استولوا على كِرْمَان وولاية فارس وهددوا البصرة ، وهؤلاء هم الذين حاربهم المهلب ، واشتهر من رجالهم نافع بن الأزرق وقَطَرِى بن الفُجَاءة

وفرعا بجزيرة العرب استولوا على اليمامة وحضرموت واليمن والطائف ، ومن أشهر أمرائهم فيها أبو طالوت ونجدة بن عامر وأبو فديك

ولم يتغلب الأمويون على هذين الفرعين الا بعد حروب طويلة شديدة استمرت طول عهد الدولة الأموية

ثم كانوا كذلك فى الدولة العباسية ، ولكن لم يكن لهم من القوة ما كان لهم فى عهد الامويين ، فقد ضعف شأنهم ، وانحط قوادهم

تعاليمهم : ابتدأ الخوارج كلامهم فى أمور تتعلق بالخلافة ، فقالوا بصحة

---

(١) قد ألف الاقدمون كثيرا من الكتب فى أخبار الخوارج خاصة كالمدائنى ولكنها لم تصل الينا وقد جمع ابن أبى الحديد فى الجزء الاول من شرح نهج البلاغة أخبارهم مطولة فى موضعين من كتابه فارجع اليه

خلافة أبي بكر وعمر لصحة انتخابهما ، و بصحة خلافة عثمان فى سنيه الأولى ، فلما غير و بدل ، ولم يسر سيرة أبي بكر وعمر ، وأتى بما أتى من احداث وجب عزله ، وأقروا بصحة خلافة علىّ ، ولكنهم قالوا أنه أخطأ فى التحكيم ، وحكموا بكفره لما حكّم ، وطعنوا فى أصحاب الجمل طلحة والزبير وعائشة ، — كما حكموا بكفر أبي موسى الاشعرى وعمرو بن العاص « وقد قبض على أحدهم وقدم الى زياد بن أبيه ، فسأله زياد عن أبي بكر وعمر فقال فيهما خيرا ، وسأله عن عثمان فقال كنت أتولّى عثمان — على أحواله — فى خلافته ست سنين ، ثم تبرأتُ منه بعد ذلك ، وشهد عليه بالكفر ، فسأله عن أمير المؤمنين علىّ فقال أتولاه الى أن حكّم ، ثم أتبرأ منه بعد ذلك ، وشهد عليه بالكفر ، فسأله عن معاوية فسبه سباً قبيحاً [1] الخ

فترى من هذا أن كلامهم كان يدور حول تشريح أعمال الخلفاء وأنصارهم والبحث فيمن يستحق أن يكون خليفة ومن لا يستحق ، ومن يكون مؤمناً ومن لا يكون

وقد وضعوا نظرية للخلافة وهى أن الخلافة يجب أن تكون باختيارٍ حر من المسلمين ، واذا اختير فليس يصح أن يتنازل أو يحكّم ، وليس بضرورى أن يكون الخليفة قرشيا ، بل يصح أن يكون من قريش ومن غيرهم ولو كان عبداً حبشياً ، واذا تم الاختيار كان رئيسَ المسلمين ، ويجب أن يخضع خضوعاً تاماً لما أمر الله ، والا وجب عزله

ولهذا أمّروا عليهم من اختاروه منهم ، وسموا عبد الله بن وهب الراسبى أمير المؤمنين ، ولم يكن قرشياً وانما هو من «راسب» حى من الأسْدِ ، وكذلك أمراؤهم من بعده — وقد خالفوا بهذا نظرية الشيعة القائلة بانحصار الخلافة فى بيت النبى علىّ وآله ، وأهلَ السنة القائلين بأن الخلافة فى قريش — وهذه النظرية هى التى

(١) الشهرستانى جزء ١ ص ١٦١

دعتهم الى الخروج على خلفاء بنى أميـة ثم العباسيين لاعتقادهم أنهم جائرون غير عادلين ، لم تنطبق عليه شروط الخلافة فى نظرهم

نرى الخوارج فى أول أمرهم كانت صبغتهم سياسية محضة ، ثم نراهم فى عهـد عبد الملك بن مروان قد مزجوا تعاليمهم السياسية بابحاث لاهوتية ، وأكبر من كان له أثر فى ذلك الازارقة ، اتبـاع نافع بن الأزرق ، وأهم ما قرره الخوارج فى ذلك أن العمل بأوامر الدين — من صلاة وصيام وصدق وعدل — جزء من الايمان وليس الايمان الاعتقاد وحده ، فمن اعتقـد أن لا اله الا الله وأن محمداً رسول الله ثم لم يعمل بفروض الدين وارتكب الـكبائر فهو كافر

والخوارج لم يكوّنوا وحدة ، ولم يكونوا كتلة واحدة ، انما كان واضحاً فيهم الطبيعة العربية البـدوية ، فسُرعان ما يختلفون ، وينضمون تحت ألوية مختلفة يضرب بعضهم بعضاً ، ولو اتحدوا لـكانوا قوة فى منتهى الخطورة على الدولة الأموية — لذلك لا نستطيع أن نذكر ما هو من تعاليمهم مشترك بين جميعهم الا النظريتين السابقتين ، نظرية الخلافة ، ونظرية أن العمل جزء من الايمان ، حتى هاتان النظريتان ليستا من اعتقاد جميعهم الا بقليل من التسامح ، فمنهم من يرى أن لا حاجة للامة الى امام . وانما على النـاس أن يعملوا بكتاب الله من أنفسهم ، ويظهر أن هذه الفكرة هى التى كان يفهمها بعضهم من جملتهم المشهورة « لا حكم الا لله » بدليل ما روى أن على بن أبى طالب لما سمعهم يقولون « لا حكم الا لله » قال « كلمة حق يراد بها باطل ، نعم أنه لا حكم الا لله ولـكن هؤلاء يقولون لا إمْرَة الا لله — وإنه لابد للناس من أمير برأو فاجر ، يعمل فى أمرته المؤمن ، ويستمتع فيها الـكافر ، ويبلّغ الله فيها الأجل ، ويُجْمَعُ به الفى ، ويقاتَلُ به العدو ، وتأمن به السبل ، ويؤخذ به للضعيف من القوى حتى يستريح برٌّ ، ويستراح من فاجر »

وقد قال ابن أبى الحديد « أن الخوارج كانوا فى بدء أمرهم يقولون ذلك ، ويذهبون الى أنه لا حاجة الى الامام ثم رجعوا عن ذلك القول لمّا أمروا عليهم عبد الله بن وهب الراسبى »[(١)]

على كل حال قد اتفق جمهور الخوارج على النظريتين السابقتين وتفرقوا الى فرق بلغت فى العدد نحو العشرين ، كل فرقة تخالف الأخرى فى بعض تعاليمها ولا يسع هذا المختصر ذكر جميعها[(٢)] غير أنا نذكر هنا أن من أشهر فرقهم الأزارقة اتباع نافع بن الأزرق ، وكان من أكبر فقهائهم ، وقد كفّر جميع المسلمين ماعداهم وقال أنه لا يحل لأصحابه المؤمنين أن يجيبوا أحداً من غيرهم الى الصلاة اذا دعاهم اليها ، ولا أن يأكلوا من ذبائحهم ، ولا أن يتزوجوا منهم ، ولا يتوارث الخارجى وغيره ، وهم مثل كفار العرب وعبدة الاوثان لا يقبل منهم الا الاسلام والسيف ، ودارهم دار حرب ، ويحل قتل أطفالهم ونسائهم ، ولا تحل التَّقيَّة[(٣)] لان الله يقول « إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً » واستحل الغدر بمن خالفه ، وكفّر القَعَدة أى الذين يقعدون عن القتال مع قدرتهم عليه ، ولو كان هؤلاء القعدة على مذهبهم

ومن فرقهم النَّجَدَات ، اتباع نجدة بن عامر وأهم تعاليمه التى انفرد بها أن المخطئ بعد أن يجتهد معذور ، وأن الدين أمران معرفة الله ومعرفة رسوله ، وما عدا ذلك فالناس معذورون بجهله الى أن تقوم عليهم الحجة ، ومن أداه اجتهاده الى استحلال حرام أو تحريم حلال فهو معذور ، وعظم جريمة الكذب على الزنا وشرب الخمر .

---

(١) جزء ١ ص ٢١٥ (٢) ارجع الى ذلك فى الملل والنحل للشهرستانى والمقالات الاسلامية للاشعرى والفرق بين الفرق للبغدادى

(٣) أنظر معناها عند الكلام على الشيعة

ولنافع مع نجدة بن عامر مناقشات طويلة ممتعة حول هذه المبادئ [1]

كذلك من أشهر فرقهم « الأبَاضِيّة » نسبة الى رئيسهم عبد الله بن أباض التميمى ولا يزال أتباعه فى المغرب الى اليوم ، وهم لم يتغالوا فى الحكم على مخالفيهم كالازارقة، بل قالوا يحل التزوج منهم ، ويتوارث الخارجى وغيره ، ونزعتهم أميل الى المسالمة، فقالوا لا يحل قتال غير الخوارج وسبيهم فى السر غيلَةً ، ولا يجوز قتالهم الا بعد الدعوة واقامة الحجة واعلان القتال الخ وقد ظهر عبد الله بن إباض فى النصف الثانى من القرن الأول للهجرة وعاش اتباعه فى أكثر أحوالهم مسالمين للخليفة

وفرقة أخرى من فرقهم « الصُّفْرِية » اتباع زياد بن الأصفر وهم لا يختلفون كثيراً فى تعاليمهم عن الأزارقة

وهذه الفرق الأربع الأزارقة والنجدات والاباضية والصفرية هى أشهر فرق الخوارج وأكثرها دورانا فى الكتب

والخوارج يقولون أن ممن اعتنق مذهبهم عِكرمة مولى ابن عباس ومالك بن أنس الصحابى — وكان الحسن البصرى يوافق الخوارج فى رأيهم بأن عليا أخطأ فى التحكيم ولكن لا يعتنق مذهبهم « وكان اذا جلس فتمكن فى مجلسه ذكر عثمان فترحم عليه ثلاثا ، ولعن قتلته ثلاثا ، ويقول لو لم نلعنهم للُعنّا ، ثم يذكر عليا فيقول لم يزل أمير المؤمنين على رحمه الله يتعرف النصر ويساعده الظفر حتى حَكَّم، فِلمَ تحكم والحق معك ؟ ألا تمضى قُدُما — لا أبالك — وأنت على الحق ؟ » [2]

وكان مما حاربهم به المهلب بن أبى صفرة اختلاق الأحاديث عليهم ، فقد كان يضع الحديث ليشد به أزر قومه ويضعف به من أمر الخوارج ما اشتد ،

---

(١) اقرأها فى الجزء الثانى من الكامل للمبرد و ص ٣٨٢ من الجزء الأول من ابن أبى الحديد
(٢) الكامل جزء ٢ ص ١٣٦

ويقول أن الحرب خُدَعة ، وكان حي من الأزد اذا رأوا المهلب خارجا قالوا « راح يكذب » وفيه يقول رجل منهم

أنت الفتى كل الفتى لو كنت تصدق ما تقول [١]

ولعل هذا وأمثاله هو السر فيما ترى من أحاديث كثيرة ملئت بها كتب التاريخ والأدب فى ذم الخوارج

***

كان أكثر من اعتنق مبدأ الخوارج عربا بدوا ، وقد انضم اليهم بعض الموالى اعجابا برأيهم الديمقراطى فى الخلافة ، فليس بضرورى أن يكون من قريش ولا من العرب ، فهم فى نظرهم الى الخلافة شعو بيون ولكن مع هذا لم ينضم اليهم من الموالى الا قليل ، لأنهم وأكثرهم بدو شديدو العصبية لجنسهم ، يحتقرون الموالى و يزدرونهم ، روى ابن أبى الحديد أن رجلا من الموالى خطب امرأة خارجية فقالوا لها « فضحتنا » ، ولولا هذه العصبية العربية الجافة لتبعهم من الموالى كثير

والناظر فى تاريخهم يتبين فيهم مميزات واضحة أهمها

١ — التشدد فى العبادة والانهماك فيها ، يصفهم الشهرستانى بأنهم أهل صوم وصلاة ، ويصفهم المبرد « بأنهم فى جميع أصنافهم يبرءون من الكاذب ، ومن ذى المعصية الظاهرة » وقد قتل أحدهم زيادٌ ، ثم دعا مولاه فاستوصفه أمره ، فقال « ما أتيتُه بطعام بنهار قط ، ولا فرشتُ له فراشاً بليل قط »

ولما أرسل علىّ عبد الله بن العباس لأهل النَّهْرَوَان من الخوارج « رأى منهم جباهاً قَرِحَةً لطول السجود وأيدياً كَثَفِنَات الأبل ، عليهم قُمُصٌ مُرَحَّضَة وهم مشمرون » ولعل خير ما قيل فيهم ما قاله أبو حمزة الخارجى فى وصف أصحابه

---

(١) الحكاية فى ابن أبى الحديد جزء ١ ص ٣٨٦

« شباب والله مكتهلون فى شبابهم ، غَضِيضةٌ عن الشر أعينُهم ، ثقيلة عن الباطل أرجُلُهم ، أنْضَاء عبادة ، وأطْلاح سَهَر ، فنظر الله اليهم فى جوف الليل منحنيةً أصلابهم على أجزاء القرآن ، كلما مر أحدهم بآية من ذكر الجنة بكى شوقا اليها ، واذا مر بآية من ذكر النار شهق شهقة كأن زفير جهنم بين أذنيه ، موصول كَلَالُهم بكلالهم ، كلال الليل بكلال النهار ، قد أكلت الأرض ركبهم وأيديهم وأنوفهم وجباههم ، واستقلوا ذلك فى جنب الله ، حتى اذا رأوا السهام قد فُوِّقت ، والرماح قد أشرعت ، والسيوف قد انتضيت ، ورعَدت الكتيبة بصواعق الموت و برقت ، استخفوا بوعيد الكتيبة لوعيد الله ، ومضى الشاب منهم قُدُما حتى اختلفت رجلاه على عنق فرسه ، وتخضبت بالدماء محاسن وجهه ، فأسرعت اليه سباع الأرض ، وانحطت اليه طير السماء ، فكم من عين فى منقار طير طالما بكى صاحبها فى جوف الليل من خوف الله ، وكم من كف زالت عن معصمها طالما اعتمد عليها صاحبها فى جوف الليل بالسجود لله » وقد غلوا فى أنظارهم حتى عدوا مرتكب الكبيرة — وأحياناً الصغيرة — كافراً ، وخرجوا على أئمتهم للهفوة الصغيرة يرتكبونها ، وتشدد كثير منهم فى النظر الى غيرهم من المسلمين فعدوهم كفاراً ، بل كانوا يعاملونهم أشد من معاملة الكفار ، ويحكون أن واصل بن عطاء — رأس المعتزلة — وقع فى أيديهم فادعى أنه (مشرك مستجير) ورأى أن هذا ينجيه أكثر مما تنجيه دعواه أنه مسلم مخالف لهم ، وكذلك كان ، واشتدوا فى معاملة مخالفيهم من المسلمين حتى كان كثير منهم لا يرحم المرأة ولا الطفل الرضيع ولا الشيخ الفانى بل لم يرضوا من مخالفيهم أن يقولوا أن علياً أخطأ فى التحكيم ، وعثمان أخطأ فيما أحدث ، بل لا بد أن يقر بكفرهما وكفر من ناصرهما ، وطلبوا من عبدالله بن الزبير أن يتبرأ من أبيه ، ولم يكتفوا من عمر بن عبد العزيز بعدله وجمال سيرته بل طلبوا منه كذلك أن

يتبرأ مما تبرأوا هم منه، وأن يلعن أسلافه من بنى أمية ، ولعل هذا التشدد واقدامهم على سفك دماء معارضيهم هو أكبر ماشوه حركتهم

٢ — أخلصوا لعقيدتهم ، وقاتلوا دفاعاً عنها . ولهذا نظر اليهم كثير من خيرة الناس نظرة عطف واشفاق ، فقد روى أن على بن أبى طالب فى آخر أيامه قال « لا تقاتلوا الخوارج بعدى ، فليس مَنْ طلب الحق فأخطأه كمن طلب الباطل فأدركه » يريد أن الخوارج طلبوا الحق وحاموا عن عقيدة اعتقدوها وان أخطؤا فيها ، وأما معاوية فكان لا يطلب حقاً ، وانما كان يطلب باطلا ويحامى عنه وقد أدركه ، وقال عمر بن عبد العزيز لبعض الخوارج (انى قد علمت أنكم لم تخرجوا مخرجكم هذا لطلب دنيا أومتاع ، ولكنكم أردتم الآخرة فأخطأتم سبيلها) وقد حملهم شديد إيمانهم أن ينتهزوا كل فرصة للدعوة الى مبادئهم جهراً ، ويرسلوا الرسل الى خلفاء بنى أمية يدعونهم ، ولم يضنوا بأى نوع من أنواع التضحية ، فتاريخهم مملوء بالشجاعة النادرة . يقول صاحب العقد الفريد « وليس فى الأفراق [1] كلها أشد بصائر من الخوارج ، ولا أشد اجتهاداً ، ولا أوطن أنفساً على الموت ، منهم الذى طعن فأنفذه الرمح فجعل يسعى الى قاتله ويقول «وعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى» — وأرسل معاوية رجلا الى ابنه من الخوارج ينصحه بالرجوع عن قتال معاوية فأبى ، فأداره فصمّم ، فقال له أى بنى أجيئك بابنك لعلك تراه فتحن اليه ، فقال له يا أبت ! أنا والله الى طعنة نافذة أتقلب فيها على كعوب الرمح أشوق منى الى ابنى — وكان الخارجى يقاتل على السوط يؤخذ منه أشد قتال — وقال كعب « أن فتاك الحرورية يفضل فتك غيرهم بعشرة أبواب — وأرسل ابن زياد أَسْلَم ابن زُرْعة فى ألفين لمحاربة فرقة من الخوارج فهزمه أبو بلال الخارجى فى أربعين

---

(١) جمع الجمع لفرقة

من أصحابه فقال له ابن زياد ويلك ، أتمضى فى ألفين فتنهزم لحملة أربعين ؟ فكان اذا خرج أَسْلَمُ الى السوق أو مر بصبيان صاحوا به أبو بلال وراءك — واشتركت نساء الخوارج فى القتال مع رجالهم ، فقد حدثنا الرواة عن كثير من نساءهم أبلين فى القتال خير بلاء ، كالذى روى أبو الفرج فى الأغانى أن امرأة من الخوارج كانت مع قطرى بن الفجاءة يقال لها ام حكيم ، وكانت من أشجع الناس وأجملهم وجهاً ، وأحسنهم بالدين تمسكا ، وخطبها جماعة من الخوارج فردتهم ولم تجبهم ، فأخبر من شاهدها فى الحرب أنها كانت تحمل على الناس وترتجز

أَحْمِلُ رأساً قد سَئِمْتُ حَمْلَه وقد مَلِلْتُ دَهْنَه وغَسْلَه

أَلا فَتًى يحملُ عنى ثِقْلَه

هذه الصفات أعنى الشدة فى الدين والاخلاص للعقيدة والشجاعة النادرة يضاف اليها العربية الخالصة هى التى جعلت للخوارج أدباً خاصاً يمتاز بالقوة شعراً ونثراً ، تخير للفظ ، وقوة فى السبك ، وفصاحة فى الأسلوب ، لج عبيد الله بن زياد فى حبس الخوارج وقتلهم فكُلِّمَ فيهم فأبى وقال أَقْمَعُ النفاق قبل أن يَنْجُمُ ، لكلام هؤلاء أسرع الى القلوب من النار الى اليراع — وأتى عبدالملك بن مروان برجل منهم فدعاه عبد الملك الى الرجوع عن مذهبه ، ثم زاد فى الاستدعاء ، فقال له الخارجى لِتُغْنِكَ الأولى عن الثانية ، وقد قلتَ فسمعتُ ، فاسمع أقل ، قال له قل فجعل يبسط له من قول الخوارج ويزين له من مذهبهم بلسان طَلْق ، وألفاظ بينة ، ومعان قريبة ، فقال عبد الملك « لقد كاد يوقع فى خاطرى أن الجنة خلقت لهم ، وأنى أولى بالجهاد منهم ، ثم رجعت الى ما ثبت الله علىّ من الحجة وقرر فى قلبى من الحق » واشتهر منهم مصاقع الخطباء كأبى حمزة وقَطَرِى بن الفجاءة وفحول الشعراء كعمران بن حِطّان والطِرِمّاح ، ومن أشهر علمائهم باللغة والأدب.

أبو عبيدة مَعْمَر بن المُثَنَّى، وهو من أوسع أهل البصرة علماً باللغة والأدب والنحو واخبار العرب وأيامها ، ومن أكثر المؤلفين فى صدر الدولة العباسية فقد روى له نحو من مائتى مصنَّف، وهو أحد الأفراد القلائل من الموالى الذين اعتنقوا مذهب الخوارج فهو من أصل يهودى فارسى ، وكان يكره العرب ويؤلف فى مثالبها — وليس هنا موضع عرض أدب الخوارج والمختار من شعرهم ونثرهم وميزتهم فى الأدب عمن عداهم فموضع ذلك الجزء الخاص بالحياة الأدبية من كتابنا ان شاء الله

الفصل الثانى

الشيعة

كانت البذرة الأولى للشيعة الجماعة الذين رأوا بعد وفاة النبى صلى الله عليه وسلم أن أهل بيته أولى الناس أن يخلفوه ، وأولى أهل البيت العباس عم النبى وعلى بن عمه ، وعلىّ أولى من العباس ، لما بينا من قبل والعباس نفسه لم ينازع علياً فى أولويته للخلافة ، وان نازعه فى أولويته فى الميراث فى « فَدَك »[١]

وظهرت فكرة الدعوة لعلىّ بسيطة كما يدل عليه التاريخ ، وتتلخص فى أن لا نص على الخليفة ، فترك الأمر لأعمال الرأى ، فالأنصار أداهم رأيهم الى أنهم أولى بها ، والمهاجرون كذلك ، وأصحاب على الى أن الخلافة ميراث أدبى ، ولو كان النبى يورث فى ماله لكان أولى به قرابته ، فكذلك الارث الأدبى — ولم يرد من طريق

(١) نعم ان الراوندية نصوا على أن الخلافة من حق العباس وأولاده ولكن هذا القول لم يظهر فى أيام العباس وانما ظهر فى أيام المنصور والمهدى

صحيح أن علياً ذكر نصاً — من آية أو حديث — يفيد أن رسول الله عينه للخلافة ولو كان لديه نص وذكره لما بقى الأنصار والمهاجرون على رأيهم ولبايعوه ، بل مابين أيدينا من تاريخ يدل أن علياً بايع أبا بكر ، وان كان بعد تلكؤ ، كما بايع عمرَ وعثمان من بعده ، وكل ماصح عن على أنه كان يرى أنه كان أولى بالأمر منهم ، ويحتج بأنه وأهل بيته الثمرة وقريش الشجرة ، والثمرة خير ما فى الشجرة ، ويروى البخارى عن ابن عباس أن علياً رضى الله عنه خرج من عند النبي صلى الله عليه وسلم فى وجعه الذى توفى فيه فقال الناس ياأبا الحسن كيف أصبح رسول الله ؟ فقال أصبح بحمد الله بارئاً ، ، فأخذ بيده العباس رضى الله عنه وقال أنت والله بعد ثلاثٍ عبدُ العصا ، وانى والله لأرى رسول الله صلى الله عليه وسلم سيُتَوفَّى من وجعه هذا ، انى لأعرف وجوه بنى عبد المطلب عند الموت ، فاذهب بنا اليه نسأله فيمن هذا الأمر ، فان كان فينا علمْناه ، وان كان فى غيرنا كلمناه فأوصى بنا ، فقال على رضى الله عنه اما والله لئن سَألناها فمُنِعْناها لا يعطيناها الناس بعده ، وانى والله لا أسألها .

وكان جمع من الصحابة يرى أن علياً أفضل من أبى بكر وعمر وغيرهما ، وذكروا أن ممن كان يرى هذا الرأى عَمّاراً وأبا ذر وسلمان الفارسى وجابر بن عبدالله والعباس و بنيه وأبىّ بن كعب وحُذَيفة الى كثير غيرهم

ونرى بعد هذا العصر أن الفكرة تطورت فقال شيعة على [1] « أن الامامة ليست من المصالح العامة التى تفوَّض الى نظر الأمة ، ويتعين القائم بتعيينهم ، بل هى ركن الدين ، وقاعدة الاسلام ، ولا يجوز لنبى اغفالها ، ولا تفويضها الى الأمة ، بل يجب عليه تعيين الامام لهم ، ويكون معصوماً من الكبائر والصغائر ، وأن علياً

(١) شيعة الرجل أصحابه وأتباعه

رضى الله عنه هو الذى عينه صلوات الله وسلامه عليه ، بنصوص ينقلونها ويؤولونها على مقتضى مذهبهم ، لا يعرفها جهابذة السنة ولا نقلة الشريعة ، بل أكثرها موضوع أو مطعون فى طريقه أو بعيد عن تأويلاتهم الفاسدة »(١)

ومن هنا نشأت فكرة الوصية ، ولقب علىٌّ بالوصى ، يريدون أن النبى أوصى لعلى بالخلافة من بعده ، فكان وصىَّ رسول الله ، فعلىٌّ ليس الامام بطريق الانتخاب بل بطريق النص من رسول الله ، وعلى أوصى لمن بعده ، وهكذا كل امام وصىٌّ مَن قبله ، وانتشرت كلمة الوصى بين الشيعة واستعملوها ، يروون أن أبا الهيثم وكان بدريا يقول

كنا شِعَارَ نبينا ودِثَاره ... يَفْديه منا الروح والأبصار

إنَّ الوصى امامُنا وولِيُّنا ... بَرِحَ الخفاءُ وباحت الأسرار

ويروون أن غلاماً خرج من جيش عائشة فى وقعة الجمل وهو يقول

نحن بنو ضبةَ أعداء علىّ ... ذاك الذى يُعرف قِدْماً بالوصى

وفارسُ الخيل على عهد النبى ... ما أنا عن فضل على بالعَمِى

لكننى أنعى ابن عفان التقِّى ... ان الولىَّ طالبٌ ثارَ الولى

وقد سقنا هذا لبيان أن كلمة الوصى شاعت فى اطلاقها على علىّ وان كنا نشك فى نسبة هذه الأبيات الى قائليها

وقدْ أدَّاهم هذا النظر الى أمور ، منها القول بعصمة الأئمة على ومن بعده ، فلا يجوز الخطأ عليهم ، ولا يصدر منهم الا ما كان صوابا ، ومنها رفع مقام علىّ عن غيره من الصحابة حتى أبى بكر وعمر ، ولأقص عليك مثلا مما يقوله ابن أبى الحديد فى على مع أنه يعد من معتدلى الشيعة ، قال « يقول أصحابنا — وهم قد سلكوا

(١) مقدمة ابن خلدون

طريقة مقتصدة — أن عليا أفضل الخلق فى الآخرة ، وأعلاهم منزلة فى الجنـة ، وأفضل الخلق فى الدنيا ، وأكثرهم خصائص ومزايا ومناقب ، وكل من عاداه أو حاربه أو أبغضه فانه عدو لله سبحانه وتعالى وخالد فى النار مع الكفار والمنافقين ، الا أن يكون ممن قد ثبتت توبته ، ومات على توليه وحبه ، فاما الأفاضل من المهاجرين والأنصار الذين ولوا الامامة قبله فلو أنه أنكر امامتهم وغضب عليهم فضلا عن أن يشهر عليهم السيف أو يدعو الى نفسه لقلنا أنهم من الهالكين كما لو غضب عليهم رسول الله صلى الله عليه وآله ، لأنه قد ثبت أن رسول الله قال له (لعلى) حربك حربى ، وسلمك سلمى ، وانه قال اللهم وال من والاه وعادِ من عاداه ، وقال له لا يحبك الا مؤمن ، ولا يبغضك الا منافق ، ولكننا رأيناه رضى امامتهم وبايعهم وصلى خلفهم . . فلم يكن لنا أن نتعدى فعله ولا نتجاوز ما اشتهر عنه ، ألا ترى أنه لما برئ من معاوية برئنا منه ، ولما لعنه لعناه ، ولما حكم بضلال أهل الشام ومن كان فيهم من بقايا الصحابة كعمرو بن العاص وعبد الله ابنه وغيرهما حكمنا أيضاً بضلالهم والحاصل أنا لم نجعل بينه وبين النبى صلى الله عليه وسلم الارتبة النبوة ، وأعطيناه كل ما عدا ذلك من الفضل المشترك بينه وبينه ، ولم نطعن فى أكابر الصحابة الذين لم يصح عندنا أنه طعن فيهم ، وعاملناهم بما عاملهم هو عليه السلام » اه [1]

ودعاهم القول بأفضلية علىّ وعصمته الى استعراض ما حدث من الصحابة فى بيعـة ابى بكر وعمر وعثمان ، وكان من هؤلاء الشيعة الغالى والمقتصد ، فمنهم من اقتصر على القول بأن أبا بكر وعمر وعثمان ومن شايعهم اخطئوا ، اذ رضوا أن يكونوا خلفاء مع علمهم بفضل على وأنه خير منهم ، ومنهم من تغالى فكفرهم وكفر من شايعهم لأنهم — وقد أوصى النبى لعلى — جحدوا الوصية ، ومنعوا الخلافة

(١) شرح نهج البلاغة جزء ٤ ص ٥٢٠

مستحقها — وانحدروا من ذلك الى شرح حوادث التاريخ على وفق مذهبهم ، وتأويل الوقائع تأويلا غريباً ، أسوق لك مثلا منه « فتزعم الشيعة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يعلم موته ، وأنه سيّر أبا بكر وعمر فى بعث أسامة لتخلو دار الهجرة منهما ، فيصفو الأمر لعلىّ عليه السلام ، ويبايعه من تخلف من المسلمين بالمدينة على سكون وطمأنينــة ، فاذا جاءهما الخبر بموت رسول الله صلى الله عليه وسلم وبيعة الناس لعلىّ بعده كانا عن المنازعة والخلافة أبعد . . . فلم يتم ما قدّر ، وتثاقل اسامة بالجيش أياماً مع شدة حث رسول الله صلى الله عليه وسلم على نفوذه »(١)

ولم يكتف غلاة الشيعة بهذا القدر فى علىّ ، ولم يقنعوا بأنه أفضل الخلق بعد النبى ، وأنه معصوم ، بل ألّهوه ، فمنهم من قال « حلّ فى علىّ جزء الهى ، واتحد بجسده فيه ، وبه كان يعلم الغيب ، اذ أخبر عن الملاحم وصح الخبر ، وبه كان يحارب الكفار وله النصرة والظفر ، وبه قلع باب خيبر ، وعن هذا قال والله ما قلعت باب خيبر بقوة جسدانية ، ولا بحركة غذائية ، ولكن قلعته بقوة ملكوتية . . . قالوا وربما يظهر علىّ فى بعض الأزمان . . . والرعد صوته والبرق تبسمه . . . الخ »(٢) وهؤلاء الذين ألّهوه ذهبوا فى تأليهه جملة مذاهب ، وقالوا فيه أقوالا غريبة لا داعى للاطالة بذكرها — وقد ذكروا أن أول من دعا الى تأليه علىّ عبد الله بن سبأ اليهودى(٣) وكان ذلك فى حياة علىّ ، وقد رأيت قبلُ طرفاً من سيرة ابن سبأ هذا ، فهو الذى حرك أبا ذر الغفارى للدعوة الاشتراكية ، وهو الذى كان من أكبر من ألّب الأمصار على عثمان ، والآن ألّه علياً ، والذى يؤخذ من تاريخه أنه وضع تعاليم لهدم الاسلام ، وألّف جمعية سرية لبث تعاليمه ، واتخذ

(١) شرح نهج البلاغة جزء ١ ص ٥٤ (٢) الشهرستانى جزء ١ ص ٢٠٤

(٣) يذهب بعض الباحثين الى أن عبد الله بن سبأ رجل خرافى ليس له وجود تاريخى محقق ، ولكنا لم نر لهم من الأدلة ما يثبت مدعاهم

الاسلام ستاراً يستتر به نياته ، نزل البصرة بعد أن أسلم ونشر فيها دعوته فطرده واليها ، ثم أتى الكوفة فأخرج منها ، ثم جاء مصر فالتف حوله ناس من أهلها ، وأشهر تعاليمه الوصاية والرَّجْعَة ، فأما الوصاية فقد أبناها قبل ، وكان قوله فيها أساس تأليب أهل مصر على عثمان بدعوى أن عثمان أخذ الخلافة من علىّ بغير حق ، وأيد رأيه بما نسب الى عثمان من مثالب ، وأما الرجعة فقد بدأ قوله بأن محمداً يرجع ، وكان مما قاله « العجب ممن يصدّق أن عيسى يرجع ، ويكذب أن محمداً يرجع » ثم نراه تحوّل — ولا ندرى لأى سبب — الى القول بأن علياً يرجع ، وقال ابن حزم أن ابن سبأ قال «لما قتل علىّ لو أتيتمونا بدماغه ألف مرة ما صدقنا موته ، ولا يموت حتى يملأ الأرض عدلا كما ملئت جوراً » وفكرة الرجعة هذه أخذها ابن سبأ من اليهودية ، فعندهم أن النبى « الياس » صعد الى السماء وسيعود فيعيد الدين والقانون ، ووجدت الفكرة فى النصرانية أيضاً فى عصورها الأولى ، وتطورت هذه الفكرة عند الشيعة الى العقيدة باختفاء الأئمة ، وان الامام المختفى سيعود فيملأ الأرض عدلا ، ومنها نبعت فكرة المهدى المنتظر

والناظر الى هذا يعجب للسبب الذى دعا الى الاعتقاد بألوهية علىّ ، مع أن أحداً لم يقل بألوهية محمد صلى الله عليه وسلم ، وعلىّ نفسه يصرح بالاسلام وتبعيته لمحمد صلى الله عليه وسلم ، والعلة فى نظرنا أن شيعة علىّ رووا له من المعجزات والعلم بالمغيبات الشىء الكثير ، وقالوا أنه كان يعلم كل شىء سيكون ، ووضعوا على لسانه ما جاء فى نهج البلاغة « اسألونى قبل أن تفقدونى فوالذى نفسى بيده لا تسألونى عن شىء فيما بينكم و بين الساعة ولا عن فئة تَهْدِى مائة وتُضِل مائة الا أنبأتكم بناعقها ، وقائدها وسائقها ومُناخ ركابها ، ومَحَط رحالها ، ومن يقتل من أهلها قتلا ، ومن يموت منهم موتاً الخ » ورووا له أنه أخبر بقتل الحسين ، وأخبر بكر بلاء ،

وأخبر بالحجاج ، وأخبر بالخوارج ومصيرهم ، وبنى أمية وملكهم ، وأخبر ببنى بويه وأيام دولتهم ، وأخبر عبد الله بن عباس بانتقال الأمر الى أولاده « فانه لما ولد لعبد الله بن عباس ابنه علىّ أخرجه أبوه الى علىّ بن أبى طالب فأخذه وتفل فى فيه وحنّكه بتمرة قد لاكها ودفعه اليه وقال خذ — اليك — أبا الأملاك[1] » هذه الأخبار وأمثالها انتشرت بين الشيعة حتى ليكادون يذكرون أنه أخبر بما كان وما سيكون الى يوم الدين ، كل هذا اذا أنت ضممته الى أن أكثر شيعة علىّ كانوا فى العراق ، وكانوا من عناصر متنوعة ، والعراق من قديم منبع الديانات المختلفة ، والمذاهب الغريبة ، وقد سادت فيهم من قبل تعاليم مانى ومزدك وابن ديصان ، كما رأيت من قبل ، ومنهم نصارى ويهود سمعوا المذاهب المختلفة فى حلول الله فى بعض الناس — كل هذه الأمور جعلت منهم من يؤله علياً ، فأما العرب فكانوا أبعد الناس عن المقالات والمذاهب الدينية ، حياتهم البسيطة وعقليتهم التى على الفطرة تأبى عليهم أن يلصقوا بمحمد صلى الله عليه وسلم ألوهية وهو الذى يكرر دائماً ما جاء فى القرآن « إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَىَّ إِنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ »

هذه العقيدة فى علىّ تناقض فكرة الاسلام البسيطة الجميلة فى وحدانية الله وتنزّهه عن المادة ، ومن حسن الحظ أن ليست هذه المقالة فى علىّ قول الشيعة جميعهم ولا أكثرهم ، بل قول فرقة قليلة منهم هم الغلاة

أساس نظرية الشيعة — كما رأيت — الخليفة أو كما يسميه هم « الامام » فعلىّ هو الامام بعد محمد صلى الله عليه وسلم ثم يتسلسل الأئمة بترتيب من عند الله ، والاعتراف بالامام والطاعة له جزء من الايمان — والامام فى نظرهم ليس كما ينظر اليه أهل السنة ، فعند أهل السنة الخليفة أو الامام « نائب عن صاحب الشريعة

---

(١) الكامل للمبرد

فى حفظ الدين ، فهو يحمل الناس على العمل بما أمر الله ، وهو رئيس السلطة القضائية والادارية والحربية ، ولكن ليس لديه سلطة تشريعية ، الا تفسيرا لأمر أو اجتهاداً فيما ليس فيه نص ، أما عند الشيعة فللامام معنى آخر هو أنه أكبر معلّم ، فالامام الأول قد ورث علوم النبى صلى الله عليه وسلم ، وهو ليس شخصاً عادياً بل هو فوق الناس لأنه معصوم من الخطأ

وهناك نوعان من العلم علم الظاهر وعلم الباطن ، وقد علّم النبى صلى الله عليه وسلم هذين النوعين لعلىّ ، فكان يعلم باطن القرآن وظاهره وأطلعه على اسرار الكون وخفايا المغيبات ، وكل امام ورّث هذه الثروة العلمية لمن بعده ، وكل امام يعلّم الناس فى وقته ما يستطيعون فهمه من هذه الأسرار ، ولذلك كان الامام أكبر معلّم ، ولا يؤمنون بالعلم ولا بالحديث الا اذا روى عن هؤلاء الأئمة

وهم مختلفون اختلافاً كبيراً فى الأئمة وتسلسلها ، لانطيل بذكرها [1] . وأهم فرق الشيعة الزيدية والامامية : فالزيدية أتباع زيد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب ، ومذهبهم أعدل مذاهب الشيعة وأقربها الى أهل السنة ، ولعل هذا راجع الى أن زيداً — امام الزيدية — تتلمذ لواصل بن عطاء رأس المعتزلة ، وأخذ عنه كثيراً من تعاليمه ، فزيد يرى جواز امامة المفضول مع وجود الأفضل ، فقال كان علىّ بن أبى طالب أفضل من أبى بكر وعمر ، ولكن — مع هذا — امامة أبى بكر وعمر صحيحة ، ونظرهم الى الامام كذلك نظر معتدل ، فليست هناك امامة بالنص ، ولم ينزل وحى يعين الأئمة ، بل كل فاطمى عالم زاهد شجاع سخى قادر على القتال فى سبيل الحق يخرج للمطالبة يصح أن يكون اماماً ، فهو يشترط فى الامام الخروج على الأمراء والسلاطين يطالب بالخلافة ، ولهذا كانت الامامية فى نظرهم عملية ،

(١) انظرها فى الملل والنحل للشهرستانى ومقدمة ابن خلدون

لا سلبية كما هى عند الأمامية تنتهى بالامام المختفى ، وهم لا يؤمنون بالخرافات التى ألصقت بالامام فجعلت له جزءاً إلهياً ، وقد خرج زيد على هشام بن عبد الملك الخليفة الاموى فقتل وصلب سنة ١٢١ ه وخرج بعده ابنه يحيى فقتل كذلك سنة ١٢٥ ه ولا يزال الزيدية فى اليمن الى الآن

والامامية سموا كذلك لان أهم عقائدهم أسست حول الامام ، وقد قالوا بأن محمداً صلى الله عليه وسلم نص على خلافة علىّ وقد اغتصبها ابو بكر وعمر ، وتبرءوا منهما ، وقدحوا فى امامتهما ، وجعلوا الاعتراف بالامام جزءاً من الايمان ، والامامية فرق متعددة لا تتفق على أشخاص الأئمة

فمن أشهر فرقهم[1] «الاثنا عشرية» سموا كذلك لأنهم يسلسلون أئمتهم الى اثنى عشر اماماً ، وعقيدتهم هى العقيدة الرسمية لدولة ايران الى اليوم ، «والاسماعيلية» سميت كذلك لأنهم يقفون بأئمتهم عند اسماعيل بن جعفر الصادق ، وهؤلاء لعبوا دوراً طويلا فى تاريخ الاسلام ، وأخذوا مذهب الأفلاطونية الحديثة الذى شرحناه قبل وطبقوه على مذهبهم الشيعى تطبيقاً غريباً ، واستخدموا ما نقله اخوان الصفا فى رسائلهم من هذا المذهب الأفلاطونى ، ووضعوا لهم تعاليم درّجوها تسع درجات تبتدئ باثارة الشكوك فى الاسلام كسؤالهم ما معنى رمى الجمار ؟ وما العدو بين الصفا والمروة ؟ وتنتهى بهدم الاسلام والتحلل من قيوده ، وأولوا كل ما فيه فقالوا ان الوحى ليس الا صفاء النفس ، وان الشعائر الدينية ليست الا للعامة ، أما الخاصة فلا يلزمهم العمل بها ، وان الأنبياء هم سُوّاس العامة ، أما الخاصة فانبياؤهم الفلاسفة[1] وليس هناك معنى للتمسك بحرفية القرآن ، فهو رموز لاشياء يعرفها العارفون ، انما يجب أن يفهم القرآن على طريقة التأويل والمجاز ، وللقرآن ظاهر

(١) ترى هذه التعاليم وتدرجها ونصوصها فى الجزء الاول من خطط المقريزى

وباطن ، ويجب أن نخترق الحجب المادية حتى نصل الى أطهر ما يمكن من الروحانية ، ومن ثم سموا أيضاً «الباطنية» ولا يسعنا هنا أن نذكر أهم تعاليمهم وكيف أخذت من الأفلاطونية الحديثة فان هذه الفرقة لم تظهر فى عصرنا الذى نؤرخه انما ظهرت فى الدولة العباسية ، وكان من آثار دعايتهم الدولة الفاطمية فى المغرب ومصر ، ولا يزال لهم بقايا الى اليوم فى الشام والعجم والهند ، ورئيسهم الآن « أغا خان » الزعيم المشهور

والامامية على العموم — تقول بعودة امام منتظر وان اختلفوا — باختلاف طوائفهم — فيمن هو الامام المنتظر ، ففرقة ينتظرون جعفرا الصادق ، وأخرى تنتظر محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسين بن على بن أبى طالب ، وثالثة تنتظر محمد ابن الحنفية وتزعم انه حى لم يمت وأنه بجبل رضوى الى أن يأذن الله له بالخروج ، ومنهم كُثَيِّر عزة وفى ذلك يقول :

ألا ان الأئمة من قريش ولاةَ الحق أَرْبَعَةٌ سَوَاء
علىٌّ والثلاثة من بَنيهِ هم الأسْبَاطُ لَيْسَ بهم خفاء
فِسبْطُ سبطُ إيمانٍ وبرٍّ وسِبطٌ غَيَّبته كَرْبلاء
وسبط لايذوق الموت حتى يقودَ الخيلَ يَقْدُمُها اللواء
تَغَيَّبَ لا يُرى فيهم زماناً برَضْوَى عنده عسل وماء

وكان السَّيد الحِمْيرى الشاعر الأموى المشهور يعتقد كذلك أن محمد بن الحنفية لم يمت وأنه فى جبل رضوى ، بين أسد ونمر يحفظانه ، وعنده عينان نَضَّاختان تجريان بماء وعسل ويعود بعد الغيبة فيملأ العالم عدلا كما ملئ جوراً — ولهم فى ذلك سخافات يطول شرحها ، وأساس هذه العقيدة ما رأينا قبل من قول ابن سبأ بالرجعة ونقلها عن اليهودية ، وأن الشيعيين فشلوا أول أمرهم فى تكوين مملكة

ظاهرية على وجه الأرض وعذبوا وشردوا كل مشرّد فخلقوا لهم أملاً من الامام المنتظر والمهدى ونحو ذلك

***

وقد اتفقت تعاليم الخوارج والشيعة على أن خلفاء بنى أمية مغتصبون ظالمون ، فاشتركوا فى مناهضتهم ، ولكن الخوارج كانوا ظاهرين فى حروبهم غلبت عليهم الطبيعة البدوية فى الصراحة ، فأكثرهم لا يقول بالتقية ، أما الشيعة فكانوا يحاربون جهراً اذا أمكن الجهر ، فاذا لم يستطيعوا فسراً ، وقال أكثرهم بالتَّقيَّة [1] فكانوا بهذا أشد على بنى أمية ، وهم أدعى الى الحذر منهم ، فبثوا العيون والأرصاد على الشيعة واضطهدوهم اضطهاداً شنيعاً ، فدسوا للحسن حتى طعن بخنجر فى جنبه ولكن لم يمته ، وأوقعوا الفشل فى جيشه حتى وادعهم ، ثم قتلوا الحسين فى وقعة كربلاء ، ثم تتبعوا أهل البيت يستذلونهم ويمتهنونهم ويقتلونهم ويقطعون أيديهم وأرجلهم على الظِّنَّة ، وكل من عرف بالتشيع لهم سجنوه أو نهبوا ماله . أو هدموا داره ، واشتد بهم الأمر فى أيام عبيد الله بن زياد قاتل الحسين «وأتى بعده الحجاج فقتلهم كل قتلة ، وأخذهم بكل ظنة وتهمة ، حتى ان الرجل ليقال له زنديق أو كافر

---

(١) يراد بالتقية المداراة ، كأن يحافظ الشخص على نفسه أو عرضه أو ماله بالتظاهر بعقيدة أو عمل لا يعتقد بصحته ، فمن كان على دين أو مذهب ثم لم يستطع أن يظهر دينه أو مذهبه فيتظاهر بغيره فذلك تقية ، وعد قوم منها مداراة الكفار والظلمة والتبسم فى وجوههم ونحو ذلك ، وقد اختلف فيها الشيعة والخوارج وأهل السنة ، فأكثر الشيعة يقول بها بل منهم من قال يجب إظهار الكفر لأدنى مخافة أو طمع ، وحملوا بيعة على لابى بكر وعمر وعثمان على التقية ، وكان كثير من الشيعة يكتمون تشيعهم تقية ويعملون سراً ، وأما أكثر الخوارج فقالوا أن التقية لا تجوز ولا قيمة للنفس والعرض والمال بجانب الدين ، بل منهم من كان يرى أنه لا يصح قطع الصلاة اذا جاء سارق ليسرق متاعه وهو يصلى ، أما أهل السنه فتوسطوا وقالوا إن من خاف على نفسه أو ماله لعقيدته وجب أن يهاجر من بلده فان لم يستطع أظهر التقية بقدر الضرورة ووجب عليه أن يسعى فى الخروج بدينه . . . الخ الخ

أحب اليه من أن يقال له شيعة عليّ » حتى يروى أن رجلا — يقال انه جدّ الأصمعى — وقف للحجاج فقال له أيها الأمير ، أن أهلى عقّونى فسمونى علياً ، وأنى فقير بائس وأنا الى صلة الأمير محتاج فتضاحك له الحجاج وولاه عملا ، ويقول المدائنى « أن زياد بن سمية كان يتتبع الشيعة فى الكوفة وهو بهم عارف ، لأنه كان منهم أيام عليّ ، فقتلهم تحت كل حَجَر ومدر ، وأخافهم ، وقطع الأيدى والأرجل ، وسَمَل العيون ، وصلبهم على جذوع النخل ، وطردهم وشردهم عن العراق ، فلم يبق بها معروف منهم ، وكتب معاوية الى عماله فى جميع الآفاق ألا يجيزوا لأحد من شيعة عليّ وأهل بيته شهادة ، وكتب اليهم أن انظروا مَن قِبلكم من شيعة عثمان ومحبيه وأهل ولايته والذين يروون فضائله ومناقبه فأدنوا مجالسهم ، وقربوهم وأكرموهم ، واكتبوا لى بكل ما يَرْوى كل رجل منهم واسمه واسم أبيه وعشيرته ، ففعلوا ذلك حتى أكثروا من فضائل عثمان ومناقبه ، لِما كان يبعثه اليهم معاوية من الصلات ... وقال إنه كتب الى عماله أن انظروا الى من قامت عليه البينة أنه يحب علياً وأهل بيته فامحوه من الديوان واسقطوا عطاءه ورزقه» — والعباسيون كانوا أبلغ فى التنكيل بهم لأنهم أعرف بخفاياهم ، لما كانوا يعملون معهم فى عهد بنى أمية

هذه الاضطهادات كان من نتائجها احكام الشيعة للسرية ونظامها ، فهم أقدر الفرق الاسلامية على العمل فى الخفاء ، وكتمان عملهم حتى يتمكنوا من عدوهم — وهذه السرية استلزمت الخداع والالتجاء الى الرموز والتأويل ونحو ذلك ، وكان من أثر هذا الاضطهاد أيضاً اصطباغ أدبهم بالحزن العميق ، والنوح والبكاء ، وذكرى المصائب والآلام

وقد حاربوا الأمويين بمثل ما حوربوا به فكما وضع الأمويون الحديث فى

فضائل الصحابة — عدا علياً والهاشميين — وخاصة عثمان ، وضع الشيعة أحاديث كثيرة فى فضائل علىّ وفى المهدى المنتظر ، وعلى الجملة فيما يؤيد مذهبهم ، وربما فاقوا فى ذلك الأمويين ، فاشتغل بعض علمائهم بعلم الحديث وسمعوا الثقات ، وحفظوا الأسانيد الصحيحة ، ثم وضعوا بهذه الأسانيد أحاديث تتفق ومذهبهم ، وأضلوا بهذه الأحاديث كثيراً من العلماء لانخداعهم بالاسناد ، بل كان منهم من سُمِّى بالسُّدى ومنهم من سمى بابن قتيبة فكانوا يروون عن السدى وابن قتيبة فيظن أهل السنة أنهما المحدثان الشهيران مع أن كلا من السدى وابن قتيبة الذى ينقل عنه الشيعة انما هو رافضى غال ، وقد ميزوا بينهما بالسدى الكبير والسدى الصغير والأول ثقة والثانى شيعى وضّاع ، وكذلك ابن قتيبة الشيعى غير عبد الله ابن مسلم بن قتيبة ، بل وضعوا الكتب وحشوها بتعاليمهم ونسبوها لأئمةأهل السنة ككتاب « سر العارفين » الذى نسبوه للغزالى ، ومن هذا القبيل ما نراه مثبوتاً فى الكتب من اسناد كل فضل وكل علم الى علىّ بن أبى طالب إما مباشرة واما بواسطة ذريته ، فعلم المعتزلة جاء من أن واصل بن عطاء —رأس المعتزلة— تلقى العلم عن أبى هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية ، وأبو هاشم تلميذ أبيه وأبوه تلميذ علىّ ، وأبو حنيفة أخذ العلم عن جعفر الصادق ، ومالك بن أنس قرأ على ربيعة الرأى وقرأ ربيعة على عكرمة وعكرمة على عبدالله بن عباس وعبد الله قرأ على علىّ ، وبهذه الطريقة ينسب فقه الشافعى الى الامام علىّ لأنه تلميذ مالك ، بل فقه عمر بن الخطاب يرجع الى علىّ لأنه كان يرجع اليه فيما أشكل من المسائل وكان يقول لولا علىّ لهلك عمر — وتفسير القرآن أخذ أكثره عن عبد الله بن عباس وهو أخذه عن علىّ ، فقد قيل لابن عباس أين علمك من علم ابن عمك ؟ فقال كنسبة قطرة من المطر الى البحر المحيط — والتصوف منسوب اليه وقد نسبه اليه الشبلى والجنيد

وسَرِيّ وأبو يزيد البسطامي، وينسبون الخرقة التي هي شعارهم اليه — وأبو الاسود الدؤلي واضع علم النحو أخذه عن علي بن ابي طالب ، فقد أملى عليه الكلام كله ثلاثة أشياء اسم وفعل وحرف ، وعلّمه تفسير الاسم الى معرفة ونكرة وتقسيم الاعراب الى الرفع والنصب والجر والجزم — وعلى الجملة فليس هناك من علم الا وأصله عليّ بن ابي طالب ،كأن العقول كلها أجدبت وأصيبت بالعقم الاّ عليّ بن أبي طالب وذريته ، وعليّ رضي الله عنه من ذلك براء

والحق ان التشيع كان مأوى يلجأ اليه كل من أراد هدم الاسلام لعداوة أو حقد ، ومن كان يريد ادخال تعاليم آبائه من يهودية ونصرانية وزرادشتية وهندية ، ومن كان يريد استقلال بلاده والخروج على مملكته، كالذى كان في المغرب قبل انتقال الفاطميين الى مصر — كل هؤلاء كانوا يتخذون حب أهل البيت ستاراً يضعون وراءه كل ماشاءت أهواؤهم ، فاليهودية ظهرت في التشيع بالقول بالرجعة ، وقال الشيعة أن النار محرمة على الشيعي الا قليلا ، كما قال اليهود لن تمسنا النار الا أياماً معدودات ، والنصرانية ظهرت في التشيع في قول بعضهم أن نسبة الامام الى الله كنسبة المسيح اليه ، وقالوا أن اللاهوت اتحد بالناسوت في الأمام ، وأن النبوة والرسالة لا تنقطع أبداً فمن اتحد به اللاهوت فهو نبي . وتحت التشيع ظهر القول بتناسخ الأرواح وتجسيم الله والحلول ، ونحو ذلك من الأقوال التي كانت معروفة عند البراهمة والفلاسفة والمجوس من قبل الاسلام ، وتستّر بعض الفرس بالتشيع وحاربوا الدولة الاموية ، ومافي نفوسهم الا الكره للعرب ودولتهم والسعي لاستقلالهم قال المقريزي « واعلم أن السبب في خروج أكثر الطوائف عن ديانة الاسلام أن الفرس كانت من سعة الملك وعلو اليد على جميع الأمم وجلالة الخطر في أنفسها بحيث أنهم كانوا يسمون أنفسهم الأحرار والأسياد، وكانوا يعدون سائر الناس عبيداً

لهم ، فلما امتحنوا بزوال الدولة عنهم على أيدى العرب ، وكان العرب عند الفرس أقل الأمم خطراً تعاظمهم الأمر ، وتضاعفت لديهم المصيبة ، وراموا كيد الاسلام بالمحاربة فى أوقات شتى وفى كل ذلك يظهر الله الحق ... فرأوا أن كيده على الحيلة أنجع ، فأظهر قوم منهم الاسلام واستمالوا أهل التشيع باظهار محبة أهل البيت واستبشاع ظلم علىّ ثم سلكوا بهم مسالك شتى حتى أخرجوهم عن طريق الهدى » (١)

وقد ذهب الاستاذ ولهوسن Wellhausin الى أن العقيدة الشيعية نبعت من اليهودية أكثر مما نبعت من الفارسية ، مستدلا بأن مؤسسها عبدالله بن سبا وهو يهودى ، ويميل الاستاذ دوزى Dozy الى « أن أساسها فارسى ، فالعرب تدين بالحرية والفرس يدينون بالمَلِك ، و بالوراثة فى البيت المالك ، ولا يعرفون معنًى لانتخاب الخليفة ، وقد مات محمد ولم يترك ولداً فأولى الناس بعده ابن عمه على بن أبى طالب ، فمن أخذ الخلافة منه كأبى بكر وعمر وعثمان والامويين فقد اغتصبها من مستحقها ، وقد اعتاد الفرس أن ينظروا الى الملك نظرة فيها معنى إلهى ، فنظروا هذا النظر نفسه الى علىّ وذريته وقالوا أن طاعة الامام أول واجب وأن اطاعته اطاعة الله »

والذى أرى — كما يدلنا التاريخ أن التشيع لعلى بدأ قبل دخول الفرس فى الاسلام ، ولكن بمعنى ساذج وهو أن علياً أولى من غيره من وجهتين : كفايته الشخصية وقرابته للنبى ، ، والعرب من قديم تفخر بالرياسة و بيت الرياسة ، وهذا الحزب كما رأينا وجد من بعد وفاة النبى صلى الله عليه وسلم ونما بمرور الزمان و بالمطاعن فى عثمان ، ولكن هذا التشيع أخذ صبغة جديدة بدخول العناصر الأخرى فى الاسلام من يهودية ونصرانية ومجوسية ، وأن كل قوم من هؤلاء كانوا يصبغون التشيع بصبغة دينهم ، فاليهودية تصبغ الشيعة يهودية ، والنصرانية نصرانية وهكذا ، واذ

---

(١) جزء ١ ص ٣٦٢ مختصر ١

كان أكبر عنصر دخل فى الاسلام هو العنصر الفارسى كان أكبر الأثر فى التشيع انما هو للفرس

***

ومن أشهر الادباء والشعراء المتشيعين فى هذا العصر أبو الأسود الدؤلى وفى علىّ وبنيه يقول

يَقُول الأرْذَلُون بنو قشير ... طِوَالَ الدّهْرِ لا تَنْسى عليا ؟
بَنُو عم النَّبىِّ وأَقْرَبُوهُ ... أحبُّ النـاس كُلِّهِمُو اليا
أحبهمو كَحُبِّ الله حَتَّى ... أَجِىءَ إذَا بُعِثْتُ عَلَى هَوَيَّا
فَإنْ يَكُ حُبُّهُمْ رُشْدًا أُصِبْهُ ... وَلَسْتُ بمخطِىءٍ إنْ كانَ غَيَّا

وكذلك كان كثير عزة وقد قرأت قبلُ شعره فى الرّجعة ، والكُمَيت وكان شيعياً غالياً ومن شعره فى الخلافة

يقولون لم يُورثْ ولولا تُراثُهُ ... لقدشَرِكَتْ فيهبَجِيلٌ وأَرْحَبُ (١)
ولَانْتَشَلَتْ عضوين منها يُحَابِرٌ ... وكان لَعبد القيس عضو مؤَرَّبُ
فإنْهِيَ لَمْ تَصْلُحْ لِحَيّ سواهمُو ... اذاً فَذوو القربى أحقُّ وأقرب
فيالَكَ أمراً قد أُشتّتْ جُمُوعُه ... ودَاراً ترى أسبابهـا تتقَضَّبُ
تبَدّلَتِ الأشرارَ بعد خِيَارها ... وجُدَّ بها من أمّة وهى تلعب

(١) بجيل وأرحب قبيلتان

الفصل الثالث

المرجئـــة

رأينا قبل أن الشيعة والخوارج كان أول أمرهما حزبين سياسيين تكونا حول الخلافة ، وأن رأى الخوارج فيها رأى ديمقراطى، ورأى الشيعة رأى ثيوقراطى، أما المرجئة فكانت كذلك أول أمرها ، أعنى حزباً سياسياً محايداً له رأى فيما شجر بين المسلمين من خلاف ، يروى ابن عساكر فى توضيح رأيهم « أنهم هم الشُّكَّاك الذين شكُّوا وكانوا فى المغازى ، فلما قدموا المدينة بعد قتل عثمان وكان عهدهم بالناس وأمرهم واحد ليس بينهم اختلاف فقالوا تركناكم وأمركم واحد ، ليس بينكم اختلاف وقدمنا عليكم وأنتم مختلفون ، فبعضكم يقول قتل عثمان مظلوماً ، وكان أولى بالعدل وأصحابه ، وبعضكم يقول كان علىّ أولى بالحق وأصحابه ، كلهم ثقة ، وعندنا مصدق . فنحن لا نتبرأ منهما ولا نلعنهما ، ولا نشهد عليهما ، ونرجىء أمرهما الى الله حتى يكون الله هو الذى يحكم بينهما »

فنرى من هذا أنه حزب سياسى لا يريد أن يغمس يده فى الفتن ، ولا يريق دماء حزب ، بل ولا يحكم بتخطئة فريق وتصويب آخر ، وأن السبب المباشر فى تكوينه هو اختلاف الأحزاب فى الرأى ، والسبب البعيد هو الخلافة ،فلولا الخلافة ما كانت خوارج ولا شيعة واذن لا يكون مرجئة

وكلمة المرجئة مأخوذة من أرجأ بمعنى أمهل وأخّر، سموا المرجئة لأنهم يرجئون أمر هؤلاء المختلفين الذين سفكوا الدماء الى يوم القيامة ، فلا يقضون بحكم على هؤلاء ولا على هؤلاء ، وبعضهم يشتق اسمهم من أرجأ بمعنى بعث الرجاء لأنهم كانوا

يقولون لا تضر مع الايمان معصية كما لاتنفع مع الكفر طاعة فهم يؤمّلون كل مؤمن عاص — والأول أنسب لما حكينا عن ابن عساكر —

نشأت المرجئة لما رأت خوارج يكفرون عليا وعثمان والقائلين بالتحكيم، ورأت من الشيعة من يكفر أبا بكر وعمر وعثمان ومن ناصروهم، وكلاهما يكفر الامويين ويلعنهم، والامويون يقاتلونهم ويرون أنهم مبطلون، وكل طائفة تدعى أنها على الحق، وأنها وحدها على الحق، وأن من عداها كافر وفى ضلال مبين فظهرت المرجئة تسالم الجميع، ولا تكفر طائفة منهم، وتقول أن الفرق الثلاث : الخوارج والشيعة والامويين — مؤمنون، و بعضهم مخطىء و بعضهم مصيب، ولسنا نستطيع أن نعين المصيب، فلنترك أمرهم جميعاً الى الله، ومن هؤلاء بنو أمية، فهم يشهدون أن لااله الا الله وأن محمدا رسول الله، فليسوا إذن كفاراً ولا مشركين، بل مسلمين نرجىء أمرهم الى الله الذى يعرف سرائر الناس ويحاسبهم عليها، وينتج من هذا أن موقفهم أزاء حكم الأمويين موقف تأييد، ولكنه تأييد سلبى لا ايجابى، فليسوا ينحازون اليهم ويحملون سيوفهم يقاتلون فى جيوشهم، ولكنْ هم أزاء الامويين مثلهم أزاء الشيعة والخوارج، وهم — على ما يظهر — يرون حكومة الامويين حكومة شرعية — وكفى بذلك تأييداً —

ونواة هذه الطائفة كانت بين الصحابة فى الصدر الاول، فانا نرى أن جماعة من أصحاب رسول الله امتنعوا أن يدخلوا فى النزاع الذى كان فى آخر عهد عثمان مثل أبى بَكْرَة وعبد الله بن عمر وعِمْران بن الحُصَيْن، وروى أبو بكرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ستكون فِتَنٌ، القاعد فيها خير من الماشى، والماشى فيها خير من الساعى اليها، ألا فاذا نزلت أو وقعت، فمن كان له ابل فليَلْحَق بأبله، ومن كانت له غنم فليلحق بغنمه، ومن كانت له أرض فليلحق بأرضه، قال فقال

رجل يارسول الله من لم تكن له ابل ولا غنم ولا أرض ؟ قال يعمِد الى سيفه فيدق على حده بحجر ، ثم لينج أن استطاع النجاء »

هـذه النزعة الى عدم الدخول فى الحروب التى بين المسلمين بعضهم و بعض هى الأساس الذى بنى عليه مذهب الارجاء[1] ولكنه لم يتكون كمذهب — كما رأينا — الا بعد ظهور الخوارج والشيعة

و بعد أن كان مذهباً سياسياً أصبح بعدُ يبحث فى أمور لاهوتية ، وكانت نتيجة بحثهم تتفق ورأيهم السياسى ، فأهم مابحثوا فيه تحديد «الايمان» و «الكفر» والمؤمن والكافر وقد دعا الى هذا البحث أنهم رأوا الخوارج يكفرون من عداهم والشيعة كذلك ، غلا الخوارج فعدوا كل كبيرة كفراً ، وغلت الشيعة فعدوا الاعتقاد بالامام ركناً أساسياً من أركان الايمان ، فكانت النتيجة الطبيعية أن يعرض على بساط البحث ما الكفر وما الايمان ، فرأى كثير من المرجئة أن الايمان هو المعرفة بالله و برسله ، فمن عرف أن لااله الا الله وأن محمداً رسول الله فهو مؤمن، وهذا رد من المرجئة على الخوارج الذين يقولون أن الايمان معرفة بالله و برسله ، والاتيان بالفرائض ، والكف عن الكبائر ، فمن آمن بالله ورسله وترك الفرائض وارتكب شيئاً من الكبائر كان مؤمناً عند المرجئة ، كافراً فى نظر الخوارج ، وردّ أيضاً على الشيعة الذين يعتقدون أن الايمان بالامام والطاعة له جزء من الايمان ، بل غلا بعض المرجئة أكثر من ذلك فقالوا أن الايمان الاعتقاد بالقلب « وان أعلن الكفر بلسانه ، وعبد الأوثان أو لزم اليهودية والنصرانية فى دار الاسلام ، وعبد الصليب ، وأعلن التثليث فى دار الاسلام ، ومات على ذلك فهو مؤمن كامل

---

(١) يقول النووى على مسلم أن القضايا (يريد قضايا الفتن التى كانت بين الصحابة) كانت مشتبهة حتى أن جماعة من الصحابه تحيروا فيها فاعتزلوا الطائفتين ولم يقاتلوا ولم يتيقنوا الصواب الخ

الايمان عند الله عز وجل ولىٌّ لله عز وجل ، من أهل الجنة [1] » فترى من هذا أن هؤلاء لا يعدون ايمانا الا الاعتقاد القلبى بالله ورسله وليست الأعمال الظاهرة جزءاً من الايمان

ولهذا الكلام كله نتيجة تتفق ورأيهم السياسى ، فهم لا يحكمون بالكفر على الأمويين ولا على الخوارج والشيعة ، بل لا يجزمون بكفر الأخطل ونحوه من النصارى واليهود لأن الايمان محله القلب ، وليس يطلع عليه الا الله وذلك يدعو الى مسالمة الناس جميعاً

وقد لاحظ بعض المستشرقين أن الكلام على طائفة المرجئة و بدء تكونها وشرح عقائدها أحيط بشيء من الغموض ، وعلل ذلك بأن الدولة العباسية دمّرت هذه الطائفة وأماتت القول بهذه العقيدة لأنها تناصر الامويين الى حدّ ما ، وعلى كل حال فهذه الفرقة تدخلت بعد العصر الأموى فى الفرق الاخرى وذابت فيها ولم يعد لها وجود مستقل محسوس.

وقد اشتهر من شعراء بنى أمية بالقول بالارجاء ثَابِتُ قُطْنَة وكان فى صحابة يزيد ابن المهلب يوليه أعمالا من أعمال الثغور فيحمد فيها مكانه لكتابته وشجاعته ، وله قصيدة فى الارجاء تعد وثيقة قيمة فى توضيح مذهبهم ، رواها أبو الفرج فى الأغانى ، منها

يَا هِنْدُ فَاسْتَمِعِي لِي إنَّ سِيرَتَنَا	أَن نَعْبُدَ اللهَ لم نُشْرِكْ به أَحَدَا
نُرْجِي الامورَ اذا كانت مشبَّهَة	وَنَصْدُقُ القَولَ فيمن جار أو عَنَدَا
المُسْلِمُونَ عَلَى الإِسْلامِ كُلُّهُمو	والمُشْرِكُونَ اسْتَوَوْا فِي دِينِهِمْ قِدَدَا
وَلَا أَرَى أَنَّ ذَنباً بَالِغٌ أَحَداً	مِ الناسِ شِرْكاً اذا ما وَحَّدُوا الصَّمَدَا

(١) ابن حزم جزء ٤ ص ٢٠٤

لَا نَسْفِكُ الدَّمَ الاَّ أَنْ يُراد بنا سَفْكُ الدِّماء ، طَرِيقاً وَاحِدًا جَدَدَا
مَنْ يتَّقِ اللهَ فى الدُّنيا فإنَّ له أَجْرَ التَّقِيِّ اذا وفَّى الحِسَابَ غَدَا
وما قَضَى اللهُ من أمرٍ فليس له رَدٌّ وما يَقْضِ مِنْ شَيْءٍ يَكُنْ رَشَدَا
كُلُ الخوارج مُخْطٍ فِي مقالته ولو تَعَبَّدَ فيما قال واجْتَهدا
أما علىٌّ وعثمانُ فأنهما عبدان لم يُشْركا بالله مذ عَبَدَا
وكان بينهما شَغَبٌ وقد شَهِدا شَقَّ العصا وبعين اللهِ ما شَهِدا
يُجْزَى علياً وعُثْمَانا بسعيهما ولَسْتُ أَدْرِى بحق أَيَّةً وَرَدَا
اللهُ يعلم ماذا يَحْضُران به وكُلّ عَبْدٍ سيلقى اللهَ مُنْفَرِدا

ونحن اذا حللنا قصيدته لنتبين منها معنى الارجاء وجدناه يقول أنه لا يحكم على أحد من المسلمين بالكفر مهما أذنب ، وأن الذنب مهما عظم لا يذهب بالايمان ، وأنه لا يسفك دم أحد من المسلمين الا دفاعا عن نفسه ، وأنه اذا اشتبهت الامور وكفّرت كل طائفة أختها فيما فعلت أرجأنا أمرهم جميعاً الى الله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون ، أما الجور البيّن والعناد الواضح والأعمال الظاهرة فنصدر أحكامنا عليها فى صراحة ، ونبين الخطأ فيها من الصواب ، وأن الخوارج أخطئوا اذ حكموا على علىّ وعثمان بالكفر ، فأنهما عبدان لله لم يشركا به منذ عرفاه ، ولكن كان بينهما شغب لم يخرج بهما عن الايمان ، فنترك أمرهما لله يقدر عملهما ويكافىء عليه .

الفصل الرابع

القَدَرية أو المعتزلة

يدلنا تاريخ الفكر البشرى على أن من أُولى المسائل التى تعرض للعقل عند مايبدأ التعمق فى البحث مسألة الجبر والاختيار ، هل أرادتنا حرة تعمل ما تشاء وتترك ما تشاء ، وتشكّل عملها كما تشاء ، أو أنا مجبرون على عمل ما نعمل فلا نستطيع أن نعمل غيره ، وأن ارادتنا معلولة بعلل فاذا حصلت العلل حصل المعلول لا محالة ؟ وهى مسألة شغلت الفلاسفة ورجال الدين جميعاً فى العصور المختلفة ، تعترضك فى الاخلاق وفى القانون ، وفى فلسفة التاريخ ، وفى علم الكلام ، وفى الفلسفة على العموم — وقد نشأت الابحاث الدينية فى هذا الموضوع لما نظر الانسان فرأى أنه — من ناحية — يشعر بأنه حر الارادة يعمل ما يشاء ، وأنه مسئول عن عمله ، وهذه المسئولية تقتضى الحرية ، فلا معنى لأن يعذّب ويثاب اذا كان كالريشة فى مهب الريح لا بد أن تتحرك بحركته وتسكن بسكونه — ومن ناحية أخرى رأى أن الله عالم بكل شىء ، أحاط علمه بما كان وما سيكون ، فعلِم ماسيصدر عن كل فرد من خير أو شر ، وظن أن هذا يستلزم حتماً أنه لا يستطيع أن يعمل الا على وفق ما علم الله ، فحار فى ذلك بين الجبر والاختيار ، وأخذ يفكر هل هو مجبر أو مختار

وقد وردت آيات فى القرآن قد تشعر بالجبر مثل « خَتَمَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ » « ولاَ يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ ، هُوَ

رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ » « أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِى النَّارِ » « وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَنْ هَدَى اللهُ وَمِنْهُم مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ » — وهناك آيات تشعر بالاختيار وأن الانسان مسئول عن عمله « إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وإِمَّا كَفُورًا » « وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِى مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ، ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ » « فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ » « وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللهَ يَجِدِ اللهَ غَفُوراً رَحِيماً ، وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْماً فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ وَكَانَ اللهُ عَلِيماً حَكِيماً » الى كثير من أمثال هذه الآيات ، ووردت أحاديث كثيرة ان صحت تدل على تعرضه عليه السلام لمسألة القدر تصريحاً أو تلميحاً فعن جابر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا يؤمن عبد حتى يؤمن بالقَدَر خيره وشره ، وحتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه » وعن علىّ قال « كنا فى جنازة ببقيع الفَرْقد فأتانا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقعد وقعدنا حوله و بيده مِخْصرة فجعل ينكت بها الأرض ، ثم قال ما منكم من أحد الا وقد كُتب مقعده من النار ومقعده من الجنة ، فقالوا يا رسول الله أفلا نتكل على كتابنا فقال اعملوا فكلٌّ ميسر لما خلق له . أما من كان من أهل السعادة فسيصير الى عمل السعادة وأما من كان من أهل الشقاء فسيصير الى عمل الشقاء ثم قرأ « فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى »

فلما انتهى المسلمون من الفتح وهدءوا وأخذوا يفكرون ظهرت هذه المسألة ، وكان قد تكلم فيها من قبل فلاسفة اليونان ونقلها عنهم السريانيون ، وتكلم فيها الزرادشتيون كما بحث فيها النصارى . فظهر فى الاسلام قوم يقولون بحرية الارادة معارضين فى ذلك الفكرة الشائعة بأن الانسان مسير لا مخير ، روى عن نافع قال

جاء رجل الى ابن عمر فقال أن فلانا يقرأ عليك السلام – لرجل من أهل الشام — فقال ابن عمر أنه بلغنى أنه قد أحدث التكذيب بالقدر ، فان كان قد أحدث فلا تقرأ منى عليه السلام » ، وقد سمى هؤلاء الذين يقولون بأن الإنسان حر الارادة وبعبارة أخرى أن الانسان له قدرة على أعماله « بالقَدَرِيّة » وسماهم بذلك خصومهم لحديثٍ ورد « القدرية مجوس هذه الأمة » وكان الأولون الذين يقولون بحرية الارادة يرون أن أولى الناس بأن يطلق عليه اسم القدرية هم الذين يقولون بأن القدر يحكم جميع أعمال الانسان من خير وشر ، وعلى كل حال فقد لصق الاسم بالطائفة الأولى وصار لقباً لها

وقد ذكروا أن من أسبق الناس قولا بالقدر مَعْبَد الجُهنى وَغَيْلان الدمشقى أما معبد فقد قال عنه الذهبى فى ميزان الاعتدال « أنه تابعى صدوق لكنه سن سنة سيئة فكان أول من تكلم فى القدر ، قتله الحجاج صبراً لخروجه مع بن الأشعث » فترى من هذا أن قتله كان قتلا سياسياً وان كان كثير يذكرون أنه قتله لزندقته ، وكان يجالس الحسن البصرى أولا وقد سلك سبيله كثير من أهل البصرة وقال ابن نباتة فى « سرح العيون » « قيل أن أول من تكلم فى القدر رجل من أهل العراق كان نصرانياً فأسلم ثم تنصر ، وأخذ عنه معبد الجهنى وغيلان الدمشقى » وأما غيلان الدمشقى فكان يسكن دمشق وأبوه كان مولى لعثمان بن عفان « قال الأوزاعى قدم علينا غيلان القدرى فى خلافة هشام بن عبد الملك فتكلم غيلان وكان رجلا مفوها ، ثم أكثر الناس الوقيعة فيه والسعاية بسبب رأيه فى القدر وأحفظوا هشام بن عبد الملك عليه فأمر بقطع يديه ورجليه وقتله وصلبه »

وقد روى أن غيلان وقف يوماً على ربيعة (الرأى) فقال له أنت الذى تزعم أن الله يحب أن يُعْصَى فقال له ربيعة أنت الذى تزعم أن الله يعصى قسراً ، وحكى

أن عمر بن عبد العزيز بلغه أن غيلان وفلاناً نطقا فى القدر فأرسل اليهما وقال ما الأمر الذى تنطقان به ؟ فقالا هو ما قال الله يا أمير المؤمنين ، قال وما قال الله ؟ قالا قال « هَلْ أَتَى عَلَى الإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً » ثم قال «إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً» ثم سكتا ، فقال عمر اقرءا فقرءا حتى بلغا « إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ الَى رَبِّهِ سَبِيلًا ، وَمَا تَشَاؤُنَ الاَّ أَنْ يَشَاءَ اللهُ » الى آخر السورة قال عمر كيف تريان ؟ تأخذان الفروع وتدعان الأصول ؟ — قال ابن مهاجر ثم بلغ عمر أنهما أسرفا فأرسل اليهما وهو مغضَب ، فقام عمر وكنت خلفه قائما حتى دخلا عليه وأنا مستقبلهما فقال لهما ألم يكن فى سابق علم الله حين أمر الله ابليس بالسجود أن لا يسجد ؟ قال فأومأت اليهما برأسى أن قولا نعم والا فهو الذبح ، فقالا نعم فقال أو لم يكن فى سابق علم الله حين نهى آدم وحوّاء عن الشجرة أن يأكلا منها فألهمهما أن يأكلا منها ؟ فأومأت اليهما برأسى فقالا نعم ، فأمر باخراجهما وأمر بالكتاب الى سائر الأعمال بخلاف ما يقولان ، وأمسكا عن الكلام فلما يلبثا الا يسيراً حتى مرض عمر ومات ولم يُنفذ الكتاب ، وسال بعد ذلك منهما السيل

فترى من هذا انتشار القول فى القضاء والقدر فى هذا العصر وشدة الجدل فى هذا الأمر بين المتخاصمين — وقد اختلف الباحثون فى منبع هذه الحركة هل هو العراق أو الشام ؟ فيذهب بعضهم الى أن العراق منبع ذلك ، بدليل أن هذه الحركة تكونت حول الحسن البصرى وهو يسكن البصرة ، وأن منشأ الاعتزال كذلك كان فيها ، ويؤيد ذلك مارواه ابن نباتة من أن منشأ القول فى ذلك نصرانى من العراق أسلم وأخذ عنه مَعْبَد وغيلان — ويذهب آخرون الى أن الحركة ظهرت فى دمشق متأثرة بمن كان يخدم من النصارى فى بيت الخلفاء كيحيى الدمشقى .

وعلى كل حال فأنا نرى أن القول فى القضاء والقدر سال سيله فى العراق والشام فى هذا العصر ومن العسير تعيين أسبقهما ، وقد قال ابن «تَيْمِيَة» «ان أكثر الخوض فى القدر كان بالبصرة والشام و بعضه فى المدينة »

وعلى العكس من هؤلاء القَدَرية طائفةُ الجَبْرية وكان من أولهم جهم بن صفوان ، ولذلك تسمى هذه الفرقة الجهمية ، وكان يقول أن الانسان مجبور لا اختيار له ولا قدرة ، وأنه لا يستطيع أن يعمل غير ماعمل ، وأن الله قدر عليه أعمالا لا بد أن تصدر منه ، وأن الله يخلق فيه الأفعال كما يخلق فى الجماد ، فكما يَجْرى الماء ويتحرك الهواء و يسقط الحجر فكذلك تصدر الأفعال عن الانسان ، يُصدرها الله فيه وتُنسب الى الانسان مجازاً كما تنسب الى الجمادات ، فكما قال أثمرت الشجرة وجرى الماء وطلعت الشمس وأمطرت السماء وأنبتت الأرض كذلك يقال كتب محمد وقضى القاضى وأطاع فلان وعصى فلان ، كلها من نوع واحد على طريق المجاز — والثواب والعقاب جبر ، كما أن الأفعال جبر ، والله قدّر لفلان فعل كذا وقدر له أن يثاب ، وقدر على الآخر المعصية وقدر أن يعاقب

واشتهر بهذا القول جهم بن صفوان ، وهو من أهل خراسان ، من الموالى وأقام بالكوفة وكان فصيحاً خطيباً يدعو الناس فيجذبهم الى قوله ، ظهر مذهبه فى ترمذ وكان كاتباً (وزيراً) للحارث بن سُرَيج ، وقد خرج الحارث هذا على بنى أمية فى خراسان واتبعه كثير من أهلها وكان يدعو الى العمل بكتاب الله وسنة رسوله واستعمال أهل الخير والفضل ، وقد هُزم الحارث وأُسِرَ جهم بن صفوان فقتل ، ثم قتل الحارث سنة ١٢٨ هـ — ومن هذا ترى أن الجهم أيضاً قتل لأمر سياسى لا علاقة له بالدين

ولم يشتهر الجهم بمسألة الجبر فحسب بل تعرض لشىء آخر لا يقل عنه خطراً

وهو القول بنفى صفات الله ، ذلك أنه وردت فى القرآن آيات كثيرة تدل على أن لله صفات من سمع و بصر وكلام الخ . فنفى جهم أن يكون لله صفات غير ذاته ، وقال أن ما ورد فى القرآن مثل سميع و بصير ليس على ظاهره ، بل هو مؤول لأن ظاهره يدل على التشبيه بالمخلوق وهو مستحيل على الله ، فيجب تأويل ذلك ، وقال لا يصح وصف الله بصفة يوصف بها خلقه لأن ذلك يقتضى التشبيه ، وقال أن القرآن مخلوق خلقه الله ، وكان ذلك نتيجة طبيعيـة لنفيه الصفات فاذا كان الله لا يتكلم فليس القرآن كلام الله القديم الا على التأويل ، وانما خلقه الله ، وأنكر أن الله يُرى يوم القيامة وقال « إن الجنة والنار يفنيان بعد دخول أهلها فيها ، وتلذّذ أهل الجنة بنعيمها ، وتألم أهل النار بجحيمها ، اذ لا يتصور حركات لا تتناهى آخراً كما لا تتصور حركات لا تتناهى أولا »

وقد نهض كثير من العلماء لمقاومة هذه الحركة ونشطوا للرد على الجهمية نشاطاً عظيماً ، ولعل أهم ما حملهم على الرد مسألتان مسألة الجبر لأنها تدعو الى التعطيل ، وترك العمل ، والركون الى القدر ، ومسألة المغالاة فى تأويل الآيات التى تثبت لله صفات ، وفى هذا التأويل خطر على القرآن وتفهم معانيه

ذابت القدرية والجهمية فى غيرهما من المذاهب ولم يعد لهما وجود مستقل ، وظهر على أثرهما مذهب المعتزلة ، وكثيراً ما يسمى المعتزلة بالقدرية لأنهم وافقوا القدرية فى قولهم « أن للانسان قدرة توجد الفعل بانفرادها واستقلالها دون الله تعالى ، ونفوا أن تكون الأشياء بقدَر الله تعالى وقضائه — وأحياناً يلقب المعتزلة بالجهمية لا لأنهم وافقوا الجهمية فى القدر لأن الجهمية كما علمت جبرية ولكن لأن المعتزلة وافقوا الجهمية فى نفى الصفات عن الله وفى خلق القرآن ، وقولهم أن الله لا يرى ، وقد ألف البخارى والامام احمد كتابين فى الرد على الجهمية وعَنَيَا بهم المعتزلة ،

والمعتزلة يبرأون من هذين الاسمين ، فلا يرضون أن يسموا بالقدرية ويقولون كما رأيت — أن مثبت القدر أولى بالانتساب اليه من نافيه، ويتبرأ بشر بن المعتمر ، — أحد رؤساء المعتزلة — من الجهمية فى أرجوزته اذ يقول

نَنفيهمو عنا ولسنا منهمُ ولا همو منا ولا نرضاهمُ
إمامهم جهمٌ وما لجهم وصحب عمرو[1] ذى التقى والعلم

واسم المعتزلة يذهب بعضهم الى أنه أتى من « أن واصل بن عطاء كان يجلس الى الحسن البصرى ، فلما ظهر الاختلاف وقالت الخوارج بتكفير مرتكب الكبائر وقالت الجماعة بأنهم مؤمنون وفَسَقُوا بالكبائر ، خرج واصل بن عطاء عن الفريقين وقال أن الفاسق من هذه الأمة لا مؤمن ولا كافر ، منزلة بين المنزلتين ، فطرده الحسن من مجلسه ، فاعتزل عنه ، وجلس اليه عمرو بن عبيد فقيل لهما ولأتباعهما معتزلون »[2] وملخص هذا أنهم يريدون أن يقولوا أنهم سموا معتزلة لأنهم اعتزلوا مجلس الحسن ، ويذهب البغدادى فى كتابه «الفرق بين الفرق» الى أنهم سموا معتزلة لأنهم اعتزلوا قول الأمة ، ويفهم من قول المسعودى فى مروج الذهب أنهم سموا بالمعتزلة لقولهم بأن صاحب الكبيرة اعتزل عن الكافرين والمؤمنين ، فالمعتزلة هم القائلون باعتزال صاحب الكبيرة

ولنا « فرض » آخر فى تسميتهم المعتزلة ، لفتنا اليه ماقرأناه فى خطط المقريزى من أن بين الفرق اليهودية (التى كانت منتشرة فى ذلك العصر وقبله) طائفة يقال لها الفَرُوشِيم وقال أن معناها المعتزلة[3] « ومن مذهبهم القول بما فى التوراة على

---

(١) يريد عمرو بن عبيد أحد رؤساء المعتزلة

(٢) ابن خلكان نقلا عن السمعانى (٣) خطط المقريزى جزء ٢ ص ٤٧٦ طبعة أميرية

معنى مافسره الحكماء من أسلافهم » اه وقد أكدت هذا المعنى المعاجم اللغوية الحديثة فقد ذكرت «أن معنى اللفظ الفروشيم Phariseesهو Separated»وهو ينطبق على المعنى الذى تؤديه كلة معتزلة «وذكر بعضهم عن هذه الفرقة أنها كانت تتكلم فى القدر وتقول ليس كل الأفعال خلقها الله»[1] فلا يبعد أن يكون هذا اللفظ قد أطلقه على المعتزلة قوم ممن أسلم من اليهود لما رأوه بين الفرقتين من الشبه فى القول بالقدر ونحو ذلك . وربما يؤيد هذا ما جاء فى موضع آخر من المقريزى اذ قال « قال ابن منبه اعتزل عمرو بن عبيد وأصحاب له الحسن فسموا المعتزلة » ، فهل ابن منبه الذى يعنيه المقريزى هو وهب بن منبه ؟ ان كان كذلك وكان هو وقومه هم الذين سموهم كان فى ذلك تأييد لما نقول ، فان وهب بن منبه — كما نعلم — ممن أسلم من يهود صنعاء

على كل حال لم يكن كثير من المعتزلة يرضى عن هذه التسمية ، وانما كانوا يسمون أنفسهم أهل العدل والتوحيد ، أما التوحيد فلأنهم نفوا صفات الله وعدوا القول بها تعديداً لله ، وأما العدل فلأنهم نزهوا الله عما يقوله خصومهم من أنه قدَّر على الناس المعاصى ثم عذبهم عليها ، وقالوا أن الانسان حر فيما يفعل ، ومن أجل هذا عُذِّب على ما يفعل ، وهذا عدل

اشتهر من أوائل الداعين الى الاعتزال واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد[2] فأما

---

(١) انظر دايرة المعارف البريطانية فى مادة Pharisees

(٢) لاحمد بن يحيى المرتضى كتاب اسمه المنية والأمل فى شرح كتاب الملل والنحل طبع منه جزء فى طبقات المعتزلة ، وهو يذهب الى أن مذهب الاعتزال يرجع الى الصدر الاول للاسلام فقد عد من الطبقة الاولى للمعتزلة الخلفاء الاربعة وعبد الله بن عباس وعبد الله بن مسعود وغيرهم ، ومن الطبقة الثانية الحسن والحسين ومحمد بن الحنفية وسعيد بن المسيب وغيرهم ، ومن الطبقة الثالثة الحسن بن الحسن وعبد الله بن الحسن وأبا هاشم عبد الله محمد بن الحنفية ، وهو الذى أخذ عنه واصل ، ومن الطبقة الرابعة غيلان الدمشقى وواصل بن عطاء الخ والذى يظهر من كلامه أنه يريد أن يعد معتزلياً كل من ذكر له من الصحابة والتابعين قول يدل على أن الانسان حر الارادة ،

واصل فكان من الموالى ، ولد فى المدينة سنة ٨٠ هـ ثم انتقل الى البصرة ، وسمع من الحسن البصرى وغيره وتوفى سنة ١٣١ وكان خطيباً بليغاً مقتدراً على الكلام سهل الألفاظ يقول فيه بعضهم

عَلِيمٌ بإبدال الحروف وقَامِعٌ لكل خطيبٍ يبلغ الحقَّ باطلُهْ

وقد الف كتباً كثيرة لم يصلنا منها شىء

وأما عمرو بن عبيد فمولى كذلك ، تتلمذ للحسن البصرى واعتنق رأى واصل ابن عطاء فى الاعتزال ، وألف كتباً كثيرة لم تصلنا واشتهر بالزهد والورع ، وفيه يقول ابو جعفر المنصور

كُلُّكُمْ يَطْلُب صَيْدْ غَيْرَ عَمْرِو بْنِ عُبَيْدْ

وتوفى سنة ١٤٥ هـ فى رجوعه من الحج

وكلاهما (واصل وعمرو) عرف بالتقوى والصلاح ، ويعدان بحق مؤسسى مذهب الاعتزال

وتتلخص تعاليم المعتزلة فى الأصول الآتية

(١) القول بالمنزلة بين المنزلتين أى أن مرتكب الكبيرة ليس بكافر ولا مؤمن ، لكنه فاسق ، والفاسق يستحق النار بفسقه

وقد دعا الى اثارة هذا القول أن الحروب السياسية من مقتل عثمان ووقعة الجمل ووقعة صفين جعلت الناس يتساءلون مَن المحق ومن المخطىء ، ثم انتقلوا من ذلك الى القول بأن المخطىء كافر أو مؤمن ، فكانت الخوارج تقول بكفر مرتكبى الذنوب

أو يدل على أنه يرى الحسن والقبح العقليين ، لانه استدل مثلا على أن أبا بكر وابن مسعود يريان مذهب الاعتزال بأنهما قالا فى المرأة المفوضة فى مهرها برأيهما ، أى أنهما يقولان بالحسن والقبح العقليين ولذلك حكما بالرأى ، واستدل على أن ابن عباس منهم بانه ناظر القائلين بالجبر من الشاميين وألزمهم الحجة ، وليس يريد أن مذهب الاعتزال بهذا الاسم وبصفته مذهباً كان من عهد أبى بكر

والمرجئة يقولون بأنه مؤمن ، وقال الحسن البصرى أنه منافق ، فقال واصل أنه فاسق وله منزلة بين الكفر والايمان ؛ وقال أنه يخلد فى النار

(٢) القول بالقدر وأن الله لا يخلق أفعال الناس ، وانما هم الذين يخلقون أعمالهم ، وأنهم من أجل ذلك يثابون أو يعاقبون ، ولهذا وحده يستحق أن يوصف الله بالعدل ، ولعل الذى حملهم على هذا القول ما رأوا من تغالى جهم بن صفوان وأصحابه فى سلب الانسان قدرته وجعله كالجماد تجرى الأعمال على يديه كما تجرى على الحجر ، وقد روى أن واصل بن عطاء أرسل بعض أصحابه الى خراسان لمباحثة جهم ومجادلته

(٣) القول بالتوحيد فنفوا أن يكون لله تعالى صفات أزلية من علم وقدرة وحياة وسمع و بصر غير ذاته ، بل الله عالم وقادر وحى وسميع و بصير بذاته ، وليست هناك صفات زائدة على ذاته ، والقول بوجود صفات قديمة قول بالتعدد ، والله واحد لاشريك له من أى جهة كان ، ولا كثرة فى ذاته البتة ، وتأولوا الآيات التى تثبت هذه الصفات والتى يفهم منها أن له صفات كصفات المخلوقين — وربما كان قد دعاهم الى هذا القول ماشاع فى عصرهم من ذهاب قوم الى تجسيد الله تعالى واثبات صفات له كصفات المخلوقين ، كمقاتل بن سليمان الذى عاصر واصلا

(٤) قولهم بسلطة العقل وقدرته على معرفة الحسن والقبيح ، ولو لم يرد بهما شرع ، وللشىء صفة فيه جعلته حسناً أو قبيحاً . فالصدق فيه صفة ذاتية جعلته حسناً والكذب فيه صفة ذاتية جعلته قبيحاً ، ولذلك يشترك العقلاء فى حسن الاحسان الى الفقير وانقاذ الغريق ، ويستقبحون كفران الجميل وايلام البرىء ، ولو لم يصلهم فى ذلك شرع ، بل ولو كانوا ملحدين ، والشرع لم يجعل الشىء حسناً بأمره به ، ولا القبيح قبيحاً بنهيه عنه ، بل الشرع انما أمر بالشىء لحسنه ، ونهى عن الآخر

لقبحه ، ولا يستطيع الشرع أن يعكس ، لأن أمره ونهيه تابعان لما فى الشىء ذاته من حسن وقبح

وربما دعاهم الى وضع هذا المبدأ ما رأوا من تغالى قوم وجمودهم على ماورد من حديث ولو موضوع ، ووقوفهم عند النص ، فاذا لم يجدوا نصا لم يجرءوا على ابداء رأى ، وقد رأيت هذه النزعة عند كلامنا على مدرسة الحديث ، فأحس المعتزلة بالخطر الذى يصيب الناس من شل العقل الى هذا الحد فوضعوا هذا الأساس ، ولذلك كان علماء الحديث من أشد خلق الله كرهاً للمعتزلة ، والعكس ، ولما كانت الدولة للمعتزلة فى عهد المأمون والمعتصم نكلوا بأهل الحديث تنكيلا فى فتنة خلق القرآن ، ولما دالت دولتهم نكل بهم المحدثون

كذلك تعرّض المعتزلة للامور السياسية التى سبقت عصرهم وأدلوا فيها بآرائهم ولم يجاروا الحسن البصرى فى قوله « تلك دماء طهر الله منها أسيافنا فلا نلطخ بها ألسنتنا » بل قالوا أن الصحابة أنفسهم كان يخطىء بعضهم بعضاً ويحارب بعضهم بعضاً . وقد روى عن عمرو بن عبيد فى نقد الرجال الشىء الكثير ، فقد سب أبا هريرة ، وطعن فى روايته ، وخوّن عمرو بن العاص ومعاوية بن أبى سفيان ونسبهما الى سرقة مال الفىء ، الى كثير من أمثال ذلك — وعلى الجملة قد أباحوا لأنفسهم تشريح الصحابة ونقدهم والحكم على أعمالهم وحروبهم ، وكان أكثرهم حرية فى ذلك من اعتنق الاعتزال من الشيعة [1] ونحن نذكر لك طرفا من آرائهم فى المسائل السياسية فقد اتفقوا — تقريباً — على أن بيعة أبى بكر بيعة صحيحة شرعية وأنها لم تكن عن نص من النبى صلى الله عليه وسلم وانما كانت بالاختيار ، واختلفوا

---

(١) ان أردت مثلا لذلك فاقرأ الرسالة التى نقلها ابن ابى الحديد عن ابى جعفر فى شرح نهج البلاغة جزء ٤ ص ٤٥٤ وما بعدها

فى أيهما أفضل أبو بكر أم على ، فقال قدماء البصريين كعمرو بن عبيد والنَّظَّام والجاحظ وهشام الفُوَطى أن أبا بكر أفضل من علىّ ، وقال البغداديون كبِشْر بن المُعَمَّر وأبى الحسين الخياط أن علياً أفضل ، ولهم فى ذلك حجاج طويل ، ولما وصلوا الى وقعة الجمل كان واصل بن عطاء يقول أن أحد الفريقين فاسق بقتاله لا محالة ، ولكن لم أستطع الجزم أى الفريقين هو الفاسق ، وأما عمرو بن عبيد فقال بفسق الفرقتين المتقاتلتين جميعاً — وتبرّأ المعتزلة من عمرو ومعاوية وخطئوهما وأتباعهما ؛ وهكذا حللوا كثيراً من الأعمال فى التاريخ الاسلامى وأبدوا فيها رأيهم ،واختلفوا فيما بينهم ، وأدلى كل بالحجج التى يعزز بها رأيه مما يطول ذكره

***

وقد نشأ الاعتزال كما رأيت فى البصرة . وسرعان ما انتشر فى العراق ، واعتنقه من خلفاء بنى أمية يزيد بن الوليد ومروان بن محمد ، وفى العصر العباسى تكونت للاعتزال مدرستان كبيرتان : مدرسة البصرة ومدرسة بغداد ، وكان بين معتزلى البصرة ومعتزلى بغداد جدال وخلاف فى كثير من المسائل

وكان المعتزلة أسرع الفرق للاستفادة من الفلسفة اليونانية وصبغها صبغة اسلامية ، والاستعانة بها على نظرياتهم وجدلهم ، وكان من أشهر من استخدم الفلسفة فى ذلك أبو الهذيل العلاّف والنَّظام والجاحظ ، ولسنا نستطيع هنا أن نبين النظريات اليونانية وكيف نقلها أئمة المعتزلة فموضع ذلك الكلام على الحركة العقلية فى صدر الدولة العباسية ان شاء الله

والحق أن المعتزلة هم الذين خلقوا علم الكلام فى الاسلام ، وأنهم أول من تسلح من المسلمين بسلاح خصومهم فى الدين ، ذلك أنه فى أوائل القرن الثانى للهجرة ظهر أثر من دخل فى الاسلام من اليهود والنصارى والمجوس والدهرية ،

فكثير من هؤلاء أسلموا ورءوسهم مملوءة بأديانهم القديمة ، لم يزد عليهم الا النطق بالشهادتين، فسرعان ما أثاروا فى الاسلام المسائل التى كانت تثار فى أديانهم ، وكانت هذه الأديان التى ذكرناها قد تسلحت من قبل بالفلسفة اليونانية والمنطق اليونانى ونظمت طريق بحثها ، وتعمقت فى ذلك كثيراً ، فهاجموا الاسلام وهو الدين الذى يمتاز ببساطة عقيدته فأثاروا حوله الشكوك ، وليس هؤلاء الذين أسلموا هم الذين فعلوا ذلك فقط بل كانت البلاد الاسلامية مملوءة بذوى الأديان المختلفة الذين ظلوا على دينهم ، وكان منهم كثيرون فى بلاط الدولة الأموية يشغلون مناصب خطيرة ، هؤلاء وهؤلاء أثاروا مسألة القدر على هذا النمط الفلسفى وكانت معروفة فى دينهم ، وأثاروا مسألة صفات الله وخلق القرآن ولها نظير فى النصرانية ، وأثار الزرادشتيون كثيراً من مسائلهم

كل هذا دعا المعتزلة أن يتسلحوا بسلاح عدوهم لجادلوهم جدالا علمياً وردوا هجمات القائلين بالجبر والمنكرين لله ، وما أثار اليهود والنصارى والمجوس من شكوك ، ونشطوا لهذا العمل نشاطاً بديعاً ، فواصل بن عطاء يقول عنه المرتضى « أنه كان أعلم الناس بكلام غالية الشيعة ، ومارقة الخوارج ، وكلام الزنادقة والدهرية والمرجئة وسائر المخالفين » فأخذ بعد معرفة أقوالهم يرد عليهم فى فصاحة من القول يصفها بشار بقوله فيه

وَقَالَ مُرْتَجِلاً تَغْلِى بَدَاهَتُهُ كَمِرْجَلِ الْقَيْنِ لَمَّا حُفَّ بِاللَّهَبِ

وتصفه زوجه فتقول : كان اذا جنه الليل صف قدميه يصلى ، ولوح ودواة بجانبه ، فاذا مرت به آية فيها حجة على مخالف جلس فكتبها ثم عاد الى صلاته . ولم يكتف بذلك بل بعث دعاته الى الأمصار يجادلون أصحاب التعاليم المخالفة وينشر مبادئه ، فبعث عبدالله بن الحارث الى المغرب ، وحفص بن سالم الى خراسان يناظر

جهما القائل بالجبر ، كما بعث الى اليمن والى الجزيرة والى أرمينية — وأخذ واصل يؤلف الكتب فى ذلك حتى ليذكرون أنه ألف كتاباً فيه ألف مسألة للرد على المانوية — وكذلك كان عمرو بن عبيد يجادل مخالفيه ويدعو الى الاعتزال فى مهارة، يقول واصفه كان عمرو اذا رأيته مقبلا توهمته جاء من دفن والديه ، واذا رأيته جالساً توهمته أجلس للقَوَد ، واذا رأيته متكئا توهمت أن الجنة والنار لم يخلقا الا له ، وقد أبى هو وأصحابه الأولون — على مايظهر — أن يتولوا للحكومة عملا ، وأرادو أن يكون عملهم لله خالصاً ، فابن قتيبة يحدثنا « أن عمرو بن عبيد قال لأبى جعفر المنصور أن الله أعطاك الدنيا بأسرها ، فاشتر نفسك ببعضها ، واذكر ليلةً تَمَخَّضُ عن يوم لا ليلة بعده ، فوجم أبو جعفر من قوله ، فقال له الربيع ياعمرو غَمَمْتَ أمير المؤمنين ، فقال عمرو « ان هذا صحبك عشرين سنة ، لم ير لك عليه أن ينصحك يوماً واحداً ، وما عمل وراء بابك بشيء من كتاب الله ولا سنة نبيه ، قال أبو جعفر فما أصنع ؟ قد قلت لك خاتمى فى يدك فتعال وأصحابك فاكفنى ، قال عمرو ادعنا بعدلك تَسْخُ أنفُسنا بعونك ، ببابك ألف مظلمة ، اردد منها شيئاً نعلم انك صادق»[1] ولكنهم مع هذا كانوا مكروهين من كثير من المسلمين لأسباب : أهمها أنهم خالفوا أهل الحديث فى كثير من آرائهم فحمل عليهم المحدثون حملات عنيفة ، ومنها أنهم حولوا العقيدة الاسلامية البسيطة الى عقيدة فلسفية عميقة ، ومنها أنهم فى أيام سلطتهم فى عهد المأمون والمعتصم نكلوا بالناس فى القول بخلق القرآن ولم يسيروا سيرة فلسفية فى الاكتفاء بتأييد رأيهم بالحجة ، بل حملوا الناس على القول برأيهم بالسيف ، وكان فى ذلك ذهاب دولتهم وسمعتهم ، ولعل من هذه الأسباب أنهم أنزلوا الصحابة منزلة سائر النــاس فلم يقروا لهم بعصمة ، وجرءوا عليهم يشرحون أعمالهم

---

(١) عيون الأخبار جزء ٢ ص٣٣٧

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ويحكمون بصواب بعضها وخطأ بعضها، فقد رأيت ما قال عمرو بن عبيد ، وجاء بعده النظام فنقد عمر وأبا بكر وابن مسعود فى بعض أقوالهم وأكذب حذيفة وأبا هريرة فى حديث طويل (١)

***

وقد فشا فى العصر الأموى الجدل فى هذه المذاهب التى ذكرنا من خوارج وشيعة ومرجئة ومعتزلة وغيرهم ، وملئت كتب التاريخ والأدب والملل بما كان يدور بينهم من حوار شديد ، فابن أبى الحديد يروى لنا أن الخوارج فى حرب المهلب لهم كانوا يضعون السيف من حين لآخر ثم يلتقون بخصومهم ويتجادلون ويدعون الى مذهبهم ، ويحدثنا الاغانى أن ثابت قُطْنَة استمع لقوم من الخوارج كانوا يجتمعون بقوم من المرجئة بخراسان فيتجادلون فمال الى قول المرجئة وأحبه ، وقال قصيدته التى ذكرناها فى الارجاء . ويحدثنا أيضاً أن شيعياً ومرجئاً اختصما واحتكما الى أول من يطلع عليهما فطلع « الدَّلَّال » فقالا له أيهما خير الشيعى أم المرجئ ؟ فقال لا أدرى الا أن أعلاى شيعى وأسفلى مرجىء (٢) ويحدثنا ابن نباتة أن هذا الخلاف وصل الى الشعراء فقد كان ذو الرُّمة قدريا ، وكان رؤبة جبرياً ، وأنهما اختصما فقال رُؤبة والله مافحص طائر أُفْحُوصاً ولا تقرمص سبع قُرموصاً الا بقضاء الله وقدره ، فقال ذو الرمة والله ما قدر الله على الذئب أن يأكل حَلُوبة عيايبل ضرائك (٣)

ويقول الراجز

يأيها المضمر همًّا لا تَهَمّ إنك ان تُقْدَرْ لكَ الحُمَّى تُحَمّ

---

(١) ترى هذا القول مطولا ومردودا عليه فى كتاب تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة ص ٢١ وما بعدها

(٢) يريد أن عقله وهواه مع علىّ ، وشهواته مع المرجئة لأنها لاتكفر بالذنوب

(٣) العيايبل جمع عيل وهو ذو العيال وضرائك جمع ضريك وهو الفقير

ولو علَوْتَ شاهقاً من العَلَمْ كَيْفَ تَوَقِّيكَ وَقَدْ جَفَّ الْقَلَمْ

ويروى الاغانى أنه كان بالبصرة ستة من أصحاب الكلام ، عمرو بن عبيد وواصل بن عطاء و بشار الأعمى وصالح بن عبدالقدوس وعبدالكريم بن أبى العوجاء ورجل من الأزد (هو جرير بن حازم) فكانوا يجتمعون فى منزل الأزدى ويختصمون عنده ، فأما عمرو وواصل فصارا الى الاعتزال، وأما عبدالكريم وصالح فصححا التوبة، وأما بشار فبقى متحيراً مخلطاً ، وأما الأزدى فمال الى قول السُّمَنِيَّة (وهو مذهب من مذاهب الهند) قال وكان عبد الكريم يفسد الاحداث بدعوتهم الى دينه ، وما زال عمرو بن عبيد به حتى أخرجه من البصرة ثم دل عليه من قتله، وروى الامام احمد أن الجهم لقى بعض السمنية فقال له السُّمَنى ألست تزعم أن لك إلها ؟ قال الجهم نعم، قال فهل رأيت إلهك ؟ قال لا ،قال فهل سمعت كلامه ؟ قال لا ، قال فشممت له رائحة ؟ قال لا، قال فما يدريك أنه إله ، قال له الجهم ألست تزعم إن فيك روحا قال نعم قال فهل رأيت روحك ؟ قال لا، قال فسمعت كلامه ؟ قال لا، قال فوجدت له حسا ، قال لا ، قال فكذلك الله

كل هذا يدلنا على أن حركة الجدال فى المذاهب الدينية والآراء السياسية المصبوغة بالصبغة الدينية كانت فى هذا العصر حركة عظيمة ، وقد كان لها أثر كبير فى العلم وفى السياسة وفى الأدب ، وقد صدرت هذه الفرق عن عقليات مختلفة من فرس وروم وسريان وعرب وغيرهم ، وكانت هذه العقليات تؤمن بأديان مختلفة من يهودية ونصرانية ومجوسية ووثنية وغيرها ، ولو ظلت الأمة الاسلامية أمة عربية فقط لرأينا فيها أمثال الخوارج وأمثال المرجئة، ولكن ما كنا نرى فيها مذاهب الشيعة الغالية وتعاليمهم الغريبة وما كنا نرى المعتزلة وأبحاثهم الفلسفية ومذاهبهم العميقة

* * *



مصادر هذا الباب

الملل والنحل للشهرستاني
الفصل في الملل والنحل لابن حزم
شرح ابن أبي الحديد على نهج البلاغة
الفرق بين الفرق للبغدادي
أصول الدين للبغدادي . (طبع حديثا في الاستانة)
مقالات الاسلاميين لأبي الحسن الأشعري . (طبع الآن في الاستانة ومنه نسخة خطية في مكتبة أيا صوفيا)
المواقف وشرحه
خطط المقريزي
مقدمة ابن خلدون
الرسالة الاثنا عشرية
شرح البخاري للقسطلاني والنووي على مسلم
تاريخ الجهمية والمعتزلة للقاسمي
ابن خلكان
رسائل مفرقة لابن تيمية
الكامل للمبرد في أخبار الخوارج
الأغاني في مواضع متفرقة
البيان والتبيين للجاحظ
دائرة المعارف الاسلامية في مادة خوارج وشيعة وقدرية وغيرها

Macdonald, Muslim Theology
Browne, A Literary History of persia
Goldziher, Le Dogme et Le Loi de L'Islam

طبقات ابن سعد
الأحكام السلطانية للماوردي
تاريخ الطبري في الحوادث من سنة ٩٩ الى ١٣٢
تيسير الوصول الى جامع الأصول من أحاديث الرسول
سرح العيون شرح رسالة ابن زيدون
تفسير الفخر الرازي في عدة مواضع
المستصفى للغزالي
العقد الفريد لابن عبد ربه
طبقات المعتزلة المرتضى . (طبع بالهند)